الجواهر الروحية

تأليف

حسن القبانجي النجفي

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الآداب
النجف الاشرف - تلفون - ٨٩٨

١٣٨١هـ - ١٩٦١م

رب أوزعنى أن أشكر
نعمتك التى أنعمت على



صحيفة بيضاء

تفضل بها سماحة الحجة السيد
محمد صادق بحر العلوم دام حفظه :

أخي الأستاذ الفاضل الخطيب السيد حسن القبانجي دام تأييده

تسلمت بمزيد التجلة والاحترام هديتك الثمينة (الجزء الثاني) من كتابك (الجواهر الروحية) ، وها هو بين يدي أتصفح فصوله بدقة فصلا فصلا وباباً باباً فيزداد إكباري له ، وليس ذلك بكثير منك وأنت من أعرفه فضلا وأدباً جماً ، وأنت من أعرفه جاهداً ليل نهار (بمكتبتك العامرة) في التأليف وتقييد كل شاردة وواردة ، ولقد بذلت في سبيل تأليف الكتاب جهوداً جبارة وأوقاتاً طويلة حتى جاء كما يرام . غاية المراد ، ونجعة المرتاد ، وخير سبيل إلى الإرشاد ، حقائق ناصعة ، لآلىء منضدة ، (جواهر روحية) دراري منسقة . وأعتقد - أيها الأخ - أني غير مغال أو مجازف شأن كثير من المقرظين في هذا العصر الذي أصبحت المقاييس فيه مفقودة ، والحقائق منكرة .

أخي (الحسن) لا أكيل لك المدح جزافا ، وأطري كتابك بدافع الأخوة والصداقة كما يفعل الكثيرون في عصرنا هذا ، فان الصداقة شيء والصراحة شيء آخر ، والمجاملة شيء وبيان الحقيقة شيء آخر ، والرائد لا يكذب أهله ، إن صديقك (الصادق) وأخاك الحميم من لا يخاتل ولا يجامل

(وقليل ما هم) فى هذا العصر الذى ملؤه المخاتلات والمجاملات ، وقدأصبحت (ياللأسف) الحقيقة مقبورة ، والواقع مهجوراً ، والصدق منكراً ، والكذب معروفا ، والصراحة لا عين لها ولا أثر ، فانا لله وإنا اليه راجعون .

لا . لا . أيها الأخ الحميم لاأريد هذا ولا ذاك ، أريد ـ كما ترغب أنت ـ أن أكون (الصادق) فى إطرائى وتقريظى قدر جهدى كما يفعله الصادقون ، فلا أكيل لك سوى الحقيقة ، ولا أقرظ كتابك إلا بما يحويه من الواقع ، وليس الواقع فيه إلا (الجواهر الروحية) فلست ـ وأيم الحق ـ بمغال أو مجازف اذا قلت إنه قد فاق كثيراً من المؤلفات الروحية التى اطلعت عليها من بعض المؤلفين ، وكم نجد (يا للأسف) فى هذا العصر من المؤلفات ما لا ثمن إلا لورقها الناصع ، وحبرها البراق ، وأغلفتها المزوقة لا روح لها ، لاتسمن ولا تغنى من جوع ، فهى كالشجر بلا ثمر ، والسحاب بلا مطر ، بل (كسراب بقيعة) ولعمرى إن مثل هذه المؤلفات ضررها على المجتمع الإسلامى لايحتاج الى تدليل وبرهان لمن أنصف ، وعدمها خير من وجودها ، إذ ليست الغاية من التأليف تزويق الألفاظ ، وتنميق الكلمات ، وتنسيق العبارات ، وإنما الغاية من التأليف ما يصلح المجتمع وينشله من هوة الجهل الى مرتقى الكمال . هذه هى الضالة المنشودة لطلاب الحقيقة ورواد الإصلاح . هذا هو رأيى أصبت أم أخطأت ، والعصمة لله وحده .

وختاماً . ثق (أيها الأخ) إنى لم أكتب ـ بهذه العجالة ـ هذه الكلمات إلا بدافع بيان الحقيقة والإصحار بالواقع لابدافع الأخوة والصداقة (كما قلت)

فأهنئك بهذا السفر الجليل والمؤلف الثمين ، وحقيق برواد الفضيلة تقدير هذه الجهود منك ، وإنصافك غاية النصف ، ولكن (أين المنصفون) يا ترى ؟

أرجو لك (أيها الأخ) دوام التوفيق لإصدار بقية أجزاء الكتاب بأقرب وقت ، راجياً من الله سبحانه أن يساعدك لنشرها كى ينتفع بها العالم الإسلامى ، واقبل أيها الأخ (الحسن) من أخيك (الصادق) هذا النزر من التقريظ ـ وإن لم تطلبه مني ـ ولكنه الواجب ، ولا أبغى من وراء ذلك الشكر لى ، فانه (لا شكر على الواجب) كما يقولون .

والله يوفقك لمراضيه ويجعل مستقبل أمرك خيراً من ماضيه ، وهو ولى التوفيق ؟

أخوك المخلص

١٧ ربيع الأول ١٣٧٧هـ — محمد صادق بحر العلوم

الكلمة الاولى

هذه نقول توجه المسلم إلى الفضائل التى يتم بها دينه ، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعاً . درسناها فى مراحل ثقافتنا ، وأعجبنا بما فيها من فكر عميق ، وتلمس للحقيقة ، واستشراق للمثل العليا .

ولسنا نغمط فضل أحد نشد الخير للناس واجتهد فى إنارة السبل أمامهم .

بيد أننا نلفت أنظار المنصفين إلى أساليب التربية الناجحة ، والأخلاق الرائعة التى جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة ، ونقل بها العالم من الغى إلى الرشاد .

وسوف يرون أن فى الإسلام كنوزاً حافلة بالنفائس ، دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان .

قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس « لأرسطو » ؟ فقال : بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. !!

لقد قرأنا أدب النفس لأرسطو ولأمثاله من الفلاسفة ، وقرأنا أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ . فوجدنا ما تخيله الاولون ، واصطنعوا له - بعد العناء - صوراً بعضها كامل وبعضها منقوص .

وجدناه قد تحول إلى حقائق حية تجسد فيها الكمال ، وأضحى سيرة رجل ، وأدب أمة ، وشعائر دين ضخم .

ذلكم هو أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ

نحمد الله إذ وفقتنا الأقدار الميمونة لدراسة بعض معالمه ، وإتاحة عرضها فى إطار جديد .

وهذا الكتاب يعتبر الحلقة الثالثة من كتابنا ـ الجواهر الروحية ـ وبه يتم الكتاب ولم نبذل جهداً يذكر فيه أكثر من أننا استفدنا كتابة الخير ، ويسرناه للمطالعين .

حكم هذه رفعت بها صوتى لتدوى فى الخافقين دويا

ولتعنى بالرشد توليه بسطاً ولتطوى نشر الغواية طيا

وسيبقى هذا الكتاب بقاء الد هر يصبوا اليه من كان حيا

جال فى كل ماالعباد عليه جولة ألبسته علماً جليا

وعلى مارأى أبان فبان الر شد رشداً والغى جلاه غيا

كم جلا غامضاً وأدناه حتى صار سهلا وكان صعباً عصيا

ببيان يحلو لديك إذا كنـ ت لحكم الإنصاف تعنو رضيا

وتحرٍّ فى كل بحث ترى منه أميناً فهامة عبقريا

وحنين الى الدليل صريح ليفيد المعلوم غضاً فتيا

وهجوم على تمرد هذا العصر تهوى له الجبال هويا

وبلطف ياما أحيلاه لطفاً بنجيب يراه براً تقيا

ذاك ظنى به وأحمد ربى ملء هذا الوجود حمداً زكيا

فى بدء الطريق

نعجب أشد العجب إذ نقرأ لبعض أعداء الاسلام اليوم ، ولبعض أعدائه بالأمس القريب والبعيد ، تهجماً عليه واتهاماً له ، بأنه دين التعصب الماحق للحرية ، والإكراه القاضى على الاختيار ، والجمود المانع من التطور . هكذا افترى على الاسلام وعلى أتباعه شرذمة من أعدائه ، ومازال لهذه الشرذمة أبواق يرددون ماسبقوا به . ويزيدون عليه أباطيل من عندهم ، طابعها الإفتراء والإدعاء والتجاهل والتجنى . وبعضها يستجلب الضحك مما يحمل من جهل وسفسطة وهذيان .

وأغلب الظن أننا كنا نتلمس بعض العذر لهؤلاء المتهجمين ، لو أنهم عفوا فى تفكيرهم وفى تعبيرهم ، واقتصروا على التنديد بحال المسلمين وضعفهم فى الأمس القريب ، ولم يتجاوزوا الى الاسلام نفسه ، من حيث هو عقيدة وتشريع وعبادة وسياسة ومعاملة ، لكنهم خلطوا خلطاً قبيحاً بين الاسلام وأتباعه ، وزعموا أن ضعف المسلمين نتيجة لدينهم ، متغافلين عما كان للمسلمين من قوة ومجد وحضارة وسلطان ، أيام إستمساكهم بدينهم واعتزازهم بتعاليمه ، ومتجاهلين أن مانزل بالمسلمين من كوارث الضعف والإستسلام والتخلف والإنقسام ، إنما كان عاقبة وجزاء وفاقاً لانحرافهم عن الصراط السوى الذى شرعه الله لهم ، فتقاسم أعداؤهم ديارهم وخدروهم تخديراً ، ليستخرجوا أوطانهم

باسم الاستعمار ، وباسم الاحتلال ، وباسم الوصاية ، وباسم الانتداب .

بل لقد كان المستعمرون على يقين من أن قوة المسلمين وعزتهم دينهم ، فجعلوا يحملون معاولهم فى حنق وقوة ، ويهجمون بها على حصون الاسلام ليقوضوها ، فيزلزلوا ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم ، لكن طال عليهم الأمد ، وأرهقهم الكد والجهد ، ولم يبلغوا مما أرادوا ، إلا أن تثلمت معاولهم ، وكلت سواعدهم ، وأصم دوى الصخور الصليدة آذانهم ، وبقى الإسلام كما كان أشم الحصون ، أرسخ من الطود ، متعالياً فى عزة ، متأبياً على القوى المجتمعة أن تنال منه ، إلا ماينال الوعل يظل ينطح الصخرة حتى يهى قرنه ، ويدمى رأسه ، فيرتد كسير القرن ، حسير النفس ، طليح الجسد .

ومامن شك فى أن الإسلام يقتضينا أن نرد عنه كيد الكائدين ، لا بالسباب والأباطيل كما صنع أعداؤه ، بل بالدرس والاحتكام إلى البحث العلمى ، والتدليل المبين .

ولاشك أن الاسلام يقتضينا أيضاً أن نكشف عن بعض مزاياه ، ليستبين للجاهلين من أتباعه بعض مافى دينهم من سمو ، وحكمة ، وسماحة ، وصلاحية للتطبيق ، ومرونة فى مسايرة الزمن ، فيشد حرصهم على دينهم ، ويعظم اعتزازهم بتشريعه ، يتسلحون بسلاح بتار يقضون به على مايوجه الى دينهم من أكاذيب وأباطيل .

أما هذا الكتاب فهو على غرار أخويه -الأول - والثانى - استعرضت به عدة جوانب من الإسلام تخيرها أعداؤه للنقص من قدره والتهجم عليه . وراعيت فيه التجرد من الهوى ما استطعت ، وان أحتكم إلى النصوص القرآنية والنبوة ، وإلى التطبيق الأولى للشريعة ، ليتجلى الحكم الإسلامى الصحيح ، غير مشوب بالزام السياسة وأهواء الحاكمين .

وكان لزاماً على أن أستعرض موازنات شتى بين الاسلام وماسبقه من أديان سماوية وغير سماوية ، وموازنات بين الاسلام وماسبقه من مذاهب وآراء ليتجلى تساميه وتعاليه ، وإعجازه للبشر أن يلحقوا بخطاه .

وبذلك يظهر أن الاسلام دين يجمع ولا يفرق ، ويوحّد ولا يشتت ، ويقوى ولا يضعف ، ويتسامح ولا يتعصب ، ويتسامى ولا يهبط ، ويجارى الأعصار والأحداث ولا يتخلف ويجمد .

هكذا كان الإسلام ، وهكذا يكون الاسلام .

وبهذا استحق أن يكون خاتم الأديان ، وخير دين أنزله الله للناس ، ليصنع منهم خير أمة أخرجت للناس .

حديث الراهب

ومولد النبي ﷺ

يتحدث الراهب الى رفاقه : بأن كانت لى تجارة الهند وهذه البلاد التى يسكنها البدو ، والتى تسير منها القوافل فتخترق الصحراء على ظهور الإبل والتى يسمونها بلاد العرب ، وكانت التجارة واسعة تضطرنى الى علم دقيق بأمور الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وبأمور الأقاليم والأقطار ، وما تستطيع أن تعطى وماتستطيع أن تأخذ . وكان هذا العلم يدفعنى الى نشاط شديد عند رجال المال والزراع ، والى اتصال شديد برجال الدين والسياسة والحكم .

فركبت البحر مرة متوخياً بلاد اليمن فقضيت البحر أياماً طوالا تطيب لى الريح أحياناً ، وتتنكر لى فيها أحياناً أخرى . وأنا على كل حال مبتهج مستبشر استمتع بما أرى من جمال الطبيعة فى هذا البحر الذى يألفه اليونان ، ولم يذلوه لسفنهم بعد .

وماهى إلا أيام حتى خلصت الطريق لنا الى صنعاء فدخلتها ولم ألق كيداً ، وإذا بها رفيعة العماد ، شاهقة البنيان . معمورة بالناس ، كأن الدهر لم ينلها بمكروه ، ومهما يكن من شيء فقد أخذت أحس حباً لهـــذه الأرض الجديدة ، وميلا الى البقاء فيها ، فأقمت فيها على خير مايقام . وصادفت ظروف الحياة أن دفعتنى دفعاً إلى أبرهة ـ ملك صنعاء ـ وإذا بى أسمعه يتحدث الى رفاقه : على أننا فرغنا قبل كل شيء لأمور اليمن ، فجددنا من عماراتها المتداعية

وأقمنا سدودها المتهدمة . ونظمنا مجارى الماء فيها تنظيماً حسناً ، واجتهدنا فى نشر الدين ماوسعنا ذلك ، لانشق على الناس ولكن نأخذهم باللين والرفق ، وأقمنا كنيسة فى صنعاء لم يعرف أهل هذه البلاد مثلها ضخامة وفخامة ، وجلالا وجمالا وزخرفا : جلبنا لها المرمر من أطراف الأرض ، ودعونا لها العمال من قسطنطينية ، وحليناها بالذهب والفضة والجوهر ، وحرقنا فيها من الطيب والبخور ما كان ينتشر عرفه الى أماكن بعيدة حول صنعاء ، ورتبنا لها القسس والأحبار ، ورغبنا الناس فى أن يختلفوا اليها ويصلوا فيها . وقدرنا أن نقيم أمثالها فى أماكن مختلفة من هذه البلاد . ولكن العرب أهل وثنية ولجاج فى الوثنية . كانوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف ، ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له وكان الذين يختلفون الى كنيستنا قليلين مهما يكثروا ، وكانوا جميعاً من ضعفاء الناس وفقرائهم وأصحاب الحاجة منهم . على أننا لم نستيئس وأخذنا نهيء أمورنا ونرغب الوفود فى طاعتنا ، حتى لقد دعا أبرهة اليه عظيماً من عظماء العرب فى هذا الإقليم الذى يسمونه تهامة ، فأكرم مثواه وأعظم أمره ، وتوجه ملكا على قومه ، ورده عزيزاً مكرماً .

وفى ذات يوم رفع الى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق ، وخرج لهما عما قد ألف من الحلم والأناة . أصبح سدنة الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم : رأوا كنيستهم قد لطخت بالقاذورات ، وألقيت فيها الجيف ، وانتهكت حرمتها ، فثاروا بذلك ورفعوه الى أبرهة ، وزعموا له ان هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامه ، حيث يقوم لهم بيت هناك يقدسونه ويحجون اليه يسمونه الكعبة ، والعرب كلها تحج اليه وتعظم أمره ، وتعظم الذين يعيشون حوله من هذا الحي الذى يسمى

قريشاً ، والذى يتجر بين بلادنا و بلاد الشام .

فلما سمع الملك ذلك غضب أشد الغضب ، وأقسم ليهدمن هذا البيت وليحملن العرب على أن يحجوا الى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذى أرسله إليهم ملكا فطار طائره ، وثار ثائره ، وأذن من فوره بالتجهز للحرب والإستعداد للرحيل ، وأرسل إلى النجاشي ينبئه بذلك ، ويسأله أن يمده بالجنود والفيلة ، وماهى إلا أيام حتى تهيأ له جيش ضخم قوى ، وحتى فصلنا عن صنعاء يملؤنا الأمل وتزدهينا الكبرياء ،وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سنقطع هذه الطريق على طولها فى غير مشقة ولا جهد ، وبأننا سنصل بين الشام واليمن . وكان جيشنا يعظم ويضخم كلما تقدمنا فى الطريق بمن كان ينضم الينا من أذواء اليمن وأقيالها . ولكن طريقنا لم تخل مع ذلك من العقاب ، ولم تكن أمناً كلها ، فقد نصب لنا الحرب جماعة من أقيال اليمن على رأسهم رجل يقال له ـ ذو نفر ـ ، غيرة على وثنيتهم ، وحفيظة لبيتهم ذلك ، ودفاعا عن حلفائهم من قريش ، ولكننا هزمناهم فى غير مشقة ، وأخذنا رئيسهم أسيراً . وهم الملك ان يقتله ، ثم رق له وعفا عنه ، واستبقاه فى اسره . ومضينا أمامنا لا نلقى كيداً حتى كدنا نبلغ تهامة اليمن ، وإذا حى من أحيائها قوى عظيم البأس مسلط على الأرض ، متحكم فى الطريق وفى القوافل التى تقطعها ، يقال له ـ خثعم ـ ، قد جمع لحربنا ، وغره عدده فخيل اليه أنه سيقهرنا كما تعود أن يقهر الناس من قبل . ولكننا قهرناه فى أقصر وقت وأيسر جهد . وأخذنا رئيسه رجلا يقال له ـ نفيل بن حبيب ـ أسيراً وهم الملك أن يقتله ولكنه استعطف وغلا فى الاستعطاف حتى ظفر بعفو الملك ، وتقدم مع الأدلاء ليسلكوا بنا طريق هذا البيت الذى كنا نقصد إليه ،

ونمضى فى طريقنا لا نلقى كيداً ، وقد هابتنا العرب وخلت لنا الطريق ، وأعظمت أمرنا إعظاماً . حتى إذا دنونا من مكة ، وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف ، تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، ومن حولها النخيل والكروم والحدائق فيها أنواع الفاكهة والثمر ، كأنها مدينة من مدن الساحل الشامى قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجدبة فأقامت فيها مشرقة زاهية كأنها الابتسامة الجميلة فى الوجه المظلم الكئيب ، خرج الينا هنالك أهل هذه المدينة فقدموا الطاعة واظهروا الخضوع ، وبعثوا معنا رجلا منهم يسلك بنا الى مكة أقرب طريق . ونمضى أمامنا حتى نبلغ مكة ، فينيخ الجيش ليستريح قبل أن يأخذ فى الهجوم . ويأتى سفراء القبائل إلى الملك فى كل مكان يقدمون اليه طاعتهم ويعرضون عليه ثلث أموالهم ، ويطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسه بسوء ، فلا يسمع الملك منهم ولا يحفل بهم . ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ماحول مكة من الأرض وتستاق كل ماتجد فيه من مال . حتى إذا كان الغد أرسل الملك جماعة من أصحابه إلى مكة وكلفهم أن يسألوا عن سيدها وعظيمها ، فاذا لقوه أنبأوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم ، وانما يريد أن يهدم هذا البيت ، فان خلوا بينه وبين البيت فهم آمنون ، وإلا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقاً . وأمر الملك سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم . ويمضى السفراء ثم يعودون ومعهم رجل عظيم ، وسيم جسيم ، لم أر قط أجمل منه ، ولا أملأ للعين ، ولا أوقع فى القلب ، وأشد مهابة وجلالا . حتى إذا بلغوا سرادق الملك دخلوا يستأذنون له ويسأل الملك عنه فيقال له : هذا عبد المطلب سيد قريش وصاحب عيرها ، أعظمها شرفا ، وأعلاها مكانة ، واكرمها نفساً . وأسخاها يداً ، يطعم الناس فى السهل ، ويطعم الوحوش فى رؤوس الجبال . وكنت عند الملك حين أدخل عليه هذا الرجل ، ورأيت الملك ينظر اليه فيكبره

ويعظمه ، ويلقاه بالتجلة والكرامة ، ويهم أن يجلسه معه على السرير ، ولكنه يشفق أن تنكر الحبشة ذلك ، فينزل عن سريره ويجلس مع هذا الرجل على البساط . ثم يكلف الترجمان أن يسأله حاجته . فما أشد ماعجب الملك حين فسر الترجمان له جواب سيد قريش . قال : حاجتى أن ترد الىّ مائتين من الإبل أخذتها طلائعك فيما أخذت أمس من المال . قال الملك مستهزءاً : لقد أعظمتك حين رأيتك ، فانى لأصغر من شأنك الآن . لقد كنت أظن أنك ستحدثنى فى بيتك هذا الذى أريد أن أهدمه ، والذى هو دينك ودين آبائك ، وشرفك وشرف آبائك ، فاذا أنت تحدثنى فى مائتين من الإبل ، قال سيد قريش فى صوت الهادىء الواثق المطمئن : أنا رب الإبل فلأحدثك فيها ، فأما البيت فان له رباً سيمنعه . قال الملك : لن يمنعه منى . قال سيد قريش : فأنت وذاك . وأمر الملك أن ترد الى الشيخ إبله فردت اليه .

ولكنى تبعته لأرى مايكون من شأنه ، فاذا هو لايقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هديا الى هذا البيت ، الذى لم يرد أن يتحدث إلى الملك فيه . ويمضى هذا الشيخ الى قومه من قريش ، فيأمرهم أن يتفرقوا فى الشعاب وعلى رؤوس الجبال هربا من الملك وإشفاقا من معرة الجيش ، ويقوم أمام بيته هذا الذى يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه ، ومن حوله نفر من قومه ويقول كلاما حسن الانسجام ، شديد الوقع فى النفس ، سمعته فأحببته ولكنى لم أفهمه ، على أنى كنت قد أخذت أحسن هذه اللغة . ثم يرسل حلقة الباب ويمضى مع من كان يصحبه من قومه فيحتصن فى شعب من الشعاب . وأنظر أنا إلى هذه المدينة فاذا هى قد خلت من أهلها ، وقامت بيوتها هادئة ساكنة يظلها حزن عميق فيه هيبة وجلال . قامت يظلها هذا الحزن ، ولكنى لم أكن أرى

فى هذا الحزن خوفا ولا إشفاقاً من معاول الهادمين . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهمّ الجيش أن يتحرك وفى مقدمته فيل عظيم ، ولكنى أرى دليلنا ـ نفيل بن حبيب الخثعمى ـ يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويسر فيها كلاما ، ثم يرسلها ويشتد هاربا فى الجبل .

وتثير حركة هذا الرجل فى نفسى شيئاً من العجب ، فما علمت انه يعرف منطق الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب . عجبت ، وليت عجبى لم يتجاوز هذه القصة ، ولكنى رأيت بعد ذلك مايقضى على كل عجب : رأيت بعد ذلك أشياء ماقدرت قط أننى سأرى بعضها . رأيت بعد ذلك أشياء وددت لو لم أرها قط .

وانى على ذلك لسعيد أشد السعادة ، مغتبط أشد الغبطة لأنى رأيتها فهي التى هدتنى الى الحق ، وهى التى كشفت عن نفسي الغطاء . رأيت الفيل قد برك ، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد . ويجد ساسته بعد ذلك فى إنهاضه فلا يبلغون منه شيئاً يحثونه ويؤذونه ويضربونه . ويبلغون به أقصى مايهيج الفيل فلا ينهض ولا يهم بالنهوض . حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض ومضى مهرولا . فاذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم أمامه إصبعاً . ونحن ننظر الى هذا وقد ملأنا العجب ، وأخذ الدهش فى نفوسنا كل مأخذ ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا ، وبدأ الذعر يطلق بعض الألسنة بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت . وإنا لفى ذلك ننظر الى الساسة وهم يعالجون الفيل ، وإذا الجو يظلم شيئاً فشيئاً ، وإذا سحاب كثيف يبدو لنا من بعيد ، قد أقبل الينا مسرعا من ناحية البحر ، فلا نكاد نطيل النظر اليه حتى نتبين ، وياهول ماتتبين : لسنا نرى سحابا كالسحاب

ولا غماما كالغمام ، وإنما نرى سحابا حياً يخفق باجنحته خفقاً ، ويبعث منظره فى نفوسنا روعا يخرجنا عن أطوارنا وينتهى بنا الى شيء يشبه الذهول .

إنى لأرى الآن السحاب حين كان يقبل علينا أسرابا من طير صغار لها مناقير الطير وأكف الكلاب ، حتى إذا دنت منا أخذت تحصب الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها فى مناقيرها وأرجلها . ولم تكن هذه الحجارة تبلغ دقة العدسة ولا عظم الحمصة ، وإنما كانت شيئاً بين بين ، وكانت على دقتها لا تمس شيئاً إلا هشمته تهشيما ، ولا تمس رجلا إلا ألقته صريعاً . وسلوا ماشئتم عن خوف الخائفين وذعر المذعورين ، وانصراف أصحاب الفيل عن الفيل ، وتحول الجيش عن مكة الى غيرها من الوجوه جاداً فى الهرب ، وهذه الأسراب من الطير تتبعه ، تحصبه بهذه الحجارة ، وتملأ الجو من حوله بصياح مخيف .

ولست أدرى كيف انتهى أمرنا ، ولا كيف نجونا من هذا الطير . ولكنى أرانى مجداً فى الهرب ، ومن حولى قوم يجدون مثلى فى الهرب وقد حملوا رجلا مريضاً سيء الحال . حتى اذا انقطعت أصوات الطير ، ونظرنا فلم نر فى السماء شيئاً . أخذت أسأل عن نفسى وعمن حولى وعن الجيش ، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذى أراه محمولا يتأذى ، فاذا هو أبرهة قد مسه حجر من تلك الحجارة فصرع وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلا قليلا ، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديد منكر قبيح . كم تأذى هذا الرجل . وكم احتمل من ألم فى نفسه وجسمه وكم ذاق من مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة ! إنى لأراه حين بلغنا صنعاء وأدخل الى قصره ليمرض فيه وقد هزل ومسه الضر ، حتى لكأنه فرخ من أفواخ الطير . على أن حياته لم تمتد فى قصره ، وإنما ألح الألم عليه إلحاحا

شديداً . وأقبل أحد بنيه صباح يوم فنعاه إلىَّ . فلما سألت كيف مات ، علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجاراً .

وكان حديث الراهب قد ملك على الرفاق نفوسهم وقلوبهم ، فأغرقوا فى شيء من الوجوم لم يحسوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع فى تفكير عميق بعيد . ولست أدرى كم أنفقوا من الوقت فى هـذا الوجوم الصامت ، ولكنى أعلم أن رجلا منهم شابا لم تكن قد تقدمت به السن بعد ، خرج من هذا الصمت وأخرجهم منه حين قال : بصوت متهدج تقطعه العبرات تقطيعاً : إن لهذا البيت فى مكة لشأناً ! قال الراهب : نعم إن لهذا البيت فى مكة لشأناً ، وإن هذا الشأن هو الذى أحجم عنه الفيل ، ورجمته طير أبابيل ، ترمى عدوه بحجارة من سجيل ، فاذا هو كعصف مأكول

* * *

قضى أهل مكة رجالا ونساء شيوخا وكهولا وشبانا قضوا أيامهم فرحين مبتهجين يملؤهم الفخر ويزدهيهم النصر وهم يتحدثون بحديث الفيل وانهزام الحبشة وبتلك الآية الكبرى التى أظهر الله تعالى بها كرامة هذا البيت ورفع بها مكانة الذين يقيمون حوله من قريش .

ولكن شيخاً عظيما من قريش لم يشغله هذا الفخر ولم يزدهى بهذا النصر بل بقى عاكفاً على تفكيره السحيق وحزنه العميق ، كان ذلك عبد المطلب ابن هاشم ابن عبد مناف سيد قريش وزعيمها المحبوب المبجل .

وكذلك كانت إمرأة من قريش فانها لم تشارك نساء قريش فى هذا العجب والتيه ولا فيما كن يتخذنه من زينة فى الحياة ولا فيما ينصرفن اليه من سعادة وهناء بل كانت تؤثر العزلة وترغب فى الوحدة منفردة بنفسها مفكرة فى أمرها يغمر قلبها حزن مرير ويأس لاذع تلك هى آمنة بنت وهب زوجة

عبد الله بن عبد المطلب .

أما عبد المطلب فانه لم يشارك قريشاً بهذا الفخار بل كان يسخر منهم فى نفسه لأنهم لم يصنعوا شيئاً ولم يبذلوا جهوداً حتى يفخروا هذا الفخار بل لاذوا بشعاب الجبال وفروا الى حيث تهيم الوحوش وخلوا بين طاغية الحبشة وبين البيت الحرام فهم إذاً لم يدفعوا عن الكعبة عدوها بل دفعه الله ولم يحطموه بل حطمه الله .

أجل لقد دفعت عن الكعبة عدوها وقهرته وحطمته تلك القوة القادرة القاهرة التى تقهر ولا تقهر والتى تغلب ولا تغلب والتى تحطم ولا تحطم والتى لاتريد شيئاً إلا بلغت ماتريد . تلك القوة التى أخرجت من البحر طيراً لم ير الناس مثلها من قبل فسلطتها على جيش عظيم لم ير الناس مثله من قبل فما هى الا أن حومت فوقه ساعة من النهار ترميه بحجارة من سجيل فتحطم مقهوراً وتساقط مدحوراً وأصبح كعصف مأكول . فسلم البيت من عدوان المعتدى وأمن الحرم من طغيان الطاغى . من أجل هذا لم يشارك عبد المطلب قريشاً فى فخارهم هذا بل بقى عاكفاً على تفكيره السحيق وحزنه العميق .

أما حزنه فقد كان على ابنه عبد الله الذى ظن انه قد استنقذه من براثن المنية وحماه من مخالب الموت فظمن له الحياة حين أغلا له الفداء وحين صارع الموت عنه صراعا وجالد القضاء جلاداً حتى تم له الإنتصار فكان الابتهاج لقريش والغبطة والسرور لبنى هاشم بانتصار الحياة على الموت وباستنقاذ الشباب من مدية المضحى . ولكنه لم يلبث ان خابت ظنونه وتلاشت آماله حين تخلف ولده عبد الله عن القافلة مريضاً فى يثرب ثم قضى نحبه عند أخواله من بنى النجار فأصبح عبدالمطلب فى حالة أوشكت ان تكون يأساً مهلكا أو ثورة جامحة لولا انه كان ذا قلب تعلم كيف يصبر على النوائب وكيف يذعن للخطوب

فهذا كان مصدر حزنه .

وأما تفكيره فكان يفكر تارة فى غرور قريش وظنها ان الله تعالى قد رد عنهم وعن الكعبة طاغية الحبشة إكراما لهم ورحمة بهم .

ويفكر تارة فى مخادعة نفسه وظنها ان الله تعالى قد أنقذ ابنه من الموت وفداه بماءة من الإبل تكريماً له ولولده عبد الله ورحمة بهما ، ثم كان يسخر فى نفسه من ذا وذاك ويقول فى سره كلا لم يهزم الفيل واصحاب الفيل اكراما لقريش وإنما هى آية أجراها الله تعالى لأمر يعلمه ويريده ولا يعلم الناس منه شيئاً . وكذلك لم ينقذ الله عبد الله من الموت ولم يفده بماءة من الابل اكراماً لعبد المطلب ولا لعبد الله نفسه وانما هى آية أجراها الله تعالى لأمر يعلمه ويريده ولا يعلم الناس منه شيئاً وإلا ففيما نجا عبد الله من الموت فى مكة ثم مات بعد قليل فى يثرب أليس غريباً أن ينجو عبدالله من الموت فيتخذ له زوجا لايقيم معها إلا قليلا فيحملها أمانة تضطرب بين جوانحها ويودعها وديعة تختلج فى أحشائها ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود اليها كما يعود الناس لأزواجهم ولكن رفاقه يعودون وهو يقضي نحبه فى يثرب ولا يعود فكأن عبد الله لم يخلق ولم يوجد فى هذا الكون إلا ليودع هذه الوديعة عند زوجته آمنة ، وكذلك آمنة فكأنها لم تخلق ولم توجد الا لتتسلم هذه الامانة من زوجها عبد الله ثم تؤديها للبشر رحمة بهم وهداية لهم . هذا ما كان من أمر عبد المطلب وحزنه وتفكيره .

وأما آمنة فقد شغلت عن كل شيء فى هذه الحياة سوى التفكير فى أمرها والاهتمام بنفسها فلقد كانت تفكر تارة فى هذا الجنين الذى يضطرب بين أحشائها ، وتارة تفكر فى زوجها الذى حرم السعادة بهذه النعمة نعمة الأبوة نعمة الاستمتاع بالولد التي هى مشتركة بين الأب والأم . هذا كان مصدر

شقائها وآلامها .

ولكن نفسها كانت مذعنة لأمر الله وقد انفطر قلبها على الرضا بقضاء الله فكانت تنفق نهارها ذاهلة أو كالذاهلة وتنفق ليلها فى نوم هادىء حلو الاحلام وما أكثر ما كان يزورها من حلم وما أكثر ما كان يلم بها من طيف وما أكثر ما كان يلقى اليها من حديث. حتى اذا كانت ذات ليلة وهى تتهيء للخروج من ذهول النهار والدخول فى هدوء الليل .

إذ أحست ببعض ما تحس به النساء حين مايدنو منهن المخاض هنالك دعت اليها من حضرها من نساء بني هاشم فقضين معها ليلة ولكنها لا كالليالى أكبرن فيها كل شىء وأعجبن فيها بكل شيء فرأين مالا يرى وبصرن مالا يبصر ولم تكن آمنة أقلهن إكباراً وإعجابا فانها كانت ترى وهى يقضانة غير نائمة كأن نوراً يملأ الارض من حولها ويزيل الحجب عن عينيها فترى مالا يرى وتبصر مالا يبصر فكانت النسوة من حولها لا تمد طرفها الى شيء الا رأته نوراً كله لا ظلمة فيه ولا ظلام وانما هو مشرق مضيء أو هو الإشراق الخالص .

ثم ترى آمنة وترى صاحباتها كأن نوراً انبعث منها فتنظر آمنة فاذا إبنها قد مس الأرض يتقيها بيديه رافعاً رأسه نحو السماء محدقاً ببصره فيها كأنه يلتمس عندها شيئاً فتسرع بعض صاحباتها اليه لتؤدى له بعض مايحتاجه الأبن حين يستقبل الحياة فاذا هو لا يحتاج الى شيء وإنما هو طاهر مطهر مختون .

وقف الكون فاهدئى لاتسيرى ... يادهوراً تكر إثر دهور

أى نور هذا الذى شع فى الأفق ... سخيا على الظلام الضرير

فملا الأرض دفقة من جمال ... ومن الجو موجة من عطور

وتهادى التاريخ يزهو بطفل ... ينقذ الأرض من مهاوى الشرور

والشاعر القروى رشيد سليم الخورى يقول فى مولده (ص)

عيد البرية عيد المولد النبوى　　فى المشرقين له والمغربين دوى
عيد النبى بن عبد الله من طلعت　　شمس الهداية من قرآنه العلوى
بدا من القفر نوراً للورى وهدى　　ياللتمدن عم الكون من بدوى
يافاتح الأرض ميدانا لقوته　　صارت بلادك ميدانا لكل قوى
وصاحب السيف لم تفلل مضاربه　　اليوم يندى حياءاً سيفك الدموى
أين اللواء الذى فاق السهى شرفا　　اليوم قد طويت أعلامه وطوى
ياقوم هذا مسيحي ينبؤكم　　لاينهض الشرق إلاحبنا الأخوى

ولما انبثق الفجر وارتفع النهار من صبيحة تلك الليلة مشى الناس الى أعمالهم وقد قضوا ليلة جاهلين غافلين لم يشعروا فيها بشيء ولم يطلعوا من أمرها على شيء وكأن لم يحدث فيها شيء ولو كشف لهم الغطاء وأزيل عن أعينهم الحجاب لرأوا ماكان ولعلموا بما جرى ولإطلعوا على ما حدث ولعلموا أن فى الارض حدثاً وأن وراء الغيب عجبا وأن لله تعالى أمراً ولرأوا نجوم السماء زاهية زاهرة لم تركذلك مثلها قبل اليوم وكأنها تريد ان تدنوا من الارض وهى ترسل اليها أشعة ساحرة كأنها تريد ان تصافح الارض كأنها تريد أن تغبطها وتهنئها على هذا المولود الجديد .

أجل لو كشف لهم الغطاء وأزيل عنهم الحجاب لرأوا ذلك كله ولإطلعوا على ذلك كله ولكن الله تعالى قد جعل لكل شيء قدرا .

ثم بعد أيام وإذا بالأخبار تنتشر وإذا بالحوادث تترى وإذا بأهل مكة وغيرهم يتسامعون بان إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الارض فسقطت بعض شرفاته وتهدم بنيانه واذا بهم يتسامعون أيضاً بان نار الفرس قد خبت وخمدت فجأة لأول مرة منذ ألف عام واذاً بهم يتسامعون أيضاً بأن بحيرة

ساوى قد جفت ونضب ماؤها وعهد الناس بها غزيرة جمة المياه .

ولما ارتفع الضحى من صبيحة تلك الليلة أقبل عبد المطلب على عادته الى المسجد يحف به أبناؤه وعشيرته ، أقبل وهو لم يعلم بعد بولد حفيده حتى أخذ مكانه بين سادة قريش من حجر اسماعيل فاخذ مع قريش فيما كانوا يأخذون به من أحاديث المال والاعمال وتواريخ الافذاذ من الرجال فاقبل عليهم عبد المطلب ببصره وسمعه وأعرض عنهم بقلبه وروحه لأنه كان فى شغل عنهم .

لأنه كان يفكر بابنه وفقيده عبد الله الذى لم ينس ولن ينساه ولن يستطيع أن ينساه .

كيف ينساه أو يذهل عنه وهو فى كل آن ولحظة نصب عينه وملأ جنانه كان يتصوره تارة فى ساعة الوداع عند السفر فيراه عظيم النشاط شديد القوة رائع الشباب بارع الجمال يستقبل السفر بثغر باسم وينظر الى المستقبل بأمل عظيم ، وتارة يتصوره على فراش الموت عند اخواله من بنى النجار بيثرب فيراه حزيناً كئيباً غريباً نائياً هزيلا سقيما نحيلا شاحباً .

ثم يمضى عبد المطلب فى التصور فيرى ابنه وقد دنى منه شبح الموت فاخذ عبد الله يصارع القضاء والقضاء يصارعه ويجالد الموت والموت يجالده ويدفع المنية والمنية تجذبه ثم يرى عبد المطلب واذا بالموت منتصراً واذا به قد استل ابنه من الحياة أو استل الحياة منه فبينما عبد المطلب غائص فى بحر من هذه الافكار واذا بالبشير يحييه ويقول ياعبد المطلب ولدلك غلام هلم فانظر اليه فيسأل قائلا هو بن عبد الله ؟ فيجيب البشير نعم فيحس عبد المطلب كأن الله تعالى قد ادخر له عزاءً عن مصيبته وهيأ له سلوة عن فقيده فقام مسرعا الى بيت آمنة فتناول الطفل وظمه الى صدره ثم أعاده إلى أمه .

جذور من حياة محمد ﷺ

ولد نبينا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بمكة - بلد المعجزات - أشرف بلد على الله وأكرمه : بركاته نامية ، وموارد فضائله طامية ، وأركان بيته بالأمن مأهولة ، وأدعية الطائف بكعبته مقبولة . نشأ يتيما بكفالة جده عبد المطلب ، فعمه أبو طالب .

فلما قوى ساعده كان يرعى الغنم فى البادية مع أخوته من الرضاعة ، ثم عمل فى التجارة ، وذهب إلى الشام يتجر لخديجة بنت خويلد - أثرى إمرأة فى الجزيرة العربية - .

لا أحاول فى هذه الكلمة أن ألم بتاريخ محمد ﷺ .

ولا أحاول فى هذه الكلمة أن أحلل تربيته وأثرها فى حياته :

ولا أحاول أن أبين أثر اليتيم فى هذه التربية سواء حين ولادته يتيما أو حين ماتت أمه وهو لايزال فى حاجة إلى عطفها ورعايتها . وفى حاجة إلى قلبها وهدايتها بعد أن حرم قلب والده وهدايته . لكن الله تعالى عوضه هداية أى هداية ، ورزقه توفيقاً أى توفيق ، فرباه الله على تقوى منه ورضوان

نشأ وهو دعوة أبيه إبراهيم ، وبشارة عيسى ، وصفوة سلالة قريش وصميمها ، ونخبة بنى هاشم راحلها ومقيمها ، وأشرف العرب بدواً وحضراً وأفضلهم بيتاً ، وأعزهم نفراً . لم يزل ﷺ ينتقل من خير الآباء إلى خير

الأبناء ، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش فى الجاهلية ، - عبدالمطلب بن هاشم - ثم إلى أبيه عبد الله والد المصطفى أشرف الناس نسباً ، عجما وعربا ، فهو ذو نسب زكى : إبراهيم خليل الله دعامه ، واسماعيل سنامه ، وكنانة زمامه ، وقريش نظامه ، وهاشم تمامه .

إختاره الله من أرفع البيوت والمنازل ، لأنه تعالى إصطفى من ولد إبراهيم الخليل - رافع قواعد البيت - إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، ومن بنى كنانة قريشاً - المعروفة بالشرف والمكانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، ومن بنى هاشم سر السراة أبا القاسم . وإلى ذلك يشير قوله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » وقول عمه أبى طالب (ره) :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمعشر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فان محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها

خلق الله روح محمد ﷺ وأودع فيه كليات شريعته الكاملة . كما أودع فى نواة النخلة كل المواد والخواص التى تنبت نخلة مثلها إذا زرعت فى الأرض الصالحة لها ، ثم كان الوحى الإلهى له كالماء الذى يمد النخلة ويغذيها بعد أن تنبت إلى أن تكمل وتؤتى أكلها يانعاً طيباً - يعنى أن الوحى كان تعليما شارحا لعقائد وآداب وأحكام أعدالله لها نفسه الزكية فكانت فطرته تطلبها باستعدادها ودليل ذلك نفورها قبل الرسالة من عقائد الوثنية وأعمالها .

هذا ما أومن به وأعتقد ، وإلا ما الذى عصم محمداً ﷺ من كل

شرور الجاهلية ، كعبادة الأصنام والأوثان ، وكالزنا وشرب الخمر ولعب الميسر والأنصاب والأزلام وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، ثم من الذى أنشأ محمداً على الصدق والأمانة والوفاء وعبادة الله على ملة إبراهيم ﷺ والخلوة بغار حراء للتعبد والتهجد . وعلى أى وجه أردت أن توجه هذه السيرة الطبيعية وهذه النفس الثائرة على العقائد الفاسدة ، وعلى العادات الضارة بين قوم هم عبّاد لهذا كله يرون فى الخروج على شيء من هذه العادات وهذه التقاليد بدعاً لايغتفر لذى جاه ومال وسلطان فما بالك بمحمد اليتيم الفقير الذى خذله كل شيء فى بلاد العرب حتى أهله وعشيرته ، ولم ينصره إلا الحق وحده .

فبين هذه العقائد وفوق أديمها أعرض محمد عنها صغيراً ، وحاربها كبيراً . وما محمد هذا إلا بشر . غير أن الله خلقه سليم الفطرة ولحظه بالعناية الإلهية فاتبع الحق وثار على الباطل ثورة أزعجته . ثم مالبثت أن هدمته . وعبد الناس ربهم ، وأقلعوا عن شن الغارات الكاذبة والمنافرات السخيفة . ونهوا عن وأد البنات وعن الخمر والميسر وأمروا بالمعروف والتعاون على البر والتقوى واحترام حقوق الناس وحقن دمائهم وحرم عليهم أكل مال اليتيم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وما أهل به لغير الله وأحلت لهم الطيبات من الرزق ليأكلوا ويشربوا من غير إسراف ، وأحل لهم التزين بالثياب من غير إسراف ولا كبر ولا خيلاء . ثم فرضت عليهم مبادىء إجتماعية لتدعيم الوحدة وجمع الكلمة فأمروا بالزكاة ، وفوق هذا أمروا بصلة الرحم وذوى القربى وقول المعروف وعمل الخيرات فى سبيل الله ، ومنها الجهاد دفاعا عن الحق مهما يكن شاقاً ومهما تبعد شقته .

هذا هو الذى أريد أن أتكلم عليه فى هذا المقام . وأريد أن أتكلم عن المشقة

التي احتملها رسول الله ﷺ فى إعلاء كلمة الحق ، أنها مشقة جبارة كلفته جهداً كبيراً وعناءاً عظيما ، وهمماً لاغاية لها . كما يقول الشاعر :

له همم لامنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

غير أنه ﷺ كان كلما تقدمت به السن قوى فيه حب العزلة ، والإنقطاع إلى مراقبة الله تعالى ، والتعبد بمناجاته ، فأخذ يخلو بغار حراء متعبداً فيه الليالىَ ذوات العدد : لتتوجه روحه الشريف إلى عالم المعانى ، ويستعد لتلقى الوحى الإلهى .

وحراء جبل بمكة فى أعلاه غار يأوى اليه محمد ﷺ يقيم فيه شهر رمضان فى كل عام ممعناً فيما شغلت به نفسه من تفكير عميق فى هذا العالم ، وتأمل دقيق فى هذا الملكوت ، مكتفياً بقليل من الزاد ، يلتمس الحقيقة الناصعة وكان كثيراً مايغرق فى التفكير حتى ينسى نفسه وينسى طعامه وشرابه .

كان يفكر تارة فيمن حوله من الناس فيراهم من باطل الحياة وزخرف غرورها ، ومن الغي والجهالة فى ضلال مبين .

ويفكر تارة فى هذا الكون المحيط به يلتمس فيه الحقيقة الراهنة التى كانت ضالته المنشودة ، فكان تارة يتلمسها فى السماء فى شمسها وقمرها والنجوم وفى نظام هذا الفلك الدائر . وتارة يتلمسها فى الأرض : فى الوهاد والأودية والآكام ، وفى لهيب جبالها المحرق ، وتحت ضوء شمسها الباهر نهاراً ، وفى صفائها البديع حين تكسوها أشعة القمر أو أنوار النجوم ليلا . وتارة يتلمسها فى تلك البحار الهائجة وأمواجها المتلاطمة وسفنها الماخرة ، وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بهذا الوجود ، كان محمد يتلمس الحقيقة الناصعة .

كان يسمو بنفسه فى سبيل إدراكها ، يريد أن يخلق فى هذا الفضاء

الواسع ، يريد أن يتصل بهذا الملكوت الأعلى ، يريد أن يخترق هذه الحجب الكثيفة ، يريد بذلك كله أن يعلم مكنون هذا السر العظيم .

أجل لقد كان محمد ﷺ يفكر فى هذا كله وهو بعيد عن البشر منقطع عن الناس منعزل فى غار حراء .

فى ذلك الغار الموحش المظلم ، فى ذلك الظلام الدامس كان محمد يتلمس النور ، وفى تلك الوحشة يتلمس الأنس

ثم من ظلام ذلك الغار الداجى ، الغار المهمل . الغار الخامل الذكر من ذلك الغار والظلام ، انبعث هذا المصباح الوقاد ، وأشرق هذا النور العظيم ، نور الإيمان واليقين ، نور الفضيلة والأخلاق ، ومن خلال ذلك الصخر الأصم إنبجس هذا المعين الصافى . معين الحضارة الإنسانية ، معين سعادة البشر وهناءه .

لقد أتى على هذا الغار حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا .

لقد بقي هذا الغار عصوراً طويلة ، خامل الذكر ، منقطع الأثر ، لا يذكره لسان ولا يسعى اليه إنسان ولكن لما سطعت فيه أنوار الرسالة وأشرقت منه شمس النبوة ، سرت فيه روح الحياة ، فتحرك بعد السكون والجمود ، ونطق بعد السكوت والصموت ، قام لسان حاله يتلو أحاديث العظمة والجلال ، ويرتل آيات التضحية والإقدام ، قام يصدع من على قمة ذلك العلم الشامخ بصوت يسمعه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد قام ينادى بلسان ذرب فصيح أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . خرج محمد ﷺ من غار حراء . وهو يحمل تلك الشعلة المقدسة ـ شعلة الإيمان التى هى من نور الله ، ويرفع ذلك القبس المبارك ، قبس الإسلام الذى هو من كلمة الله .

خرج محمد من هذا الغار وهو يدعو الناس إلى وجهة الخير ويهديهم الطريق القويم والصراط المستقيم .

قام محمد يدعو قريش وغير قريش إلى مافيه خيرهم وصلاحهم ، قام ينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويدعوهم إلى طاعة الرحمن ، فعارضته قريش بالجحود والانكار وقابلته بالايذاء والعدوان . (أريد حياته ويريد قتلى) .

لقد جدت قريش واجتهدت وسعت السعى الحثيث ، وبذلت كلما فى وسعها فى مقاومة النبى ﷺ وصده عن نشر دعوته ، حتى اضطر الرسول الأعظم إلى الهجرة الى المدينة ، فخرج منها خائفاً يترقب

أجل لقد كان الأمر كذلك ، ولكن الأمور بخواتيمها ، والعبرة والعظة بنتائج الأعمال لا بمقدماتها .

لقد فعلت قريش كل مافى استطاعتها للقضاء على الاسلام ونبيه .

وهذا الاسلام قد عم الكرة الأرضية شرقا وغرباً ، شمالا وجنوباً .

وهذا القرآن كتاب الاسلام يذاع من أعظم مدن أوربا وحواضرها .

وهذه المساجد معابد الاسلام تشيد فى أكبر عواصم أوربا .

وهذه ذكرى ميلاد الرسول تتجدد فى جميع الأقطار الاسلامية عاماً بعد عام ، وجيلا بعد جيل .

وهذا محمد نبى الاسلام يشاد بذكره على رؤوس الأشهاد . وفى كل يوم ينادى باسمه من فوق الشواهق مابين المشرق والمغرب خمس مرات أشهد أن محمداً رسول الله « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

لم يكن محمد ﷺ نكرة فى قومه ، وانما كان فيهم المفرد العلم .

كانت قريش قبل النبوة تلقبه بالصادق الأمين . ان محمداً ﷺ بصدقه وأمانته نال حب قريش وإعجابهم ، وبحكمته وسديد رأيه وبعقليته العظيمة الفذة ملك شعورهم واستوى على عواطفهم .

أجل ان محمداً ملك شعور القوم واستولى على عواطفهم بتلك العقلية الفذة التي حقنت دماء قريش ، وأبقت على شجعانهم وأبطالهم ، وحفظت سادتهم وقادتهم يوم كاد السيف يكون هو الحكم العدل ، فتطيح الرؤوس وتطير الأيدى .

يوم كادت تنشب بين قريش حرب أهلية ظروس وثورة داخلية عظيمة ، فتقضى عليهم فتريق الدماء ، وترمل النساء ، وتيتم الأطفال .

يوم ادعى كل زعيم من زعمائهم ، وكل سيد من ساداتهم ، حق الأولوية بوضع الحجر الأسود فى مكانه من بناء الكعبة عند تجديده ، لينال بذلك الشرف الباذخ والفخر العظيم ، والسيادة القومية العامة ، فتراصد الزعماء وتناكر الرؤساء ، وتحالفت القبائل ، وتساندة العشائر ، وضللت مكة يومئذ غمامة سوداء حالكة تنذرهم بملحمة هى الخطر الوبيل ، وفيها الويل والثبور .

فتقدم أحد زعمائهم ـ هو أبو أمية المخزومى ـ وكان عاقلا بصيراً حكيما ذا رأى وتدبير وبصيرة بعواقب الأمور ، فأشار عليهم بالتحكيم ، وأن يكون الحكم أول داخل عليهم من باب الصفا ، فقبل الجميع ذلك ، ثم اتجهت الأنظار وتطلعت الأبصار نحو باب الصفا يترقبون أول داخل منه . وفى تلك الساعة الرهيبة ، وفى ذلك الموقف الخطير ، وإذا بهم جميعاً وقد تهللت وجوههم ، واطمأنت نفوسهم ، حين أشرقت عليهم طلعة محمد البهية وأطل عليهم ذلك الوجه الأغر الميمون المبارك . فرحب هذا الجمع المحتشد

بالصادق الأمين وحكموه فى الأمر ، فتقدم الحكيم العظيم ، والحكم العدل بنزاهة وإخلاص ، فبسط ردائه على الأرض ، ووضع الحجر الأسود عليه ، ثم أمر الرؤساء والزعماء أن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء ، فلما أمسكوا جميعاً أمرهم أن يرفعوه ، فرفعوه ، فلما حاذا موضعه من البناء تقدم ﷺ فوضع الحجر بيده الكريمة فى مكانه من البناء ، فعم السرور ، واطمأنت النفوس ، وأدركوا جميعاً أن محمداً بحكمته السامية ورأيه السديد ، قد أنقذهم من شر هذا الخطر الوبيل ، الذى كان يتهددهم بالفناء والدماء . لقد أراد الله لمحمد ﷺ أن يكون داعية الاصلاح وصاحب القول الفصل والشرف الأسمى ، وزاده هذا إجلالا فى نظر قومه وتقديراً لأصالة رأيه وعظيم حكمته . وإن كانوا ليولونه الأمر عليهم لولا إعراضه عن ذلك بما كان مشغولا به من التوجه إلى الله والتهيؤ للدعوة اليه .

عاش محمد ﷺ أربعين سنة قبل الرسالة ، كان فيها محزوناً مجاهداً ، ولعلك تسألنى ماهذا الحزن ، وما هذا الجهاد . ومحمد لم يكن بعد رسولا ؟ ومحمد فى هذا الدور ينعم بحياة بين أهله وعشيرته .

نعم وانه كان ينعم بين أهله وعشيرته بحياة فيها رعاية له ، وعناية بشأنه ولكن فقد أبويه من شأنه أن يوجد ألماً نفسياً يتجدد بتجدد الظروف ، وتتجدد حاجته إلى ذلك العطف الذى فقده صغيراً . وقد تقول إن نشأته يتيما وتربيته يتيما لم يذق طعم عطف الأبوين تساعد على نسيان هذا العطف ، ولكن فات من يرون هذا ان الانسان يرى عطف الناس على أولادهم فيجعل ذلك قياساً يذكره بأبويه ويجعله يحن إلى ذلك العطف ويشتاقه ، بل ويبكى لفقدانه إياه . أما جهاده فقد كان نفسياً ، وكان ذلك الجهاد حاداً وعنيفاً لأنه ينظر حواليه فيرى ويسمع مايخالف فطرته ، ويظل يفكر فى

أمر هؤلاء القوم يعبدون الأصنـــام ؟ وكيف تحل لهم عوائدهم وعقولهم الموبقات وهذه الصغائر . فهو من هذه الناحية فى حرب نفسية ، يرى مالايجب أن يرى ، ويسمع مالا يجب أن يسمع ، ولكنه مرغم على أن يرى مايكره ، وأن يسمع مالا تشتهيه نفسه ، فهذا الجهاد النفسى المزمن الى سن الأربعين .

هذا الجهاد النفسى السرى أعد رسول الله للجهـاد العلنى ، لأن الذى يصبر على مايكره وما يخالف عقيدته وطبيعته أربعين عاماً لابد أن يصبر على محاربته ، ولا بد أن يكون صبره جميلا . لأن الله أعده لهذا الصبر . ولأنه أعد نفسه لهذا الصبر ، وأعدها لهذا الجهاد الطويل المرير .

إذن فلا غرابة أن يرسله الله رسولا ثم يلقى عليه حملا ثقيلا . بل لانغلو إذا قلنا إن الله سبحانه وتعالى كان يقسو على نبيه الى حد يذهب بحلم الحليم وصبر الصبور . ألم تر إلى قوله تعالى : « ولولا أن ثبتنـاك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا إذاً لأذقناك ضعف الحيـــاة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا » .

ثم انظر الى قوله تعالى . « فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

ثم انظر الى قوله تعالى : « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

هذا الخطاب الشديد وأمثاله ، واللوم فى مسألة عبدالله ابن أم مكتوم الضرير . وفى إخفائه أمر الله له بزواج امرأة معتوقه ـ زيد ـ فى قوله تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك

واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » وقوله تعالى : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » فهذه النذر وهذه العظات كان يتحمل النبى وقعها عليه .

وقد سقت هذه الآيات ليعلم أن النبى ﷺ فوق ما كان يلاقيه من إيذاء قومه وعداوتهم له عداوة شديدة ، واعتداآتهم على ذاته الشريفة حتى الأطفال كانوا يرمونه بالحجارة فى استهتار . ومن غير أن يجدوا زاجراً ولا رادعا من آبائهم وأمهاتهم .

سقت هذه الآيات لأبرهن على أن وقعها فى نفس النبى كان شديداً ، وانه كما كان صبوراً جداً على هذه النذر الإلهية ، غير أن الصبر على هذا وذاك كان صبراً جميلا على نفسه ، وكان حلواً عذباً على نفسه يقبله راضياً ، بل يقبله مغتبطاً . لماذا كل هذا ؟ لأن النبى رجل كان يعمل عن عقيدة صادقة وإيمان صادق

وهذه العقيدة وهذا الايمان يدفعان النفوس الكريمة إلى ركوب الأخطار والأهوال والشدائد والرياح عاصفة . والأنصار قليلون والأعداء كثيرون . بل هذه العقيدة وهذا الايمان يدفعان النفوس الكريمه الى استعذاب الموت واستعذاب الاهانة ، والاهانة حقيرة فى سبيل نصرة المبدأ .

هكذا ضرب لنا محمد ﷺ الأمثال العالية حتى جنى النصر بعد ما ذاق ألوان - الكيد - وأنواع الختل . ولكن الله يكتب النصر فى النهاية للحق ، وينصره نصراً مؤزراً تكون له حلاوة ولذة بعد الجهاد المرير الطويل

سعد الناس برسالة محمد ﷺ وتفتحت القلوب لهديه بعد طول العناء ، وطول الشقاء . فدعاهم إلى معرفة الله والهدى ودين الحق ، وأخرجهم من الظلمات الى النور . « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور

بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .

بعث الرسول الأعظم للناس كافة فأوجد فى الكون ما لم يراه أحد من قبله وتغير مجرى الاخلاق والعادات والمشاريع العمرانية . فنهض بناء الكون على أساسه حصيناً متينا . وعم هذا النور جميع مرافق الحياة . ثم دعى الناس للدين بالدليل والبرهان . لا بالسيف كما يدّعون ، ولا بالسنان « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

على هذا الأساس وعلى هذا النحو من الاستدلال العقلى إعتمد رسول الله ﷺ فى دعوته الخلق الى توحيد الخالق . والى الايمان به منزها عن شوائب الاتحاد والحلول .

ولم يكن لله سبحانه وتعالى . ـ وقد أراد أن يقيم الحجة على خلقه بما يعقلون ويفهمون ـ أن يلويهم عن طريق البرهان الذى يملأ النفس بالعقيدة إلى مفاجأتهم بآيات القهر والالجاء التى تسد عليهم مسالك التفكير والنظر بل رد على من يقترحون أمثال تلك الآيات ويقولون لولا أنزل عليه آيات من ربه بقوله : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وإن أمثال هذه الآية التى تقرر بوضوح كفاية القرآن الكريم فى إثبات الدعوة المحمدية . وفى ابتنائهـا على التدبر والإستدلال وتأبى أخذ الناس من طريق الخوارق الكونية . إن أمثال هذه الآيات أكثر من أن تحصى وما على طالب الحق إلا أن يضع كتاب الله بين يديه ليرى أن السلاح الوحيد لذلك النبى الكريم إنما هو التحاكم الى العقل والتدبير فيما يحيطه به من دلائل وآيات كلها ناطقة بما يدعوا إليه . شاهدة بأن لهذا العالم خالقاً له السلطان المطلق والإرادة العامة ، والقدرة النافذة ، وإنه على كل شى قدير وبكل شىء عليم .

هذه دعوة الإسلام . ولو أن هذه الدعوة كانت مما يتعاصى على العقول فهما أو كانت مما يقف العقل أمام تصورها حائراً متردداً ، لصح فى نظر الحكمة أن يقهر الناس على اعتناقها قهراً ، ولصح إذن أن تحدث تلك الخوارق التى يبهت العقل أمامها ، ثم لا يسعه إلا أن يقول : إنا بها مؤمنون . ؟ ولظل العقل بعد ذلك فى ديجور من الظلام الحالك ، ولكن جاءت تلك الدعوة كما ترى بسيطة سهلة لا تعجز العقول عن إساغتها ولا تضعف القلوب عن هضمها . وإذاً ليس صاحبها فى حاجة وراء تنبيه العقول ، وحث مطـــايا الفكر الى النظر فى ملكوت السماوات والأرض (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض) (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهـــار لآيات لأولى الألباب) (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون) (فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم)(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) (وهو الذى انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه أنظر الى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون)(بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » « وكذلك

نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ، «إتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين » ، « ولو شآء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » .

إقرأ هذه الآيات ودعها تسرى فى قرارة قلبك ونفسك ليرتسم فيها

أولا : بساطة الدعوة المحمدية . وأنها لم تكلف الناس اعتقاد ألوهية المخلوق ولا حلول الخالق فى المخلوق . ولا إعتقاد صلب الجزء الاهوتى ، وانما طلبت أن يقول الناس : « لا إله إلا هو بديع السماوات والأرض لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

ثانياً : إن سلاح النبى فى تلك الدعوة كما قلنا ـ لا يتجاوز تنبيه العقول الى النظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وان العلم الذى هو خاصة الإنسان والعقل الذى ميزته كافيان فى إيمانه بتلك الدعوة إيماناً يقيه ظلمة الشرك وضلال الوثنيـة .

ثالثاً : إن الرسول ـ صاحب الدعوة ـ ليس حفيظاً على الناس ، ولا وكيلا عنهم حتى يؤخذ بجريرتهم ، ويسئل عن ذنبهم فيدفعه ذلك ـ إن كان ـ إلى أخذهم عن طريق العنف والإرهاب .

رابعاً . إن هذه الآيات بصائر فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها .

هذه هى طبيعة الدعوة المحمدية وهذا سبيلها . وسيمر بك ذلك تفصيلا فى مبحث ـ الجهاد فى الإسلام ـ وإن دعوة هذه طبيعتها ، وتلك سبيلها لا يمكن أن يصدق عاقل أنها تحمل فى طياتها إكراه أحد من الخلق على اعتناقها أو الإيمان بها .

وعلى الرغم من جلاء هذا أخذاً من طبيعة تلك الدعوة فالقرآن الكريم جاء بصريح الآيات التى تقطع على المؤمنين أطماعهم فى محاولة اتخاذ الإكراه

كطريق من طرق الدعوة ، أوكسبيل من سبل إيمان الناس بها . فاستمع الى قوله تعالى « لاإكراه فى الدين » .

واستمع اليه جل شأنه يقول لنبيه : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » ، وقوله له : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وإذا ادخرنا آيات القرآن ونصوصه الصريحة فى تقرير مبدأ حرية الإعتقاد ، ونظرنا الى طبيعة الإكراه عليها ، ولو أن الإكراه على العقيدة مما تتطلبه الشريعة ، لكان وحده فى نظر العقل الذى يتحاكم اليه القرآن دليلا كافياً لخصوم هذه الشريعة فى فسادها وعدم ملاءمتها لمنطق العقل والنظر .

والإكراه هو إلجاء الإنسان الى مالا يحب ويرضى ، ولا ريب فى أن هذا لاسلطان له على العقيدة التى تملك القلب والتى من شأنها أن تستقر فيه أثر البراهين التى لايجد القلب عنها محيصاً ، وانما سلطانه على الجوارح فى أن تفعل أو تدع ، أما أن الفعل والترك يكون وفق العقيدة فهذا مما لا سبيل اليه بالإكراه فنتيجة الإكراه تكثير سواد المنافقين الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم وكم رأينا أن طريق العنف لايزيد الإنسان الا تمسكا بعقيدته ، بل وكثيراً مايكون العنف مغريا بعدم التفكير بصحة العقيدة أو بطلانها . وبذلك يكون سبباً فى التمادى على الباطل الذى يستر الاكراه على صاحبه طرق البحث والنظر .

نعم قد يكون لظروف الضغط سلطان ، ولكن فيما ذا ؟؟ فى إخفاء العقيدة وعدم التصريح بها اتقاء لنتائج الاكراه فى النفس والمال ، ولكن

لاتستطيع تلك الظروف مهما اشتدت وطأتها أن تخمد نار العقيدة فى القلوب فنار العقيدة لاتزال تحت مظاهر الخوف حتى اذا ماهبت عاصفة أثارت ماعليها من ستر رقيق وبدت تتأجج من طول ما احتبست فى الصدور .

هذا ، واذا ماعدنا الى ما ادخرنا من كتاب الله تعالى فى هذه المسألة نجده يقرر أصلا واضحاً فى قبول الايمان وإهداره . فاقرأ إن شئت قوله تعالى : « هل ينظرون الى أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك . يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيراً قل انتظروا انا منتظرون » وقوله لفرعون حينما أدركه الغرق : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين ، ألآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » وقوله : « وليست التوبة للذين يعملون السيئآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » .

إقرأ كل هذا لتعلم أن الله أهدر إيمان الالجاء عن طريق معاينة العذاب . فهذا أصل ترجع اليه فى إهدار الايمان عن طريق الاكراه والقلب مطمئن بالكفر . ومنه يتبين أن الاختيار الصحيح أساس عند الله للإيمان الصحيح ولا شك ان الاكراه على الايمان لايمكن أن يوجد منه الايمان . وانما الذى يوجد معه أعمال الايمان ومظاهره لانفس الايمان . ولم يقل أحد أن اعمال الايمان ومظاهره تحت ضغط السيف ورهبة القوة ايمان يقيم الله له وزناً ، أو يجعل الله لصاحبه كرامة . بل نرى بالعكس ان آيات القرآن الكريم تنفى بصراحة وقوة حقيقة الايمان عمن لم تملأ العقيدة قلبه . فيقول جل شأنه : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ، يخادعون

الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . ويقول لرسوله « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » .

من هذا يتضح ماقلنا سابقاً أن طبيعة الدعوة المحمدية . وكتابها الكريم يأبيان الإباء كله إكراه أحد على الدخول فيها أو إجابتها ، ولهذا أمر الله رسوله فى الدعوة اليه بقوله : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، وما كان الإكراه على قبول الدعوة بواحد من هذه الطرق الثلاث - الحكمة - الموعظة الحسنة - المجادلة بالتى هى أحسن

ولقد كان هذا شأن الدعوة الى الله على لسان جميع الأنبياء والرسل ، أنظر ما أمر الله به موسى وهارون حينما أرسلهما الى فرعون « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » .

وانظر كيف كان إبراهيم عليه السلام يعالج أباه - أى عمه - فى الدعوة الى ربه .

« ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟ »

« ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سويا : »

« ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً : ؟ »

« ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا : ؟ »

« قال أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا »

« قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » .

هكذا كان سبيل الأنبياء فى دعوتهم الخلق الى توحيد الخالق .

وهكذا كان هداهم فى التبليغ عن ربهم ، وقد نوه الله بشأنهم فى كتابه

وقال فيه لرسوله ﷺ : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم إقتده » .

وما كان لمحمد ﷺ وقد نص الله عليه فى كتابه هداية الأنبياء المتقدمين وأمره فيه باقتفاء أثرهم ، ما كان له أن يحيد عن سنتهم قيد شعرة ويفتح على نفسه نافذة يصل اليه منها سهام الأعداء والخصوم .

* * *

شخصية محمد ﷺ

أحب أن أتحدث عن شخصية محمد ﷺ صاحب التعاليم والأنظمة الإسلامية لا باعتباره نبياً مرسلا من السماء ، ولكن محللا خلقه وخلقه ، وقوله وفعله ، ليتبين القارىء معى أنها شخصية تفردت عن شخصيات التاريخ كله بميزات لم يلحق بها أحد من شخصيات التاريخ على اختلاف جوانب العظمة فيها .

وهو تحليل لهذه الشخصيه العظمى يوجب على منكرى نبوته أن يعترفوا بألوهته ، فإن تعاليمه وشرايعه ليست آثاراً إنسانية .

وإذا قلنا إن محمداً ﷺ هو مجرد رجل عظيم مخلص ، وحاولنا دراسة شخصيته على ضوء ماوضعه من نظم وتعاليم ، وما قال وما فعل ، يثبت لدينا أن النبي محمداً ﷺ أعظم شخصية فى التاريخ وأولى بكثرة الإتباع

من كل زعيم سواه ، فإنها تبعية تفيد التابع الذى ينشد الكمالات الإجتماعية والإرتقاء النفسى والذهنى .

نشأ محمد ﷺ على ماذكرنا فرداً أمياً يتيما من أبويه ، فقيراً وحيداً فى أمة سكيرة تسجد للأصنام ويلهوا أشرافها بالقمار ، وتغشى مجتمعها غمرة من الفساد والإنحلال والعصبية والجاهلية .

وكانت الكتب السماوية السابقة تبشر بأن نبوة ستجىء ، وكانت كل أمة تتمنى أن تجىء النبوة لرجل منها ، وكان كل عظيم فى قومه يرجو أن يكون هو النبي الموعود . كان يرجوها من العرب أمية بن أبى الصلت . وأبو سفيان بن حرب ، وعمرو سيد ثقيف وغيرهم . معاصروه وأهل جيله جميعاً ليس منهم إلا من اجترح موبقاً أو أكثر من موبقات مجتمعهم أماهو فقرر التاريخ وأكد انه باعد كل مجتمعات جيله واعتكف فى المغارات - غار حراء - يفكر ويتأمل ، والفكر والتأمل عنوان صفاء النفس ، وشفافية الروح .

ومع هذا التميز الروحى عن كافة معاصريه ، ومع أن كهان العرب - بحيرى النصرانى ، وورقة بن نوفل - تنبئا له بالنبوة ، فإنه لم يتطلع اليها ولا انتظرها ، بل فزع من التكليف . وشكا أمره الى خديجة ، فامتحنت هى الوحى النازل عليه ، فهو إذن لم يتطلع الى النبوة ، ولا سارع الى فرصتها حين واتته بل تريث وتوقف .

قال خصومه : إنه مصاب بمرض نفسى ، وعلم النفس الحديث يقول : « إن الأمراض النفسية تنشأ دائماً من عدم إمكان التوفيق بين مطالب الحياة ورغبات النفس » وهو لم يكن صاحب مطالب فى الحياة ، ولا رغبات نفسية كما يقرر ذلك تاريخه المعروف . فقد ثبت انه نشأ زاهداً المال ، زاهداً الترف ، زاهداً الجاه ، زاهداً ماعليه قومه من التناظر والمفاخرة .

وقالوا جحوداً وحسداً : إنه مجنون ، وقد قال فى حديثه الصحيح : « عجباً لقريش تزعم انى مجنون وأنا أزكم فى الشهر مرتين » والجنون ينشأ عادة عن الجفاف الدماغي أو يقترن به ، وينشأ الزكام عن الرطوبة الدماغية فالمجنون لايزكم . والرجل الذى يزكم فى الشهر مرتين لايكون مجنوناً . هذه ناحية طبية تنفى عنه أكذوبة الجنون ، ومن الناحية النفسية يقول العلامة - فرويد - : « إن المجنون يرى كل شىء فى الداخل ولايرى ماهو خارج نفسه

وحياة محمد ﷺ وتعاليمه وشرايعه وجهاده وتعليمه أصحابه وقومه وعنايته بكل شىء شخصى واجتماعى وسياسى وحربى ، كل ذلك يدل قطعاً على انه لم يكن يرى كل شىء فى الداخل ، بل كانت عنايته بكل شىء فى الخارج » . ولقد قال - ويلز - الكاتب الإنكليزى المعاصر : « إن محمداً كان مريض النفس » ونسى أن يقول وبسبب مرض نفسه دان له العرب ، وسمت حضارتهم على حضارات الدنيا ، وأخضعوا فى عهده وعهد خلفائه من بعده ممالك الأرض . بينما قال الانكليزى المنصف - توماس كارليل - فى كتابه - الأبطال - عند الكلام عن النبى محمد ﷺ : « الحقيقة الكبرى هى أنه رجل صادق ونبى مرسل » . ونسى - ويلز - أيضاً أن يقول : إن من قواعد علم الاجتماع أن يصنع مجنون من مجتمع متحزب ، وأمم واهنة مصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وجيل هو أشبه بالحطب اليابس الميت ، مجتمعاً فاضلا وأمة موحدة متماسكة مؤمنة مجاهدة ، فلسفتها تعلو على الفلسفات وحضارتها تكسف الحضارات ، ويصنع من أحطاب الرذائل والوثنية نوراً وطهراً وتقوى .

الواقع ان من الظلم للقارىء ، ومن القصور فى حق شخصية النبى محمد ﷺ أن يكتفى كاتب بمقال عن شخصيته ذات الجوانب المتعددة الغنية بسمات العظمة ودلائل السمو ، لكنه توجيه يحمل على الاطلاع والتوسع فى قراءة

حديثه وسيرته .

وقد أثبت التاريخ ، وكتب السيرة المحمدية إن النبي محمداً ﷺ بعد أن دانت له الجزيرة وأحل الله له المغانم والفيء ظل هو هو محمد ، لم تتغير أخلاقه ، المتواضع الحنون العطوف المواسي لعشيرته الرقيق الوجدان والمشاعر ، الوضاء الروح ، الجائع تعففاً ، المحدث الفكه ، الممازح لأصحابه وأهله الشجاع . . . الشجاع الذي يكره سفك الدماء ، فانه مع شجاعته التي تدل عليها مواقفه الحربية ومواقفه الاجتماعية ، ونصوصه التشريعية ، لم يقتل في حروبه بيده سوى رجل واحد هو - أبي بن خلف - لأن أبياً أصر أن يقتل محمداً فطعنه النبي محمد طعنة فارس خبير . طعنه في ترقوته من خلال درعه ومغفره فقتله ، وهي فروسية أروع فروسية .

كان أول المتقيدين بتعاليم شريعته ونصوص رسالته ، ولم يكن يفرضها على قومه ويتحلل منها هو ، بل كان في شرعه من التعاليم ما التزم به وحده كقيام الليل - التهجد - فقد كان فريضة على النبي محمد ونافلة لسائر المسلمين .

وذكر خصومه الكاذبون انه ﷺ كان شهويا . فإذا عرفنا انه تزوج خديجة وهو في الخامسة والعشرين ، وهي في الأربعين عجوز لا تصلح لشاب وظل معها إلى أن توفيت في الخامسة والستين من عمرها . ثم تزوج سودة بنت زمعة ، تزوجها أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس وسنها خمسة وخمسين سنة ، ثم تزوج عائشة وهي البكر الوحيدة في زوجاته ، ثم أم سلمة تزوجها ذات صبيان بعد ما مات زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وتزوج أيضاً زينب بنت خزيمة ، - زوجة الشهيد عبيدة ابن الحارث - وهي في الستين من عمرها . فكل منصف يدرك أن زوجاته ﷺ لم تكن - وتلك هي أعمار أكثرهن وظروفهن - لشهوة أو رغبة في النساء ، ولكن كانت ترضية

لهن ، ومواساة عن فقد أزواجهن ، وإيواء وإعالة لمن لا عائل لها منهن ، وبعض زوجاته صلى الله عليه وآله كانت لتوثيق الروابط بين القبائل المتنافرة ، وتأليف القلوب بالمصاهرة ، وهي سياسة الداعي الرشيد . وقد استوفينا هذا الموضوع وأعطيناه حقه كما يرام في كتابنا ـ نزهة الخاطر ـ .

* * *

عناصر الشخصية ومقوماتها ثلاثة :

الخلق ، والخلق ، والذهنية .

كل عظيم من عظماء التاريخ تمكن لنا دراسته ـ مهما بعد زمنه عن زماننا ـ متى عرفنا صفة خلقته ، وأخلاقه ، وذهنيته ، وهذه كلها تعرف من أقوال العظيم وأفعاله ، ومما وصفه به معاصروه .

خلق النبي محمد صلى الله عليه وآله

روت الكتب المعتمدة أحاديث كثيرة من طرق مختلفة عن خمسة عشر صحابياً في وصف خلقته صلى الله عليه وآله .

فما رواه أنس بن مالك : « انه كان ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير وكان إذا ماشى الطوال طالهم ، وإن جالسهم كانت كتفه أعلى من جميعهم ، وانه كان لا بالأبيض الأمهق ـ أي الشديد البياض الخالي من الحمرة والنور ـ ولا بالآدم ـ أي الشديد السمرة ـ وانه كان أبيضاً نيراً مشرباً بحمرة ،

ولا بالجعد القطط ولا بالسبط » .

ومن حديث أنس ومطابقة الرواة الصحابيين لروايته . ومنهم هند بن أبي هالة - وهو ربيب النبي ﷺ - وكان وصافاً مشهوراً ، نعلم أن النبي محمداً ﷺ كان صحيح البدن مكتمل الفتوة لم تصبه أعراض الشيخوخة فقد بلغ الثالثة والستين وما فى رأسه من الشعر الأبيض غير عشرين شعرة ، فحيوية غدده عليه السلام بقيت على قوتها .

ومن وصف هند بن أبي هالة وغيره لمشية النبي محمد ﷺ نعلم أنه لم تصبه الشيخوخة فى أى مظهر من مظاهر حيويته . فقد أجمعوا على أن النبي محمداً ﷺ كان إذا مشى يتكفأ - أى يمشى إلى قدام كالسفينة فى جريها - كأنما ينحط من صبب . وانه إذا زال - أى خطا - زال قلعاً يخطوا تكفؤاً ويمشى هوناً ذريع المشية حين يمشى - أى واسع الخطو ، والتقلع هو رفع الرجل من الأرض بقوة وهمة - ومن صفة مشيته نعلم انه لم تكن فيه خيلاء ولم يكن به ضعف ، فصاحب الخيلاء إذا مشى يتمايل كالغصن زهواً ، أو يضرب الأرض بقدمه عتواً ويرفعها ببطء تعالياً ، أو يجرها على الأرض صلفاً ، وصاحب الضعف والخيلاء كلاهما يجر رجليه على الأرض جراً . وليس هذا ومثله من صفات النبي محمد ﷺ .

وكان رحيب الصدر عريض الكتفين ، وهما صفتان ينفرد بهما الرجل الحليم القادر على ضبط نفسه ، واذا كان الرجل عريض الكتفين وغضوبا فهو غير رحيب الصدر أبداً ، فما اجتمعتا إلا توافر لصاحبهما الحلم وضبط النفس .

وعن على عليه السلام « لم يكن ﷺ بالمطهم - أى المنتفخ الوجه - وكان سهل الخدين غير مرتفع الوجنتين ، ولا بالمكلثم - أى المستدير الوجه

وفى خبر هند بن أبى هالة : اذا التفت الى أحد التفت معاً - أى التفت بكله - فإن الإلتفات بناحية من الوجه أو الجسم فيه معنى قلة الإهتمام ، ولم يكن من خلقه ﷺ عدم الاهتمام بمحدثه أياكانت مكانته .

وجاء عن ابنه الحسن عليه السلام « انه ﷺ كان فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر ، أزّج الحواجب ، سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، بادن متماسك ، معتدل الخلق ، سواء الصدر والبطن » .

من هذه الصفات الشكلية للنبي محمد ﷺ يتبين انه كان مترفعاً رفيعاً جميل الطلعة مهيباً يتألف الناس شكله ووسامته ، فيه جاذبية شخصية ، برىء من التنافر الذى تنبو به عيون الناظرين ، وفيه تناسق وتناسب تركيب تستملحه مشاعر الناس ويجتذب اليه من يلاقيه ، فإذا سمعه اطمأنت نفسه بايمان صوته وثبات نطقه وبساطة مظهرة وصدق عبارته وأدائه .

وكان ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته . وكان لايفارقه فى حضر ولا سفر سواكه ومشطه ، وانه كان ينظر فى المرآة اذا سرح لحيته .

ورأى رجلا أشعث الشعر فقال : « ماكان يجد هذا ماينظم به رأسه » .

ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال : ما « كان يجد هذا مايغسل به ثوبه » .

فهذا الحرص منه ﷺ على أن يكون القدوة لأتباعه فى تعليم النظافة والمحافظة على حسن المظهر ولياقة الهندام مع ماتبين من تناسق تكوينه الجسمانى يعطى أروع صورة يجب أن تكون للزعيم أو رئيس القوم . فان أحداً لايتصور زعيما أعور أو أعرج أو بارز البطن أو منحنى الظهر أو صغير الرأس قصير القامة ضامراً أو ضيق الصدر عريض الأكتاف أو متهدل اللحم خشن المظهر مهلهلا أو متأنقاً مسرفا . الى آخر الصفات التى تطعن على شخصية

صاحبها الشكلية .

من هذا نستعرض الصفات الخلقية للنبي محمد ﷺ فنعلم من كتب السيرة ومن كتب الحديث أنه اجتمع له من الأخلاق الانسانية العالية مالم يجتمع لسواه من عظماء التاريخ . فان عظمة رجال التاريخ تقوم دائماً على جانب بعينه ، فالبطش والتهور الذى يسمى شجاعة ، والقسوة والاسراف فى القتل كانت أساس عظمة هولاكو وتيمورلنك ، ونابليون ، والحب والشفقة كانت أساس عظمة بوذا النبي ، أما أن نجد عظمة تقوم على البطولة والشجاعة والحب والشفقة والعفو والحزم والتكليف والتيسير مثل ما ستقرأون فلا . نعم لا .

لقدكان من خلقه ﷺ أن لايشق على أصحابه ، حتى انه حين يتحدث كان حديثه لو عده العاد لأحصاه ـ أى انه لم يكن يدعم الحروف ولا الكلمات ولا يسرع فى قوله ـ وكان يكرر مايقول ثلاثا حتى يستطيعوا أن يفهموا ويحفظوا ماقال . وكان ينهاهم أن يشقوا على أنفسهم بالعبادات ، أو يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم مبالغة منهم فى التدين . وكان يأمر قواد جيوشه بالرفق فى السير بحيث يقدر عليه أضعفهم ويحفظ به قوا أقواهم . وكان رحيما بأصحابه ، باراً بالانسانية كلها ، صبوراً على الأذى .

روى أنه لما توفى ﷺ وقف عمر بن الخطاب يبكى ويقول : « بأبى وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ولو دعوت مثلها علينا لهلكنا من عند آخرنا ، فلقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت : « أللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون » » .

فهذا غاية الحلم بل فوق غاياته ، حلم وسعة صدر ، وعظمة نفس على

قدر حظ العظيم او الزعيم منها ، تكون زعامته وعظمته . وأما رفقه بالانسانية وبره بها فقد أصابت قريشاً سنة قحط ، وكانوا فى حرب معه ﷺ فجمع الأقوات وأرسلها الى زعيمهم أبى سفيان ، فهل سمع أحد بمثل هذا من محارب لمحاربيه .

ويتجلى رفقه بالإنسانية فى شريعته فيما يتعلق بالرق ، فإنه وصى بالرقيق جميعاً لافرق بين مصدق به ومكذب ، وجعل عتق الرقيق غير قاصر على المسلمين من الأرقاء بل حق شايع لكل مرقوق .

وهذا الذى جمع الأقوات فأرسلها الى قريش وهو على إبادتهم أو تركهم تقتلهم المجاعة قدير ، هو بعينه الذى منع القرشيون عنه القوت قبل ذلك ، وهو مع أصحابه وأهله فى شعاب مكة ، وتعاهدوا - العهد المعروف فى التاريخ - على أن يتركوه وأهله وأصحابه يموتون جوعا ، وعلقوا معاهدتهم بالكعبة ، ومع ذلك لم يجزهم على سيئآتهم بسوء بل أحسن اليهم . وهو الذى جاءه قاتل عمه حمزة ليسلم - حمزة الذى كان أعز شباب قريش وأسماهم مكانة ولا ضريب له فيهم ، والذى قيل له وهو عائد من صيده إن أبا جهل لطم محمداً فمضى الى الكعبة لفوره فلطم أبا جهل واستعد لحرب تقوم بينه وأتباعه من الشباب الذين يتزعمهم ، وبين قوم أبى جهل ، وحمى الرسول ونصره وأعز كلمته - جاءه قاتل حمزة فعرف الغضب فى وجهه ، ولكنه لم يزد على أن حول وجهه عنه ، : « وقال اعزب عنى لاترينى وجهك » ، وكان على أن يقتله قدير ، وصاحب حق شرعى وعرفى .

ويروى من وجوه عديدة أنه ﷺ عاد مع أصحابه من غزوة فأدركتهم القائلة فى واد كثير الغضاة ، فنزلوا ليستريحوا ونام رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه ، ونام أصحابه متفرقين ، وإذا عنده أعرابى مشرك

اخترط سيف النبي وقام على رأسه وهو نائم ، فانتبه النبي وإذا الأعرابى على رأسه وقدأخذ سيفه وهو يقول من يمنعك منى ، فقال له النبى الله ثلاثاً فسقط السيف من يده فأخذه النبي وقال من يمنعك منى فقال الأعرابى « كن خير آخذ » فعرض عليه الإيمان بنبوته فأبى فخلى النبي مع ذلك سبيله ولو قتله لما كان إلا جازيا له بفعله .

ولا يجهل أحد قرأ تاريخ بعثة محمد ﷺ ، وتاريخ العرب مافعل به أهل مكة ، وما صبوا عليه وعلى أصحابه من أنواع الإيذاء ، وانه كان يتحرق ألماً لما يصيب أصحابه ، صابراً على مايصيبه هو ، فماذافعل بعد أن قدر على القصاص منهم ، وصار فيهم أميرهم وسلطانهم والقائد الظافر بهم . فتح مكة فى حرب التأديب التى أعلنها على قريش حين نقضت حليفتها ـ بنو بكر ـ عهدها مع خزاعة حلفاء النبي فوقف فيهم خطيباً قال : « ماتظنون أنى فاعل بكم ـ وكان طبيعياً أن يظنوا انه معلق لهم المشانق ، وموص بالسيوف البواتر تحز أعناقهم جزاء ماقدموا له من إساآت ولرسالته من عقبات ، ولكنهم وهم أعلم بخلقه وعلو نفسيته ـ قالوا نظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ظفرت وقدرت فان عاقبت فنحن أحق بالعقوبة وإن عفوت فأنت أهل للعفو قال اذهبوا فأنتم الطلقاء » وعفى عنهم بهذه القولة عفواً شاملاأفرادهم جميعاً ، وجرائمهم جميعاً .

وكان محمد كريماً زاهداً ولم يكن فقيراً ، فهو فى مطلع شبابه يتجر فى أموال السيدة خديجة ، ثم هو زوجها المتصرف فيما تملك ، ثم وريثها ، ثم صاحب الفىء فى الحرب ، وكم غنم غنائم كثيرة ، ولكنه مع ذلك كان يجوع يوماً ويشبع يوماً . وكان يرتاح الى هذه الحياة حتى يضرع الى الله إذا جاع ، ويشكره إذا شبع .

أما كرمه فعليه آلاف من الدلائل ، وحسبك انه ربح من غنائم الحرب خمس أسلاب الأمم التي غزاها وانتصر عليها ، وهي كثيرة : ثم لم يشبع من خبز الشعير كما اتفق الرواة عليه .

وهذا الخمس يساوي ثروة أعظم عربي في عصره ﷺ أو يزيد كثيراً . وصفة الكرم فيه ضرورة للنبوة ، لأن النفس التي تميل الى أسباب الترف ـ وهي مايوفره المال والثراء ـ نفس ذليلة أسيرة الأماني الكواذب الدنية ، والمطامع الحقيرة المادية .

أما النفس الزاهدة القوية على مطالب الحياة والمستغنية عن ضروراتها فهي النفس التي لاتقهر ولا تغلب ولا يغرها شيء من غايات المجد .

فعلى هذا النهج ، وبمثل هذه النغمة أراد النبي محمد ﷺ أن يصوغ المسلمين فما أتعس المسلم الذي تستعبده شهوة المال ويقهره حب الثروة ، وما أشد مجافاته لسيرة نبيه وبعده عن أصل من أصول الإسلام ، وإن حج وصلى وصام

وهذا النبي الذي له في قومه وأصحابه وأتباعه منزلة التقديس ، كان يخصف نعله ويخيط ثوبه بيده ، ويحلب شاته ويعمل مايعمله الرجال في بيوتهم وذلك لتواضعه وزهده وعلو نفسه ، وكان لايستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي لهم حاجاتهم : وكان يزور الأنصار ويسلم على صبيـــانهم .

أما دليل شجاعته فهو مقاتل في حرب الفجار وعمره عشرون سنة وقوله : « وددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل » .

وإليكم دليلا على شجاعته يفوق كل دليل : حين التقى المسلمون وكفار قريش في غزوة حنين ، كان المسلمون يفوقون خصومهم عدداً ، فظن المسلمون أنهم غالبون وأعجبتهم كثرتهم ، فوقعوا في كمين فانهزموا وثبت النبي

محمد ﷺ فى عشرة فقط من أصحابه ، ومن الطبيعى انه ثبت محارباً يقوم بمهمة جيش كامل ولم يثبت متفرجا ولا ثبت ليأخذ أسيراً أو يقتل ، وكان ثباته وإهابته بالمسلمين أن يجتمعوا اليه ، داعياً الى تجمعهم ثم انتصارهم . وفى هذه الوقعة أصابه ﷺ أذى كثير هو أبلغ الأدلة على شجاعته الحربية وعظمة قيادته ، وهو موقف لو تعرض لمثله غيره من أبطال العالم لما ثبت دقيقة كاملة بعده أو يقتل أو يؤسر .

وبالجملة يمكن لمن شاء معرفة النبى ﷺ أن يراجع القرآن . فقد كان خلقه . برضاه يرضى وبسخطه يسخط ، علمه ربه كيف يمشى ، وكيف ينام ، وكيف يحارب ، وكيف يسالم ، وكيفية سائر الآداب الإجتماعية كما زخر القرآن بتفصيلها وتوضيحها .

ذهنية النبى محمد ﷺ

رأى القراء من عرض صفاته الخلقية والأخلاقية ، كيف انه يسموا على كل شخصيات التاريخ .

ونحب قبل أن نتكلم عن ذهنيته العظيمة المنيرة أن نقول استطراداً كلمة لابد منها . هى أن النبى محمداً ﷺ لافضل لمجتمعه فى تكوين ذهنه ، ولا فى أي صفة من صفاته النفسية الممتازة ، فان محمداً لم يخرج من مجتمع قوم

فلاسفة كان فيهم نظراء أرسطو وأفلاطون ، ولا بعث من مجتمع قوم مؤمنين ولا من بين قوم أهل كتاب ، ولا من مجتمع كانت فيه بطولة كبطولة الإسكندر ، فتكون بيئته قد منحته تلك الصفات ، ولم يكن له معلم ولا مرشد ، فكل مميزاته إذن كانت له بالفطرة لا بالكسب ، وفطرته هى التى عزلته عن شرك العرب وباعدت بينه وبين عباداتهم الوثنية ، وعكفت به فى غار حراء ليكشف ويتأمل . وما أحسن قول ـ كارليل الإنكليزى فيه ـ : « كان عصره وقومه حطباً يابساً ميتاً أصابه هذا الشهاب فألهبه وأشعله وأضاء به ناراً مقدسة هادية » .

لم يخلق الحطب اليابس الشهاب المحمدى ، ولكن الشهاب خلق من الحطب ناراً وطهراً وتقوى . وما أحسن قول ـ كارليل ـ أيضاً فيه : « الحقيقة الكبرى هى انه رجل صادق ونبى مرسل » . وما أبدع قول فيلسوف الألمان ، وشاعرهم الأكبر ـ جوت ـ عن شريعة محمد : « إذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون » .

ويعلن لنا تاريخ النبى محمد ﷺ إنه لم يتأثر خطى أحد قبله ، ولا انتهج منهاجاً لعظيم سبقه ، ولا مضت شريعته على نسق الشرايع القديمة فيكون مقلداً أو ناقلاً ، بل جاء لمجتمع متخرب فأقام قواعده على مبادىء الحق والخير والفضيلة ، ولنفوس محطمة . فشاد فى جوانبها مجد الإنسانية النبيلة .

وا عجبا للذين يطعنون على النبى محمد ﷺ ، رجل محق من المجتمع الذى بعث اليه مفاسد الرق ، ومفاسد الخمر والزنا ، ومفاسد الوثنية ، ومنح قومه وكل المؤمنين برسالته ـ من غير قومه ـ المجد الدولى ، والكرامة الشخصية ، ونشر العدالة الصحيحة ، وأقام مكارم الأخلاق بأجمل ما تصورها

أحلام الفلاسفه ، وجاء كتابه بتمجيد الله والتحريض على التعاون الإنسانى والترغيب فى الإحسان ، وترقية الروح ، وتحريم مايؤذى البشر فى أجسامهم أو معنويتهم ، وبيان أحكام سياسة الانسانية ، ومدح الأنبياء جميعاً بلا تفريق بين أحد منهم ، وحدث الناس عن الغيب الآخر : القيامة والحشر والجزاء ، ودعا الى الكرم والسخاء - وكان قدوة فيها لقومه - والرفق والعفو ، ومقابلة الإساءة بالاحسان ، ومحبة الله مع إجلاله .

هذه هى مطالب القرآن ومقاصده ، أفلا تشهد للداعى اليها بالنبوة .

نعود الى الكلام عن العنصر الثالث من عناصر الشخصية المحمدية ، وهو ذهنية النبي محمد ﷺ وكان يكفينا أن نقول فى إثبات تفوقها على الأذهان جميعاً انها قاومت كيد العرب لدعوته ، ومحقت وسائلهم وذكائهم اللامع المدبر لقتله ، وساست دولة الإسلام فى عشرين سنة حتى مات ﷺ بعد ماحج معه فى حجة الوداع ماءة وأربعة عشر ألفاً من المسلمين . ولكننا سنذكر وقايع معينة من وقايعه الذهنية العديدة بحيث لا نطيل .

حين اشتد أذى قريش لأصحابه أمرهم بالهجرة الى الحبشة ، لأن ذهنيته رأت أن لقوة الإحتمال النفسية والجسدية حداً ، وإن أذى قريش لهؤلاء المسلمين المستضعفين يتزايد . فأمرهم بالهجرة حتى لا يفتنهم المشركون عن دينهم ، واختار عقله القوى مملكة الحبشة لأن ملكها كان من فريق النصارى المؤمنين بنبوة عيسى عليه السلام ولم يكن من المؤلهين له ، وذلك التوافق فى المعتقد بين رأس الحبشة وبين الفارين اليه بعقائدهم كفيل براحتهم وأمنهم ، وذلك هو الذى كان عند ما كلم زعماء المشركين النجاشى فى أن يسلم هؤلاء المهاجرين فناقشهم . فلما علم بأمر دعوة النبي محمد وانه ينفى ألوهة عيسى قاس على صدقه فى هذه صدقه فى غيرها ، وعلم أنه الذى بشرت به الأناجيل ،

فأوسع لهم من رحابه ، وأرسل الى النبي الكريم رسالة كريمة ، وآمن به ، ولقد صلى عليه النبي صلاة جنازة الغائب يوم مات .

حين ائتمرت قريش بما مكر لها أبو جهل ، وهو أن يجمعوا من كل قبيلة شابا ، فيجمعون ماءة يقفون على دار النبي ﷺ فاذا ماخرج قتلوه قتلة رجل واحد ، أو يهجموا عليه وهو نائم فى فراشه فيقتلوه فيتفرق دمه فى القبائل فترضى قومه بنو عبد مناف بقبول الدية . علم ﷺ بما مكروا إذ أوحاه الله تعالى اليه فأمر علياً عليه السلام بالبقاء فى فراشه ملتفاً ببردته ، ليطمئنوا على وجوده فى بيته ، وانهم مصبحوه بمكرهم السوء ، وخرج عليهم فى الليل وقد عموا عنه ، فلو لم يسعف ذهنه بفكرة الهجرة ، ثم أحكمها بترك بديل ملتف ببردته ، لانتبهوا وهم يرقبونه فى نومه الى عدم وجوده ، فلحقوا به قبل أن يخرج من طرقات مكه .

وفى سيرة النبي محمد ﷺ أروع من هذا الذى ذكرت وأمجد ، ولكنها أمثلة تحضرنى ، ولعلها تكفى الى التوجيه الى قراءة سيرته عليه السلام وتكوين الملكة لدى القارىء التى يستطيع بها دراسة مايقرأ من السيرة ، دراسة فلسفية ، واستخراج دلالات مازخرت به الكتب سرداً بدون أن تستخرج دلالته منه .

أو تجعل الوقائع والحوادث وسيلة الى تحليل الشخصية وتعليل فلسفة محمد وعبقريته فى تطبيق ما أوحى به اليه . فان من مزايا الرسالة المحمدية ، ان الرسول الأعظم علمها لأصحابه وخرجهم فيها أساتذة فاقهين فاهمين .

وصفوة القول يمكن لمن شاء معرفة النبي محمد ﷺ أن يراجع القرآن فقد كان خلقه برضاه يرضى ، وبسخطه يسخط ، علمه ربه كيفية سائر الآداب الإجتماعية والتحريض على التعاون الانسانى ، والترغيب فى الإحسان ،

وترقية الروح ، وتحريم مايؤذى البشر فى أجسامهم أو معنويتهم ، وبيان أحكام سياسة الإنسانية ، والكرم والسخاء ، والرفق والعفو ، ومقابلة الإساءة بالاحسان .

وإنى لأدعو كل إنسان يريد المجد ويطمح اليه ، أن يقرأ ويدرس ماوضعه النبي محمد ﷺ من نظم ومثل عليا ، لتتأثر بها مشاعره وخلائقه وها هى بين يدى القارىء نرسم خطوطها فى فصول من كتابنا هذا (الثالث من الجواهر الروحية) للتدليل على خطر قدره ، وسمو شرعه .

محمد ﷺ على لسان الألوهية

مَن من الناس لايتطلب الحرية ويسعى إليها ؟ ومن من الناس يرضى أن يوصف بصفة العبودية — وفيها منتهى الذلة — لمولى يتصرف فيه كما يشاء ويسخره لما يريد ؟ فلا غرو إذا ما نفر منها كل من له شيء من الشعور بالذات والإحساس بالكرامة .

والواقع أن الناس جميعاً مستعبدون لشهواتهم ، مسخرون لتحقيق ماتمليه عليهم نفوسهم المطبوعة على الشر وهم لايشعرون .

أجل: من الناس من هو مولع بحب المال حباً يأخذ عليه مشاعره فيجد فى طلبه ويعمل على جمعه بأى وسيلة مهما كلفه الأمر ، ومهما صادفه فى طريقه من مخاطر أن يسمح بدانق منه فى وجه بر أو عمل خير ، وهو فى النتيجة سيتركه إذا مات ولن يأخذ منه معه شيئاً . ولو عقل أمثال هؤلاء لأدركوا أنهم قد أضاعوا الوقت فى غير مصلحة وطلعوا من الحياة بغير كسب ، وهكذا كل من يصرف أوقاته فى اتباع هواه وماتمليه عليه نفسه من أنواع الملذات ، يمعنون فى السير وراء عواطفهم وإشباع شهواتهم التى لاتدعوهم إلا إلى لذة موقتة ، ونعيم قصير الأمد .

والناس كلهم عبيد لله الذى خلقهم ورزقهم ودعاهم الى طاعته ووعدهم بجنته . ولكنهم لايشعرون بهذه العبودية ولا يحسون بمبلغ نعم الله عليهم

وحاجتهم اليه فلا يحاولون الإتصال به وأداء واجب طاعته ، بل ربما نفروا من الإتصاف بها . والشعور بالعبودية لله وحده فى الواقع هو الحرية الذاتية التى يتطلبها كل عاقل كشف عن ناظره حجاب الغفلة فأدرك أنه لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى ، فلا ينبغى أن يكون لأحد سلطان عليه سواه ، وأن النفس إنما تدعو الى لذة فانية ، والله يدعو إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وأن الناس كلهم سواء لا تفاضل بينهم فى الحياة إلا بمقدار مايقدمونه من عمل صالح يبقى ذكره ويظل أثره ويدوم نفعه . هذه الحقيقة إذا تجلت للعاقل لا يسعه إلا أن يخلع عن كاهله نير الإستعباد لأى إنسان بل حتى لنفسه التى بين جنبيه ، ويتجه بكليته الى الله ينفذ أوامره ، ويسعى لرضاه فلا يلبث أن يذوق طعم حبه ، ويجد أثر هديه ، ويحس بالعناية الإلهية وهى تؤيده فى كل عمل وتعينه على كل صعب .

وهذا ماحصل لخليل الله إبراهيم عليه السلام عندما أنكر على قومه عبادة الأوثان التى لا تنفع ولا تشفع ولا تغنى من الله شيئاً ، وأخذ يبحث عن الله حتى عرفه ، فوجد عنده اليقين والإطمئنان فلم يعبأ بما سواه وعندئذ وجد البرد والسلام فى ناره بدلا من الآلام . وشعر بنعمة الراحة فى الهجرة والسياحة ، وأكرمه ربه وأجزل له العطاء . وهذا ماحصل أيضاً لخليفته من بعده محمد بن عبد الله ﷺ فقد أبت عليه نفسه الكريمة أن تدين لغير إله واحد أحس به فى نفسه وعرفه بآلائه ، فتوجه اليه بفكره ، وبالغ فى حبه فهجر الناس من أجله . وضحى بملذات الحياة فى سبيله ، وآثر الرضاء بما لاقاه من أذى قومه على ماعرضوا عليه من المال والجاه ، فأيده الله ونصره وأمده بتوفيقه ، فكان خاتم النبيين ، وإماماً للناس أجمعين .

فلا غرو إذا فاخر ﷺ بعبوديته لمولاه . وعمل بما تقتضيه تلك

العبودية من الطاعة - وأمر أصحابه ألا يتجاوزوها فى مديحهم له حيث قال : « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله » . حقاً ماأعظم هذه الكلمة التى تدل على كمال المعرفة والإعتراف بمنتهى الذل والخضوع لله رب العالمين .

وكفاه فخراً بهذا ، وما عسانا أن نمدحه بأكثر من هذا ، أللهم إلا أنه رسول الله . والرسالة من الملوك تعطى للرسول قيمة المرسل ، وتفرض تقديره واحترامه . فمابالك بالرسالة من قاهر الملوك ومالك السماوات والأرض رب العالمين للناس أجمعين ، أبعد هذا من فخر وشرف . عبودية صادقة خالصة لله ، ورسالة منه جل وعلا للناس كافة . ما أسعده ﷺ . بهذين الشرفين العظيمين والمقامين الرفيعين . ولا محل للزيادة على هذا ، غير أنا - ونحن بصدد ذكر مقامه وفضله - نرى من واجبنا أن نذكر بعض ماوصفه الله به ، أوما وصف به نفسه من باب التحدث بنعمة الله عليه ، « فالله يؤتى فضله من يشاء » .

لم يكن محمد ﷺ رسولا من الله الى الناس لمجرد التبليغ فحسب ، بل لقد عهد الله اليه بأمر هداية الناس إلى ماينفعهم فى أمر دينهم ودنياهم . قال تعالى : « وإنك لتهدى الى صراط مستقيم » ، وهداية الناس ليست بالأمر اليسير ، بل هى مهمة شاقة يعجز عنها فطاحل الرجال ، وأكابر الحكماء . ولقد خول الله رسوله أن يجاهد فى هذا السبيل بكل ما آتاه من مال وجاه وسلاح : « ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » . . . ولقد صدع رسول الله بهذه المهمة بحكمة فائقة ، وشجاعة نادرة ، فجاهد فى الله حق جهاده ، مؤثراً فى ذلك الحسنى واللطف على الشدة والقوة ، ومتدرعا بالصبر والحلم ومكارم الأخلاق حتى بلغ غايته وأدى مهمته ، ونشر دينه في

الخافقين ، ولم يلجأ الى استعمال القوة فى فرض هدايته على الناس ، بل كان يقول عند إيذاء قومه له : « أللهم إهد قومى فإنهم لايعلمون » ولم يلجأ الى الحرب إلا دفاعا عن دينه ورد الأذى عن قومه ، عملا بقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » ولقد أطرى الله رسوله وأثنى عليه بذكر فضائله من عدة نواح نلخص منها ما يأتى:

أولا : من الناحية الخلقية ، إذ هى النقطة الأساسية فى مقومات الإنسان ، فقال له تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » وهذه شهادة من الله لرسوله بأنه نال منتهى الكمال البشرى فى هذا الباب الذى شمل جميع الخلال الحميدة . وهى شهادة مابعدها شهادة ، ولم يسبق أن تفضل الله بمثلها على أحد من رسله السابقين .

ثانياً : من الناحية العلميه ، حيث شهد له جل وعلا بأنه هو المعلم الذى منحه العلم بطريقة غير مكتسبة ولا مألوفة ، بل فضلا منه وكرماً حيث قال : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » ولم يكتف بهذا العلم الذى منحه لنبيه بل إنه صرح جل وعلا بأن رسوله قد بلغ فى هذا الشأن مكانة تؤهله لأن يربى النفوس ويثقف العقول ويملؤها علماً لم تكن تعلم به حيث قال : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون »

ثالثاً : من الناحية التهذيبية الروحية ، حيث شهد له تعالى بالقدرة على التأثير فى سامعيه وإنارة طريقهم فى الحياة حيث قال : « وإنك لتهدى الى صراط مستقيم » .

رابعاً : من الناحية الدينية ، حيث أخبر الله رسوله بعظمة المهمة الملقاة على عاتقه ، وهى انتشال الناس من ظلمات الجهل بحقائق الأمور

وأصول الأشياء مما يؤدى الى الكفر بالله تعالى وإشراك غيره معه ، ويبدد نور اليقين بخالق جميع الموجودات المهيمن على كافة القوى الباطنية . وما فوق مستوى العقول البشرية حيث قال : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » .

خامساً . من الناحية العملية ، حيث أخبر الله رسوله بأنه لم يكن يريد من رسالته إلا مجرد إيصال الرحمة الى عباده . ولذا فمن واجبه أن لا يضيق ذرعا فى هدايتهم ، ولا يكل من دعوتهم فيتعجل الدعاء عليهم بالخراب والدمار إذاهم خالفوا أمره وأبوا اتباع هديه . كما حصل ممن سبقه من الأنبياء بل عليه أن يعمل بكل الوسائل والطرق على إصلاح شأن العالم ، واستحقاق الجميع للرحمة والرضوان حيث قال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

سادساً : من الناحية الشخصية ، حيث امتن الله عليه بأنه تعالى هو الذى شرح صدره للإيمان فلا يغلق أبداً ، وأعانه على تحمل أعباء الرسالة فلا يفشل أبداً ، ورفع ذكره فى الخافقين فلم يزل عالياً تردده الألسن ، وتخفق له القلوب إلى أن تقوم الساعة .

وبلغ من سمو منزلة هذا الرسول عند الله ان اختصه جل وعلا بعدة مزايا جعلته بين الناس فى أعلى مقام ، وأهلته لأن يقول ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ، وإذا كان هو سيدهم يوم القيامة فهو سيدهم فى الدنيا من باب أولى . . . وكان من أهم تلك المزايا ما يأتى :

١ ـ أن الله تبارك وتعالى جعل أول أركان الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، بحيث لا يعد مؤمناً بالله من لم يؤمن برسالته عن ربه فقال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » ، وقال تعالى :

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا » .

٢ - أن الله تبارك وتعالى قد اعتبر طاعة هذا الرسول طاعة له جل وعلا وبيعته بيعة لله حيث قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » وقال تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم »

٣ - أن الله تبارك وتعالى قد قرن بين طاعته وطاعة رسوله ، وأخبر العباد أنهما على حد سواء ، ثم أكد لهم أن طاعة هذا الرسول ﷺ هى سبيل الهداية ، وسبيل الرحمة ، ومن موجبات دخول الجنة حيث قال تعالى : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فانما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » وقال أيضاً : « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » وقال : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولى يعذبه عذاباً أليما » بل انه تعالى أوجب على العباد الخضوع لأحكامه والرضا بها سراً وجهراً ، وعدم التبرم منها حيث يقول تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

٤ - أن الله تبارك وتعالى قد أوجب على الناس أجمعين اتباعه فى أعماله واقتفاء سيرته حيث قال : « قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السماوات والأرض لاإله إلا هو يحي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

٥ - أن الله تبارك وتعالى قد جعل من أدلة محبة الناس له واستحقاقهم لمحبته وغفرانه تعالى لهم - اتباعهم لرسوله حيث قال « : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

٦ ـ أن الله تبارك وتعالى أشار إلى مبلغ عظمته وعلو شأنه ، حيث أقسم بعمره ﷺ دون باقى الأنبياء الكرام فقال : « لعمرك إنهم لنى سكرتهم يعمهون » .

٧ ـ أن الله تبارك وتعالى قد قضى بنبوته منذ خلق آدم كما ورد عنه ﷺ : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وأخذ الله الميثاق على جميع الأنبياء الذين سبقوه أن يوصوا أقوامهم بالإيمان به ونصرته ، حيث قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » وفعلا أيدت الرسل كلها هذا الميثاق بما أخبر الله به فى القرآن عن لسان عيسى فى قوله تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد » وقوله تعالى أيضاً : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » بل وأخبر جل جلاله بأن النصارى واليهود لا يجحدون رسالته ، لأنهم يعرفون هذا من كتبهم ، غير أن كثيراً منهم يكفر به ويكتم هذا المرض فى قلبه حيث قال : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .

٨ ـ أن الله تبارك وتعالى الذى اختار أن يخاطب رسوله موسى فى الوادى المقدس من الأرض ، قد تفضل فعبر عن عظمة رسوله محمد ﷺ

إذ أسرى بروحه وجسده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ، ثم عرج به إلى السماء حيث عين موضع خطابه فوق السماوات السبع « عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى » وهنالك رأى الرسول الأعظم من آيات ربه الكبرى مارأى . وإذ ذاك فرض الله عليه الصلاة . فما أجله من مقام لم يبلغ اليه أحد من الناس . وفيه دلالة عظمى على مانال النبي ﷺ من مكانة سامية فاقت الأولين والآخرين .

٩ - أن الله تبارك وتعالى قد جعل دينه هو الدين الحق المعصوم من الكذب والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حيث قال تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » ، وقال أيضاً : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقال أيضاً : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

١٠ - أنه تبارك وتعالى قد أكمل بدينه شريعة إبراهيم ، وجعله ناسخاً لما سبقه من الديانات ، وهو المرجع الوحيد الذى يهتدى به ولا يعول على سواه حيث قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، « إن الدين عند الله الاسلام » ، « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وكان من عظيم تقديره تعالى لمكانة عبده ورسوله أن أحاطه بسياج من العظمة والجلال ، وأوجب له من مظاهر التبجيل والاحترام مايليق بمقامه كرسول من قبله للناس أجمعين وكان من أهم ذلك مايأتى :

١ - أنه تعالى أوجب على الناس أن يتأدبوا فى حضرته ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ وأنذرهم بأن ذلك يستدعى حرمانهم من ثواب أعمالهم ، حيث قال : « ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت

النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »

٢ ـ أنه تعالى أمر الناس بعدم ندائه باسمه مجرداً عن اللقب كباقى الناس مراعاة لواجب الاجلال والاحترام فى مخاطبته ﷺ حيث قال : « لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » ، وكذلك لم يخاطبه ربه فى القرآن إلا بقوله : ياأيها الرسول ، ياأيها النبي . . . وجرى على هذا الصحابة (رضوان الله عليهم) فلم يدعه أحد منهم إلا بمثل ذلك .

٣ ـ أنه تعالى أوجب على الناس استئذانه فى مهام الأمور وعدم الخروج عن طاعته ، والنزول عند إرادته ، حيث قال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم »

٤ ـ أن الله تبارك وتعالى حكم بسلب عقول جماعة من الناس جاؤا لمقابلة رسول الله ﷺ ، ولم يكن قد جلس فى مجلسه العام ، فعمدوا إلى استعجاله ونادوه من خارج الجدار ، فأنزل الله على نبيه مايدعو الى عدم الإكتراث بهم ، حيث قال له : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » .

٥ ـ أن الله تبارك وتعالى ندب لزائرى هذا النبي الكريم أن يطهروا نفوسهم ويزكوها من النقائص بأن يتقربوا الى الله بالصدقات قبل الحظوة بالمثول بين يدى رسول الله ، حيث قال : « ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول

فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر ، فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم » .

٦ ـ أن الله تبارك وتعالى قد انتزع الخوف من قلب رسوله ﷺ وبشره فى كتابه العزيز انه تعالى سيتولى حفظه وعصمته مما يدبره خصومه له من القتل حيث قال : « والله يعصمك من الناس » .

٧ ـ أن الله تبارك وتعالى بالغ فى تهديد خصومه وكل من يأتى بأمر أو يصدر منه فى حقه قولا يؤذيه ، أو يدبر له المكائد ، حيث قال : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهينا »

٨ ـ أن الله تبارك وتعالى قد أنزل أشد غضبه على جماعة من الناس لغطوا فى حقه ﷺ وقالوا عنه : إنه أذن ـ أى سماع لكل مايقال له ـ فجعل الله جل جلاله هذا إيذاء لرسوله وقال فى كتابه : « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم . والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

٩ ـ أن الله تبارك وتعالى قد بالغ فى إجلال نبيه حتى حرم على الناس التزوج بنسائه ، واعتبر هذا من إيذائه ، حيث قال : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيما » .

١٠ ـ أن الله تبارك وتعالى خص المسلمين على القيام بواجب نصرته ، وهدد المتقاعسين منهم عن مؤازرته ، وضرب لهم مثلا بنصر الله له بقوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله

عزيز حكيم » .

١١ - أن الله تبارك وتعالى أبى حتى على نسائه أن يسيطرن عليه بدلالهن وكيدهن حيث قال : « إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » .

١٢ - أن الله تبارك وتعالى قد حفظه من خداع أعدائه حيث قال : « وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله . هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

١٣ - أن الله تبارك وتعالى قد بشره بدوام رضائه عليه ، وعدم التخلى عنه فى الدنيا ، وأن آخرته خير من دنياه ، وأنه سيعطيه فيها مايريد حتى يرضى حيث قال : « والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

وصفوة القول حسبه فخراً وشرفاً أن الله عز وجل قد أعلن للملأ أنه تعالى قد صلى عليه هو وملائكته - والصلاة منه رحمة ورضا - وأمر المؤمنين أن يكثروا من الصلاة والسلام عليه ، فان من صلى عليه صلاة صلى الله عليه بها عشراً حيث يقول تعالى :« إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

اسلوب نشر الدعوة عند محمد ﷺ

لقد تم لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة ما يريد من تكوين دولة إسلامية مهابة الجانب ، موفورة الكرامة . ومن تطهير البيت الحرام من الأوثان التي كانت منصوبة بداخله وعلى جوانبه والتي من أجلها كان يؤمه الناس من مختلف الجهات ليؤدوا شعائر العبادة لتلك الآلهة التي يشركونها مع الله ، ويزعمون أنها تقربهم اليه زلفى ، وهى موجودة وقائمة هنالك . فلما هدمها الرسول ﷺ ونهى المؤمنين عن عبادة غير الله لم يدنه غيرهم من ارتياد تلك الأماكن لإقامة طقوسهم المعتادة فيها ، وفى هذا ما فيه من التحدى لرسول الله ودينه الحق . فالله جل وعلا عند ما اتخذ له فى تلك البقعة المشرفة بيتاً يتجه اليه من أراد عبادته ، وجعله مثابة لقاصديه وأمناً ، عهد الى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا ما حوله للطائفين والعاكفين والركع السجود . ثم جاء المشركون فأقاموا لهم فى ذلك البيت أصناماً عبدوها من دونه وكان هذا منهم شركا ينافى التوحيد فإذا هدمت الأصنام فلا معنى لبقاء عبادتها من دون الله فى ذلك المكان .

ولما كانت رسالة النبى ﷺ إنما تقوم على أساس محاربة الوثنية وعبادة الله وحده ، فليس من المعقول أن يقر الشرك بالله بأى صورة من الصور ، وفى أى جهة من الجهات التى يبسط عليها سلطانه . فكيف تهضم نفسه أن

يرى المشركين يحجون الى مكة ويقيمون طقوسهم على مرأى ومسمع منه ، وما هو السبيل الى منعهم من ذلك وقد أخذ على نفسه عهداً عاماً أن لا يصد عن البيت أحداً جاءه . وأن لا يجعل أحداً يخاف فى الشهر الحرام كما كان بينه وبين بعض القبائل من العرب عهوداً خاصة الى آجال مسماة .

وغير هذا فانه ﷺ انما أرسل للناس كافه ، ومن أهم مبادىء شريعته حرية الرأى ، وعدم التعرض للناس بالأذى فى عقائدهم وشعورهم فكيف يكره الناس على الإيمان به وهو الى جانب هذا أيضاً مأمور أن ينفذ ماأمر به جده ابراهيم عليه السلام - مؤسس الشريعة الإسلامية - . من تطهير بيته من كل مالا يصلح أن يكون بجواره من الرجس الحسى - كالأصنام - . وقد حصل وأزيلت والرجس المعنوى كعبادة غير الله وهذا مايجب أن يكون بتخصيص مكة لمن آمن به تعالى من الطائفين والعاكفين والركع السجود . وله كامل الحق فى هذا من عدة وجوه يتلخص ما نتصوره منها فيما يأتى :

١ - لأن عبادة غير الله أمام بيت الله وعلى مرأى ومسمع من المؤمنين الذين لايدينون لغيره يعد تحدياً لهم وجرماً لإحساسهم ومضايقة لحريتهم ، وربما كان هذا سبباً لتشكيك المسلمين فى دينهم وتذكيرهم بدين آبائهم

٢ - لأن النبى ﷺ بصفته رسولا من مالك السماء والأرض - التى نعيش فيها - من حقه أن يخصص منها مايشاء لمن يريد وفيما يراه .

٣ - لأن النبى ﷺ بوصفه رسولا من الله للناس كافة من واجبه أن يدافع عن شعور من آمن به ويحمى عقائدهم ويتخذ مايراه من الوسائل لهداية غيرهم الى مافيه مصلحتهم من سعادة الدين وخير الحياتين .

٤ - لأن النبى ﷺ لكونه رسولا من قبل الله - المربى لعباده - من واجبه أن يستعمل جميع وسائل التربية لتقويم اعوجاج الناس وإخضاعهم

لأحكام ربهم ، والعمل وفق ما أنزل الله عليه فى كتابه الكريم .

٥ - لأن شريعة النبي ﷺ لاتقتصر على مجرد الشرائع الدينية بل انها مجموعة من الأحكام الإلهية التى تنافى ما كان عليه المشركون من عادات وتقاليد يجب القضاء عليها كوأد البنات وارتكاب الموبقات .

كل هذه أفكار لم تعزب عن رسول الله ﷺ وقد تكون هى التى حالت دونه ودون أداء فريضة الحج فى عام تسع لما بينه وبين المشركين من العهود العامة والخاصة ولا يمكنه أن يحيد عنها وينقضها . الى أن نزل عليه الوحى بما يسر خاطره ، ويهدىء باله ، ويحله فى حل مما كان بينه وبين المشركين عامة وخاصة بعد موعد محدد ، ويأمره تعالى بمنع المشركين من دخول الحرم بعد ذلك العام حيث أنزلت عليه آيات من أوائل سورة التوبة هذا نصها :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ، ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين ، فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ، وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا

لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة أولئك هم المعتدون ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوماً نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ، أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ، ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً ان الله عنده أجر عظيم ، ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال

اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ، لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ، ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ، قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ياأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك

الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ، إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين ، ياأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ، انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

وعندما نزلت هذه الآيات المباركة بادر رسول الله ﷺ ودعا علياً أمير المؤمنين عليه السلام وأمره أن يخرج الى مكة ويتلوها على الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، فخرج علي عليه السلام على ناقة رسول الله العضباء وأذّن فى الناس بما أمره الرسول ، وتلا عليهم ما أمر به من سورة التوبة . ولم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف عريان .

قلنا إن النبي ﷺ قد امتنع عن الحج فى عام تسع لأن المشركين لايزالون يؤمون تلك الأماكن ويقيمون فيها طقوسهم الباطلة المنافية لما جاء به من عبادة الله وحده ، ولا يستطيع أن يمنعهم من ذلك لما ذكرنا من العهود التى بينه وبينهم الى أن أنزل الله هذه الآيات من أوائل سورة التوبة فبادر بإرسال على عليه السلام الى مكة وأمره أن يعلن ذلك على الناس فى يوم النحر .

ولما كان القرآن فى جملته بلاغا للناس ، وكانت تلك الآيات من سورة

التوبة على الخصوص إنما أنزلت فاتحة لعهد جديد من الدعوة الإسلامية التى بدأت فى مكة بالوعظ والإرشاد ثلاثة عشر عاماً ، ثم تطورت فى المدينة الى تنفيذ أوامر الله بالحكم بين الناس والدفاع عن كيان تلك الدولة الإسلامية الناشئة ، ومعالجة الأمور بالسيـــاسة واللين تارة والحزم طوراً والشدة تارة أخرى .

ولما آن الأوان لنشر الدعوة العامة على البشر كافة بعث الرسول الكتب والرسائل الى الملوك والأمراء الذين هم زعماء الأمم وقادتها ودعاهم الى الإسلام وجعله الركن الأساسى فى رسائله .

« كتابه الى هرقل »

وكان فى مقدمة الملوك الذين وجه الرسول اليهم دعوته - هرقل - امبراطور الروم - باعتباره ملك دولة من أكبر الدول فى ذلك الحين ، وكان على جانب من التدين والصلة بالله على دين المسيح حتى أنه نذر فى حربه مع الفرس أن يحج الى بيت المقدس ماشياً على قدميه شكراً لله إذا هو غلب الفرس وأخرجهم من بلاده ، ولذلك كتب له الرسول خطابا اكتفى فيه بمجرد دعوته الى الإسلام ووعده بثواب الله وحذره من تضاعف الإثم عليه فى حالة الرفض حيث قال : « بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإنما عليك أثم البريسين « ويأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سوآء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً

من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث هذه الرسالة مع ـ دحية بن خليفة الكلبي ـ الى عامل هرقل فى بصرى ـ الحارث بن أبى شمر الغسانى ـ وعندما وصل اليه أرسله بخطابه الى هرقل ليسلمه له بيده ، وكان قد خرج من حمص فى طريقه الى القدس فوافاه دحية فى مدينة ـ إيليا ـ (بيت المقدس) وسلم اليه الخطاب وترجم له فلم يجد فيه غير دعوة لله خالصة فأكرم الرسول ورد عليه رداً حسناً ، ثم أخذ يستقصى عن أمره ويسأل عن خصومه حتى هدى الى أبى سفيان وكان إذ ذاك فى تلك المدينة فى تجارة له فجاء به وسأله أن يقول الصدق ثم وجه اليه الأسئلة الآتيــة : ـ

هرقل : إخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى مايدعى.
أبو سفيان : أيها الملك مايهمك من أمره ، إن شأنه دون مايبلغك .

هرقل : أنبئنى عما أسئلك من شأنه ولا تزد . أبو سفيان : سل مابدا لك . هرقل : كيف كان نسبه فيكم ، . أبو سفيان : هو فينـا ذو نسب . هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ، . أبو سفيان : لا . هرقل : فهل كان من آبائه من ملك ، أبو سفيان : لا . هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ، أبو سفيان : ضعفائهم ، هرقل : أيزيدون أم ينقصون ، أبو سفيان : بل يزيدون . هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطـة لدينه بعد أن يدخل فيه ، أبو سفيان : لا . هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالـكذب قبل أن يقول ماقال ، أبو سفيان : لا . هرقل : هل يغدر . أبو سفيان : لا . ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيهـا « قال أبو سفيان : ولم أتمكن من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الـكلمة » هرقل : فهل قاتلتموه . أبو سفيان : نعم . هرقل : فكيف كان قتالـكم

إياه . أبو سفيان : الحرب بيننا سجال ينال منا وننال منه . هرقل : فماذا يأمركم به . أبو سفيان : يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا مايقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

قال هرقل . للترجمان قل له سألتك عن نسبه فذكرت انه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت لوكان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتدأحد سخطةلدينه بعدأن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك أصحاب الرسل لاتغدر وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فان كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده اغسلت قدميه انطلق لشأنك .

قال أبو سفيان : فخرجت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى وأقول لقد بلغ من أمر هذا الرجل حتى أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام وما زلت مرعوبا من محمد حتى أسلمت .

ثم كتب ـ هرقل ـ الى صاحب له فى رومية وكان نظيره فى العلم يخبره بأمر

الكتاب الذى جاءه من النبي محمد ، وسار هو الى حمص وهناك وافاه الرد من صاحبه يوافقه فيه على رأيه . فجمع عظماء الروم فى مقصورة له وقال لهم يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي . ففروا منه وهرعوا الى الأبواب فدعاهم أن يفصحوا بالجواب فقالوا له أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيداً لأعرابى فلما رأى نفرتهم وأيس من إيمانهم قال انى قلت مقالتى اختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه . فبقى على دينه ولكنه لم يقف موقفاً معاديا للإسلام إذ انه عندما كتب اليه ـ الحارث بن أبى شمر الغسانى ـ عامله بدمشق ـ بعد ذلك يستأذنه بحرب رسول الله ﷺ لم يأذن له بذلك وأمره أن يتغافل عنه .

وكذلك عندما بلغه ان النجاشى قد أسلم ورفض أن يدفع له ما كان يدفعه له من الخراج لم يغضبه ذلك حتى قال له ـ البتاق ـ « أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك دينا محدثاً » ، فأجابه هرقل بقوله : « رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به والله لولا الظن بملكى لصنعت كما صنع » .

« كتابه إلى الحارث الغساني »

لم يكتف الرسول الأعظم بالكتابة الى ـ قيصر الروم ـ فحسب بل وجه دعوته فى نفس الوقت الى ـ الحارث الغسانى ـ أمير قيصر على دمشق الشام إذ ذاك ـ يدعوه فيه الى الإيمان بالله ليدوم له ملكه لما علمه من عدم تدينه ، وأن همه فى الحياة لم يكن غير دوام ملكه وسلطانه على بني قومه وهذا نص الخطاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإنى أدعوك الى أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى ملكك » ، وختم الكتاب وأرسله مع - شجاع بن وهب الأسدى - فلما بلغه وسلمه الخطاب وقرأه ألقى به فى الأرض ثم قال من ينتزع ملكى منى أنا سائر اليه ولو كان باليمن جئته . وكتب الى قيصر يخبره بخبره ويستأذنه بالسفر اليه فأجابه بقوله لاتفعل وانته عنه واتنى بايلياء - أى بيت المقدس - ولما بلغ النبى ﷺ ماقاله الحارث قال : « باد ملكه » .

« كتابه إلى كسرى »

لما كان الفرس ممن لايؤمنون بالله ورسله ويزعمون أنه لم يرسل لهم نبى وكان كسرى ملكهم متغطرساً متألهاً كتب له رسول الله ﷺ خطابا يدعوه فيه إلى الإيمان بالله ورسله وبرسالاته عن ربه اليه والى قومه ويلقنه الشهادة ويلقى عليه تبعة عدم إسلام قومه حيث قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسله وأشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حياً ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس » - أى أتباعه - وختم الكتاب وبعثه مع - عبد الله بن حذافة السهمى - فلما وصل اليه الكتاب أصابه الغرور فمزق الكتاب وكتب الى باذان - أميره باليمن - أن ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين يأتيانه به ، فأطاع الأمر وأرسل من قبله رجلين من خيرة رجاله هما

ـ بابويه وخوخسره ـ فلما قدما على رسول الله ﷺ كلمه بابويه وقال : « إن شاهنشاه ملك الملوك ـ كسرى ـ قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي فإن فعلت كتب فيك الى ملك الملوك يمنعك ويكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . فأخبرهما رسول الله ﷺ إن الله قد سلط على ملكهم ابنه ـ شيرويه ـ فقتله في ليلة كذا من شهر كذا بعد ما مضى من الليل كذا وكذا ساعة ، قال الواقدي : وهو ما يوافق ليلة الثلاثاء عشرة من جمادى الأولى في سنة سبع في الساعة السادسة بعد غروب الشمس . فقالا له هل تدرى ماتقول إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا أفنكتب عنك ونخبر باذان بهذا قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي الى منتهى الخف والحافر ، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبقاع . فعادا الى باذان وأخبراه الخبر فقال : سننظر ماقال فلئن كان حقاً فلا شك انه لنبي مرسل وان لم يكن فسنرى رأينا فيه . وما لبث غير قليل حتى جاءه كتاب شيرويه وهذا نصه : « أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان يستحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه اليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه » وما انتهى باذان من تلاوة الكتاب حتى اعترف لمحمد بالرسالة وأسلم معه جم غفير من الفرس ، ودعا بابويه وقال له هل اشترط محمد غير الإسلام فقال له لا . فكتب الى رسول الله باسلامه فولاه رسول الله ﷺ مخاليف اليمن وكانت عاصمة ملكه صنعاء ، وبقي حتى مات بعد حجة الوداع فولى رسول الله ابنه ـ شهر بن باذان ـ بدله على صنعاء . ثم حقق الله قول الرسول ﷺ فملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم .

« كتابه الى المقوقس »

لقد كان من ضمن من وجه اليهم رسول الله ﷺ الدعوة الى الإسلام - المقوقس - عظيم القبط فى مصر واسمه - (جريج بن ميناء) وبالنظر لما توسمه الرسول ﷺ فى شعبه من الذكاء ، ونور البصيرة ، وانهم نافرون من حكم الفرق لما قاسوه من عنت الأسر الفرعونية التى استعبدتهم أعواماً طويلة . لم يكتف بدعوة عظيمهم الى الإسلام ، بل وجه الدعوة الى قومه ، وفصل لهم الإسلام ، وجوهر الدين الذى يدعو اليه ، وأن لاتخالف بينه وبين سائر الأديان السماوية فى مبدأ التوحيد الخالص لله والنفور من تأليه غيره من البشر وهذا نص كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله ورسوله محمد الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك إثم كل القبط « ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وبعد ختم الكتاب أرسله مع - حاطب ابن أبى بلتعة - ، فلما بلغ حاطب الإسكندرية قابل المقوقس وسلمه الخطاب أكرمه وأحسن مثواه ولكنه لم يسلم بالرسالة ولم ينفها غير انه عمد الى استرضاء الرسول حيث كتب له جواباً يقول فيه : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك أما بعد

: فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام » . وسلم الجواب الى حاطب وزوده با كرامه خاصة له وهدية أخرى الى رسول الله ﷺ هى جاريتان من أجمل بنات مصر - مارية وأختها سيرين - وبغلة شهباء ومقدار من عسل النحل . ولما عاد حاطب الى رسول الله وأخبره الخبر وقدم له الهدية ، سر لأنه قد أدى واجبه من تبليغ الدعوة وكأنه أدرك من بعث الهدية مايبشر بالنجاح ، فاختص بمارية لنفسه وأسلمت ودخل بها وولدت له إبراهيم ، وأعطى أختها سيرين الى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن .

« كتابه الى صاحب اليمامة »

وكان ممن كتب لهم رسول الله ﷺ من الأمراء - هوذة بن علي الحنفى - أمير اليمامة - وهى بلدة على بعد ستة عشر مرحلة من مكة - وكان رجلا محباً لنفسه منكباً على الملك والسلطـــان فوجه اليه رسول الله الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هوذة بن علي : سلام على من اتبع الهدى فاعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ماتحت يدك » . وأرسله اليه بعد ختمه بيد - سليط بن عمرو العامرى - فلما بلغه وقدمه اليه حسب النبي شاعراً أو سلطاناً فأخذ يساومه فى أمر إسلامه ويريد منه أن يشاركه معه فى النبوة أو الحكم ، فكتب اليه مايأتى :

« ماأحسن ماتدعو اليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك » فلما عاد سليط الى الرسول ﷺ وأبلغه الرد قال ﷺ : « باد وباد مافى يده » وما لبث أن أباده الله وأسلم أهل اليمامة .

« كتابه لأمير البحرين »

وكان ممن وجه اليهم الرسول ﷺ الدعوة الى الإسلام ـ المنذر بن ساوى التميمى ـ أمير البحرين ـ فاستجاب لدعوته واعتنق الإسلام ، ولكنه كتب الى رسول الله ﷺ يستفتيه فيما يصنعه بقومه وهم خليط من المجوس واليهود ، ويسأله الرحمة بهم ، فكتب اليه ﷺ مانصه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد : فانى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وأنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ماأسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم . وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » وبعث بهذا الخطاب ـ مع العلاء بن الحضرمى ـ فلما سلمه اليه دعا قومه وعرض عليهم الإسلام فدخل فيه من أحب ومنهم من كرهه وبقي على دينه ولكنه دفع الجزية .

« كتابه الى ملكي عمان »

وكان ممن كتب لهم رسول الله ﷺ الدعوة الى الإسلام بصورة حازمة ، وقوة متناهية ـ جيفر وعبد ابنا الجلندى ـ ملكى بلاد عمان فى الخليج الفارسى ـ حيث كتب لهما كتاباً مغفلا من العنوان بعثه مع ـ عمرو بن العاص ـ هذا نصه :

« أما بعد فانى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ، فلما سلم عمرو بن العاص الكتاب اليهما لم يترددا فى قبول الاسلام وسألا عمرواً أن يعلمهما الاسلام ، وأسلم معهما خلق كثير ووضعت الجزية على من لم يسلم .

فلما تم لمحمد ﷺ إرسال الكتب الى الملوك والأمراء الذين هم قادة الأمم . لم يبق إلا أن يتبع القول بالفعل ويضع حداً لجهل الجاهلين وجحود الجاحدين ويعلن قدسية بيت ربه ، ويصد المشركين عنه ، و يعلن راية التوحيد ويضرب بيد من حديد على من يأبى الانضواء تحت ظلها . فالناس كلهم عبيد الله الذين خلقهم وسواهم ومنحهم نعمة العقل ليهتدوا بهدايته ، وأرسل لهم الرسل للدلالة عليه ، وأنزل لهم القرآن دستوراً عالمياً كاملا جامعاً لكل ماهم فى حاجة اليه ، فمن واجبهم أن ينصاعوا جميعاً اليه ، وينقادوا طواعية

له ، ومن شذ منهم عن ذلك طبق عليه حكم الله ، ومن واجب كل مسلم يؤمن بالله ورسوله أن يتلو كتابه ، ويتبع أحكامه ، ويجاهد بنفسه وماله فى سبيل إعلاء كلمته ، وإقامة شرعه ، وحماية دينه .

لقد صدع ﷺ بتبليغ الرسالة ، وانتقل بالهجرة الى المدينة لقيادة الأمة العربية ، وسياسة الدولة الإسلامية ، وجاء دور إخضاع العالم أجمع الى عبادة الله تعالى . فأوحى الله اليه بأوائل سورة التوبة . فهو إذ يعلنها على الناس لايقصد بها إخضاعهم الى دينه الخاص ، أو النزول على حكمه ، وإنما يأمرهم باستعمال مواهبهم فى تبين الحقائق والإتصال بالله خالقهم ، والرجوع اليه جل شأنه ليصلح أمرهم ، ويحسن أحوالهم . هو لا يريد أن يستعبد الناس أو يملى عليهم سلطانه وإنما يريد أن يخلصهم من ربقة العبودية لغير الله من تلك الآلهة التى لا تنفع ولا تشفع ، ولا تغنى من الله شيئاً . يريد أن يحررهم من تلك القيود التى فرضها عليهم كبراؤهم ليملوا عليهم إرادتهم ، وليجعلوهم خاضعين لسلطانهم ، ورحمتهم فى جميع الأحوال . وهو الى جانب هذا لا يريد إلا أن يغرس روح المحبة بين كافة البشر ويجعلهم جميعاً أخوة لا تفاضل بينهم ولا تحاسد ولا تباغض .

حقاً إن الناس أحرار ، والاسلام قد كفل حرية الفرد الى أقصى درجات الحرية المعقولة ، ولكن ليس معنى الحرية الشخصية أن يذهب الفرد فيتعدى على حقوق الغير ويجرح إحساس الآخرين ، بل لا بد أن تكون تلك الحرية ضمن حدود قانون خاص ، وإلا انقلبت الحرية الشخصية الى فوضى عامة تؤدى الى إهلاك الناس بعضهم بعضاً ، ومن أجل هذا أنزل الله القرآن دستوراً عاماً للبشر وجعل من أوائل سورة التوبة مواد أساسية لرجوع الناس الى الله وقواعد إجمالية يبنى عليها طرق التعامل بين المؤمنين الموحدين وغيرهم من

المشركين . لهذا فان من الواجب دراسة هذه المواد دراسة واسعة ، لنكون على بينة من أمرنا ، وما جاء من عنده فى هذا الخصوص . وهذا يقتضينا شرح هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة التى افتتحت ببراءة الله ورسوله من العهد الذى تم بين الرسول والمشركين لنكث المشركين فيه إلا أناساً قليلين فأمر المسلمين بنبذه الى الناكثين . وقد نظم ذلك بتشريع حكيم تتلخص مواده فيما يأتى :

١ - « فسيحوا فى الأرض » أيها المشركون « أربعة أشهر » - هى شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم - آمنين على أنفسكم لايتعرض لكم المؤمنون خلالها بقتال ولا أذى ، وأنتم فى خلال هذه المدة بالخيار بين الدخول فى الاسلام ، أو التعرض للقتل والتنكيل إذا أنتم أصررتم على الشرك والعدوان .

٢ - « واعلموا أنكم غير معجزى الله » فأنتم لاتستطيعون أن تنفذوا من بين أرضه وسمائه ، وهو سبحانه القادر على إرغامكم على الخضوع لأوامره إذا أراد من غير حاجة الى كبير عناء ، ولكنه ترك لكم حرية الاختيار لتحكموا عقولكم وتبدوا رأيكم فى ترجيح الدخول فى السلم أم إيثار القتال فى الدنيا ودخول النار فى الآخرة نتيجة للشرك بالله « وأن الله مخزى الكافرين » فى الدنيا والآخرة .

٣ - « وأذان » نداء بصوت جهورى يخترق الآذان بما ينبغى أن يعلم « من الله ورسوله الى الناس » أجمعين فى « يوم الحج الأكبر » الذى اجتمع فيه الناس إذ ذاك على اختلاف عقائدهم ودياناتهم ليعلم الجميع « أن الله برىء من المشركين ورسوله » أى من عهودهم وكل ماينافى التوحيد فى أعمالهم ومعتقداتهم وسائر الخرافات والعادات الجاهلية والضلال وغير ذلك « فإن

تبتم » عن ذلك واعتنقتم دين الاسلام الذى جاء به آخر الرسل من عند الله « فهو خير لـكم » فى الدنيا والآخرة لأن هداية الاسلام هى سبيل السعادة « وإن توليتم » وأعرضتم عن التوبة « فاعلموا أنكم غير معجزى الله » فهو القادر على أن يبتليكم بالمصائب ، ويحل بكم من النقم فى هذه الحياة الدنيا مالا قبل لـكم به سواء بأيدى المسلمين أم بتسليط بعضكم على بعض وإيقاع بأسكم بينكم « وبشر » يامحمد – أى توعد – « الذين كفروا بعـذاب أليم » سينالهم منه عما قريب . « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً » من أعدائكم فهؤلاء لاسبيل لـكم عليهم ولا حق لـكم فى قتالهم ماداموا على عهدهم معكم « فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم » التى أعطيتموهم العهد عليها « إن الله يحب المتقين » الذين يراقبون الله فى المحافظة على العهد وعدم خفر الذمم ، ومراعاة النظام والعدل التام .

٤ – « فاذا انسلخ الأشهر الحرم » الأربع التى تركتم لهم فيها حرية الاختيار ولم يدخلوا فى الاسلام عن عقيدة واقتناع عناداً واستمساكا بالباطل ولم يرضوا بأخوتكم فيه ، فهم إذاً عاقون متمردون لاسبيل الى إخضـــاعهم لأوامر خالقهم إلا عن طريق القوة وأنتم فى حل من دمائهم ويجب أن تنفذوا ما أمر الرسول بتوعدهم به من العذاب الأليم « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » سواء فى الحل أم فى الحرم « وخذوهم » أسرى إذا رأيتم ذلك « واحصروهم » اضربوا عليهم نطاقاً من الحصار حتى ينزلوا على حكم الله ورسوله « واقعدوا لهم كل مرصد » وتتبعوا جميع حركاتهم لئلا ينبسطوا فى البلاد واستعملوا كل الوسائل لإرغامهم على اتباع دين الله « فان تابوا » عن الشرك وذلك بالنطق بالشهادتين « وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » الذين هما من أهم فرائض الاسلام « فخلوا سبيلهم » واتركوا لهم حريتهم بالـكف عن القتال والحصار

وغير ذلك « إن الله غفور » لما سبق من الشرك « رحيم » لايؤاخذ الناس بما كسبوا متى تابوا اليه وأنابوا .

٥ - « وإن أحد من المشركين إستجارك » طلب منك أن تؤمنه على نفسه حتى يأتى اليك ويفهم منك حقيقة ماتدعو اليه لعله يقتنع بدينك « فأجره » واسمح له بالحضور آمنا على حياته « حتى » يحضر ، و « يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ليتدبر فى أمره ويختار مايراه ولا تحاول أن تفرض عليه الاسلام فرضا أو تستخلص منه الاعتراف تحت تأثير الضغط والخوف وهو فى بلادك « ذلك » الأمر بإجارة المستجير من المشركين وتبليغهم مأمنهم « بأنهم قوم لايعلمون » لايدرون ماهو الايمان ومن حقهم أن يعلموا حقيقته ليعتنقوه عن عقيدة ويقين إذ لايكفى فيه مجرد التقليد والمجاملة . وبعد أن أتم الله سرد هذه الأحكام شرع فى ذكر الأسباب الموجبة لها فقال :

(أ) « كيف يكون للمشركين عهد عند الله » ، « وعند رسوله » ولا ينكثونه مع وغرة صدورهم ، ولا وازع يحفزهم على الوفاء بالعهود وقد كانوا على الدوام حربا على بعضهم والمعاهدات التى بينهم إنما تحترم تبعاً للقوة والضعف وقلما يفى القوى للضعيف ، كما حصل من يهود المدينة ومن نقض بنى بكر ومن ناصرهم من أكابر قريش لعهد الحديبية « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » بعهد خاص لم ينقضوه « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » إذ لايجوز أن يكون الغدر ونقض العهد من قبلكم « إن الله يحب المتقين » الذين يراقبون الله فى حفظ عهودهم .

(ب) « كيف يكون للمشركين » - غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم ، عهد مشروع عند الله وهو سبحانه يعلم مافى نفوسهم والحال المعروف من أخلاقهم وأعمالهم « وإن يظهروا عليكم » بقوتهم « لا يرقبوا فيكم إلا ولا

ذمة ، ولا تأخذهم فيكم شفقة ولا رحمة إذ لارابطة ولا علاقة بينكم تحملهم على حبكم والعطف عليكم وكل ماهنالك أنهم « يرضونكم بأفواههم » مجاملة وخداعا فى حال ضعفهم « وتأبى قلوبهم » أن تخلص لكم الود أو تحفظ لكم أى عهد « ويقولون بألسنتهم » مايجعلكم ترضون به عنهم « ماليس فى قلوبهم » فهم إذ يعطوا لكم العهود لم يقصدوا البر بها « وأكثرهم فاسقون » لايتورعون عن ارتكاب الموبقات واستحلال المحرمات علناً فكيف ينتظر منهم أن يراقبوا الله فى أنفسهم حتى يفوا بعهودهم « اشتروا بآيات الله » الدالة على وجوب توحيده « ثمناً قليلا » من متاع هذه الدنيا الفانية فما عند أغنى هؤلاء قليل بالاضافة الى ماوعد الله به عباده المؤمنين « فصدوا » غيرهم « عن سبيله » ولم يراعوا ماله عليهم من فضل عظيم بخلقهم وتكوينهم وما منحهم من سائر النعم التى يتقلبون فيها ولا يشعرون بها فهذه الموجودات جميعها حتى هذه المخترعات التى يصنعونها بأيديهم وينعمون بها لم تخرج عن خلقه لأنه الخالق لسائر المواد الأولية فيها . « إنهم ساء ماكانوا يعملون » لأنه كفر بالنعم ، وجحود للإحسان ، وهذا مالا يليق أن يصدر من ذى عقل رشيد ومن أجل هذا نراهم « لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » إذ لاقرابة تقتضى الود ولا ذمة توجب الوفاء . وذنب المؤمن فى نظرهم كونه مؤمناً يخالف ماهم عليه من ضلال وإذا كان هذا شأنهم مع المؤمنين فلا شك أنهم يظهروا عليكم بالغلبة والسلطان لايرقبون فيكم إلا ولا ذمة ، ولا يتحاشون عن ظلمكم واضطهادكم والفتك بكم « وأولئك هم المعتدون » على حدود الله الخارجون عن النظام العام ، وما دامت العلة فى اعتدائهم وتجاوزهم عليكم هى رسوخهم فى الشرك ، وكراهتهم للإيمان وأهله فلا سبيل الى اتقاء أذاهم إلا بإرجاعهم عن كفرهم ، وإدماجهم فيكم ، وحملهم على الإعتقاد معكم بضرورة الايمان بوحدانية الله

، واخلاص العبادة له فى السر والجهر « فان تابوا » الى الله عن شركهم ، وآمنوا بوحدانية الله « وأقاموا الصلاة » التى تعبر عن تمام الطاعة والخضوع لله والتى من شأنها أن تردع النفوس عن الفحشاء والمنكر « وآتوا الزكاة » ابتغاء مرضاة الله لأربابها من ذوى الحاجة « فإخوانكم فى الدين » أى فصدور هذين الأمرين وهما : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة منهم دليل قائم على أنهم حقاً أصبحوا أخوة لكم لاتحادهم معكم فى الخضوع وإخلاص العبادة لله التى تعبر عنها الصلاة . وفى رقة القلب والبر بالفقراء التى تعبر عنها الزكاة فيجب أمام هذا أن تبادلوهم الحب والاخلاص « ونفصل الآيات » ونوردها « لقوم يعلمون » ماوراء ذلك من حكم وغايات « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم » بالتوبة التى دخلوا بها فى الاسلام « وطعنوا فى دينكم » اما بالاعتراض على شىء من أحكام الله التى وردت فى القرآن ، أو بذم الرسول أو الطعن فى رسالته وما شاكل ذلك « فقاتلوا أئمة الكفر » قادة أهله ، وحملة لوائه « انهم لا أيمان لهم » ولا حرمة لعهودهم التى أبرموها على عزيمة النكث فيها . وخص رؤساءهم بالذكر اذ هم بلا شك المروجون لمثل هذه الدعايات السيئة ضد الاسلام أما غيرهم من السذج والعوام فلا رأى لهم وهم فى الغالب يندفعون وراء كل صائح « لعلهم ينتهون » من دسائسهم وتحريضاتهم وحذار أن توجهوا جام غضبكم على مجرد العوام والغوغاء ممن طعن فى دينكم وتركوا القادة والعظماء الذين يعملون من وراء الستار اما خوفا منهم أو لأنكم ماسمعتم منهم شيئاً مع أنهم رأس الفساد الذين يجب قتالهم « ألا تقاتلون قوماً » هم زعماء المشركين وقد كان من شأنهم وشأن أمثالهم أنهم « نكثوا أيمانهم » التى حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة اذ كان من طبعهم نكث العهود « وهموا بإخراج

الرسول » حين تشاوروا بمكة بدار الندوة فى أمره وقيل هم اليهود هموا بإخراجه من المدينة « وهم بدأوكم » بالقتال « أول مرة » فى بدر اذ قالوا بعد العلم بنجاة العير التى كانوا قد خرجوا لانقاذها لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه . ونقيم فى بدر أياماً نشرب الخمر ، وتعزف على رؤوسنا القيان ، وكذلك الحال فى أحد والخندق وغيرها فكل هذه الحروب لم تكن إلا بفعل القادة والزعماء وفى كلها كانوا هم البادئين فيها بقتال المؤمنين فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم « أتخشونهم » أتتحاشون قتال القادة خشية منهم لأنهم ذووا شوكة وقوة « فالله أحق أن تخشوه » اذ هو مصدر جميع القوى وصاحب الشوكة والسلطة الذى لايغلب « إن كنتم مؤمنين » حقاً بقدرته تعالى على كل شىء وأنه سبحانه وحده الذى يمنح النصر لمن يشاء من عبـــاده ويدافع بقوته عمن يريد فلتكونوا أشجع الناس فى لقاء أعداء الله ، وأقدرهم على نصرة دين الحق « قاتلوهم يعذبهم الله » يذيقهم العذاب الذى قدره عليهم جزاء كفرهم « بأيديكم » أنتم وقد كانوا يهزؤن بكم ويستضعفونكم ، وينزلون بكم أشد الأذى والعذاب « ويخزهم » بذل الأسر أو القهر لمن لم يقتل « وينصركم عليهم » بإخضاعهم للإيمان الذى لم تقاتلوا إلا من أجله « ويشف صدور قوم مؤمنين » بعز الاسلام وما نالوه من نصر شامل هو غاية أمانيهم فى الحياة « ويذهب غيظ قلوبهم » لمـا كان من أولئك من غدر وظلم ابان سلطانهم وعظمتهم . « ويتوب الله على من يشاء » التوبة منهم « والله عليم » بهم من قبل « حكيم » فى ترك الاختيار لارادتهم « أم حسبتم أم تتركوا » أى وثم أمر آخر يجب أن تتدبروا فيه وتحسبوا له حسابه ذلك أنه من يضمن لكم عدم عودتهم الى قتالكم ، ونكث عهودكم والطعن فى دينكم ، وصد الناس عنه كما هو دأبهم منذ ظهور الاسلام فلا

بد أن تقاتلوا وتجاهدوا « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » فى الله حق جهاده « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة » أى دون أن يكون لهم بطانة أو صلة قوية بالمشركين - أعداء الله ورسوله والمؤمنين - وهذا ما يجب أن تتجرد نفوسكم منه . فمن الحكمة قول من قال :

إذا والى صديقك من تعادى   فقد عاداك وانقطع الكلام

« والله خبير بما تعملون » أى بجميع أعمالكم الظاهرة والخفية فلا يغيب عنه من اتصالاتكم بأعدائه حتى ولو كانت عن حسن نية وهو أدرى بما ينشأ عن تلك الصلة من أضرار .

ج - « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » أى أن السبب الثالث لعدم احترام عهود المشركين هو انه ليس من حقهم وهم على الشرك أن يتجمعوا فى المساجد التى خصصت لعبادة الله فضلا عن المسجد الحرام حال كونهم « شاهدين على أنفسهم بالكفر » بإشراك غيره منه وتكذيب الرسول فهذا تناقض بيّن لا مبرر له « أولئك » الذين يعبدون غير الله « حبطت أعمالهم » التى لم تكن خالصة لوجه الله فلا يجب أن يكونوا أمنها (و) قد حكم عليهم من الله بأنهم « فى النار هم فيها خالدون » جزاء على كفرهم وشركهم « إنما » الذى ينبغى أن « يعمر مساجد الله » من اتصف بخمس صفات الأولى هم : « من آمن بالله » ولم يشرك به شيئاً فهو فى حاجة لأن يكثر دعاؤه فى مساجده حيث قال تعالى : « وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . الصفة الثانية : « واليوم الآخر » أى الذى آمن بصحة البعث وأن هنالك حياة أخرى فهم أحق بعمارة المساجد طلباً للنجاة فى ذلك اليوم . الصفة الثالثة : « وأقام الصلاة » فى أوقاتها المتكررة فلا يجوز أن يضايقهم أحد ممن لا يقيمها الصفة الرابعة : « وآتى الزكاة » لمستحقيها فهناك يتعرف بهم ويوصلها إليهم

الصفة الخامسة . « ولم يخش إلا الله » باعتقاده انه وحده النافع والضار ولذلك يخلص له الحب ، ويحصر فيه الرجاء فمن حقه أن يعتكف فى مساجده ويديم صلته الروحية به « فعسى أولئك » الجامعون لهذه الصفات الخمس « أن يكونوا من المهتدين » بهدى القرآن ، المتبعين لسنة سيد الأنام « أجعلتم سقاية الحاج » بالماء « وعمارة المسجد الحرام » بالحراسة والأعمال الظاهرة أسبابا تخول لكم حق الإقامة الى جوار بيته « كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله » عن خلوص نية ، وصفاء سريرة ، وتوجه الى الله وحده فهذا خطأ منكم فى التصور فهم « لايستوون عند الله » فتلك أعمال اخترعتموها لتفاخروا بها الناس وهذه أعمال أمر الله بها ، ووعد بتقبلها « والله لايهدى » الى الحق « القوم الظالمين » لأنفسهم بعدم تطلبهم له أو بإعراضهم عن الإصغاء اليه لعدم رغبتهم فيه . ثم بين ذلك بقوله تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » بما تكبدوا ابتغاء مرضاة الله من آلام الهجرة والتضحية بالمال والنفس « وأولئك هم الفائزون » عند الله بالثواب ونيل الحسنى دونكم « يبشرهم ربهم » منذ الآن « برحمة منه ورضوان » فى الدنيا عن أعمالهم « وجنات » فى الآخرة « لهم فيها نعيم مقيم » دائم لايتبدل « خالدين فيها أبداً » غير مهددين بالزوال « إن الله عنده » لأمثال هؤلاء « أجر عظيم » لايصل اليه تصور الناس بعد فهناك فى الآخرة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . بل إن هنالك من الأجر المعنوى مايكون أعظم لذة للنفس عند العقلاء من جميع الأجور التى يتمتع بها الناس بأجسامهم ، ذلك هو شرف القرب والرضا من مالك الملك الله رب العالمين ، ففي ذلك من اللذة العظمي مالا يتصوره في الناس إلا من حظي بعطف الملوك والأمراء في هذه

الحياة فما بالك برضا الخالق العظيم فى الدار الآخرة يوم لامال ينفع ولا ولد يشفع إلا من أتى الله بقلب سليم .

وبعد أن انتهى التشريع الإلهى المشتمل على الأوامر الخاصة بعدم احترام عهد المشركين ، وضرورة إخضاعهم للإيمان وذكر الأسباب الموجبة لذلك أخذ يملى على المؤمنين من النصائح مايضمن لهم باتباعهم العزة والسلطان وهى تتلخص فيما يأتى :

١ ـ عدم الثقة بالمشركين مطلقاً ولو كانوا من أقرب المقربين لهم حيث قال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا » بالله ورسوله « لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم » وهم بلا شك من أحب الناس اليكم « أولياء » تستنصرون بهم ، وتعتمدون عليهم فى الشدائد « إن استحبوا الكفر على الإيمان » أى ماداموا يخالفونكم فى الدين ، لأن روابط الود الشخصية مهماكانت قوية فانها لاتحمل الإنسان على تغيير مبدإه الذى يدين به ، ولا تسوغ له أن ينصر مخالفاً له فى العقيدة على نفسه التى يعتز بها . « ومن يتولهم منكم » ويستنصر بهم بعد هذه الحقيقة الثابتة « فأولئك هم الظالمون » لأنفسهم بركونهم الى من لاينبغى الركون اليه فقد ينصر الرجل أباه على أخيه ولكنه لايمكن أن ينصر أحداً على نفسه .

٢ ـ تجريد القلب عن محبة غير الله ورسوله ، وإيثار وجوب طاعتهما على كل شىء حيث قال تعالى : « قل » يامحمد لمن آمن بك وصدق برسالتك عن ربك إذ كنتم قد عرفتم الله حقاً ، وأيقنتم أنه وحده الذى خلقكم ورزقكم فمن واجبكم أن تشعروا نحوه بحب صادق لايدانى ، وتخلصوا فى طاعة أوامره إخلاصاً لايقف فى طريقه أى عائق . وقد أمرنى ربى أن أبلغكم بأنه « إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد

فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » فيكم جزاء على عدم تقديركم لآلائه وجحودكم لإحسانه « والله لايهدى » الى معرفة مزايا إيثار حبه وحب رسوله والجهاد فى سبيله عن كل شىء وما يترتب على ذلك من التآخى والتناصر وقوة الإتحاد « القوم الفاسقين » المتمردين عن قبول هداية الله . المتجاوزين حدود الشريعة

٣ ـ الثقة الكاملة بالله . وترقب النصر من عنده دون أن يداخلكم شىء من الغرور بقوتكم حيث قال تعالى . « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة » أى اذكروا أن ولاية الله للمؤمنين أعظم بكثير من ولاية غيره من الأقربين ، وتأييده تعالى لرسوله وللمؤمنين بالقوى المعنوية أعظم شأناً وأضمن للنصر من القوى المادية كالكثرة العددية وما شاكلها فهو كتب لكم النصر فى مواقع لم تكونوا تأملون النصر فيها « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » التى هى أعظم من نصرة الآباء والإخوان والأبناء التى تعلقون عليها بعض الأمل فى النصر إذ قلتم لن نغلب اليوم عن قلة انخذلتم وتقهقرتم « فلم تغن عنكم » تلك الكثرة « شيئاً » لانتصاركم ولم تفدكم ولم ينفعكم إذ ذاك مال ولا ولد « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » لاتلوون على شىء « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فلم يخافوا من عدوهم بل ثبتوا ثبوت الراسيات « وأنزل » الله جنوداً » روحانية « لم تروها » ولكنكم وجدتم أثرها فى نيل النصر فى الموقعة . الأمر الذى يصور لكم كيف يؤيد الله بنصره من يشاء من عباده المتبعين لهديه الواثقين بنصره المتوكلين عليه . « وعذب » الله « الذين كفروا » فى تلك المعركة بالقتل والأسر والسبى « وذلك جزاء الكافرين » بالله المعتمدين على محض قوتهم من دون الله وكان من رحمة الله تعالى بخلقه أنه بعد أن أمر نبيه بأن ينذرهم

بالتربص إذا هم لم يؤثروا محبته ومحبة رسوله والجهاد فى سبيله على كل شىء .
وبعد أن ذكرهم بما كان من نصره لهم عند اعتمادهم عليه ، وخذلانهم عند ماعتمدوا على الكثرة أخبر رسوله بأنه تعالى قد تجاوز عما يكون من تفاوت فى درجات الحب والتضحية فى سبيل الله والثقة به فقال : « ثم يتوب الله من بعد ذلك » الإنذار « على من يشاء » من عباده الذين قصر استعدادهم الفطرى عن بلوغ مستوى الكمال النفسى ، والطاعة التامة « والله غفور » لما يصدر من الذنوب « رحيم » بعباده الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه .

٤ - إقصاء كل من لا يؤمن بالله عن بيته الحرام ولو كان فى هذا الإقصاء أضرار مادية حيث قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » بالله « إنما المشركون نجس » فى عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة شأنهم كشأن النجاسات من حيث أنها تؤذى براحتها من يجاورها ، ويخشى أن تلوثهم بجراثيمها « فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » أى فلا تمكنوهم من دخول أرض الحرم سواء للعبادة أو لسبب آخر كالتجارة التى تعود بعضهم أن يأتيكم بها « وإن خفتم عيلة » لقلة مواد المعيشة التى كانوا يصحبونها لكم معهم « فسوف يغنيكم الله » فى المستقبل « من فضله » الواسع « إن شاء » وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فمن واجبكم أن تحصروا أملكم فيه واتكالكم عليه دون مجرد الكسب والأسباب الظاهرة « إن الله عليم » بما أنتم فى حاجة اليه « حكيم » فيما افترضه عليكم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام فلو لم تكن فى ذلك مصلحة لما أمر الله بذلك وهو القادر على أن يوفر رزقكم من طريق آخر .

٥ - عدم إكراه أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الإيمان والإكتفاء منهم فى حالة الرفض بدفع الجزية للمؤمنين حيث قال تعالى : « قاتلوا الذين

لايؤمنون بالله » أى إيماناً خالصاً من الشرك ، وعبادة غيره معه « ولا باليوم الآخر » الذى يبعث الله فيه الناس بشراً بأجسامهم كما كانوا لينالوا ثوابهم وعقابهم « ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله » فى شرعتهم أى لايلتزمون العمل بكل ماجاء به رسلهم ، وما ثبت فى كتبهم فإن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها الى غير ذلك من التحريف والتأويل وتقليد الأحبار والرهبان الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله . « ولا يدينون دين الحق » الكامل الأخير الذى جاء به خاتم النبيين مبيناً لما اختلفوا فيه من قبل « من الذين أوتوا الكتاب » الإلهى وهو مايشمل التوراة والإنجيل والزبور وغيرها « حتى يعطوا الجزية » وهى نوع من الخراج يضرب على الأشخاص مقابل حقن دمائهم وحمايتهم والدفاع عنهم من غير تكليفهم بالتجند للقتال فى صفوف المؤمنين « عن يد » أى قدرة وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون فيها « وهم صاغرون » أى خاضعون لسيادتكم وحكمكم ، . - وسمى هولاء أهل الذمة وهم يتساوون فى العدل ، وكافة الحقوق التى تكون لهم بمقتضى ذمة الله ورسوله الى أن يسلموا فترفع عنهم هذه الجزية ، ويصبحوا لهم مالنا وعليهم ماعلينا ، ويتساوون معنا فى الحقوق ، والواجبات . أما الذين بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق يعترف به كل منهم باستقلال الآخر فيسمون أهل العهد والمعاهدين فهؤلاء يجب احترام عهودهم ، وتحرم خيانتهم سراً وجهراً حتى أن الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار حيث قال : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » وإنما اكتفى من أهل الذمة بأخذ الجزية فى حال رفضهم الإسلام دون المشركين لأنهم أهل كتاب من الله لو رجعوا اليه قبل تحريفه ، وتبديله ، وتدبروه ، وتجردوا عن

العصبية لآمنوا بما جاء به رسول الله ﷺ فهم أقرب الى الإيمان ، وأدنى أن ينصاعوا اليه إذ هم يعترفون بوجود الله وإنما يخالفون المسلمين فى مسألتين إثنتين لاثالث لهما لايقرها عليهما دينهم من الأساس وقد وضحها الله فيما يأتى :

الأولى : زعمهم أن لله ولداً حيث قال تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله » « وقالت النصارى المسيح ابن الله » استناداً الى أن المسيح كان يدعو الله بقوله : « أبى » ويفسرون هذه الأبوة بأنه من طبيعته وانه ابنه الوحيد الأزلى فهو جزء منه والإسلام لايقر هذا بل يقول : إن الله تعالى واحد أحد ، صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وإن عزيراً عبد الله ، وان عيسى بن مريم عبد الله وكلمته ألقاها الى مريم : وروح منه ، خلقه الله من غير أب ، كما خلق آدم من غير أبوين بمجرد أمره على غير سنته فى البشر التى تقتضى التناسل والتوالد من اجتماع ماء الرجل والمرأة وفى هذا يقول القرآن : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » وانه لم يخرج عن كونه من طبقة البشر كما قال تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » والمسلمون واليهود والنصارى متفقون جميعاً على أن الله هو المتصرف فى العالم وهو خالقه ، ومدبره وهو الذى أرسل الرسل . ليعرفوا الناس بما يرضيه وما لايرضيه من الأعمال ومما لاجدال فيه أن المسيح عليه السلام لم يدع لنفسه الألوهية وأنه كان يعترف بوحدانية الله ورسالته عنه حيث يقول فى إنجيل (يوحنا) : « وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته » . ولم يدع المسيح عليه السلام الناس الى عبادته وعبادة أمه قط ، ولم ينكر أحد أنه كان يدعو الى عبادة الله ، والإخلاص له بصريح القول . فالقول بأن مخاطبة عيسى لله بلفظ « أبى » تقتضى أن تكون من طبيعة الآلهة

أمر لا يقره المنطق الصحيح أمام الواقع . وأمام ما اعترف به نفسه من وحدانية الله ورسالته عنه . ولا ينبغي أن يقف في طريق الإتحاد مع المسلمين على الإيمان بوحدانية الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وأنه تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، بل يجب اعتقاد بطلان تلك الدعوة الزائفة التي لا يسلم بها العقل السليم ، إذ لو كان المسيح إبناً لله من طبيعة الإلهية كما يزعمون لما انتابته أحوال المخلوقين « ذلك قولهم » الذي قالوه في عزير ، والمسيح « بأفواههم » فلا يمكن لهم أن يتنصلوا منه وهو قول مجرد عن البرهان أشبه بالمهمل الذي يمر في الأفواه « يضاهئون » به « قول الذين كفروا » بالله « من قبل » من مشركي العرب الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله « قاتلهم الله أنى يؤفكون » أي كيف يصرفون الناس عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق الذي جاء به سائر الرسل الى الباطل الذي لا برهان عليه .

الثانية : إعتقادهم أن لغير الله سلطاناً مع الله ، وهذا أمر لم يأت في إنجيلهم أيضاً . والإسلام ما جاء إلا ليحرر الناس من رق العبودية لغير الله . ممن لا يضر ، ولا ينفع ، ولا يشفع ، ولا يغني من الله شيئاً . والحرية هي أقصى أماني الانسان في الحياة . فلو تدبر اليهود والنصارى القرآن ، وعرفوا حقيقة الاسلام لما ترددوا لحظة واحدة في نبذ تلك الخرافات التي يمليها عليهم قساوستهم ، ورهبانهم مما لا يقبله العقل ، ولا يقره المنطق السليم . وقد أشار الله تعالى الى هذه النقطة بقوله : « إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً » يعظمونه كتعظيمه ، ويحبونه كحبه ، وينسبون اليهم من التصرفات مالا يقدر عليه غير الله ، ويطيعونهم في كل ما يأمرونهم به « من دون الله فإذا أحلوا لهم شيئاً إستحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه ، وإذا أمروهم بدعاء

غير الله استجابوا لهم ، وأطاعوهم . « والمسيح بن مريم » بأن جعلوه إبناً لله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . ولما كانت الربوبية تستلزم الألوهية بالذات . إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » لايطيعون فى الدين سواه إذ هو وحده الذى يملك حق التحليل والتحريم « لا إله إلا هو سبحانه » ننزهه ونقدسه « عما يشركون » معه أو من دونه من الأنبياء ، والأحبار والرهبان « يريدون » أى النصارى واليهود « أن يطفئوا نور الله » حجته الدالة على دعوة التوحيد التى جاءت بها جميع الأنبياء والمرسلين من عند الله ، وعلى أنه ليس كمثله شىء لا ولد له ولا والد « بأفواههم » بما يتقولون من أقوال من شأنها أن تبعدهم عن الله ، وتصدهم عن سبيله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » ويظهره بوضوح ببعثة خاتم النبيين محمد ﷺ الى الخلق أجمعين ، الذين فضح أمرهم ، وفند أقوالهم ، وبيّن حقيقة مادعا اليه من سبقه من المرسلين من وجوب إخلاص العبادة لله ، ونبه الأفكار ، وخاطب الوجدان ، وجاء بشريعة مدعمة بالدليل والبرهان تمنع الانسان من الخضوع للإنسان فضلا عن الأصنام والأوثان ، وعبادات تزكى النفوس وتطهرها ، وتفك قيدها وتحررها ، وتجعلها تدرك مالها وما عليها ، وتطبع فيها ملكات الفضائل ، وتسمو بها عن كل عرض زائل « ولو كره الكافرون » ذلك لأنه أظهر كذبهم ، وقضى على سلطة أحبارهم ورهبانهم وحرمهم من منح العفو والمغفرة التى كانوا يمنحونها لهم ، ويتقبلونها منهم بأفكارهم الضيقة . ثم قال تعالى : « هو الذى أرسل رسوله » محمداً « بالهدى » وهو القرآن « ودين الحق » وهو الاسلام » ليظهره على الدين كله » جميع الأديان المخالفة له بنسخه إياها « ولو كره المشركون » ذلك « ياأيها الذين آمنوا » هل علمتم لماذا يريد أولئك القوم أن يطفئوا

نور الله بأفواههم « إن كثيراً من الأحبار والرهبان » كانوا يزعمون لأنفسهم سلطة روحية يتحكمون بمقتضاها فى رقاب البسطاء ، ويوهمونهم أن فى استطاعتهم قبول الاعترافات بالذنوب ، ومنح الشفاعة لمن يريدون . مقابل أموال يبتزونها منهم ، وإنهم لذلك « ليأكلون أموال الناس بالباطل » بطريق غير مشروع ، فهم لا يملكون الغفران حتى يمنوا به عليهم ، ولا نفوذ لهم فى الآخرة حتى يستطيعوا أن يمنحوا جنة أو نار ، وهم بعلمهم هذا يسلكون مسلكا غير شريف « ويصدون عن سبيل الله » واتباع شريعة خاتم النبيين بما يدخلونه فى روع من صدقهم بأنهم قد كفوه ما أهمه من قبل الله بما أخذوه من مال « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » أى فى حين أن كنز الذهب والفضه فى ذاته ، وعدم إنفاقها فى سبيله جريمة يستحق مرتكبها شدة العذاب فما بالك بمن يجمعها بغير طريق مشروع ، وينفقها فى الصد عن سبيل الله « يوم يحمى عليها » على تلك الأموال التى كثرت ، ولم تنفق فى أوجه الخير ، والأموال التى جمعت من حرام ، وأنفقت فى الصد عن سبيل الله من باب أولى « فى نار جهنم » التى أعدت للعذاب الأليم « فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ويقال لهم « هذا » المال « ماكنزتم لأنفسكم » وانفردتم بمتاعه فى الدنيا حمى عليكم اليوم ، وأعد لعذابكم « فذوقوا » وبال « ماكنتم تكنزون » .

٦ - المحافظة على ماسنه الله للشهور من أحكام وعدم تجاوز ذلك بتبديل أو تغيير فى أحكامه حيث قال : « إن عدة الشهور » التى تتألف منها السنة القمرية « إثنا عشر شهراً » يبدأ كل شهر بمولد هلاله الذى يمكن العلم به بالرؤية البصرية للأميين والمتعلمين فى البدو والحضر على السواء « فى كتاب الله » الذى أثبت فيه نظام سير القمر وتقديره منازل ، ليعلم بذلك عدد السنين

والحساب « يوم خلق السماوات والأرض » فلا يمكن أن تختلف الأشهر ، ولا تتغير أسماؤها ، ومواعيدها ، وقضى ربك أن يكون « منها أربعة » ثلاثة منها سرد وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم . وواحد فرد وهو رجب « حرم » أى حرم الله القتال فيها على لسان إبراهيم ، واسماعيل (عليهما السلام) « ذلك » أى تقسيمها الى حرم وغير حرم وعدد الحرم منها « هو الدين القيم » الذى يدان لله به « فلا تظلموا فيهن » أى فى الأشهر الحرم « أنفسكم » بتغيير أو تبديل فى أحكامها أو بانتهاك حرمتها « وقاتلوا المشركين » الذين لايعترفون بحرمتها « كافة » أى جميعاً فى جميع أشهر العام الأثنى عشر « كما يقاتلونكم كافة » أى كما يقاتلونكم جميعاً فيها مقابلة بالمثل « واعلموا أن الله مع المتقين » الذين يخافون عواقب الخروج عن أحكام الله « إنما النسيء » أى تأخير حرمة بعض الأشهر الحرم الى غيرها مما كانت تفعله العرب فى الجاهلية إذا جاءهم شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر « زيادة » وإمعان « فى الكفر » لأنه تحريم ماأحله الله ، وتحليل ماحرمه الله فهو كفر آخر ضموه الى شركهم ، وأيضا قد علم القوم أنهم لورتبوا حسابهم على السنة القمرية لوقع حجهم تارة فى الصيف ، وتارة فى الشتاء وفى هذا مشقة عليهم ، وإخلال بمصالحهم الدنيوية لأنه يؤدى الى إحجام الناس عن زيارتهم بالتجارة إذا كان الحج فى موسم الصيف فعمدوا الى اعتبار السنة الشمسية ولما كانت السنة الشمسية زائدة على السنة القمرية بمقدار معين احتاجوا الى الكبيسة وحصل لهم بذلك أمران : أحدهما ـ أنهم كانوا يجعلون بعض السنين ثلاثة عشر شهراً بسبب اجتماع تلك الزيادات . الثانى ـ إنه كان ينتقل الحج فى بعض الشهور القمرية الى غيره فكان الحج يقع فى بعض السنين فى ذى الحجة ، وبعده فى المحرم ، وبعده فى صفر وهكذا فى الدور حتى ينتهي بعد

نحو ست وثلاثين سنة مرة أخرى الى ذى الحجة ، وترتب عليه أمران : الزيادة فى عدد الشهور ، وتأخير الحرمة الحاصلة لشهر الى شهر آخر . وفى هذا مافيه من الافتئات على الله والعدوان على حقوق الربوبية . إذ هم بعملهم هذا شرعوا فى الدين بأهوائهم مالم يأذن به الله .

وهو وحده الذى يملك حق التحليل والتحريم وتحديد أوقات العبادات وهم فى بنائهم العبادات على حساب الشمسى قد راعوا مصالحهم الدنيوية ، ولم يلاحظوا مافى مراعاة الحساب القمرى من حكمة إلهية ، هى أن تدور جميع الفصول على ثلاث الأشهر الحرم فتؤدى العبادات بهذا الدوران فى كل أجزاء السنة فمن صام رمضان فى ثلاثين سنة يكون قد صام فى كل أجزاء السنة وكذلك الحال فى تكرار الحج ، ويترتب على هذا أن يجد المؤمن لذة الصوم فى الشتاء ويصبر على آلامه فى الصيف وينال الحاج من أجره على تحمله آلام البرد فى حال الإحرام فى الشتاء كما ينال الأجر على الصبر على حرارة الشمس فى الصيف ، وسوف يقدر الله له الأجر فى العبادات على قدر المشقة « يظل به » أى بالعمل الذى يصير به النسىء زيادة فى الكفر « الذين كفروا » تابعيهم والأخذ بأقوالهم « يحلونه عاما ويحرمونه عاما » أى يجعلهم يتلاعبون فى مواعيد تحليل القتال وتحريمه بحسب تقديرهم « ليواطئوا عدة ماحرم الله » أى حتى يجعلوا عدد الأشهر الحرم أربعة مطابقة لما كان عليه الحال فى عهد إبراهيم « زين لهم سوء أعمالهم » هذه حيث ظنوها صواباً وحكمة « والله » من شأنه تعالى وأحكامه « لا يهدى » الى الحق والخير الصحيح « القوم الكافرين » به ممن لا يستلهمون الهدى منه متأثرين بآرائهم متبعين شهواتهم .

٧ - التهيؤ للقتال دائماً ، والاستعداد فى كل وقت لاجابة داعى الله . وقد علم الله أن بعضهم فى غزوة تبوك كان غير ميال فى سيره الى القتال ، متباطئاً

فى السير فأراد الله جل وعلا أن ينتزع من قلوبهم ذلك ، وأمرهم بعدم التردد لحظة فى إجابة الأمر حيث قال : « ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم الى الأرض » أى اعلموا أنى لا أرضى بذلك منكم « أرضيتم بالحياة الدنيا » ولذتها الفانية الناقصة « من الآخرة » بدلا من سعادتها الكاملة الدائمة « فما متاع الحياة الدنيا » الذى تعجبون به « فى الآخرة إلا قليل » لايرضى به عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر ، وقد شبه رسول الله ﷺ نعيم الدنيا بالاضافة الى نعيم الآخرة فى قلته فى نفسه ، وزمنه بمن وضع اصبعه فى اليم ثم أخرجها منه وقال : فانظر بم ترجع : « إلا تنفروا » إذا دعاكم داعى الله الى الجهاد فى سبيله « يعذبكم » الله « عذاباً أليما » فى الآخرة وفى الدنيا حيث يجعلكم ضعفاء أذلاء ، مستعبدين ، لحكام مستبدين ، أوشعوب مستعمرين « ويستبدل » بكم « قوماً غيركم » خيراً منكم « ولا تضروه شيئاً » بتثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه ، لأن الذى سيكوى بنار الذل إنما هو أنتم ، أما دينه فهو قادر على تأييده ونشره بمختلف الوسائل « والله على كل شىء قدير » فلا يعجزه أن يرسل عليكم من الوباء مايقضى به عليكم عن آخركم متى أراد . « إلا تنصروه » أى الرسول الذى استنفركم فى سبيله « فقد نصره الله » كتب له تعالى النصر « إذ أخرجه الذين كفروا » تسببوا فى خروجه من مكة ، وألجؤه اليه لما بيتوا فى دار الندوة قتله أو حبسه أو نفيه فأذن الله له بالهجرة ، فهاجر ، ولم يكن معه غير أبى بكر وكان هو « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » ولم يكن معه شىء من الرجال والعتاد « إذ يقول » من عظم ثقته بربه ، وبنصره له « لصاحبه » ـ وهو أبو بكر ـ حين رأى منه شيئاً من الخوف والفزع والقلق « لاتحزن إن الله معنا » بنصره ، ومعونته ، وتأييده ، وحفظه ومن كان الله معه بنصرته التى

لاتغلب ، وقوته التي لاتقهر ، فما يكون له أن يستسلم للحزن والقلق . « فأنزل الله سكينته عليه » أي على رسوله « وأيده » فى كل موضع « بجنود لم تروها » أى بقوة غيبية غير ظاهرة لكم « وجعل » الله « كلمة الذين كفروا » التى اجتمعوا عليها واعتقدوا بضرورة تنفيذها « السفلى » الحقيرة التى لاقيمه لها « وكلمة الله » التى يريدها ، ويأمر بها « العليا » التى يجب أن تكون « والله عزيز » ذو سلطان واسع « حكيم ذو تدبير عظيم .

٨ ـ إجابة داعى الله الى الجهاد فى سبيله بالنفس ، والمال حيث قال تعالى : « إنفروا » عندما يعلن النفير العام « خفافاً وثقالا » أى سواء كنتم على الصفة التى يخف عليكم الجهاد ، أو على الصفة التى يثقل عليكم الجهاد من الأسباب الشخصية ، والموانع فلا عذر لمن خف ، أو ثقل . أللهم إلا أمراً قاهراً من الله كالمرض « وجاهدوا » أعدائكم الذين يقاتلونكم فى سبيل الطاغوت « بأموالكم وأنفسكم » عند القدرة عليها ، ومن قدر على أحدهما دون الآخر أوجب الله عليه ما كان قدرته منها « فى سبيل » غاية مشتركة هى إعلاء كلمة « الله » ونصر دينه . وإقامة شرعه ، والعمل لما يرضيه « ذلكم » الاستجابة لما أمرتم به من النفر والجهاد « خير لكم » فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأن ذلك مما يرهب أعدائكم ، ويحملهم على احترامكم ويجعلكم موضع المهابة ، والعزة فى جميع الأوقات . وأما فى الآخرة فلأنكم نفذتم أوامر الله ، وأهلتم أنفسكم لنيل العزة التى كتبها الله لكم ، أو التى يريدكم أن تتلبسوا بها « إن كنتم تعلمون » حقائق الأمور ، وأن الله لايفرض عليكم أمراً إلا إذا كان فيه خيركم ، وسعادتكم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

« تعليق على براءة »

لئن كانت معاهدة الحديبية فتحاً مبيناً سياسياً من الله لنبيه ﷺ فإن ماأوحى به تعالى اليه من سورة براءة لينذر به المشركين يوم الحج الأكبر ، ليعد فضلا عظيما منه على عبده إذ وضع له الأسس التى يجب أن تقوم عليها دولته ، وتصان بها شريعته ، وتعلو فى الخافقين دعوته ، وتسود بين الأمم أمته . فالله سبحانه قد أراد بالناس خيراً فاختار من بينهم رسلا يدلونهم عليه ويحببونهم اليه ويدعونهم لطاعته لينالوا احسن رضاه وعظيم ثوابه . وكان آخر أولئك الرسل ـ محمد بن عبد الله ـ ﷺ الذى جاء بالحق بشيراً ونذيراً .

وكانت مهمة هذا الرسول متجهة الى دعوة الناس الى معرفة الله ، والإعتراف بوحدانيته ، والتصديق برسالته عنه للعمل بما يدعوهم اليه من طاعته ، وفق دستور خاص أوحى به اليه رب العزة وهو « القرآن » نظام كامل وضعه الله على وفق مايعلمه أزلا من أحوال خلقه بما يصلح شؤونهم ويضمن سعادتهم ، وهناءهم فى هذه الحياة الدنيا ، وفى الآخرة التى عميت عليهم أخبارها وهو تعالى أعلم بهاو بما أعده فيها من نعيم مقيم للطائعين ، وعذاب أليم للمكذبين .

ولقد كان حجر الزاوية فيما يدعو اليه الرسول هو العقيدة بوجود الله والإيمان الكامل بما جاء من عنده عن طريق رسله من أمور محسوسة وغير محسوسة ، وأحكام واضحة الغاية أو غير واضحة . ومن أجل هذا عمل رسول الله

ﷺ على تثبيت العقيدة فى قلب كل من آمن به بمختلف الوسائل حتى أشربت بها نفوسهم واختلطت بدمائهم ، وأصبحوا ولا قوة فى العالم تستطيع أن تزحزحهم عنها .

لقد آمن المؤمنون بوجود الله فاتجهوا اليه وأدركوا مبلغ فضله وكرمه عليهم فأحبوه وصدقوا برسالة رسوله فاتبعوه ووجدوا الخير فى تعاليمه فرغبوا أن يعم الناس أجمعين . والإسلام عقيدة ثابتة فى قلوب المؤمنين بأنهم على حق وانهم قد اكتشفوا العلاج الوحيد لصلاح العالم ، وتنقيته من الشرور والآثام والسمو به الى أرقى درجات الكمال . فلا بد لهم من أن يتمسكوا بهذه العقيدة وأن يدافعوا عنها وأن يعملوا على نشرها لا لمصلحتهم الشخصية بل ليعم النور وتسود الفضيلة ، ويعيش الناس فى هناء دائم . وتمهيداً لذلك أمر رسول الله ﷺ علياً أمير المؤمنين عليه السلام أن يذيع على الناس مايأتى :

١ « لايدخل الجنة كافر » ومعنى هذا أن يعلم الجميع أن رضا الله لاينال بعد اليوم إلا باتباع دين الإسلام فمن أراد أن ينال رضاه الذى هو وسيلة لدخول الجنة فعليه باتباع رسوله (محمد بن عبد الله) ﷺ .

٢ « لايحج بعد العام مشرك » ومعنى هذا أن مكة قد خلصت من الأوثان وخصت للمؤمنين فيجب أن لايدنو منها كل من يعبد غير الله .

٣ « لايطوف بالبيت عريان » ومعنى هذا . القضاء على عادات الجاهلية وأن الفضيلة هى التى يجب أن تسود بعد اليوم فى تلك البقعة المقدسة .

٤ « من كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو الى مدته » ومعنى هذا أنه لاهوادة فى دين الله وإنما تحترم العهود الى مدتها .

وأيد الله رسوله على هذه الأسس بإنزال سورة براءة فسارع بانتداب على عليه السلام لإعلانها على الناس أجمعين . ففيها يأمر الله عباده المؤمنين بأن

يدافعوا عن عقيدتهم التي تقوم عليها دولتهم بكل ماأوتوا من قوة ، وأن يقاتلوا كل من يقف فى وجه تلك العقيدة بتزييفها أو الطعن فيها أو محاربتها من أولئـــك المشركين الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر حتى يخضعوا للإسلام ويعتنقوا مبادئه ولا يقبل منهم غير ذلك لعدة أسبـــاب نلخص منهـا مايأتى :

١ - لأن الشرك الذى كان عليه الناس عند قيام رسول الله ﷺ بالدعوة الى الله كان يعبر عن منتهى الجهل والضلال ويتنافى مع كرامة الإنسانية وشرفها فلا ينبغى أن يترك أنصاره وشأنهم ، يعبدون من دون الله أحجاراً لاتعقل ولا تعى ولا تضر ولا تنفع .

٢ - لأنه كان الى جانب الشرك مجموعة من العادات والتقاليد التى تنفر منها الإنسانية ، وتأباها النفوس وتقشعر منها الأبدان كالظهور أمام الناس عراة فى الطواف بالبيت ، وكوأد البنات ، وهضم حقوق المرأة ومساواتها بسقط المتاع ، وانتشار الموبقات والاستخفاف بالأرواح ، والاعتداء على الحريات وأكل الأموال بالباطل ، والغرور بالنفس والقبائل الى غير ذلك من الأمور التى يجب على كل عاقل أن يحاربها ويزيل أثرها من الوجود .

٣ - لأن معارضة هؤلاء للإسلام إنما هى موجهة الى جوهر العقيدة التى هى أغلى شىء عند المؤمن .

٤ - لأن وجودهم خطر يهدد الاسلام بفتنة الناس فيه وثورتهم عليه فى يوم من الأيام .

٥ - لأن الله تعالى العليم بالسرائر قد أخبر نبيه فى القرآن بأنهم قوم لاعهد لهم ولا ميثاق وانهم لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وقد بدا منهم فعلا فى معاملتهم للمؤمنين من قبل مراراً .

أما غير هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالله وكتبه المنزلة على موسى وعيسى ولم يعترفوا برسالة محمد ﷺ ، وأبوا أن يتقبلوا هداية الاسلام ، وما جاء به من تصحيح لما أدخل على كتبهم من تحريف وتبديل ، فقد أوجب الله قتالهم حتى يعترفوا بالاسلام ديناً من عند الله ، وعندئذ يسمح لهم بالاقامة بين المسلمين فى ديار الاسلام ، لأنهم أقرب الى الاسلام من غيرهم على أن يدفعوا للدولة الاسلامية الجزية المستطاعة لقاء إعفائهم من تكاليف الجهاد معهم فى سبيل الله . وقد أنزل الله تعالى فى شأنهم وفى مراعاة البر بهم والقسط معهم ومع أمثالهم من الكفار الذين لم يتعرضوا للإسلام بحرب ولا للمسلمين بأذى . قوله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ، لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وقفل الله باب الحرم فى وجوه كلا الفريقين إحتراماً لشعور المؤمنين ، وصيانة لهم من أذى تلك العقائد الفاسدة ، والعبادات المنكرة ، والعادات المستقبحة . فكانت تلك الآيات من براءة ثورة على المبادىء الهدامة والظلم والفساد ، وستاراً حديديا وضع دون تسرب الفحش والضلال الى أشرف البقاع ، فكان له أثره المحمود فى صدر الإسلام .

ولم يكد يذاع ذلك المنشور الإلهى على الناس حتى امتنع المشركون والكفار من ارتياد تلك البقعة الطاهرة من تلقاء أنفسهم ، ومن غير حاجة الى صدهم عنها بالقوة . وانتشر الخبر فى الآفاق فأقبلت الوفود على رسول الله ﷺ من كل حدب ، يعلنون دخولهم فى الإسلام ، ويطلبون من يفقههم

فى دين الله ، ومن بين أولئك وفود من المشركين ، ووفود من أهل الكتاب فلا يجدون من رسول الله ﷺ إلا مايزيدهم إيماناً تاماً بالله ، وتصديقاً برسالته . وقد أقر الرسول كل من جاءه من الأمراء فى إمارته على قومه ، وقد سمى ذلك العام عام الوفود لتهافتهم على الدخول فى دين الإسلام . وأوفد رسول الله ﷺ ـ معاذ بن جبل ـ الى أهل اليمن ليعلمهم الدين ، ويفقههم فيه ، وكانت وصيته له قوله ﷺ : « يّسر ولا تعسّر ، بشّر ولا تنفّر » وإنك ستقدم على قوم يسألونك مفتاح الجنة ، فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له » .

كما أوفد ﷺ ـ خالد بن الوليد ـ الى قبائل نجران ـ وهى مقاطعة من اليمن ـ يدعوها الى الإسلام ، فلما بلغهم دعاهم الى الإسلام فأسلموا ، وبعثوا وفداً الى رسول الله ﷺ يعلنون إسلامهم . وهكذا انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية ، وخضع المشركون للدين الحق من غير إراقة دماء دون أن يجد الرسول حاجة الى تنفيذ ماتوعدهم به من القتال فى سورة براءة .

هذا هو العدل ، وهذا هو المنطق الصحيح . ولا اعتراض على هذا . فالأديان التى سبقت لم تأت بمثل هذا الحكم ، والرسل السابقون إنما جاؤا لشعوبهم فقط ولم يؤمروا من الله بتعميم الدعوة الى الناس كافة . بخلاف دين الاسلام فقدجاء به خاتم الرسل للناس كافة ، وأمر باتباع ماجاء فى أول براءة فلم يقصد الرسول ذلك ولم يحاول قط أن يكره الناس على أن يكونوا مؤمنين .

ومن الغريب أن نسمع فى عصرنا هذا من يتهم الاسلام بالتعصب الأعمى ومصادرة الحرية الشخصية ، ويتخذ من هذه الآيات دليلا على القسوة وأنه فرض على الناس بالقوة . وهو كما قدمنا وكما ستقرأ بعيد عن ذلك كل البعد إذ التعصب

الذى عليه المسلمون ماهو إلا تعصب ذاتى فى العقيدة لما يرونه حقاً لاشك فيه ، ولا شر منه . كالدين ، والفضائل الانسانية ، ورغبة صادقة فى هداية الناس اليه بالحكمة والموعظة الحسنة . وليس معنى هذا أن المسلم يكره غير المسلم لأنه على غير دينه بل إنه يرجو له الهداية ، ويتخذ كل الوسائل لإنارة طريقه فى الحياة لما يقربه الى ربه ، وينفعه فى الحياة الدنيا والآخرة . وهذه سيرة الرسول كلها ناطقة بأنه ﷺ لم يهاجم قوماً فى ديارهم بسلاحه لدعوتهم الى الاسلام بل إنه فرق فى المعاملة بين المشرك الذى لايعترف بوجود الله خالق الأرض والسماء ، وبين الكافر من أهل الكتاب الذى يزعم أنه يؤمن بالله ، ويجمد فى اعتقاده عندما اتصل بعلمه من أحكام دينه عن طرق أولئك الذين نقلوه اليه بعد مئات السنين محرفاً مشوشاً ، وقد بدلوا فيه وغيروا ، وأدخلوا فيه ماليس منه .

وعند ما جاءهم الرسول (محمد) ﷺ من عند الله مصححا لما ورد فى كتبهم ، وهاديا الى الحق أعرضوا عنه ، وسدوا آذانهم عن سماع ماجاء به ولذلك سماهم كفاراً أى جاحدين معاندين لأنهم لايبحثون عن الدليل فيما قدم اليهم ، ولا يذعنون للحجة إذا قامت عليهم ، مندفعين الى هذا بمجرد التمسك بما كان عليه آباؤهم . وتقليدهم فى ذلك تقليداً أعمى . وحسبهم فى ذلك أن يقولوا إنا نؤمن بالله كما تؤمنون ، ونوحده كما توحدون ، ونصلى كما تصلون ، وكل ماهنالك أنا نقدس عيسى وأمه ، ونتخذهما شفعاء لنا لديه ، ونعظم أولياءه من رجال الدين . ونتوسل اليهم ليتوسلوا اليه . وقد أمر الله رسوله أن يخاطب هؤلاء بقوله : « قل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ماأعبد » أى أن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده لأنكم إنما تعبدون إلهاً له ولد وأنا أعبد إلهاً منزهاً عن ذلك « ولا

أنتم عابدون ماأعبد » أى ولستم بعابدين إلهى الحاكم العادل الذى لايتقرب اليه إلا بإخلاص التوحيد ، والعمل الصالح . أما إلهكم الذى تعبدونه فإنكم تعتقدون أنه يحابى ويجامل « ولا أنا عابد ماعبدتم » أى وليست عبادتى كعبادتكم « ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى لاعبادتكم كعبادتى ، فعبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله « لكم دينكم ولي دين » أى لامشاركة بين ما أدعوا اليه ، وما أنتم عليه .

وما كان للأمم والشعوب التى تدعى الحرية والديمقراطية اليوم ، وتحارب الشيوعية فى كل مكان باعتبارها مبادىء هدامة للنظام الاقتصادى القائم أن تنتقد الاسلام إذا هو عمل على محاربة مبادىء الشرك الهدامة ، وفى مقدمتها الشيوعية من قبل مئآت السنين .

وما كان يكون للدول التى تقيم الحضارة وتحمى الآداب ، وتحرم العراء على فريق من الناس فى أماكن خاصة ، أن تنتقد الاسلام الذى وضع أساس الحضارة ، وحرم على المشركين أن يطوفوا بالبيت الحرام عرايا منذ فجر الاسلام . وما يكون لأمريكا تلك الدولة العظمى التى آمنت بأضرار الخمر فحاربتها ، ولم تستطع القضاء عليها أن تنكر على الاسلام تحريمها قبل مئات السنين ، ونجاحه فى تنفير الناس منه .

وما يكون للدولة الانكليزية ، والألمانية التى أدركت مضار البغاء العلنى فحاربته وأوصدت أبوابه ، أن تنكر على الاسلام تحريمه للزنا قبل مئات السنين ونجاحه فى تحريمه ، وإبادة جراثيمه .

وأخيراً فما يكون لدول العالم جميعها وهى تشكو من تطاحن الناس على المادة ، وما ترتب عليها من تنازع الرأسمالية مع غيرها نتيجة انتشار الربا بين الناس ، أن تعيب على الاسلام تحريمه للربا ، وصد الناس عنه

وقد نجح فى ذلك بما غرسه فى القلوب من تعاطف وتعاون ورحمة الانسان بأخيه الانسان يوم كان المسلمون يتبعونه .

وليس أمام البشر اليوم طريقاً يخلصون به مما يعـــانونه غير اتباع شريعة - محمد بن عبد الله - خاتم النبيين .

السمو الخلقى عند محمد ﷺ

الأخلاق فى الأمة عماد نهضتها ، وسر عظمتها ، والأساس الذى تبنى عليه حياتها ، ويفخر به أبناؤها وكل أمة يتجرد أبناؤها عن الأخلاق الفاضلة أو تنحط أخلاقها لاتقوم لها قائمة ، ولا يرفع لها ذكر بين الأمم . ذلك لأن الأخلاق هى الوازع النفسى فى الإنسان الذى يدعوه الى الخير ويصده عن الشر . وحركات الجوارح من تأثير مافى الخاطر ، وأعمال الظاهر دليل على ماتكنه السرائر كما يقول الشاعر :

وما هذه الأفعال إلا مظاهر　　تترجم عما قد تكن الضمائر

ومن أفعال الإنسان يعرف كنهه ، وتتضح حقيقته وسر خلقه .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة　　وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإذا حسنت أخلاق الناس حسنت أعمالهم وطابت عشرتهم ، وأنصفوا من أنفسهم فلم يتجاوزوا حدودهم ، ولم يعتدوا على غيرهم . وإذا ساءت أخلاقهم ساءت تصرفاتهم ، وتعددت مساوئهم ، ونفر منهم أقرب الناس اليهم ، وفسد بذلك المجتمع الذى يعيشون فيه . ومن أجل هذا أنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل لهداية الناس تدريجاً الى مكارم الأخلاق ، بعد أن كانوا يعيشون على الفطرة لاوازع لهم يدفعهم الى الخير وينهاهم عن الشر .

فجاء كل رسول يهذب أخلاق أمته وفق مداركهم ، ويخاطبهم على قدر عقولهم بحسب ما تقتضيه أطوار التربية التى أسسها الله تعالى لتربية عباده فعندما كانوا كالأطفال بعقولهم القاصرة . أرسل لهم رسلا تستدرجهم الى عبادة الله بالأمور المادية وتخوفهم بخوارق العادات ، لردعهم عن الأمور الدنيئة ليستقيم أمرهم وتصلح أحوالهم .

حتى إذا بلغت السلالة البشرية رشدها ، وتكامل عقلها ، وارتقت مداركها أرسل الله خاتم الرسل والنبيين (محمد بن عبد الله) ﷺ للأخذ بيد الإنسان الى الكمال الخلق عن طريق استخدام العقل لمعرفة حقائق الأشياء ، وأحوال سائر الموجودات التى تنتهى الى الله خالقها ومسيرها . لعل فى هذه المعرفة ما يجذب النفوس الى الله ويحملها على اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فتستقيم الاخلاق ، وتحسن الأعمال ، ويعيش الناس فى هناء دائم .

جاء الرسول الأكرم (محمد) ﷺ وأعلن على رؤوس الأشهاد قوله : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فكانت الأخلاق الحسنة روح العبادات التى جاء بها ، وأفضل القربات التى دعا اليها ، وكانت هى من أجمل صفاته البارزة التى وصفه الله تعالى بها فى كتابه الكريم حيث قال : « وإنك لعلى خلق عظيم »

ومن المعلوم أن المراد بالخلق : الصورة الباطنية للإنسان كما أن المراد بالخلق : الصورة الظاهرة له . فإذا قيل فلان حسن الخلق والخلق فمعناه أنه حسن الظاهر والباطن . وقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان مركباً : من جسد مدرك بالبصر ، ونفس مدركة بالبصيرة . ولكل منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . ولا شك أن ما كان مدركا بالبصيرة أعظم ما هو مدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره فأضافه اليه حيث قال : « إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » فأشار بذلك الى أن الجسد

منسوب الى الطين ، والروح الى رب العالمين .

فأما هيئة الجسم الظاهرة فيمكن الحكم بحسنها وجمالها بمجرد النظر اليها وأما هيئة النفس الباطنة فلا يمكن معرفتها وحسنها وقبحها إلا بما يبدو من أعمالها الظاهرة باعتبارها هى مصدر الفكر ، وهى التى تهيمن على أعمال الجوارح . فما كان من الأفعال محموداً دل على نفس طيبة ، وخلق حسن والعكس بالعكس . وليس كل عمل الإنسان يدل على حقيقة نفسه ، بل إنما الذى يدل عليها هو العمل الذى يصدر بسهولة ويسير على وتيرة واحدة ومن غير حاجة الى تفكير وروية . وأما الأفعال التى تصدر بتكلف وعلى سبيل الشذوذ ، أو بعد تردد وترو فلا يصح أن تكون دليلا على حقيقة نفس الإنسان . فمن يصدر منه بذل المال مثلا على سبيل الشذوذ لظرف خاص لايقال . أن من خلقه السخاء لأنه قد يقصد الرياء ، أو تحت تأثير أمر آخر ومن يتكلف السكوت فى حالة الغضب لايقال عنه انه حليم الطبع لأنه قد يكون مكرها عليه .

وهذا قياس على الصورة الظاهرة للإنسان ، فإنه لايصح الحكم بجمال الخلقة إلا إذا تجلى ذلك فيها ، وهى فى حالتها الطبيعية دون أن تتطرق اليها يد التجميل والتحسين ، كذلك لايشترط فى إثبات صفة النفس من حسن أو قبح ، وجود فعل لها فى الظاهر لأنه قد تستتر الصفة فى النفس لعدم تهيؤ أسبابها كأن يكون الرجل جواداً ولكنه لم يجد على أحد لعدم وجود مايجود به .

ولا يكفى لإثبات صفة الجمال فى الصورة الظاهرة للإنسان وجود الحسن فى عضو دون آخر بل لابد من وجود الحسن فى كل عضو من الأعضاء مع تناسب وتناسق فى الأجزاء ليتم بذلك جمال الكل . ولهذا قيل فى حقيقة الجمال إنه تناسب الأعضاء . وكذا الحال فى الصورة الباطنة فلا بد من توفر الحسن

فى جميع القوى النفسية حتى يتم بذلك حسن الخلق . وقد جعل الله فى الباطن أربع قوات . وهى قوة العقل ، قوة النفس ، قوة الشهوة ، قوة الارادة . أما قوة العقل : فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل معها إدراك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال فإذا صلحت هذه القوة أثمرت الحكمة - والحكمة - أساس الأخلاق الحسنة ، وهى التى قال الله تعالى عنها : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » ، وقال ابن عباس فى تفسيره : لقوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » - يعنى العقل والفهم والفطنة من غير نبوة - .

وأما قوة النفس : فحسنها فى إصلاحها حتى يحصل كفها عن الخوف وقضاء وطر الغضب ، ويسمى ذلك بالشجاعة . وأما قوة الشهوة : فحسنها أن تكون قابلة للضغط والانسجام ، وتسمى عندئذ بالعفة . وأما قوة الارادة : فحسنها أن تكون خاضعة للحكمة ، منفذة لأوامرها ، متمشية مع الشرع ، قادرة على ضبط قوتى النفس والشهوة ، وتسمى هذه الحال بالعدل .

وحالة التناسب فى هذه القوى هى درجة الاعتدال فى الكل . فأى ماقوة من هذه القوى تجاوز فيها الحسن حد الاعتدال انقلبت الى ضده من السوء على حد قولهم « إذا اشتد البياض صار برصا » ، « وإذا زاد الشىء عن حده استحال الى ضده » ، فمثلا حالة الاعتدال فى قوة النفس الغاضبة تسمى شجاعة وحلماً فإن مالت عن حد الاعتدال الى طرف الزيادة يسمى تهوراً ، وإن مالت الى الضعف والنقصان يسمى جبنا وخوراً . وحالة الاعتدال فى القوة الشهوانية تسمى فضيلة وعفة ، فإن مالت الى الزيادة يسمى شرها ، وإن مالت الى النقصان يسمى جموداً وبلادة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان . كما قيل : « كلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

وأما الاعتدال فى قوة الارادة فيسمى عدلا ، وليس له طرفا زيادة أو نقصان ، وإنما يقابله شيء واحد هو الجور إلا أنه قد يكون للعدل طرفان متغايران ، باعتبار كماله ونقصانه ، وباعتبار ظهوره فى وصفه الحقيقى وفى غير وصفه بأن يسمى عدلا ، وبالاضافة وهو جور فى الحقيقة وذلك كقولهم « المساواة فى الظلم عدل » . كذلك الحال فى الحكمة التى هى ثمرة العقل ليس لها طرفا زيادة أو نقصان ولكنه إذا أفرط فى استعمالها للأغراض الفاسدة يسمى ذلك خبثاً ، وان ضعفت قوة العقل اعتبر ذلك بلهاً ، وإذا اشتد الضعف كان قنوعاً .

وبالاجمال فإن من اعتدال هذه الفصول الأربعة : ـ الحكمة والشجاعة والعفة ، والعدل ـ تصدر الأخلاق الجميلة كلها . فإن من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن ، وثقافة الرأى ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها يصدر المكر والخداع ، ومن تفريطها يصدر الجنون . وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه الكرم والنجدة والشهامة ، وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات ، وكظم الغيظ والوقار والتودد الى الناس . وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ ، والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة ، والجزع وصغر النفس . وأما خلق العفة فيصدر عنه السخاء والحياء ، والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع . وأما ميله الى الافراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشدة والوقاحة والرياء والتبذير والتقتير والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واحتقار الفقراء .

قد بلغ الرسول (محمد) ﷺ الاعتدال فى كل شىء ، واتصف بجميع صفات الكمال ، ودعا الى ذلك بأقواله وأعماله ، وما أنزل عليه من كتاب

وشريعة كلها دائرة حول هذا الباب . حتى لقد عرف الله المؤمن الصادق الايمان بأنه هو ذلك الذى تتوفر فيه تلك القوات الأربع : قوة العقل وقوة النفس وقوة الشهوة وقوة الارادة حيث قال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » . فالايمان بالله ورسله لايكون إلا بقوة العقل . وعدم الارتياب هو نتيجة قوة الارادة . والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى تؤدى الى إصلاح قوة النفس وكفها عن الخوف . والمجاهدة بالمال هى العفة التى تخضع شهوة النفس وتجعلها قابلة للضغط والانسجام . وأشار القرآن الى أن الخلق الحسن هو الاعتدال فى كل هذه القوى ، وإن الميل الى أحد الجانبين مذموم . بما وصف به سبحانه السخاء أنه وسط بين طرفى التبذير والتقتير حيث قال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » وقال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » . وما وصف به شهوة الطعام من الاعتدال دون الشره والجمود حيث قال : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين » . وما وصف به الغضب حيث قال : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » إشارة الى أن للشدة موضعاً ، وللرحمة مثلها ، فليس الكمال فى الشدة بكل حال ، ولا فى الرحمة بكل حال . وأمثال هذه التعاليم الآلهية فى التربية الأخلاقية كثيرة فى القرآن الكريم .

وأما فى السنة فحسبنا ماثبت عن أخلاقه ﷺ من أنه كان أحلم الناس وأشجعهم وأعدلهم وأعفهم ، وكان أسخى الناس وأبرهم ، وأكثرهم حياءً وتواضعاً . وأنه كان يخدم أهله ويقطع اللحم معهم ولا يستكبر عن المشى مع الأرملة والمسكين ، ويغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق ولو على أهله ، ويقبل معذرة المعتذر ، ولايحقد على أحد ، ولا يجازى بالسيئة السيئة

ولكن يعفو ويصفح .

قال خادمه أنس : والذى بعثه بالحق ماقال لى فى شىء قط كرهه لِمَ فعلته ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فإن عاتبنى أحد من أهله قال : دعوه فلو قدر على شىء كان . وكان ﷺ يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن قاربه . وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل . وما استعفاه أحد حتى ظن أنه أكرم الناس عنده حتى يعطى كل من جلس اليه نصيبه من وجهه ، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا ، وأرأف الناس للناس ، وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجباً مما يعجبون منه .

قال له رجل يوماً : « يارسول الله أالله يحب مكارم الأخلاق » فقال ﷺ : والذى نفسى بيده لايدخل الجنة إلا حسن الأخلاق . وسأله رجل عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى : « خذ العفو وامر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين » ثم قال : هو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » . وقال ﷺ : « أثقل مايوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق » . وجاء رجل اليه ﷺ من بين يديه فقال : يارسول الله ما الدين قال : « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه فقال : يارسول الله ما الدين ؟ فقال : « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله فقال : يارسول الله ما الدين ؟ فقال : « حسن الخلق » ثم أتاه من ورائه فقال : يارسول الله ما الدين ؟ فالتفت اليه وقال : « أما تفقه هو أن لاتغضب » . وقيل يارسول الله ما الشؤم ؟ قال : « سوء الخلق » وقال رجل أوصنى يارسول الله : فقال : « إتق الله حيث كنت . قال : زدنى قال : خالط الناس بخلق حسن » . وسئل ﷺ أى الأعمال أفضل قال : حسن الخلق .

وقيل يارسول الله أى المؤمنين أفضل إيماناً قال : « أحسنهم خلقاً » وقال ﷺ : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » وقال أيضاً : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » وقال ﷺ : « إن أحبكم الى أحاسنكم أخلاقا » وقال « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » وقال « من سعادة المرء حسن الخلق » الى غير ذلك من الأحاديث التى لاتحصى فى هذا الباب .

قال معاذ بن جبل : أوصانى رسول الله ﷺ فقال : « يامعاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء العهد ، وأداء الأمانه ، وترك الخيانة ، ورحمة اليتيم ، وحفظ الجار ، وكظم الغيظ ، وخفض الجناح ، وبذل السلام ، ولين الكلام ، ولزوم الإيمان ، والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وحسن العمل ، وعيادة المريض ، والإسراع فى حوائج الأرامل والضعفاء ، وقول الحق . وأنهاك أن تشتم مسلما ، أو تكذب صادقا ، أو تصدق كاذباً ، أو تعصى أمام عادلا » .

وهذه كلها تحض على طب الأرواح ، ومعالجة أمراض النفوس لإصلاح حالة المجتمع . ولما كان القرآن مشتملا على العقائد الصحيحة ، والآداب العالية وأصول التشريع الإجتماعى والمدنى ، فقد عالج به الرسول أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجاهلية ، عريقة فى الجهل والأمية ورذائل الوثنية . فشفيت واتحدت ، وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم من بدو وحضر . مع أنه كان أمياً لم يتعلم شيئاً من العلوم ، ولم يمارس سياسة الشعوب . ومما ساعده على ذلك هو أن القرآن الكريم له أسلوب خاص فى الهداية لا يمكن إلا أن يسلم به كل ذى عقل سليم كبناء العقائد على البراهين العقلية والكونية ،

وبناء الأحكام الأدبية والعلمية على قواعد المصالح وجلب المنافع ، ودفع المضار والمفاسد ، وكبيان أن للكون سنناً مضطردة تجرى عليهاعوالمه العاقلة وغير العاقلة . وكالحث على النظر فى الأكوان والتدبر فى أحوال بنى الإنسان لحصول العلم والمعرفة بما فى ذلك من الحكم والأسرار التى يرتقى بها العقل ، وتتفتح أمامه السبل لادراك النافع والضار . فقامت بذلك الحجة على من شاهد أو يشاهد تلك الآيات . وجعل الله القرآن آية كبرى لاثبات رسالة خاتم النبيين دون أن يكون لشخصه أى دخل فى ذلك إلا مجرد التبليغ والتنبيه والانذار والترغيب . كما صير آياته دعوة الى الحق قائمة دائمة لا تنقطع لقوم يعقلون من عهده ﷺ الى يوم الدين .

على أساس هذه التعاليم ربى رسول الله أمته وجعلهم من أحسن الناس أخلاقا ، وأكرمهم شمائلا ، وأصفاهم نفوساً ، وأفضلهم عملا بعد أن كانوا من أسوء الناس طباعا ، وأشدهم سواد صحيفه . ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وعنوا بالماديات . فانحطت نفوسهم عن الكمال ، وأصابهم ماأصابهم من الذل والانحلال . حتى غدوا مثلا سيئاً يصور الاسلام على غير حقيقته ، ويبعد به عن جوهره وغايته . وهكذا نرى العالم اليوم بأسره يقاسى أنواعاً من المشاكل الاقتصادية ، ويتطاحن مع بعضه فى سبيل الحصول على مطالبه المادية دون أن يوفق الى حل يضمن السعادة والسلام .

وإن فى تعاليم الاسلام التى أنزلت على (محمد) ﷺ للناس كافة،والتى تدعو الى حسن الخلق والكمال الانسانى ماينير لهم الطريق ، ويشخص لهم الداء ، ويرفع عنهم أسباب البلاء فهل من متعظ ؟؟ .

* * *

لقد كان يسرنا أن تكون الأخلاق شنشنة المتعلمين . ولكن كثيراً ما نرى غير هذا . قال أحد المستشرقين : « إن غير المتعلمين أزكى أخلاقا من المتعلمين » وليس لهذا من سبب سوى أنهم لم يأخذوا قسطاً من العلم الصحيح ، ولم يتزودوا من الأخلاق الفاضلة ، لأن القوى الموهوبة إن لم يأخذ بزمامها قائد الأخلاق الفاضلة كانت آلات الشرور ، فمن كان ذا جاه وكرمت أخلاقه استخدم جاهه فى مساعدة الضعفاء ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وإذا ساءت أخلاق ذى الجاه توصل به الى الشر ، كذلك من أعطى المال إن كان حسن الأخلاق ، بذله فى صنوف الخير ، وإن كان شريراً ابتاع به شراً ، والكاتب إذا لم يكن أميناً كانت معرفته الكتابة وسيلة تمكنه من تزوير العقود والوثائق ، وإيقاع الناس فى المشاكل ، والحداد إذا لم يكن أميناً اشترك مع اللصوص وصنع لهم المفاتيح التى تساعدهم على السرقة ، والفتاة المتعلمة إن لم تكن كريمة الأخلاق ، فإنها لاتجنى من تعلمها سوى الخلاعة ، والخروج على الأخلاق والآداب المرعية ، وكان ضررها أكبر إذا تولت مهنة التعليم . والمدره إذا لم يكن صادقا أضل القاضى ، وضيع الحقوق ، وساعده على أكل أموال الناس بالباطل ، وهلم جرا .

« أمثلة من نقائصنا الخلقية »

١ - من النقص الخلقى أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله فرحا بقدرته على النطق ، جاهلا أنه خير للولد أن يكون أبكم من أن يكون سباباً

٢ - ومن النقص الخلقى احتقار الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة ، وكثير ممن قطعوا بعض مراحل التعليم يترفعون عن مزاولة هذه الحرف .

٣ - ومن النقص الخلقى احتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة والتعلق بالعادات الغربية وإن كانت سيئة .

٤ - ومن النقص الخلقى الانغماس فى الترف ومحاكاة الفقير الغنى .

٥ - ومن النقص الخلقى تطلع الشبان الى الزوجات الغنيات وإن كن وضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات الى الأزواج الأغنياء وإن كانوا فاسدين الأخلاق .

٦ - ومن النقص الخلقى أن نرى نصرة العدالة ضعيفة ، فالرجل يشهد ألزور ويحلف اليمين الغموس إرضاءاً لنفسه أو صديقه ويعتبر ذلك ديناً له يسترد عند الحاجة ، والمدرهٍ يعرف أن موكله ظالم مجرم ومع ذلك يدافع عنه ويعتبر ذلك مهارة . وكذلك من يعرف حقيقة الأمر ويكتم الشهادة ويتوارى عن الأنظار .

٧ - ومن النقص الخلقى أن نرى القراء يقبلون على الروايات الهزلية الممقوتة ويضربون صفحاً عن الكتب القيمة .

٨ - ومن النقص الخلقى أن نرى موظف الحكومة يأخذ راتبه من مال الأمة ليخدمها . ولكنه ينسى واجبه ويترفع عن خدمة أفرادها . وكثيراً مايهتم بشؤونه الخاصة ويهمل واجبه فيعطل مصالح الناس ، بل قد يتخطى هذا الى إستخدام مركزه الحكومى فى قضاء مآربه المعينة .

٩ - ومن النقص الخلقى تكدر الموظف عند انتقاله الى جهة نائية لا لسبب غير أنها نائية ، وينتحل الأعذار ، ويوسط الكبراء لإلغاء النقل

مع أنه يرى الأجانب يضربون فى الأرض ، ويتجشمون الصعاب .

١٠ ـ ومن النقص الخلق الامتعاض من سماع الحق ومقت قائله ، والاطمئنان الى أهل الباطل والنفاق والرياء .

١١ ـ ومن النقص الخلق إزدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهترين ، وتكريم الزنادقة والملحدين . هذه بعض عيوبنا الخلقيه ، ولكنها كما ترى معاول اضمحلال وانحلال ولا دخل للعلم فيها ، بل القسم الأكبر منهـا يتفشى فى الطبقات المتعلمة . وقد أخذنا على أنفسنا بأن نجمع فى كتابنا هذا ـ الجواهر الروحية ـ من الآراء الخلقية بين مالرتضاه فلاسفة الغرب فى بحوثهم ، وبين ماذهب اليه حكماء الشرق فى مؤلفاتهم ، مستضيئين فى ذلك بنبراس كتاب الله تعالى ، ومسترشدين بسنة رسوله ﷺ وما كان لنا أن نحيد عن فلسفة الخلق ، ووصف أقوم الطرق الى تكوينه وتزكيته .

لأن فلاسفة الغرب ـ وإن بحثوا عن أمهات الفضائل ـ ولكنهم لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لهـا حداً فاصلا بين ما يحقق الفضيلة وما لايحققهـا : فإنهم لم يذكروا متعلق العفة ، ولا عن أى شيء تكون ، ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه المرء وقع فى الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح ، وكذلك الشجاعة .

وأما الدين الاسلامى فقد بين ذلك غاية البيان ، وفصله أحسن تفصيل فى غير موضع من القرآن الكريم . وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر آية من القرآن الكريم جمعت قواعد الأخلاق ، وحددتها أدق تحديد ، قال تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا

٢ ـ ومن النقص الخلقى احتقار الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة ، وكثير ممن قطعوا بعض مراحل التعليم يترفعون عن مزاولة هذه الحرف .

٣ ـ ومن النقص الخلقى احتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة والتعلق بالعادات الغربية وإن كانت سيئة .

٤ ـ ومن النقص الخلقى الانغماس فى الترف ومحاكاة الفقير الغنى .

٥ ـ ومن النقص الخلقى تطلع الشبان الى الزوجات الغنيات وإن كن وضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات الى الأزواج الأغنياء وإن كانوا فاسدين الأخلاق .

٦ ـ ومن النقص الخلقى أن نرى نصرة العدالة ضعيفة ، فالرجل يشهد ألزور ويحلف اليمين الغموس إرضاءاً لنفسه أو صديقه ويعتبر ذلك ديناً له يسترد عند الحاجة ، والمدره يعرف أن موكله ظالم مجرم ومع ذلك يدافع عنه ويعتبر ذلك مهارة . وكذلك من يعرف حقيقة الأمر ويكتم الشهادة ويتوارى عن الأنظار .

٧ ـ ومن النقص الخلقى أن نرى القراء يقبلون على الروايات الهزلية الممقوتة ويضربون صفحاً عن الكتب القيمة .

٨ ـ ومن النقص الخلقى أن نرى موظف الحكومة يأخذ راتبه من مال الأمة ليخدمها . ولكنه ينسى واجبه ويترفع عن خدمة أفرادها . وكثيراً مايهتم بشؤونه الخاصة ويهمل واجبه فيعطل مصالح الناس ، بل قد يتخطى هذا الى إستخدام مركزه الحكومى فى قضاء مآربه المعينة .

٩ ـ ومن النقص الخلقى تكدر الموظف عند انتقاله الى جهة نائية لا لسبب غير أنها نائية ، وينتحل الأعذار ، ويوسط الكبراء لإلغاء النقل

مع أنه يرى الأجانب يضربون فى الأرض ، ويتجشمون الصعاب .

١٠ ـ ومن النقص الخلقي الامتعاض من سماع الحق ومقت قائله ، والاطمئنان الى أهل الباطل والنفاق والرياء .

١١ ـ ومن النقص الخلقي إزدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهترين ، وتكريم الزنادقة والملحدين . هذه بعض عيوبنا الخلقيه ، ولكنها كما ترى معاول اضمحلال وانحلال ولا دخل للعلم فيها ، بل القسم الأكبر منهـا يتفشى فى الطبقات المتعلمة . وقد أخذنا على أنفسنا بأن نجمع فى كتابنا هذا ـ الجواهر الروحية ـ من الآراء الخلقية بين ماارتضاه فلاسفة الغرب فى بحوثهم ، وبين ماذهب اليه حكماء الشرق فى مؤلفاتهم ، مستضيئين فى ذلك بنبراس كتاب الله تعالى ، ومسترشدين بسنة رسوله ﷺ وما كان لنا أن نحيد عن فلسفة الخلق ، ووصف أقوم الطرق الى تكوينه وتزكيته .

لأن فلاسفة الغرب ـ وإن بحثوا عن أمهات الفضائل ـ ولكنهم لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لهـا حداً فاصلا بين ما يحقق الفضيلة ومـا لايحققهـا : فإنهم لم يذكروا متعلق العفة ، ولا عن أى شيء تكون ، ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه المرء وقع فى الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح ، وكذلك الشجاعة .

وأما الدين الاسلامى فقد بين ذلك غاية البيان ، وفصله أحسن تفصيل فى غير موضع من القرآن الكريم . وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر آية من القرآن الكريم جمعت قواعد الأخلاق . وحددتها أدق تحديد ، قال تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا

تعلمون » فهذه الأنواع الأربعة التى حرمها القرآن الكريم تحريماً مطلقاً لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ، ولا فى حال من الأحوال ، ولا كذلك الميتة والدم ولحم الخنزير مثلا . فإنها تحرم فى حال وتباح فى حال ، وأما تلك الأربعة فهى محرمة دائماً : فالفواحش مرتبطة بالشهوة ، واعتدال قوة الشهوة فى اجتناب هذه الفواحش ، والبغى بغير الحق مرتبط بالغضب ، واعتدال القوة الغضبية فى اجتناب البغى . والشرك بالله ظلم عظيم ، بل هو الظلم على الاطلاق وهو مناف للعدل والعلم ، وقوله تعالى : « وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً » متضمن تحريم أصل الظلم فى حق الله ، وذلك يستدعى إيجاب العدل فى حقه ، وهو عبادته وحده لاشريك له ، فإن النفس لها قوتان : - العلمية والعملية ، وعمل الانسان اختيارى تابع لارادته ، وكل إرادة لها مراد ، وهو أما مراد لذاته ، وأما مراد لغيره ينتهى الى المراد لذاته . والقوة العملية تستدعى أن يكون للنفس مقصد تكمل بتحققه ، فإن كان ذلك المقصد مضمحلا فانياً ، زالت الارادة بزواله ولم يك للنفس مقصد غيره ، ففاتها أعظم سعادتها وفلاحها . ولذلك وجب أن يكون مقصد النفس الذى تكمل بتحققه والاحتفاظ به وإيثاره باقياً لايفنى ولا يزول ، وليس ذلك إلا الله وحده . ذلك ماينطوى عليه قوله تعالى : « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً » .

أوردنا هذا لبيان أن فلاسفة الغرب لم يوفقوا الى فهم ذلك عند الكلام على كمال النفس ، وإنما جعلوا كمالها فى اعتدال قوتى الشهوة والغضب ، ومعلوم أن الشهوة جلب ماينفع البدن ويبقى النوع ، والغضب دفع مايضر البدن ، وليس فى ذلك تحديد للمطلوب ، ولا بيان للمقدار المحبوب . بل هو وقوف بالاخلاق عند حد العلم بها زعما منهم أن مجرد العلم بها كاف فى كمال النفس .

وذلك خطأ من وجوه كثيرة :

١ - منها أن ماذكروه فى كمال القوة العملية إنما غايته إصلاح البدن الذى هو أداة النفس ، ولم يذكروا كمال النفس الارادى والعمل بالمحبة والخوف والرجاء .

٢ - ومنها أن كمال النفس فى العلم والارادة . لامجرد العلم . فإن مجرد العلم ليس بكمال النفس مالم تكن مريدة محبة لمن لاسعادة لها إلا بإرادته ومحبته .

٣ - ومنها أن كمال النفس ورقيها الروحى المستفاد من الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) ، ليس ذا أثر ظاهر عندهم

٤ - ومنها أنهم أخطأهم التوفيق فى بحوثهم الإلهية لعجزهم عن تحديد الفضائل تحديداً يحول بينهم ويأخذ بحجزتهم عن التورط فى الزيغ وتنكب جادة الحق .

من أجل هذا توخينا ألا نورد إلا المستحسن من آرائهم ، والمرضى من مذاهبهم ، ليكون ذلك أعم فائدة وأوفر عائدة .

والله سبحانه المسؤول والمرغوب اليه والمأمول أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

« الفلسفة الخلقية »

تعريفها

هى علم يبحث عن السنن الخلقية التى يجرى عليها العالم ويتخذها معياراً توزن به أعمال البشر وأقوالهم وأحوالهم فى معاشهم ومعادهم ، ويبين لهم

كيف يجب أن يعيشوا لا كيف يعيشون ، ولهذا أسماه بعضهم علم مايجب ، وعنوا بذلك القواعد التى يجب أن يسير الانسان على مقتضاها ليتم لنفسه ماهى جديرة به من الكمال والرفعة ، وتبلغ ماهى حرية من الخير . وكذلك يبحث فى نزعات بنى الانسان ونزغاته ، وما اعتادوه من الأعمال والأقوال ويكشف الغطاء عن حقيقتى الخير والشر . والغاية التى يعد الدنو منها قربا من الأول والبعد منها قربا من الآخر . ولما كان مبحث الخير هو الغاية التى ينشدها الخلق غلا بعضهم فعرف علم الأخلاق بأنه علم الخير والارشاد اليه .

« موضوع الفلسفة الخلقية »

موضوعها : أعمال بنى الإنسان الاختيارية الصادرة عن قصد وروية فخرجت الأعمال التى لاسلطان للإرادة عليها كالتنفس وما شابهه ، وهناك أعمال شبيهة بالأعمال الاختيارية والأعمال الاضطرارية فيلتبس أمرها على غير الناقد البصير ، ولذلك وجب أن نكشف الغطاء عنها ، لنبين فى أيهما تدرج والمثل خير موضح : من الناس من اعتاد أن يهب من نومه وهو حالم فيأتى من الأعمال خيرها وشرها ، فربما أنقذ طفلا كاد يهوى من النافذة ، أو أحرق منزلا . أفنحكم على عمله خلقياً بأنه خير فى الحال الأولى وشر فى الحال الثانية ؟ ومنهم من ابتلى بالسهو والنسيان ، فتفوته أعمال كان حقاً عليه أن يعملها : فربما علم أن جماعة يأتمرون بتدمير مصنع ، أو نسف قطار فيهما خلق كثير انتقاما من رب المصنع ، أو حاكم غاشم فى القطار ، ثم نسى كعادته أن ينبه على درء البلية ، أفتلق عليه التبعة ، ويحكم عليه بأنه شريك

خلقياً للجناة فى جريمتهم ؟ ومنهم من ابتلى بحدة الخلق ، وسرعة الغضب بحيث لايستطيع الصبر على سماع كلمة تؤلمه ، أو إشارة تؤذيه أإذا أكثر من الإختلاف الى الأندية وغشيان المجالس ، تلقى عليه التبعة ، ويؤاخذ على بوادره ، وإن كانت خارجة من إرادته ؟

الحق أن أعمالهم جميعاً فى الأمثلة الثلاثة مؤاخذون عليها خلقياً ، لأن قواعد الأخلاق توجب أن يحتاط المرء لدرء شر الحالات التى يكون فيها مسلوب الارادة ، فالنائم والساهى فى المثالين الاولين عليهما تبعة اهمال اتخاذ الحيطة والحذر . والغضب فى المثال الثالث لايبرىء صاحبه من اللوم والمؤاخذة ، لأن له مندوحة عن الخصام والتنازع ، بانكفافه عن التردد الى المجالس التى هى عادة مثار المراء ومباءة الخصام .

قال الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : « ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، ماملخصه ان العقل يحكم بالعفو عن الناسى لأنه لايجوز تكليف مالايطاق . وقد جاء السمع مؤيداً لذلك ، فقد قال رسول الله ﷺ : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » فإذا كان النسيان فى محل العفو قطعاً ، عقلا وشرعا ، فما معنى طلب العفو عنه فى الدعاء ؟ ويجاب عن ذلك بأن النسيان منه مايعذر صاحبه فيه ومنه مالايعذر ، ألا ترى أن من رأى دماً فى ثوبه فأخر إزالته الى أن نسى فصلى وهو على ثوبه عد مقصراً إذ كانت تلزمه المبادرة الى إزالته ، وأما إذا لم يره فى ثوبه فانه يعذر فيه . ومن رمى صيداً فى موضع فأصاب إنساناً ، فقد يكون بحيث لايعلم الرامى أنه يصيب ذلك الصيد أو غيره ، فإذا رمى ولم يتحرز كان ملوماً . أما إذا لم تكن أمارات الغلط ظاهرة ثم رمى وأصاب إنساناً ، كان هاهنا معذورا .

وصفوة القول : إن الناس يؤاخذون فى ترك التحفظ قصداً وعمداً .

ولقد ألمع الغزالى الى ذلك فى ـ إحيائه ـ إذ يقول : « قد ينظر الإنسان الى وجه حسن فيميل اليه ميلا ضعيفاً ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطه والمحاورة ، لتأكد ميله حتى يخرج من أمر اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، وكان حقاً عليه أن يفطم نفسه ابتداءاً ، ويزجر ميله دفعا لبلوغه حالا يصبح فيها مسلوب الارادة ، وما ذلك بمنجيه من اللوم والتبعة » .

فجدير بالعاقل ألا يغفل عن محاسبة نفسه ، ومراقبة حركاتها وسكناتها وما عساه أن يتأصل فيها من العادات الذميمة ، ويحذرها مغبة الاهمال ، حتى لا يسهل عليها مفارقة العمل السيىء فتصبح عادة لازمة والتقى من كان أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح .

« أعلم الأخلاق نظري أم عملي »

جاء فى (الخلق الكامل) : « ذهب بعض الفلاسفة الخلقيين وهم النفعيون الى أن علم الأخلاق عملى ، وزعموا أنه يمكن تحديد غاية معينة يجب أن يسعى اليها الناس جميعاً هى فى عرفهم : أن ينال جل الناس أكبر قسط من الهناءة ، وأنه يجب على الخلقيين أن يبتكروا خير الوسائل لبلوغ هذا المقصد ، كما يجب على الأطباء أن ينقبوا عن أمثل الطرق الى توفير أسباب الصحة وتحصيلها .

وذهب الجمهور الى أنه نظرى وعنوا بذلك أنه يصور المثل الخلقى الذى يجب أن يحتذى ، والقواعد التى يجب العمل بها لمحاولة بلوغ هذا المثل ،

إن تناوله البحث أحيانا فيما لدى الناس من المواضعات والعادات ، استحساناً واستهجاناً ، وفيما طرأ عليها من التبدل والتغير ، افتئات منه على علم الاجتماع الباحث فى تكوين الجماعات ، وتدرج حياتها ، والذى هو من العلوم الواقعة الباحثة فى الأمور الثابتة فهم يرون أن مثل علم الأخلاق ، كمثل علم الجمال فعلم الجمال لايبحث إلا فى تصوير المثل الكامل للجمال ؛ وليس منه البحث فى وسائل تحصيله ، وكذلك علم الأخلاق لاينقب فى رأى الجمهور إلا عن إماطة اللثام عن طبيعة المثل الكامل ، لما يجب أن يكون عليه الناس فى أحوالهم وأعمالهم .

أمن يدرس الفلسفة الخلقية يصير ذا خلق ؟

قال الشيخ محيي الدين العربى فى كتابه ـ فلسفة الأخلاق ـ : « أهم مزايا دراسة الأخلاق ما يأتى : ـ

١ ـ إنها تبين ما الخلق وما علته ، وما أنواعه ، وما المرضى منه المغبوط صاحبه المتخلق به ، وما المشنوء الممقوت فاعله المتسم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة تسمو الى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص .

٢ ـ وتدل على طريق الإرتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير المرتاض به ديدناً وعادة وسجية ، يهتدى به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادات الردية وأنس بها .

٣ ـ وتصف الإنسان الكامل المهذب الأخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقته التى يصل بها الى الكمال ، وما يحفظ عليه الكمال ليشتاق الى سمته من تشوق الى الرتبة العليا ، ويحن الى احتذائه من استشرف الى

الغاية القصوى .

٤ - تنبيه من كانت له عيوب قد التبست عليه وهو مع ذلك يظهر له انه فى غاية الكمال، فإن من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة تيقظ لما فيه من ذلك وأنف واجتهد فى اطراحه .

٥ - إذا تصفح الأخلاق المحمودة من كان متصفاً بأكثرها فاقداً لبعضها ، انبرى للتخلق بما هو فاقد له وتاقت نفسه الى الاحاطة بجميعها .

٦ - وتحث المهذب الأخلاق ، الجامع المحاسن على الاستمرار على سيرته والاصرار على طريقته ، إذا مر بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ورأى أن تلك هى عاداته وسجاياه .

٧ - دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها ، وتقديرها حق قدرها ، دون أن يخضع فى حكمه الى إلف أو عادة أو يتأثر بحكم الزمان والمكان .

٨ - وبها تقوى الارادة على عمل الخير ، وسلوك السنن القويم ، وتنشط العزيمة للمضى فى سبيل الفضيلة ، واتخاذها نبراساً فى أعمالها .

رأينا : والحق أن مثل الخلق فى تلقينه قواعد العلم ، وتوضيح مباحثه كمثل الطبيب ، يتعرف الداء ويصف الدواء فالطبيب لا يستطيع أن يستأصل جرثومة المرض إذا أهمل المريض نصيحته وإرشاده . وكذلك ملقن الفلسفة الخلقية ومبين مزاياها ، ليس فى مقدوره أن يجعل من يأخذون عنه ، أو يقرأون كتابه أخياراً صلحاء ، إذا هم خالفوا قواعد علمه ، وانصرفوا عن الجرى على سنته ومذهبه « أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

أجل إن المواعظ الحسنة ، وقواعد التهذيب البينة ، قد تبعث العزائم في بعض الأحايين على القيام بصالح الأعمال ، وجلائل الفعال ، فالموعظة كما يقال : جند من جنود الله تعالى ، ومثلها مثل الطين يضرب به على الجدار إن استمسك نفع ، وإن وقع أثر . من أجل ذلك استدعى الرشيد ـ منصور ابن عمار ـ ليعظه ، فقال له : عظني وأوجز ، فقال : « ياأمير المؤمنين هل أحد أحب اليك من نفسك ؟ قال : لا ، قال : إن أردت ألا تسيء الى من تحب فافعل » . ودخل مالك بن أنس وابن طاووس على أبي جعفر المنصور وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق فأومأ اليهما بالجلوس ، فجلسا ، فأطرق زمناً طويلا ، ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاووس وقال له : حدثني عن أبيك ، قال : سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه ، فأدخل عليه الجور في حكمه » ، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ، فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاووس . ثم قال : يابن طاووس : ناولني هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ، قال : أخاف أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال : قوما عني ، فقال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغي » . وكذلك العلم إذا تغلغل في النفوس أورثها البأس والاقدام ، وكساها حلة العظمة واليقين ، بيد أن المتخلقين بما يعلمون هم الأقلون قديماً وحديثاً ، ومن أجل ذلك قال على أمير المؤمنين عليه السلام : « إنما زهد الناس في طلب العلم ، لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم » .

وها نحن أولاء نرى الناس يتلون الكتب السماوية ويسمعون الحكم الخلقية ، وهم خلو من حلية التقوى وطابع الهدى لا تثنيهم يد المراقبة ولا

تكفهم خيفة المحاسبة ، فهم لدعائم الأخلاق مضيعون ، ولدواعى الفساد والهوى مطيعون ، جاء فى التوراة « الرجل الحكيم فى عز » وجاء فى الكتاب المقدس « كما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا » وجاء فيه أيضاً « وأنتم جميعاً أخوة » وورد فى القرآن الكريم « إنما المؤمنون أخوة » « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » « ولا تنسوا الفضل بينكم » « وتعاونوا على البر والتقوى » وجاء فى الحديث الشريف « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

فهل أقيمت مع هذا شريعة الإنصاف ، وهدمت دعائم الاستعباد أليس الناس يكره بعضهم بعضا ، ويتربص به الدوائر ؟ أليس سيف البغى مصلتا وشيطان العدوان والحرب مستيقظاً ؟ حقاً لقد صدق صاحب كليلة ودمنة ، إذ يقول على لسان برزويه : إنا قد نرى الزمان مدبراً بكل مكان ، حتى كأن أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزاً فقده مفقوداً ، وموجوداً ما كان ضائراً وجوده ، وكأن الخير أصبح ذابلا ، والشر ناضراً وكأن الفهم قد زالت سبله ، وكأن الحق ولى كسيراً ، وأقبل الباطل تابعه ، وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم ، أصبح بالحكام موكلا وأصبح المظلوم بالحيف مقراً ، والظالم بنفسه مستطيلا ، وكأن الحرص أصبح فاغراً فاه من كل جهة ، يتلقف ماقرب منه وما بعد ، وكأن الرضا أصبح مجهولا ، وكأن الأشرار يقصدون السماء صعوداً ، وكأن الأخيار يريدون بطن الأرض نزولا ، فأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف الى أسفل درك ، وأصبحت الدناءة ممكنة ، وأصبح السلطان متنقلا عن أهل الفضل ، الى أهل النقص ، وكأن الدنيا جذلة مسرورة ، تقول قد غيبت الخيرات ، وأظهرت السيئات .

« وسيلة تقويم الخلق »

تمهيد

الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالإختيار وتقهر بالإضطرار ، وللنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع ، ولها أفعال تصدر عنها بالإرادة فهما ضربان أخلاق الذات ، وأفعال الإرادة . والإنسان مطبوع على أخلاق قلما حمد جميعها أو ذم سائرها ، وإنما الغالب أن بعضها محمود وبعضها مذموم ، فتعذر لهذا التعليل أن تستكمل فضائل الأخلاق طبعا وغريزة ، ولزم لأجله أن يتخللها رذائل الأخلاق طبعا وغريزة ، فصارت الأخلاق غير منفكة فى جبلة الطبع وغريزة الفطرة عن فضائل محمودة ورذائل مذمومة . وإذا استقر ذلك فالسعيد من غلبت فضائله على رذائله ، فقدر بوفور الفضائل على قهر الرذائل ، وسلم من شين النقص ، وسعد بفضيلة الفضل . فالانسان أولى بالعطف والتشجيع على الفضائل المكتسبة ، لأنها مستفادة بفعله ، دون الفضائل المطبوعة وإن حمدت فيه لوجودها بغير فعله . ومن القبيح أن يتحرز المرء من أغذية البدن إتقاء الضرر ولا يعنى بتهذيب أخلاقه ومداواتها بالعلم الذى هو غذاؤها صونا لسلامتها ، وإذا كنا نعنى بجميع أعضاء البدن وخاصة بالأشرف منها فبالحرى أن نعنى بأجزاء النفس وخاصة بالاشرف منها - وهو العقل - .

وكما أن الأمراض التى تعرض للبدن إن لم يعلم الطبيب أسبابها لم يتمكن

من علاجها كذلك علل النفس ينبغي أن نعنى باستئصال أسبابها ، فمتى أحس الانسان انه أخطأ وأراد ألا يعود ثانياً فلينظر أى أصل فى نفسه حدث ذلك عنه فيحتال فى إزالته . وبعد فلو لم يكن الى تغير الاخلاق سبيل ما كان للأقاويل التى أودعتها الحكماء كتبها فى استصلاح الاخلاق معنى . إذ لا يرجى لها نفع ولا جدوى . وكذلك لم يكن للمواعظ التى يقصد بها ذوو الاخلاق الذميمة من الاشرار معنى إذا لم نطمع فى انتقالهم عما هم عليه من الشر . ولذلك كانت وسائل تقويم الخلق هى :

١ - يجب أولا أن نحصى الاخلاق خلقاً خلقاً ونحصى الافعال الناشئة عن خلق خلق . ومن بعد ذلك ننظر أى خلق نجد أنفسنا عليه . وهل ذلك الخلق الذى اتفق لنا منذ أول أمرنا جميل أو قبيح ؟ والسبيل الى الوقوف على ذلك أن نتأمل أى فعل إذا فعلناه لحقنا من ذلك الفعل لذة ، وأى فعل إذا فعلناه نتأذى به ، فإذا وقفنا عليه نظرنا الى ذلك الفعل : أهو فعل يصدر عن الخلق الجميل أم هو صادر عن الخلق القبيح ؟ فإذا كان ذلك عن خلق جميل قلنا إن لنا خلقا جميلا فى تلك الوجهة ، وإن كان ذلك عن خلق قبيح قلنا إن لنا خلقاً قبيحاً من هذه الوجهة ، فبهذا الوجه نقف على الخلق الذى نصادف أنفسنا عليه ، أى خلق هو ؟ وكما أن الطبيب متى وقف على حال البدن نظر : فإن كانت الحال التى صادفه عليها حال الصحة احتال فى حفظها على البدن ، وإن كان مايصادف عليه البدن حال سقم أعمل الحيلة فى إزالته عنه - كذلك متى صادفنا أنفسنا على خلق جميل احتلنا فى حفظه ، وإن صادفناها على خلق قبيح استعملنا الحيلة فى إزالته عنها ، فإن الخلق القبيح سقم نفسانى ، فينبغى أن نحتذى فى إزالة أسقام النفس حذو الطبيب فى إزالة أسقام البدن ، ثم ننظر بعد ذلك الخلق القبيح الذى صادفنا أنفسنا عليه ، أهو من جهة الزيادة أو

النقصان ؟ وكما أن الطبيب أيضاً متى صادف البدن أزيد حرارة أو أنقص رده الى التوسط من الحرارة بحسب الوسط المحدود فى صناعة الطب ـ كذلك متى صادفنا أنفسنا على الزيادة أو النقصان فى الأخلاق رددناها الى الوسط المحدود فى هذا الكتاب .

ولما كان الوقوف من أول وهلة على الوسط عسراً جداً التمسنا الحيلة فى وقف الإنسان عليه أو على القرب منه جداً : وذلك أن ننظر الخلق الحاصل لنا : فإن كان من حيث الزيادة أو النقصان عودنا أنفسنا مباشرة الضد ونديم ذلك زمانا حتى يتحقق الوسط .

٢ ـ وأن يرتاض الإنسان بمكارم الأخلاق ومحاسنها ويتنزه عن مساويها ومقابحها ، ويأخذ فى جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلا فى أفعاله عن طرق الرذائل ، وأن يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب ، ويصرف همته فى إقتناء كل خلة كريمة خالصة من الشوائب ، وأن يبذل جهده فى اجتناب كل خصلة مكروهة ، ويستنفد وسعه فى اطراح كل خلة مذمومة حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسى حلل الجمال بدماثة شمائله ، فإنه إذا حاسب نفسه ، وأجاد فكره ـ علم أن الضرر فى مساوى الأخلاق أكثر من النفع ، وأن الذى يعده نفعاً ، وليس نفعاً على الحقيقة ـ هو يسير جداً غير باق ولا مستمر ، وأن هذا اليسير الذى يعده نفعاً لايفى بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن الشر والخبث لايعقبان إلا الشر ويوحشان منه الناس : ألاترى أن من تشرر قصده الناس بالشر واستعدوا لأذيته ، واحترزوا منه وحرموا نفعه ، وحظروا عليه وجوه الخير ؟

وصفوة القول أن السبيل الى اعتناق الإنسان الأخلاق المحمودة

واستعمالها ، واجتناب المذمومة وإهمالها ثلاثة أمور :

الأول - بتمييز القوة الناطقة بأحوال ثلاثة : بمداومة الإطلاع على كتب الأخلاق والسياسات والعمل بها ، وبتدقيق النظر فى العلوم العقلية والبحث عنها ، وبالتدرج الى استعمال العادات الجميلة وترك ضدها .

الثانى - بقهر القوة الشهوانية بأحوال ثلاثة : بأن يجتنب مجالسة السفهاء والخلعاء والنساء والأرذال ، وبأن يكثر مجالسة الزهاد وذوى الإجتهاد والورع ، وبأن يتحرى الجميل من رغباته فيحققه .

الثالث - بتعديل القوة الغضبية بأحوال ثلاثة : بأن يذكر المؤذى أن لو كان هو المؤذى هل كان يختار ذلك منه أم ينفر منه ؟ وبأن يتذكر ماشهده من طيش غيره فلا يرضاه لنفسه عند الغضب ، وبأن يكسر سورة الغضب بالرفق ، ويستعمله على تعديل القوة الشهوانية فقط .

لاجرم أن ملاك الأمر فى تهذيب الأخلاق هو تقوية العقل وتمكينه من السيطرة على القوانين الغضبية والبهيمية ، وخير السبل الى تقوية العقل معالجة العلوم العقلية ، فإن الإنسان إذا نظر فيها ، ودرس كتب الأخلاق والسير ، وداوم عليها - تيقظت نفسه ، وانتعشت من خمولها ، وأحست فضائلها وأنفت من رذائلها ، لأنها إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب واستولت عليها الرذائل . وإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية ، شرفت نفسه وعظمت همته ، وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك من أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وانقاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية فليبذل جهده فى تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس وتمييز مابين عاداته القبيحة والجميلة ، لينظر أيهما أجدى عليه ، وأنفع له ، وأيهما أحمد عاقبة ، وأبقى على الأيام .

ومما يهذب النفس ويصلحها أن يجعل الإنسان غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلا بأرفع درجة ، فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريا أن يتصف بالفضائل ، ويبلغ منها درجة مرضية إن فاتته الدرجات الرفيعة . فأما إن قنع بما دون الغاية فلا يأمن أن يقصر عن بلوغها ويفوته المطلوب .

الأهداف الاجتماعية عند محمد ﷺ

للشريعة الإسلامية أهداف إجتماعية لابد أن تتحقق فى كل مجتمع ، ولو بين الآحاد بعضهم مع بعض إذاجمعتهم بيئة ، ولو كان جواراً فى سفر ، أو جلوساً فى مركب ، أو اجتماعا فى معبد ، أو استراضة فى ناد ، أو لقاء عابر ، لا استقرار فيه .

كما تتحقق هذه الأهداف فى المجتمعات المستقرة كالأسرة ، والمجتمع الصغير ، والمجتمع الكبير فى الأمة الواحدة . أو فى الأسرة الإنسانية كلها وإن الشريعة الإسلامية تتجه فى كل أحكامها الى تحقيق هذه الأهداف الاجتماعية ، وهى المقاصد العليا للشريعة الإسلامية ، فقد جاءت لتكوين مجتمع فاضل يضم الأسرة الإنسانية كلها ، قاصيها ودانيها ، وابتدأت فاتجهت الى تربية المسلم ليكون عضواً فى مجتمع . والعبادات الاسلامية ، والفضائل التى دعا اليها الاسلام تتجه نحو تحقيق هذه الأهداف وتوجيهه اليها .

فالعبادات شرعت لتهذيب النفوس ، وتربية روح المساواة ، وروح الاجتماع الذى لاإعتداء فيه ، وإذاكانت العبادة لاتحقق تلك الأهداف ، فهى ليست عبادة ، ولا يقبلها الله ، وهى تجلب الذم لصاحبها . ولنضرب لذلك مثلا بالصلاة التى هى أوضح العبادات الشخصية ، فقد وصفها القرآن

الكريم بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر فقال سبحانه : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فإن لم تؤدالى هذه الغاية فهى ليست تلك الصلاة المطلوبة فإذا كان يصلى ويأكل مال الغير ، فهى ليست الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهو محاسب عليها ، والويل له من الله ، ولذا قال سبحانه : « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون » - أى يمنعون الزكاة التى بها العون من الغنى للفقير - .

والزكاة تعاون إجتماعى يجعل للفقير حقاً معلوماً فى أموال الغنى ، فهى تكليف إجتماعى خالص ، ومصرفها إجتماعى خالص ، ونظامها فى الجمع والتوزيع لايذل الفقير ، ولا يجعل الغنى يشعر بعزته فوقه ، ولذا قال الفقهاء إن ولى الأمر هو الذى يجمعها ، وهو الذى يوزعها على مصارفها وقد قال النبي ﷺ : « خذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم » .

ولقد جعل الاسلام كفارات الذنوب تعاوناً إجتماعياً ، فمن أفطر فى رمضان فعليه عتق رقبة ، أو صيام ستين يوماً ، أو إطعام ستين مسكيناً . ومن قال لإمرأته أنت حرام علىّ كظهر أمى لايقربها إلا إذا أعتق رقبة ، أو صام ستين يوماً ، أو أطعم ستين مسكينا . ومن حلف وحنث فى يمينه كان عليه عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .

وهكذا نجد الكفارات للذنوب تعاوناً إجتماعياً ، وكأن الذنب الذى يرتكب ، أو التقصير فى عبادة هو اعتداء إجتماعى ، فلا يكفر الاعتداء الاجتماعى إلا تعاون إجتماعى يسد النقص ويزيل الخلل ، ولقد اعتبر كل عطاء للفقير مكفراً للسيئآت ، مطهر من المعاصى ، ولذا قال ﷺ : « الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار » . إذ كل معصية صغرت أو كبرت ، أعلنت أو أخفيت تعد اعتداءاً اجتماعياً فلا تزول الا بتعويض للمجتمع

فالكذب والنميمة والغيبة وغير ذلك من الآفات الاجتماعية التى قد تحدث من الأشخاص من غير اكتشاف لها ، أووضع رقابة مستمرة عليها هى معاصى اجتماعية ، ويجب لتكفيرها أن يتوب صاحبها ، ويقلع عنها ، وأن يقدم للمجتمع معونة بقدر ماقدم من أذى على طاقته . ولقد حث الاسلام الآحاد فى سبيل تطهير المجتمع من المفاسد العلنية على أمرين :

أولها - الحياء إذ هو أساس اللياقة فى المجتمعات فالحياء يوجب على المرء ألا يظهر منهماينفر منه الذوق الخلقى السليم ، ولقد قال النبى ﷺ : « لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء » ، وقال ﷺ : « الحياء خير كله » ، وقال ﷺ : « واذا لم تستح فاصنع ماشئت » ، وان أولئك الذين تلقاهم وأنت تعبر الطريق ، أو تركب معهم مركبا عاما فترى فيهم مشية لايراعى فيها حق الغير ، أو مجلسا ينافى الذوق واللياقة - هؤلاء قد فقدوا الحياء ، وان هذه الهيئآت تدل على نفس غير متآلفة مع المجتمع ، واذا تربى الحياء فى النفس كان الشخص ممن يألف ويؤلف ، ولذا قال ﷺ : « المؤمن مألف ، فلا خير فيمن لايألف ولا يؤلف » ، ولا بناء يقوم على أساس اجتماعى سليم الا إذا كانت لبناته جميعها متآلفة يتماسك بعضها فى بعض .

الأمر الثانى - أن الاسلام فى سبيل أن يكون المجتمع فى مظهره فاضلا أوجب أن تستر الجرائم ولا تعلن ، فلا تكشف أستار الجرائم أمام الملأ من الناس ، وقد تكون العقوبة علنية ، ولكن الجريمة يجب ألا يعلن على الناس أمرها ، لأن إعلانها يفسد الجو الخلقى للمجتمع ، ويجعل الشر معلنا واعلانه يغرى بأتباعه ، ويشيع فساده بين النـــاس ، فالفاحشة اذا أعلنت اتبعت ، وكل نفس تميل اليها ، وتجد ماينمى ذلك الميل ، وتأخذ مما أعلن سبيلا للتنفيذ ، ولذلك اعتبر الاسلام من يرتكب جريمة ويعلنها قد ارتكب

جريمتين : جريمة الارتكاب وجريمة الاعلان ، ومن أعلن جريمة غيره فقد شاركه فى إثم ماارتكب بمقدار ماأعلن .

ولقد صاح محمد ﷺ بهذه الحقيقة فقال : « أيها الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » فالعقوبات المشدده فى الاسلام تكاد تكون للإعلان لا لأصل الارتكاب ، ولقد قال النبي ﷺ : « ان من أبعد الناس منازل عن الله يوم القيامة المجاهرين ، قيل ومن هم يارسول الله قال ذلك الذى يعمل بالليل وقد ستره الله عليه فيصبح ويقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله » .

وان فى سبيل تهذيب الآحاد أوجب أن يكون هناك رأى عام مهذب لاثم ، يحث على الخير ، وينهى عن الشر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإن الرأى العام له رقابة نفسية تجعل كل شرير ينطوى على نفسه فلا يظهر ، وكل خير يحب الإشاعة فى اعلان خيره ، فلا يهذب الآحادالا الرأى العام الفاضل ، ولا يفسد الجماعة الا الرأى العـــام الذى يتقاعد عن نصرة الفضيلة ، ويترك الرذيلة تسير رافعة رأسها .

ولذلك حث الاسلام على الأمر بالمعروف والنهىعن المنكر ، فأوجب الارشاد العام ليمتنع الضال عن شروره ، بارشاد الفاضل وهدايته ، ولتكون الجماعة فى فضيلة ظاهرة ، ولقد اعتبر القرآن الكريم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عنوان الامة الفاضلة فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

واعتبر الجماعة كلها تكون آثمة اذا سكتت على الاثم وهو يسير رافعا رأسه ، ولذلك اعتبرالله سبحانه وتعالى بنىاسرائيل اذ تركوا الأمر بالمعروف آثمين فقال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود

وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »

واعتبر الاسلام الآثمين هدامين لكل بناء اجتماعى سليم ، وأن الفضلاء اذا لم يأخذوا على أيديهم سقطوا جميعا فى الرذيلة ، ووراء الرذيلة الهاوية التى لاتقوم بعدها للأمة قائمة إلا أن يغير الله سبحانه وتعالى حالها ، ويبدل من أمرها ، ولقد قال النبى ﷺ فى ذلك : « مثل المدهن فى حدود مثل قوم استهموا فى سفينة ، فصار بعضهم فى أسفلها ، وبعضهم فى أعلاها ، فكان الذى فى أسفلها يمر بالماء على الذى فى أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا مالك قال تأذيتم ولا بد لى من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا بأنفسهم ، وان تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم » .

وإن هذا مثل يصور المجتمع فى محاربة الآفات الخلقية والاجتماعية ، ويبين أن الرشيد عليه أن يهدى الضال ، وأن العالم عليه أن يبين للجاهل ، ولقد قال على أمير المؤمنين عليه السلام : « لايسئل الجهلاء لِم لمَ يتعلموا حتى يسئل العلماء لِم لم يعلموا » .

ولقد بين الاسلام أن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى الى تدابر الأمة وتنابذها . ويقطع ما بين آحادها من روابط الرحم والقرابة والجنسية والدين ، وذلك لأن الاثم مفرق ، والخير جامع موحد وما تفرقت الجماعات الا بسيادة الرذيلة فى جموعها ، وعموم الظلم لربوعها ، ولقد قال ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدى الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض » .

وذلك لأن الذى يرتكب المعاصى يعتدى ، فإذا أهمل الاعتداء تفرقت الأمة ، واضطرب حبل الأمور فيها ، وصارت من غير روابط تربطها ولا وحدة تجمعها ، وإنا لنرى ذلك واضحا كل الوضوح فى الأمم التى انهارت فى أول صدمة فى الحرب الأخيرة ، فلقد قال زعيم لاحداها : « انها انهارت لفساد أخلاقها ، وذهاب مكارم الأخلاق بين آحادها » .

« العلاقات الاجتماعية »

قلنا إن الأساس الأول لبناء المجتمع هو الأخلاق الفاضلة وقد عمل الاسلام على تربيتها بالعبادات أولا ، ثم بمنع ظهور الشرور وكتمها ثانياً ، ثم بتكوين رأى عام فاضل ثالثاً ، ولذلك حق للنبى ﷺ أن يقول : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وفى هذا الحديث النبوى إشارة بينة الى أن مكارم الأخلاق هى دعوة النبيين أجمعين ، وكل نبى ساهم فى بناء ذلك الصرح الشامخ الذى تتكون به الحضارات الانسانية العالية ، ولقد جاء النبى محمد ﷺ من بعدهم ، فأتم مابدأوا ، وان الانحلال الاجتماعى فى هذا العالم اليوم ، انما وقع لأن الفضيلة قد ذهبت فى علاقات الآحاد ، وفى علاقات الجماعات ، وفى علاقات الدول ، وانه لاإئتلاف بين جماعة ، كما انه لاائتلاف بين الجماعات فى أمة الا على بنيان من الفضائل .

وإن الفضائل ليست هى التى تؤلف بين الآحاد فى الامة الواحدة ، بل هى التى تؤلف أيضاً بين الامم ، فإنه اذا غلبت فكرة العدالة التى هى قوام

الاخلاق بين الدول فإن الحروب تختفى والاحقاد تموت ، ولا يحكم قانون (الغاية) ـ كما عبر بعض الساسة ـ وإنه اذا كانت الصداقات الحقيقية التى تبنى على الالف الروحى الفاضل هى التى تربط الدول ، كما تربط بين الآحاد فإنه بلا شك تختفى الروح المادية الشرسة التى تجعل الدول تتغالب على موارد المال ، كما تتغالب الوحوش على فرائسها ، وتريد المال للغلب وللقهر لا للإنتفاع بخيرات الأرض .

وإن المجتمع الذى ينظمه الإسلام يحكم بقواعد عامة ، وهذه القواعد تبدو فى الأسرة وفى الجماعات ، وفى الدولة وفى العلاقات الإنسانية بين الناس مهما تختلف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم ، وهذه القواعد تتلخص فى المحافظة على الكرامة الإنسانية والعدالة بكل صورها ، والتعاون العام والمودة والرحمة بالانسانية والمصلحة ، ودفع الفساد فى هذه الأرض .

١ ـ الكرامة الانسانية

١ ـ إعتبر الاسلام الانسان أكرم من فى هذا الوجود ، واختاره للخلافة فى الأرض ، وسخر له كل مافيها من جبال ووهاد وزرع وضرع ، بل سخر له مافى السماوات وما فى الأرض ، وأعطاه من العلم قدراً يستطيع أن يسخر له كل مايقرب منه لمصلحة نفسه ، وان النصوص الدينية القطعية لتذكر أن الملائكة قالوا لرب العالمين عند ما اختار أن يكون آدم وبنوه الخلفاء فى هذه الأرض : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك

ونقدس لك » فقال الله لهم : « إنى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم » . وآدم بما علمه الله ، أعلمهم بهذه الاسماء جميعاً ، وليس ذلك العلم إلا الاستعداد الفطرى فى عقل كل إنسان لمعرفة حقائق الأشياء ، والأسرار الكونية التى بها يستطيع أن يسيطر على مافى هذا الوجود بما أعطاه الله تعالى من علم .

فأول تكريم للإنسان كان بإعطاءه تلك القوة العقلية المسخرة للكون ، وهو الذى تقتله بعوضة من بعوضة هذا الكون . كما قال تعالى : « وخلق الانسان ضعيفاً » . ولقد صرح القرآن بهذا التكريم المطلق فى قوله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

لاحظ الاسلام هذه الكرامة الانسانية وأن الانسان يستحقها بمقتضى كونه إنسانا لا للونه ، ولا لجنسه ولا لدينه ولا لكونه شريفاً ، أو ذاحسب أو ذا جاه ، بل هى حق الانسانية ذاتها .

ولذلك كانت التعاليم الاسلامية كلها تدور حول هذا القطب الذى يرمى الى المحافظة على كرامة الانسان ، فلم يفرق الاسلام بين حر وعبد فى هذه الكرامة ، وظهر ذلك فى أحكام جزئية كثيرة .

(أ) منها أن النبى ﷺ أمر بألا ينادى السيد عبده بياعبدى . وأن يقول العبد لمالكه ياسيدى ، بل يقول المالك فتاى وفتاتى ، وأن يقول العبد مولاى ، ـ أى صديقى الذى أواليه وأنصره .

(ب) وأمر بأن يأكل العبد مما يأكله مالكه ، ويكسوه مما يكسو به نفسه وأولاده ، وقد قال ﷺ : « إخوانكم خولكم ملككم الله إياهم

ولو شاء لملكهم إياكم ، أطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون » ولقد دخل عمر بن الخطاب على قوم من أهل مكة فوجدهم يأكلون ، ومواليهم – أى عبيدهم – لا يأكلون معهم ، فغضب وامتنع عن أن يأكل معهم ، وذكرهم بأنه لا عزة لقوم لا يأكل مواليهم معهم .

(ج) ومنها أن النبي ﷺ منع أن يضرب العبيد ، أو يظلموا . وقال ﷺ : « ومن لطم عبده فكفارته عتقه » .

(د) ومنها أنه جعل للعبد حق الشكوى من سيده ، ويخاصمه بين يدى القضاء إذا كلفه ما لا يطيق ، أو كلمه فى أى أمر من الأمور .

(هـ) ومنها أنه أوجب على المالك نفقة مملوكه ، ولو كان كلا لا يعمل شيئاً .

وقد يقول قائل : أما كان الأولى أن يمنع الاسلام الرق ما دامت الكرامة الانسانية حقاً ثابتاً لكل إنسان من غير نظر الى لون أو جنس أو دين ، ونقول فى ذلك :

إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص يبيح الرق . وإقرار الرق ثبت من كثرة أوامره بالعتق ، ولم يثبت أن النبي ﷺ أقر إنشاء رق على حر ، ولا فى حرب ولا فى سلم ، وإن الرق الذى أنشأه الخلفاء فى الحروب من بعده كان لعدم وجود نهى ، كما أنه لم توجد إجازة ، وكان ذلك من قبيل المعاملة بالمثل فى الحروب ، وهو تطبيق لقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين » وقد كان الأعداء الذين يحاربونهم يسترقون ، فكان من المعاملة بالمثل أن يسترقوا مثلهم ، فإذا لم يسترقوا لا يسوغ للمؤمنين أن يسترقوا ، لأن ذلك يكون اعتداء والله يقول : « ولا تعتدوا » . وإن الإسلام قد فتح باب العتق

على مصراعيه ، فإذا حلف المسلم يميناً وحنث وجب عليه عتق رقبة ، وإذا حرم إمرأته على نفسه وجب عليه عتق رقبة حتى يقربها ، وإذا أفطر فى رمضان متعمداً وجب عليه عتق رقبة ، وإذا قتل مؤمناً خطأ وجب عليه عتق رقبة مؤمنة ، وإذا لطم عبده كانت الكفارة عتقه ، وإذا اتفق العبد مع سيده على أن يتركه يسعى حتى يكسب قيمته فيسلمها اليه وجب على السيد قبول ذلك . وجعل الإسلام فى مصارف الصدقات مصرفا خاصا بشراء العبيد وإعتاقهم . وهكذا لو نفذت هذه الأمور على وجهها مابقى رقيق الحروب فى الرق أكثر من سنة .

وإن الذين يعجبون كيف سكت الإسلام على الرق فلم يلغه ابتداءاً ، عليهم أن ينظروا الى أسرى الحروب الأخيرة وكيف يعاملون والى الآن لم يفك أسر الكثيرين منهم مع أن الحرب انتهت منذ أكثر من عشرين عاماً .

٢ - ومن احترام الكرامة الانسانية إحترام النفس الانسانية من غير نظر الى دينها أو جنسها ، فنفس غير المسلم على سواء فى المعاملة مع نفس المسلم ، يروى أنه مرت جنازة على النبى ﷺ فوقف لها ، فقيل له إنها جنازة يهودى ، فقال النبى الكريم : « أليست نفساً » .

٣ - ومن ملاحظة الكرامة الانسانية ألا ينظر الى الألوان ، ولا أن يحتقر الجهلاء ، فالمتخلفون فى الحضارة أو المدنية يعلمون ، ويكون على المتحضرين أن يعلموا المبتدئين ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

ومن الكرامة الانسانية التسوية المطلقة بين بنى آدم فى التكريم ، لأنهم جميعاً متساوون فى هذا القدر الذى يستحق التكريم ، وأين هذه المعاملة الكريمة من معاملة الأوربيين للملونين ، ومعاملة الأمريكان للهنود الحمر ، ومعاملتهم الى الآن للزنوج .

٤ ـ ولقد كرم الله تعالى الانسان حياً وميتاً، ففى الحياة أعطاه العزة والكرامة وبعد الوفاة أوجب تجهيزه وتكفينه ، ومنع المثلة ، فلا يشوه أى جزء من أجزائه بعد وفاته ، ولذا قال ﷺ : « إياكم والمثلة » ، ولقد كان بعض أعداء النبى ﷺ يمثل بقتلى المسلمين ولم يعاملهم ﷺ بالمثل لأنه ما كان يقاتل انتقاما ، بل كان يقاتل دفعاً للشر ومنعاً للأذى وحفظاً للحرمات ، فإذا قتل فى الميدان فقد ذهب أذاه ، وأصبح أى تشويه يلحق جثته إهانة للإنسانية فى ذاتها .

٥ ـ وان الاسلام فى سبيل حماية الكرامة الانسانية منع الاكراه فى العقائد . وعمل على إزالة الفتنة فى الدين ، وكان أكثر القتال لتحترم الإرادة الانسانية وتحمى العقائد الدينية من أن يضار أمرؤ فى دينه ، ولذا قال سبحانه وتعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، وغير المسلمين الذين كانوا يعيشون مع المسلمين كانوا لا يضارون فى دينهم ولا فى أحوالهم الشخصية ، وأمر المسلمين بتركهم وما يدينون .

وفى سبيل احترام الكرامة الانسانية أباح حرية الفكر وحرية القول إلا ما يكون خادشاً للناموس الاجتماعى العام من القول غير الحسن ، والعبارات الجارحة للحياء .

وحرية العمل حق للإنسان ، فيمنع الإعتداء عليه مادام يعمل العمل المباح الذى يختاره ، وكل ما يريد الا أن يمنع غيره من عمل يقوم به أو يحد من نشاط غيره بغير حق .

٦ ـ ولحماية الكرامة الانسانية منع الولاة من أن يضربوا أحداً الا أن يكون ذلك بحكم قضائى عادل ، وفى سبيل تنفيذ ذلك كان عمر بن الخطاب يضرب الولاة الذين يفعلون ذلك بمقدار ما ضربوا رعاياهم ، بل أنه فى هذا

السبيل منع الولاة من أن يوجهوا سباً لأى أحد من الرعية ، ووضع لذلك عقابا ، منه أن يضرب الشخص الذى سبه الوالى واليه . فيروى أن عمرو بن العاص رمى مسلما بالنفاق فشكا الرجل الى عمر ، فأمر بأن يعاقب عمراً بأن يضربه المشتوم ، وأصر الرجل على تولى العقاب حتى تمكن منه ، ثم عفا .

٢ ـ العدالة

نريد من العدالة هنا بكل ماتشتمل عليه ، وانه إذا كان لكل نظام شعار خاص به فشعار النظام الإسلامى العدالة المطلقة ، أو العدالة النسبية فى هذا الوجود ، وقد كان عنوان الإسلام هو العدل ، فعندما سأل سائل عن كلمة جامعة لمعانى الاسلام تلا النبي ﷺ قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » والقسط شعار الديانات السماوية كلها ، فقد قال سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، فالقسط بمقتضى هذا النص العام الشامل شريعة النبيين أجمعين .

بيد أن العدالة تتنوع وتتفرع ، وهى أساس فى كل تنظيم آحادى أو إجماعى أو دولى ، فهى توزيع القوى الانسانية فى هذا الوجود ، بحيث تسير كل قوة فى مسارها الذى ارتسمته ونهجته ، حتى تلتقى القوى المختلفة فى نهايتها فى نقطة واحدة هى مركز القوى فى الأمة ، أو القوى فى الانسانية كلها ،

فيحقق الانسان خلافته فى هذه الأرض على أكمل وجه ، أو على وجه قريب من الكمال ، أو على وجه يغلب فيه الخير المنتج ، بدل الشر المفسد .

وإن العدالة على هذا لها شعب : العدالة القانونية ، والعدالة الاجتماعية والعدالة الدولية .

العدالة القانونية :

نقصد بالعدالة القانونية أن يكون القانون يطبق على الجميع على سواء ، لافرق بين غنى وفقير ، ولا لون ولون ، ولا جنس وجنس ، ولا دين ودين ، ولا جاهل ومتعلم ، بل الجميع أمام القانون سواء ، فلا تفاضل بين الناس فى التطبيق القانونى ، إنما التفاضل بالقيام بالفضائل الانسانيه ، ومن أحسن ماقرأت فى ذلك قول سعد زغلول : « إننا نتفاضل فيما بيننا ، ولكننا أمام القانون سواء » هذا تلخيص جيد لفكرة الاسلام فى العدالة القانونية ، فأبو ذر صاحب رسول الله ﷺ أفضل من أعرابى من أعراب البادية بخلقه ودينه ، ولكنه أمام القانون يتساوى معه .

ولقد صرح النبي ﷺ بالمساواة أمام الأحكام الشرعية ، فقال ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب . لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وقال ﷺ : « الناس سواسية كأسنان المشط » .

ولقد شدد النبي ﷺ فى تطبيق الأحكام الشرعية ومنع من أن يحابى الحسيب النسيب ، ويظلم الضعيف غير النسيب ، وانه يروى فى هذا أن امرأة من قريش سرقت عقب فتح مكة ، فأهم قريشاً أن محمداً سيقطع يدها وفى ذلك سبة الأبد على قبيلتها ، فدفعوا الى الرسول - أسامة بن زيد - ، وكان حبه ، مع انه ابن عبده الذى أعتقه ، فذهب الى النبي يستشفع لها . فقال

له : أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم وقف بين الناس خطيباً ، يقول : « مابال أقوام يشفعون فى حد من حدود الله ، إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ولقد كان الصحابة من بعده يطبقون ذلك النوع من العدالة أكمل تطبيق . وكان على ﷺ يصيح فى وسط الناس « القوى منكم عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له » وقد نفذ هذا القول تنفيذاً دقيقاً.

وكان عمر إذا أمر أمراً أو نهى عن أمر أحضر بنيه وقال لهم : لقد أمرت الناس اليوم بكذا . والله لا أوتى بمخالف إلا ضاعفت له العقاب » .

ويروى عنه ـ فى معاملة الناس جميعاً بالمساواة القانونية ـ أن أميراً من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت فوطىء أزاره شاب من فزارة ، فلطمه الأمير فجدع أنفه ، فذهب الفزارى الى عمر ، وشكا الأمير اليه فأحضر عمر الأمير فقال له : القصاص أو يعفو عنك فقال : كيف وأنا أمير وهو سوقه ، فقال عمر : لقد سوى بينكما الإسلام فلا تفضله إلا بالتقوى ، فأخذ الأمير يسترضى الشاب الأعرابى ، فلم يرض إلا بأن يلطم الأمير كما لطمه ، وعلم أن عمر لا محالة سيمكن الأعرابى من القصاص ، ففر الى الروم وارتد عن الإسلام ، وما أهم عمر ذلك ، فإنه خير للإسلام أن يخرج منه ألوف لم يعمر الايمان قلوبهم ، فالظلم ينفر أهل الحق ، والعدل يقرب ذوى القلوب الطاهرة التى تتجه الى الحق تبتغيه ، وهؤلاء مهما قل عددهم أوفر خيراً وأعظم أثراً . وانه لم يسو فقط فى العقوبة بين القوى والضعيف ، بل نظر نظرة أخرى لم يسبق اليها نظام ، ولم يلحق به الى الآن نظام ، وذلك أنه بالنسبة للعقوبة قرر أن الجريمة تكبر من المجرم الكبير ، والعقوبة تناسب

الجريمة ، فيجب أن تكبر مع كبر المجرم .

ولقد وضح ذلك وضوحا تاماً بالنسبة لعقوبة العبيد وعقوبة الأحرار ، فإنه جعل عقوبة العبد بالنسبة للعقوبات التى تقبل القسمة ، على النصف من عقوبة الحر ، ولذا إذا زنا الحر جلد مائة جلدة ، وإذا زنا العبد جلد خمسين جلدة ، وإذا شرب الحر خمراً جلد ثمانين ، والعبد يجلد أربعين ، وكذلك الأمة عقوبتها على النصف من عقوبة الحرة ، ولقد قال تعالى فى ذلك : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .

وإن القانون الرومانى كان على عكس ذلك تماماً ، فالزنى من العبد يوجب القتل ، والزنى من عضو الشيوخ يوجب غرامة مالية . وإن نظرة صغيرة تبين أن حكم الرومان ظلم لاعدل معه ، وحكم الاسلام هو العدل الحقيقى ، ذلك لأن الجريمة فى ذاتها هوان نفسى ، والعبد مهين بمقتضى ملكية رقبته ، ومن يهن يسهل الهوان عليه ، فمن هبطت نفسه تتجه نحو الإجرام ، أما الكبير ذو الخطر والشأن فإنه لاهوان عنده ، فارتكاب الجريمة لايكون إلا بانحدار شديد من مكانته الى مستوى هبوط الجريمة ، فكانت الجريمة منه أكبر خطراً وأعظم أثراً ، وأوغل فى الإيذاء النفسى والاجتماعى . فلا شك أن زنى ذى الخطر تحريض لمن دونه عليه ، وزنى من لاشأن له لايحرض أحداً ، وهكذا كل الجرائم ، ولذلك كبرت الجريمة فى نظر الإسلام بكبر المجرم ، وكبرت معها العقوبة بكبره أيضاً .

وإن ذلك سمواً فى التنظيم القانونى لم يسم اليه الى الآن قانون ، وإن أكثر القوانين ، ـ وإن كانت تسير على أساس المساواة القانونية التى لاتفاضل فيها ، نرى التطبيق يتجه الى تصغير جرائم الكبراء ، وتكبير جرائم الضعاف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والإسلام فى العدالة القانونية أتى بمبدإ لم يسبق به قط ، وذلك أن أكثر القوانين الحاضرة لاتجعل الجريمة من رئيس الدولة لها عقوبة ، لأنها لاتفرض أنه تقع منه جريمة ، والقوانين الوضيعة الى عهد قريب كانت تعتبر ذات رئيس الدولة مصونة لاتمس ، وترفعها الى مرتبة تشبه مرتبة المقدسين ، وكانت عبارات بعض القضاة ، ووكلاء النائب العام تعبر أحيـــاناً بالذات المقدسة التى لاتمس .

وإذا كانت قد زالت تلك الملكية التى كانت تفرض لنفسها نوعا من التقديس ، فإنه لم يزل أثرها فإن ذات رئيس الدولة الأعلى مازالت محوطة بذلك الحق إن لم يكن من نص القانون ، فمن الواقع فى ذاته .

ولقد برىء الإسلام من كل هذا ، فإن الفقهاء قد أجمعوا على أن الولاة والإمام الأعظم مؤاخذون فى الأقضية كسائر الناس ، لافرق بينهم وبين أحد من الناس ، فإذا قتلوا إنسانا حق عليهم القتل إن كان بغير حق ، وإذا أكلوا مالا بالباطل حق على القاضى أن يأمر بأخذه منهم ، لافرق بين الإمام الأعظم الذى هو الخليفة وبين أحد من الناس إذا ارتكب جريمة ، وإن قيامه على شؤون الدولة لايعفيه من العقاب .

وقد يقول قائل كيف ينفذ عليه القضاء الحكم ، أو كيف يحكم عليه ، وهو الذى ولاه القضاء ومكنه من السلطان ، وقد أجاب عن ذلك بعض الفقهاء إجابة حكيمة ، فقد قالوا : إن القاضى إذا تولى فقد صار نائبا عن جمهور الناس ليوزع العدل بينهم وليس نائبا عن الحاكم الذى ولاه ، إذ ليست تولية الحاكم إلا تمكينا لمن عنده أهلية القضاء العدل العفيف من سلطان القضاء كما يمكن الاستاذ من إلقاء درسه ، وهو فى ذلك ليس نائبا فى هذا الإلقاء عن ولى الأمر .

هذه نظرات سريعة الى العدالة القانونية والقضائية فى الإسلام غير فارقة بين الطوائف الدينية ، فغير المسلم الذى يعيش مع المسلمين تطبق عليه الأحكام التى تطبق على المسلمين ، بلا فرق بينهما بأى وجه من وجوه التفرقة إلا ما يتعلق بأحوالهم الشخصية فى الزواج والطلاق . فإنه يطبق عليهم فيها أحكام دينهم الذى ارتضوا ، وذلك لأن هناك أمرين يحكمان العلاقة بينهم وبين المسلمين . أولهما - أن لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم ، وهذه تقتضى تطبيق الأحكام التى تنظم التعامل ، وتوزع العدالة ، كما يعامل المسلمين على سواء . والثانى - أننا أمرنا بتركهم وما يدينون ، فلا يصح لمسلم أن يتعرض لهم فى عبادة ، ولا فى زواج أو طلاق ، لأن هذه النظم مشتقة من الدين ، فكان من مراعاة الحرية الدينية أن يتركوا ، يتولون شؤونها بأنفسهم .

العدالة الاجتماعية :

يقضى هذا النوع من العدالة أن يعيش كل واحد فى الجماعة العيشة الكريمة غير محروم ولا ممنوع ، وأن يمكن من استغلال مواهبه بما يفيد شخصه ، وبما يفيد الجماعة ، ويكثر إنتاجها .

وليست العدالة الاجتماعية موجبة الغاء الفقر فى هذا الوجود ، بل هى توجب تخفيف ويلاته النفسية والمادية ، فلا يحقد على الغنى فيكون الخراب ولا يحرم من القوت والكساء والايواء ، فتضيع قوى عاملة كان يمكن أن تعمل ، وتدر على الجماعة بعملها خيراً ، وتدفع عنها وعن نفسها ضراً .

وذلك لأن الفقر فى ذاته لا يقبل المحو من الوجود ، ولا يزال الناس مختلفين فقراً وغنى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يمكن أن يزول

الفقر من الوجود إلا إذا اتحدت القوى ، واتحدت أسباب الرزق ، واتحدت الأجواء المادية والفكرية التى تظل المنتجين ، وان الناس فى ذلك متفاوتون فى قواهم تفاوتاً كبيراً ، ولذلك ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « الناس كابل ، مائة لاتجد فيها راحلة » . فالممتازون امتيازاً مطلقــاً فى تفكيرهم وقواهم بشكل عام نادرون ، وهم أعلى القمة ، ومن دونها أوسع منها قليلا ثم يتسع المقدار كلما قاربنا السفح ، وسطح الأرض ، وبذلك يتبين أن الانسانية كشكل هرمى متدرج فى الارتفاع ، أضيقه مساحة أعـــلاه ، وأوسعه أدناه .

وإنه لو اتحدت القوى الإنتاجية عند كل إنسان فى الجماعة ، فإنه لا يمكن أن تتحد أسباب الثروة ، فقد يوجد عند شخص من الأسباب ما لا يوجد عند غيره ، كأن يكون لهذا من المعينين ماليس لذلك .

وعلى فرض إتحاد القوى واتحاد الأسباب ، فإن الانتاج ليس مؤكداً إذا اتخذت كل أسبابه وتوافرت القوى العاملة المنتجة ، فقد يحدث أن توجد كارثة لهذا فلا ينجو ماله ، ويسلم لهذا إنتاجه ، ومثل رجال الأعمـــال فى النتائج لأعمالهم ، كمثل الزراع يتحدون فى الزرع والسماد وحياطة الزرع من كل آفة ، ولـكن يحدث ماليس فى الحسبان بالنسبة لأحدهم ، فيحدث لمن هو قريب من النهر الجارى فيضان على أرضه ينجو منه البعيد ، أو يتمكن من النجاة بزرعه قبـل أن يطغى عليه فيكون من نجـا زرعه له فضل من المال ومن غرق زرعه يصيبه القل .

اعتبر الإسلام لهذا أن الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان ، وقرر انهما من طبيعة ذلك الوجود الإنسانى ، ولقد قرر القرآن الـكريم هذه الحقيقة الثـابتة ، فقد قال تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ولـكن الإسلام

مع ذلك لم يجعل الطبقات بسبب الغنى ، فليس فى الاسلام نظام الطبقات ، كما رأينا من تطبيق الأحكام الاسلامية فى العدالة القانونية ، وقد عمل على ألا يستعلى غنى على فقير لغناه ، فقد قرر أن الفضل عند الله بالتقوى ، وأن الرفعة بالعمل الصالح ، ولذلك يقول ﷺ : « إن الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » ، ولقد كانت أعمال النبى ﷺ تتجه الى أن يكون الناس طبقات لكل طبقة معاملة ونظام ، فلقد كان يمنع التعالى بالنسب ، وقد كان ذلك هو الذى يتخذ فى العرب للتسامى ، ويروى أن بعض الصحابة عير آخر بأمه ، فقال له النبى ﷺ : « أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية » . ويروى انه قال له : « أجاهلى أنت » وقد قال ﷺ : « ليس منا من دعا الى عصبية » ، وكل ذلك لتكون الجماعة الاسلامية كلها مندمجة ولتندمج فى غيرها من بنى الانسان .

ولقد كان الحكام فى سبيل محو الطبقات يؤثرون الضعفاء الفضلاء بتقريبهم اليهم ، ولذلك روى انه استأذن على عمر بن الخطاب بلال الحبشى وأبو سفيان مع نفر من كبار قريش ، فدخل الى عمر الواقف على بابه يقول بالباب أبو سفيان وبلال ، فغضب عمر ، لأنه قدم أبا سفيان على بلال فى الذكر وقال له قل بالباب بلال وأبو سفيان ، وأذن لبلال ولم يأذن لأبى سفيان .

وفى سبيل منع الطبقات منع عمر كبار قريش من أن يذهبوا الى الأقاليم لكيلا يكونوا فيها طبقة أشراف يتحكمون فى الناس باسم السلطان .

وقد عمل الاسلام على محو نظام الطبقات من النفوس بالعبادات الاسلامية ففى الصلاة يقف الفقير بجوار الغنى يجمعهما الخضوع للديان ، ويقولان معا « الله أكبر » ليشعروا جميعاً بالتضامن وقوة الله وجبروته ، وفى الحج تمحى كل الفروق الاجتماعية بين الأجناس والألوان ، والفقراء والأغنياء ،

إذ الجميع يكونون فى ضيافة الله تعالى فى بيته الحرام بملابس واحدة من القطن ، وهكذا كل العبادات الاسلامية تتجه نحو تربية القلوب على المساواة بلا تمييز بين فقير وغنى ، أو نسيب وغير نسيب ، بل الجميع أمام الخلاق العليم على سواء ، كما بدأهم سبحانه وتعالى .

إعترف الاسلام بالحقيقة الواقعة ، وهى أن الناس منهم الثرى ومنهم الفقير ، وقد عالج الفقر ، ومنعه من أن يذل صاحبه ، فتكون الطبقات التى تقطع الجماعة ، وتلقى بالحقد فى نفس الفقير ، ووراء الحقد التمرد على النظام بالسرقات والاختلاس والاغتصاب ، وقطع الطرق ، وقد يمتد الامر الى قلب النظام الاجتماعى كله رأسا على عقب .

وطرق علاج الفقر كانت على نواح كثيرة منها :

(أ) تمكين كل قوى من أن يعمل بإعداد أسباب العمل ، فإن لم يكن قادراً على عمل ذى خطر فى نظر الناس أو لم يمكن منه ، كان عليه أن يعمل بيده . وقد شجع النبى ﷺ العمل اليدوى ، ولذلك قال ﷺ : « ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من عمل يده . وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » وذكر نبى الله داود بالذات ، لأنه كان قائداً عظيما ، ولأنه كان ملكا ذا سلطان ، وتحت يده خزائن الدولة ، لو أخذ منها مايكفيه وأهله بالمعروف ما كانت عليه غضاضة فيما يأخذ ، ولكنه آثر أن يأكل من عمل يده ، لينال ذلك الكسب الطيب الذى هو خير كسب .

ولقد جاء رجل الى النبى ﷺ يطلب منه صدقة من بيت المال ، فوجده النبى ﷺ قويا قادراً ، فلم يعطه مالا ينفق منه ، ولكن اشترى له فأساً وأعطاه إياها ليحتطب بها ، ويأكل من عمل يده . وقد حث النبى ﷺ الاقوياء على العمل . وروى عنه انه قال : « لان يحتطب أحدكم بفأسه

خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

ولقد حث النبي ﷺ على العمل اليدوى وكرمه لكيلا تكون غضاضة وليكثر العمال الذين يعملون ، والصناع الذين يصنعون بأيديهم ويراقبون أدوات الصناعة الكبرى ، وإن العمران يحتاج اليهم ، ولا يستغنى عنهم فلو نفرت الجماعة كلها من الاعمال اليدوية ماقام عمران ، ولا شيد بنيان ، وما انتظمت صناعات ، وإن تكريم العمل اليدوى كان فى الحديث الاول يمنع الناس من أن يحتقر بعضهم بعضاً فلا تكون طبقة عاملة تنال الاحتقار ، وأخرى غير عاملة تنال التقدير والاعتبار .

(ب) ومن علاج الفقر فى الاسلام تهيئة الفرص بأ يمكن كل ذى موهبة من الانتفاع بموهبته على قدر طاقته ، فلقد قرر فقهاء الاسلام أن كل مايقوم عليه العمران من هندسة وطب وفلح الارض ، وإقامة المصانع ، والجهاد فى سبيل الله تعالى دفعاً للأذى وحماية للحوزة - واجب على الامة ، وهو واجب على وجه الخصوص على من كان قادراً بالفعل على واحد من هذه الأمور ، وواجب على العموم على الأمة متمثلة إرادتها فى ولى أمرها والقائمين على شؤونها ، ووجوبها على العموم من قبيل الكشف عن ذوى المواهب من بين شبابها ، وتوسيد كل أمر لمن هو أهل له ، والكشف عن أصحاب المواهب بتهيئة الفرص لكل ذى موهبة من أن تظهر موهبته . ولقد قرر بعض فقهاء المسلمين أن السبيل لتهيئة الفرص للجميع هو أن يكون التعليم درجات ، فالتعليم فى المرحلة الأولى يكون للأمة كلها ، ومن كانت عنده الكفاية الحقيقية لأن ينتقل الى المرحلة الثانية انتقل اليها ، ومن وقفت به مواهبه عند المرحلة الأولى ، وقف عند أمر يحتاج اليه العمران ، فمن هؤلاء يكون العاملون بأيديهم فى الأرض وفى المتاجر ، وفى الصناعات اليدوية

وفى إدارة المصانع بأيديهم ، وغير ذلك مما لايحتاج الى مدارك فنية عالية .

وإذا قطعت المرحلة الثانية ، فمنهم من تكون عنده الكفاية لأن يتجه الى المرحلة الأخيرة حيث يكون التفنن فى علم من العلوم ، أو التخصص فى قيادة الجيوش ، أو العكوف على إقامة العدل بين الناس ، وغير ذلك مما لا تقوم الجماعة إلا بمتخصصين فيه ، ومن قصرت همته عن تجاوز المرحلة الثانية ، فإنه يقف فى موضع تحتاج الأمة فيه الى من يكون على هذه الشاكلة ، فالعمران يحتاج الى من يقيدون الحساب ، ويحصون الأعمال ، ويحتاج الى صناع فنيين يراقبون المصانع ، ونحو ذلك مما لا يكفى فيه التعليم فى المرحلة الأولى .

وإنه اذا اتبع ذلك النظام تهيأت الفرص لكل إنسان ، وكشفت المواهب ، ولم يوسد أمر لغير أهله ، ولا يطلب الجليل من الأعمال من ليست عنده الكفاية له .

(ج) ومن علاج الفقر تسهيل أسباب الحياة للعاجزين عن الكسب ، فإنه إذا كان قد مكن العامل من أن يعمل ، وكل ذى موهبة من أن تنكشف موهبته ، فإن هناك شيوخا أقعدهم ثقل السنون من أن يعملوا ، ونساء أضعفتهن أنوثتهن عن أن يخرجن الى الحياة عاملات كادحات ، ويتامى فقدوا العائل ، فكان حقاً على الإسلام أن يرتب لهؤلاء أسباب الحياة ، وقد فعل ولم يقصر ، فقد قال رسول الله ﷺ : « من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلاً فالىّ وعلىّ (أى من يموت عن مال فانه يوزع على ورثته) ومن ترك أشخاصا كان يعولهم ، ولا مال ينفقون منه فإن محمد الكريم قال إنه يؤول اليه ، ونفقته عليه » ، وإنما كان اليتيم يؤول اليه ، لأن اليتامى قوة المستقبل ، إذا قامت الدولة بحق رعايتهم ، وأعطتهم العناية التى تجعل من كل يتيم رجلا عاملا وهو على النبى ﷺ لأن نفقته تكون بتدابير من أحكام الإسلام وقد دبر

الإسلام سد حاجة المحتاجين من أبواب ثلاثة تتلاقى فلا تجعل لفقير عاجز حاجة لم تسد .

١ - وأولى هذه الينابيع بيت المال ، فإن كل موارد بيت المال للفقير حق فيها يجب أن يعطى منها بانتظام .

٢ - الزكاة فإنها يبتدأ من الصرف منها للفقراء والمساكين وأبناء السبيل الذين انقطعوا عن أموالهم ، وكانوا فى أماكن لامورد لهم فيها ، فيحق على بيت المال أن يعطيهم من مال الزكاة .

٣ - فى نظام نفقات الأقارب ، فإن الإسلام أوجب على القريب الغنى نفقة قريبه العاجز .

العدالة الدولية :

تقوم العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس من المودة إبتداءاً ولذلك قال تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالمودة هى أساس العلاقات الإنسانية دائماً كما سنبين ، ولكن إذا كانت العداوة ووقعت الحروب واشتجرت السيوف أو لم تشتجر ، فإن العدالة تكون هى الفيصل الحاكم ، فعلى المسلمين أن يعدلوا مهما تكن درجة العداوة ولذلك قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى » - أى لايحملكم بغضكم الشديد لقوم على أن لا تعدلوا

فيهم . فالعدالة حق مقدس قرره الله تعالى يشترك فيه الولى مع العدو ، ولذلك إذا اعتدوا كان قانون العدالة يوجب رد الإعتداء بمثله من غير شطط ، ولذلك قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » وإذا لم يعتدوا لم يكن للمسلمين حق القتال إلا إذا علموا أنهم يعدون العدة ، ويأخذون الأهبة . فإنه لا يسوغ الإسلام للمسلمين عندئذ أن ينتظروا حتى ينقضوا عليهم ، بل عليهم أن يعاجلوهم قبل أن يبدأوهم ، وخير الدفاع ما كان هجوما إن ظهرت واضحة إمارات الاعتداء .

وإنه فى سبيل تحقيق العدالة الدولية أوجب الاسلام الوفاء بالعهد إذا عقد عهداً مع أعدائهم ، ولذا قال سبحانه وتعالى : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا » ولقد أشار الاسلام الى أن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة ، ولذا شدد فى وجوبه . وهذه آية من آيات الوفاء بالعهد صريحة فى كل هذا ، فقد قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكونوا أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم » .

وإن هذا النص يدل على ثلاثة أمور :

أولها ـ أن العهد الذى يوثق هو عهد لله تعالى فمن ينقضه ، فإنما ينقض عهد الله تعالى .

وثانيها ـ أن العهد فى ذاته قوة ، والتزامه قوة ، ولذلك شبه من

ينقضه بحال الحمقاء التى تغزل غزلا ثم تنقضه أنكاثاً - أى أجزاء صغيرة - وذكر أن النكث فيه زلل للقدم بعد ثبوتها ، فالعهد تثبيت للسلم ، وفى السلم قوة وثبات ، والنقض إزالة لهذا الثبات المستمر .

وثالثها - أنه لايصح أن تكون كثرة الأرض ، وكثرة السلطان سبباً فى الغدر ، ولذلك ذكر بواعث الغدر الباطلة ، فقال : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » ، أى أكثر عدداً وأوسع أرضا .

وإن هذا التشديد فى الوفاء بالعهد هو فى ذاته عدالة ، لأن العهود فيها مقاسم الحقوق وتوزيعها ، وهى كما يقول القانونيون (شريعة التعاقد). فالوفاء بها تطبيق للعدالة النسبية التى اشتمل عليها ، وإنه لايخالف العهد لتوهم النكث من جانبهم ، ولا يصح أن يكون الاستعداد وأخذ الأهبة من العدو سبباً فى ذاته للنقض إلا أن تثبت نية الخيانة وتقوم الإمارات عليها ، ولقد روى أن المؤمنين شكوا الى النبى ﷺ إستعداد المشركين بعد صلح الحديبية ، فقال ﷺ : « وفوا لهم واستعينوا الله عليهم » .

ولكن إذا قامت إمارات الخيانة ، وظهرت بوادرها وجب أن ينبذ اليهم عهدهم ويعلنوا بذلك ، وهذا مادل عليه قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » أى يرد اليهم عهدهم ، ويعلنون بذلك .

٣ - التعاون الانساني

قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم

والعدوان » . وهذا مبدأ عام فى كل المجتمعات الاسلامية ، فالآحاد يجب أن يتعاونوا بعضهم مع بعضهم فى دفع الكرب وفى الشدائد ، وفى جلب المصالح فالنبي ﷺ يقول : « الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » ولقد ورد أنه ﷺ قال : « من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة » فالتعاون فى جلب الخير ودفع الشر أمر مقرر فى الحقائق الاسلامية .

وإن التعاون يثبت فى الأسرة ، فالعلاقة بين الزوجين تقوم على التعاون المطلق فى قطع هذه الحياة ، والمرأة هى السكن والظل من حرور هذه الحياة وهو لها الحامى ، هى منة المواسى فى الشدائد ، وهو المتحمل لهذه الشدائد ، وهما يتعاونان فى رعاية تلك الثمرة التى أودعها الله تعالى ـ وهى الأولاد ـ ينشئآنهم نشأة صالحة طيبة ويربيان فيهم روح الائتلاف الاجتماعى ، حتى تكون منهم قوة فى المجتمع تألف وتؤلف .

وإذا تجاوز المؤمن أسرته وجد نوعا آخر من التعاون ، وهو التعاون مع جيرانه ، فعليه أن يرعاهم ويواسيهم ويعاونهم فى الخير وفى دفع الشر ، ولا يكون منه لهم إلا مايكون به صلاح أمرهم ، ولقد اعتبر النبي ﷺ إيذاء الجار مخالفاً للإيمان ، ولذا قال ﷺ : « والله لايؤمن ، والله لايؤمن والله لايؤمن ، قيل من يارسول الله قال ذلك الذى لايأمن جاره بوائقه » ـ أى لايؤمن أسباب الأذى الذى تأتى اليه منه ـ ، وان ذلك يشمل الجار فى الدار ، والجار فى المزرعة ، والجار فى المركب فى سفر . ولقد قرن الله تعالى الاحسان الى الوالدين والأقارب بعبادة الله ، وقرن الاحسان الى الأقارب بالاحسان الى الجار فقال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل » . والجار الجنب هو المجاور

الك فى مسكنك ، أو فى أى سبب من أسباب المجاورة والجار (ذو الجنب) - أى الذى يجاور من يجاورك ، - حتى لقد اعتبر من الجيران من يتجاورون الى حد الأربعين أو يزيدون . وان الاحسان الى الجار يكون بأنواع شتى أدناها منع الأذى عنه ، وأعلاها مشاركته فى السراء والضراء . والتعاون الكامل فى استغلال الأموال والانتفاع بها . وإن هذا المعنى يتسع ، حتى يصل الى التعاون بين زراع المنطقة الواحدة وتجار السوق الواحدة ، وبذلك يتجمع المجتمع الصغير على أساس من التعاون السليم .

ولقد أوصى النبى ﷺ بالجار وشدد الايصاء اليه حتى لقد قال : « مازال جبرئيل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وإن هذه الوصية واسعة فى معناها حتى تصل الى تكوين المجتمع الصغير كما أشرنا

وإن الجار الذى يتمتع بهذه الحقوق هو الجار بوصف كونه جاراً وإنساناً ، لافرق فى ذلك بين جار مسلم وغير مسلم ، وقريب وغير قريب ، إلا أن المسلم له مع حق الجوار حق الاسلام ، والقريب له مع حق الجوار حق القرابة ولذلك ورد فى بعض الآثار عن ابن عباس أن النبى ﷺ قسم الجيران الى ثلاثة أقسام : جار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار وحق الاسلام ، وحق القرابة . وجار مسلم له حق الجوار وحق الاسلام . وجار مشرك له حق الجوار .

وإذا تجاوزنا الجيران الذين يتكون منهم المجتمع الصغير ، وجدنا المجتمع الكبير فى الأمة ، ووجدنا التعاون أساس بنيانه تتعاون كل طوائفه فى جهودها المختلفة ، لتتلاقى تلك الجهود المختلفة عند ما يرفع شأن الأمة ، ويعلى قدرها ، وكأن تلك الجهود أنهار مختلفة تلتقى عند مصب واحد لايذهب فيه الماء هدراً بل تنتج الخصب وأطيب الثمار . فكل طائفة قوة فى ذاتها ، فهى

الصناع قوة ، ومهرة الزراع قوة متعاونة ، والعلماء يمدون الجميع بالمعارف وهكذا تعمل هذه القوى متعاونة متضافرة .

وقد ذكرنا عند الكلام فى العدالة الاجتماعية كيف تتضافر قوة الأمة لتهيئة الفرص لكل ذى موهبة من أن تظهر وتربى وتنتج ، وإن ذلك بلا شك تعاون وتضافر على الخير .

وإن تعاون الأمة كما يكون فى الماديات يكون فى المعنويات ، فيجب أن يعمل الجميع على منع الظلم وحماية الفضيلة . ولقد ورد أن النبى ﷺ : « قال أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا هذا المظلوم فكيف ننصر الظالم يارسول الله قال أن تمنعه من الظلم » . ولقد نفذ النبى ﷺ أكبر تعاون أدبى ومادى فى الجماعة بعقد الاخاء الذى عقده بين المهاجرين والأنصار وبين المهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض ، وكان لذلك الحلف قوة حتى لقد كان سبباً للتوارث قبل أن ينظم القرآن أحكام المواريث تنظيمه الخالد الى يوم القيامة ولم يكتف بذلك ، بل عقد منذ حل المدينة بين اليهود والمسلمين بالمواثيق التى عقدها ، ولكنهم نكثوا فى أيمانهم وأرادوا أن يضربوا المسلمين من ظهورهم ، فرد الله تعالى كيدهم فى نحورهم . وإن الاسلام بلغ حداً من التعاون فى الجماعة لم تبلغه شريعة من قبله ولا من بعده ، لقد جعل التعاون فى أداء الديون واجباً وقد جعل ذلك مصرفا من مصارف الزكاة ، فقد جعل من هذه المصارف سد الديون عن الدائنين الذين عجزوا عن وفاء ديون اقترضوها فى غير إسراف ولا سفه ، بل إنه من هذا المصرف تسدد الديون التى تحملها أصحابها فى سبيل الصلح بين الناس ، ولو كانوا قادرين على أدائها ، لأن هؤلاء قاموا بأمر إجتماعى ، فتتحمل الدولة الأداء بالنيابة عنهم ولو كانوا قادرين . وإنه يروى فى ذلك أن عامل الصدقات بإفريقية شكا الى عمر بن عبد العزيز

أنه لا يجد فقيراً يعطيه من الصدقات ، وبيت مال الصدقات مملوء ، فكتب اليه سدد الدين عن المدينين ، فسدد ، ثم شكا اليه أن فى بيت مال الصدقات فضلا ، فكتب اليه إشتر رقابا واعتقها .

ولئن انتقلنا من الأمة الى الجماعة الإنسانية نجد أنه يجب أن يكون التعاون أساس الإجتماع الانسانى ، ولذا قال تعالى « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأساس العلاقات الدولية هو التعارف ، ومع التعارف يكون التعاون على الخير ، ولقد اعتبر الإسلام بنى الإنسان أمة واحدة كأن يجب أن تتعاون ، ولكنها اختلفت ، ومع اختلافها يجب أن تتلاقى فى ناحية التعاون الإنسانى العام . وقد قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق والميزان ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » .

ولقد نفذ النبى ﷺ مبدأ الإتحاد الدولى عندما هاجر الى المدينة ، فقد عقد كما أشرنا مع اليهود الذين كانوا يجاورونه عهداً كان أساسه التعاون بينهم وبين المسلمين فى دفع الأعداء وإقامة الحق ، أو مايسمى فى عرف العصر - بالتعايش السلمى - ولكنهم نقضوا عهودهم التى عاهدوا النبى عليها كما ذكرنا ، فنالوا مغبة ذلك بما أنزل الله بهم من عقاب على يد النبى وأصحابه .

وكان يعقد المعاهدات من القبائل العربية لإيجاد تعاون إنسانى ، لاعلاء المعانى الانسانية ، وكان يحبذ كل تعاون على الخير ، ويمنع كل تعاون على الشر ، ولقد ذهب الى مكة حاجاً ، فعلم أن قريش تريد منعه ، فمد يد المسالمة اليهم وهو يقول : « لو دعتنى الى أمر فيه رفعة للبيت الحرام لأجبتهم » .

ولقد كان يحث على التعاون على حماية الضعيف ودفع القوى ، ولقد حضر - وهو شاب فى العشرين من عمره - حلفاً لقريش عقد فى دار - عبد الله بن جدعان - تعاقد فيه رجالات من قريش لينصرن الضعيف على القوى فسّر بذلك سروراً ظهرت آثاره فى الإسلام ، فقد قال ﷺ بعد أن استقر الإسلام فى المدينة : « لقد حضرت بدار عبدالله بن جدعان حلفا ، مايسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » .

وقد يقول قائل : كيف يكون الإسلام قد وضع مبدأ الحرب وخاض النبى ﷺ وصحابته غمارها ، ومع ذلك يقرر أن أساس العلاقة الإنسانية هى التعاون بين بنى الإنسان ، وإن الجواب عن ذلك : أن هذه الحرب العادلة هى من قبيل التعاون ، وإحدى ثمراتها ، فليس التعاون على الاثم والعدوان ، إنما هو تعاون على البر والتقوى ، والمحافظة على الكرامة الإنسانية ، وأن الاسلام ماسل سيفاً على طالب حق ، وما اعتدى على أحد ، ولكن كان اعتداء غاشم عليه وكان ملوك أرهقوا رعاياهم ، وضيقوا عليهم ومنعوهم أن يصل اليهم نور الحق ، وقتلوا من آمنوا بالحق الذى أدركوه ، والدين الذى ارتضوا ، فكان قانون التعاون ، أن يرد كيد الظلم ، وأن يرفع عن تلك الشعوب المنكوبة بحكم الطغاة من نير العبودية والاسترقاق ، وقد كانت الحرب لذلك ، وإن السكوت فى هذه الحال ليس من التعاون ، بل والحرب العادلة هى من التعاون ، لأنها منع للفتنة فى الدين ، ولأنها تمكين للمضطهدين من أن يتنسموا نسيم الحرية ، ولذلك قال سبحانه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير » ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

وبهذا يتبين أن هذه الحروب التي تولاها محمد ﷺ وتولاها من قبله موسى وداود وسليمان كان الغرض منها التعاون على الحق ، وأنه لولاها ماقامت عبادة فى الأرض ، فتهدم البيع والصوامع ـ وهى معابد النصارى واليهود ـ والمساجد ـ وهى معابد المسلمين ـ .

وإن كلمة الحرب إذا ذكرت فى عصورنا ذكر معها الخراب والدمار واستباحة الحرمات ، ونشر الفساد والانحلال والانطلاق من كل الروابط الانسانية ، حتى أنه ليؤخذ بجرائرها الآمن فى سربه ، والحامل لسيفه ، لافرق بينهما فى شيء ، وأنه لايسلم منها الذرارى الضعاف ، ولا الزراع الذين يفلحون الأرض ، بل أن ويلاتها تعم ولا تخص ، يكون التدمير فى موضع البرء وموضع السقم على سواء ، ولكن حروب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كانت حروباً فاضلة تظللها التقوى ، فلا يقتل إلا من يقاتل بنفسه أو بتد بيره ، أما الزراع والعمال فلا تمتد اليهم يد بأذى ، ولذلك يقول ﷺ لجيوشه : « سيروا على بركة الله لاتقتلوا وليداً ولا إمرأة ولا عسيفا » ـ والعسيف هو العامل الأجير ـ ولقد كان المسلمون يدعون الى التعاون بالمعاهدة يعقدونها معهم ، أو بالاسلام يرتضونه ديناً مختارين لا مكرهين ، ولذلك كانوا إذا اضطروا الى مهاجمة دولة ـ منعاً لأن يعتدى عليهم ـ دعوها الى إحدى خصال ثلاث ، أما الاسلام ، وأما العهد ، وأما القتال . وليس العهد فى ذاته إلا تعاوناً على التعايش السلمى ـ كما يعبر ساسة هذا العصر وكتابه ـ . وكان أولوا الأمر يشددون فى حمل قوادهم على تكرار هذه الدعوة كلما ساروا الى بلد وأحاطوا به .

ولقد حدث أنه عندما أغارت جيوش المسلمين على « صغد » ـ من أعمال سمرقند ـ لم يدعهم القائد الى إحدى هذه الخصال الثلاث ، فشكوا الى

عمر بن عبد العزيز ، فكتب عمر الى والى سمرقند . يقول له : « إذا أتاك كتابى هذا فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم ، فإن قضى لهم ، فأخرج العرب من معسكرهم » وقد قضى القاضى لأهل سمرقند ، وخرجت الجيوش الاسلامية من البلاد التى استولت عليهم ليعرض القائد هذه الخصال من جديد

٤ ـ الرحمة والمودة

اعتبر الاسلام أساس العلاقات الانسانية كلها الرحمة والمودة . فالمودة الانسانية قانون شامل لكل العلاقات الانسانية ، ولقد اعتبرها الصلة التى تربط كل من فى هذه الأرض من بنى الانسان سواء أكانوا متصلين بالشخص بمقتضى روابط الأسرة ـ زوجية أوقرابة ـ أم كانوا متصلين به بحكم الجوار أم كان اللقاء فى المجتمع الصغير أو الكبير ، أو فى المجتمع الانسانى العام ولذلك اعتبر النبى ﷺ شعار الاسلام السلام ، وإطعام الطعام ، فقد سئل ﷺ عن أحسن الاسلام ، فقال : « أحسن الاسلام أن تطعم الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » فحق على المسلم أن يلقى السلام على من عرفه ومن لم يعرف ، ليلقى اليه بالمودة ، وليستدر مودته .

ولقد اعتبر سبحانه أشد مايفعله العناد والجحود أنه يقطع المودة التى أمر الله سبحانه وتعالى بوصلها ، فقد قال تعالى فى شأن الجاحدين : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك عليهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

و إن المودة تحكم الأسرة ، ولا رابطة أقوى منها فى الأسرة ، فالنظم والقوانين مهما تكن موثقة محكمة لاتحكم الأسرة ، ولذا قال سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقال فى الارتباط القدسى الذى يربط بين الزوجين : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » وإذا لم تشد المودة بين الأسرة تقطعت أوصالها ، فإذا عدمت المودة بين الزوجين كان الواجب إنهاء العلاقة الزوجية ، إن لم يكن سبيل الى إعادة المودة والرحمة بينهما .

وجعل المودة أساس العلاقة بين الأقرباء بعضهم مع بعض ، فعلى القريب أن يصل قريبه بالمودة ، وإن حاول قريبه أن يقطعها ـ وصلها ، ولذا قال ﷺ : « من أراد منكم أن يبارك له فى رزقه ، وينسأ له فى عمره فليصل رحمه » وأمر بأن يصل المؤمن رحمه عند القطيعة ، فقال ﷺ : « ليس الواصل بالمكافىء إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » .

وما نهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك ، وأمر بالوحدانية إلا قرن بهما الاحسان الى الأقربين والى ذوى القربى ، ونقف عند آية واحدة من هذه الآيات ، وهى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم » .

وإن وقفة قصيرة عند هذه الآية تكشف لنا عن دعوة الى مجتمع متواد تربط المودة والاحسان آحاده ، تبتدىء بالاحسان الى أقرب الناس اليه ، ثم بالاحسان بمن سيكونون قوة فى المجتمع إن ارتبطوا بالمودة . والتى المجتمع اليهم بها ، وهم اليتامى الذين فقدوا كافلهم وراعيهم ، ثم بالجيران ، ثم بالمجتمع

الانسانى كله ممثلا فى ابن السبيل الذى انقطع به الطريق ، ولا مأوى له .

وإن الناظر فى القرآن الكريم يجده قد شدد فى الايصاء باليتامى ، فما من آية ذكر فيها الاحسان إلا كان لليتيم حظ كبير فيها ، وحث النبى ﷺ على إكرام اليتيم ، واعتبر من يكرم اليتيم ويكفله له منزلة النبيين ، ولذا قال ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » ، وأشار بضم أصابعه الى انهما فى منزل فى الجنة واحد » ، وبارك ﷺ كل بيت يكرم فيه يتيم ، فقال : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه » .

وقد يقول قائل لماذا حث الاسلام على إكرام اليتيم هكذا ، والجواب عن ذلك أنه خصه بالاحسان والرحمة ، لأن اليتيم فقد الراعى الذى يكلؤه - وهو أبوه - وقد كان أبواه يربيان فيه روح الائتلاف بالجماعة التى يعيش فيها ، إذ أنهما بفيض الحنان والعطف الأبوى . كانا يثيران فيه نوازع الرحمة بغيره ، وبإيثارهما له يبعثان فيه حب الايثار بطبيعة المحاكاة ، فإذا لم يستعض عن ذلك بالكلاءة الرحيمة العاطفة ممن يتصلون به خرج نافراً من الناس ، لايحس بأنه تربطه بهم جامعة مودة ورحمة ، فينظر اليهم نظر الخائف الحذر أو نظر العدو المتربص ، وكلاهما لايجعل فيه قوة عاملة ، وفى الثانية تكون منه قوة هادمة ، فأكثر الذين يرتكبون جرائم فى المجتمع من الذين يحسون بالنفرة منه ، لأنهم منبوذون لم يذوقوا الرحمة من غيرهم ، فنظروا الى المجتمع نظرة عداوة لامودة فيها ، إذ أنهم يحسون بأنه لفظهم ابتداءاً ، فلم يرحموه بما لفظهم . واليتامى عرضة لذلك ، فكان حقاً على المجتمع أن يحميهم ، وينمى عواطف الالفة فيهم بالمودة يلقى اليهم بها ، ولقد قال ﷺ : « من مسح رأس يتيم لم يمسحه الا الله كان له بكل شعرة تمر عليها يده حسنات » .

وإن المودة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الامة الواحدة ، بل هى واجبة للمخالفين فى الدين ماداموا لم يعتدوا على المسلمين ، ولم يعادوهم ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى تلك الحقيقة — وهى القانون العام فى معاملة المؤمنين لغيرهم — : « إنما ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالبر ثابت للمؤمن ولغير المؤمن مادام لم يعتد عليه ولم يظلم .

وإنه فى مدة الحديبية بلغ النبي ﷺ أن قريشاً نزلت بهم جائحة ، فأرسل — مع حاطب بن أبى بلتعة — خمسمائة دينار الى أبى سفيان بن حرب ليشترى بها براً ويوزعها على فقراء قريش فالمودة ثابتة حتى للمشركين .

وإنه فى أثناء الحرب تنقطع المودة مع المقاتلين فقط ، أما غير المقاتلين ممن لم يشتركوا فى القتال بأى نوع من أنواع الإشتراك ، فانه لاتقطع المودة بينهم وبين المسلمين إن قامت أسباب المودة ، ولذلك لا يمنع قيام الحرب من وجود مستأمنين من تجار الدولة المحاربة ، والمستأمنون هم الذين يقيمون فى الدولة الإسلامية مدة معلومة لقصد الاتجار .

والخلاصة أن الاسلام لايقطع المودة فى أثناء الحرب إلا مع المقاتلين بالفعل أو من لهم رأى فى القتال ، أما غيرهم فإنه يفرض أنه لارأى لهم فى الاعتداء ، ولذلك لايضارون ، ولا تنقطع عنهم المودة والرحمة ، وبسبب هذا نهى النبي ﷺ فى الحرب عن قتل النساء والذرية والشيوخ الفانين ، ومن لارأى لهم فى القتال ، كما نهى عن قتل العسفاء — وهم العمال والزراع وغيرهم من عامة الشعوب الذين لا يقاتلون وقد يكونون وقود القتال — .

وإذا كانت المودة هى الرابطة التى تربط بين الانسان بحكم الاسلام وسائر الأديان فإن الرحمة تنبعث منها ، وهى تلازمها . ولذلك كانت الرحمة قانوناً اسلامياً واجب الاتباع ، ولقد قال ﷺ : « لا تنزع الرحمة الا من شقى » وقال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وليست الرحمة التى يطلبها الاسلام هى تلك الشفقة الشخصية فقط ، بل إن رحمة الاسلام تشمل ذلك ، وتشمل الرحمة بالعامة ، وهى مقصد الاسلام الأعلى ، ولذلك قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ولقد أكثر النبى ﷺ من الحث على الرحمة ، فقال بعض الصحابة : يارسول الله إنا نرحم أزواجنا وأولادنا ، فقال ﷺ : ماهذا ماأريد ، إنما أريد رحمة العامة .

ورحمة العامة التى هى مقصد الاسلام الأعلى - توجب إقامة العدل ، ولذلك نرى أن العدل فى أدق معناه هو من الرحمة ، فإن الرحمة بالجماعة توجب أن ينتصف المظلوم من الظالم ، وان القصاص هو من الرحمة العالية ولذا قال سبحانه وتعالى : « ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب » ، وإذا كان القصاص فيه حياة سعيدة هادئة يأمن الشخص فيها على نفسه وولده ، فإن ذلك من الرحمة .

ولم يكتف الاسلام بوضع أسس الرحمة والرأفة بالانسان حتى رأى أن الحيوان أيضاً جدير بالرفق والرأفة والرحمة ، لأن له روحا ، ولأن له نفساً تألم وتأذى وتحس بما يحسه الانسان من الألم والضغط ، بينما الانسانية - حتى فى العصر الحديث - لاترى للحيوان نصيباً من الرفق ، أو حظاً من الرحمة . وقد استفاضت الأحاديث من الاسلام تدعوا الى الرحمة بالحيوان

وتأمين راحته .

وأول ما أعلن مبادئه فى مجال الرفق بالحيوان ، أن قرر أن عالم الحيوان كعالم الانسان له خصائصه وطبائعه وشعوره : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » . فله حق الرفق والرحمة كحق الانسان « الراحمون يرحمهم الرحمن » . « من أعطى الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة » . بل إن الرحمة بالحيوان قد تدخل صاحبها الجنة » . « بينما رجل يمشى بطريق إذ اشتد عليه العطاش ، فوجد بئراً فنزل فيها ، فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطاش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطاش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له قالوا يارسول الله . وان لنا فى البهائم لأجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » . كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » .

وتمضى الشريعة الاسلامية فى تشريع الرحمة بالحيوان ، فتحرم المكث طويلا على ظهره وهو واقف ، قال ﷺ : « لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى » . وتحرم إجاعته وتعريضه للضعف والهزال ، فقد مرّ ﷺ ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال ﷺ : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » . كما تحرم إرهاقه بالعمل فوق مايتحمل . دخل رسول الله ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبى حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح دموعه ، ثم قال : من صاحب هذا الجمل ؟ فقال صاحبه . أنا يارسول الله ، فقال له ﷺ أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلى أنك تجيعه

وتدئبه » . كما تحرم التلهى به فى الصيد « من قتل عصفوراً عبثا عج الى الله يوم القيامة يقول : يارب إن فلانا قتلنى عبثاً ولم يقتلنى منفعة » . واتخاذه هدفا لتعليم الاصابة ، فقد « لعن رسول الله من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » وتنهى عن التحريش بين الحيوانات ، ووسمها فى وجوهها بالكى والنار (أى كيها لتعلم من بين الحيوانات الأخر) فقد « مرّ الرسول على حمار قد وسم فى وجهه ، فقال : « لعن الله الذى وسمه » .

أما إذا كان الحيوان مما يؤكل ، فإن الرحمة به أن تحد الشفرة ، ويسقى المـاء ، ويراح بعد الذبح قبل السلخ « إن الله كتب الاحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » بل ان اضجاع الحيوان للذبح قبل إحداد الشفرة قسوة لاتجوز ، أضجع رجل شاة للذبح وهو يحد شفرته ، فقال له ﷺ : « أتريد أن تميتها موتات ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها » . ماأروع هذه الرحمة بالحيوان وأبلغ دلالتها على روح الاسـلام النبيلة ورأفته ورقته بالحيوان .

٥ ـ المصلحة ودفع الفساد

كل إجتماع يتجه الى غاية رابطة ، وتتضافر الجهود كلها للوصول الى هذه الغاية ، والغاية الانسانية العالية هى فعل الخير وتجنب الشر ، وما من

جماعة فاضلة إلا جعلت الخير أساس اجتماعها ، والابتعاد عن الشر عنصر اتحادها . ولكن ماهو الخير ؟ وما هو الشر ؟ وما هو الميزان الذى به يتميز الخبيث من الطيب ؟ لقد خاض العلماء فى ذلك قديماً وحديثاً ، ولقد اتفقوا فى القديم والحديث على أن الميزان الخلقى لايختلف فى عصر من العصور عنه فى الآخر ، قد تختلف الجزئيات فى الموزونات ولكن لايختلف الميزان ولا تختلف الكليات ، اللهم إلا أن يقال إن قواعد الحساب أو الهندسة صحيحة فى بعض الأحوال باطلة فى بعضها ، وكذلك مقياس الحق والباطل لايختلف .

ولكن اختلف الفلاسفة من أقدم العصور فى حقيقة الميزان الذى يمكن أن يكون ضابطاً للقيم الخلقية لأفعال العباد . ففريق قال : « إن المقياس هو الكمال المطلق » وفريق قال : « إن أصول الفضائل الأربعة ، المعرفة ، العدالة ، الشجاعة ، العفة » وفريق قال : « إن المقياس هو المعرفة الصحيحة » وفريق قال : « إن المقياس هو الإعتدال فالفضيلة وسط بين رذيلتين » . . .

والمذهب الذى راج فى العصور الأخيرة ، واعتبر أساس للقوانين الحاضرة ، كما اعتبر أساساً لكل مجتمع فاضل هو مذهب المنفعة ، وهو أن تكون الفضيلة أو الخير هو الأمر الذى يكون فيه أكبر نفع ممكن لأكبر عدد من الناس .

ولقد قرر هذا المذهب فى العصور الأخيرة الفيلسوفان الإنكليزيان (بنتام) واعتبره أصلا للقوانين ، وميزانا للخير والشر ، (وجون استوارت ميل) واعتبره ميزان الأخلاق ، والإجتماع الفاضل .

وإن المنفعة التى تقرر أساساً للإجتماع هى اللذة المعنوية والحسية ، واللذة العاجلة والآجلة ، فليست الهوى النفسى ولكنها اللذات الخالية من المفاسد

والتى تبقى طويلا ، والتى يلاحظ فيها الحاضر والمستقبل . وأسلم اللذات فى هذا ما كان معنويا إذا كان فيه نفع للآخرين ، ويقول فى هذا المقام (جون استوارت ميل) فى رسالة المنفعة . « إن من النبل أن يقدر الإنسان على التخلى عن نصيبه من السعادة ، ولكن هذه التضحية لابد أن تكون لغاية ، لأنها ليست غاية لنفسها ، وإن قيل إن غايتها السعادة ، بل شىء أرقى منها وهو الفضيلة ، فإنا نسأل هل يمكن أن يأتى البطل أو الزاهد بهذه التضحية ، ان لم يعتقد أنها توفر على من عداه تضحية مثلها ، وهل يمكن أن يأتيها لو ظن أن تركه لسعادة نفسه لايأتى بثمرة لإنسان آخر ، وإنما يجعل نصيبه من الحياة مثل نصيبه منها! إن كل الشرف الذى يناله من يحرمون أنفسهم لذات الحياة ، إنما يكون إذا كان هذا الحرمان سبباً لتمتع الآخرين بسعادتهم من هذه الدنيا ، أما من يحرم نفسه لأى سبب آخر فلا يستحق شيئاً من الإحترام نعم يمكن أن يكون دليلا على قدرة الإنسان على العمل ، ولكنه من غير شك لايكون مثالا لما ينبغى أن يعمل . إنه مما يرجع الى نقص الدنيا وضعف نظامها . إن أحسن طريق يمكن الإنسان أن يسلكه الى مساعدة غيره من السعادة هو تضحية سعادته تضحية تامة ، ولكن مادامت الدنيا فى هذا النقص فإنى أقرر أن الإستعداد لتلك التضحية أكبر فضيلة يمكن أن توجد فى الإنسان هكذا جاء فى - رسالة المنفعة - ترجمة الأستاذ محمد عاطف بركات (باشا) .

ونتهى من هذه اللمحات الفلسفية الى أن الغاية من كل بناء إجتماعى خلقى هى المصلحة أو منفعة المجموع ، وليست المنفعة مرادفة للهوى ، لأن الهوى قد يكون إنحرافا نفسياً ، ومجاوبة للأنانية الشخصية ، وبهذا يكون مناقضاً المنفعة ، لأن المنفعة المقصودة فى الأخلاق كما نوهنا هى المنفعة التى

تعود على أكبر عدد فى البناء الإجتماعى ، بأكبر قدر ممكن ، وهى فى أكثر أحوالها إيثاراً ، وليست أثرة شخصية . وفوق ذلك فإن الأهواء والنزعات الشخصية هى التى تفك وحدة المجتمع ، بينما المنفعة بهذا المعنى الإجتماعى تدعمه وتقوى الروابط فيه ، ويحس كل امرىء فيه بأنه يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، وبأن حياته ولذاته فى أن يحيا المجتمع حياة سعيدة هنيئة ، قد توافرت فيها لكل إنسان سعادة حقيقية .

وإن الاستقراء أثبت أن الأسس الاجتماعية فى الأحكام القرآنية تقوم على المصلحة لأكبر عدد ممن يظلهم المجتمع بأكبر مقدار من السعادة الحسية والروحية ودفع بوائق الشر ، وقد استطاع فقهاء الاسلام أن يردوا أصول المصالح الاجتماعية الى خمسة أمور تجب المحافظة عليها ، حتى تقوم العلاقات الاجتماعية على أكمل وجه ، وحتى يتجه المجتمع بكل قواه الى أسلم غاية ، وتلك الأمور الخمسة هى : « حفظ النفس ، وحفظ العقل ، وحفظ النسل ، وحفظ الدين ، وحفظ المال » . وإن انحصار المصالح فى هذه الأمور الخمسة لأن الدنيا بنيت عليها ، ولأن كل مجتمع فاضل يجب أن يجعل غايته العليا المحافظة عليها ، وإن قوى المجتمع تتجه الى المحافظة عليها وتحقيقها ، ودفع الآفات الاجتماعية التى تعرض مصلحة من هذه المصالح للضرر ، ولذلك حرص الشرع الاسلامى على أمرين :

أحدهما جلب المنفعة لأكبر عدد ممكن فى المجتمع . وثانيهما دفع الضرر وقرر أن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة إذا تساوت المنفعة مع الضرر ، أو لم يكن تفاوت واضح بينهما ، واذا غلبت المصلحة على الضرر بقدر كبير واضح قدمت المصلحة ، لأن منعها يعد فى ذاته ضرراً كبيراً ، والضرر الصغير يتحمل فى سبيل منع الضرر الكبير .

والمحافظة على النفس : هى المحافظة على الحياة العزيزة الكريمة ، ويدخل فيها منع الاعتداء على النفس أو الأطراف أو أى جزء من أجزاء الجسم ، كما يدخل فيه المحافظة على السمعة والكرامة ، والابتعاد عن مواطن الاهانة . ومن المحافظة على النفس ، المحافظة على الحرية الشخصية ، وحرية العمل ، وحرية الفكر والرأى والاعتقاد ، وحرية الاقامة والانتقال ، وغير ذلك مما تعد الحرية فيه من مقومات الحياة الانسانية الحرة التى تزاول نشاطها فى دائرة المجتمع الفاضل ، وإن الشارع الاسلامى والقوانين العادلة قد وضعت عقوبات لحماية النفس ، ومظاهر الكرامة فيها ، إذ أنه من الواجب الاجتماعى منع الاعتداء على النفس فى أى مظهر من مظاهرها التى بيناها . بيد أن الاعتداء عليها يتفاوت وعلى ذلك يجب أن توضع عقوبات بمقدار ذلك التفاوت ، فالاعتداء على الحياة ذاتها عقوبته أشد العقوبات ، لأنه لا سبيل لدفعه فى المجتمع إلا بتشديد العقاب ، ولذلك قال الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » وما يكون اعتداء على أمر تثبت معه الحياة ، ولكن لا تكون فى عزة بل تكون فى ضيق كالاعتداء على الكرامة بالسب أو الرمى بأمر يتنافى مع الأخلاق الفاضلة كالرمى بالزنى فإن عقوبته تكون دون الأولى لأن الايذاء فيها أقل للمجتمع ، ولأن دفعها لا يحتاج الى قدر كبير من العقاب .

والمحافظة على العقل : هى المحافظة عليه من أن تناله آفة تجعل صاحبه عبئاً على المجتمع ، ومصدر شر وأذى .

والمحافظة على العقل تتجه الى نواح ثلاث : أولاها ـ أن يكون كل عضو من أعضاء المجتمع سليما يمده بعناصر الخير والنفع ، فإن عقل كل إنسان ليس حقاً خالصاً لصاحبه ، بل هو باعتباره لبنة فى صرح ذلك المجتمع يتولى بعقله السليم سداد خلل فيه ، فكان حقاً على المجتمع كله أن يتولى العمل

على سلامة ذلك العقل الذى يعد عنصراً فى بنائه .

الناحية الثانية - أن من يعرض عقله للآفات يكون هو عبئاً على الجماعة كما أشرنا ، فلم يفقد المجتمع عنصراً عاملا فقط ، بل إن من يفقد عقله يكون عبئاً ثقيلا ، وأن من حق المجتمع لهذا أن يحافظ على عقل كل شخص محافظة تمنع من أن تزيد الأعباء والتكاليف لحماية البناء الإجتماعى .

والناحية الثالثة - أن من يصاب عقله يتعدى أذاه ولا سبيل لدفع ذلك الأذى المتوقع عند نزول آفة العقل إلا بالمحافظة عليه ، ومنع كل شخص مما يؤدى الى الأذى .

ومن أجل ذلك حرم الإسلام الخمر ، وكل مامن شأنه أن يؤثر فى العقل تأثيرها ، فكل أنواع المخدرات - سواء أكانت مشروبات ، أم كانت غير مشروبات - محرمة فى الاسلام ، ووضع للمخدرات عقاباً شديداً ، لأنها فوق أنها تفسد العقول فى المجتمع تقطع حبال المودة فيه ، ومثلها فى ذلك الميسر ، ولذلك اجتمع تحريمها فى آية واحدة . قال تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

ومثل الخمر فى هذا مثل تلك المخدرات الشائعة كما نوهنا ، ولها عقاب الخمر الذى قرره الاسلام . والقوانين الحاضرة تعاقب على المخدرات كالحشيشة والأفيون ، ولا تعاقب على الخمر ، فلم تكن منطقية ، إذ تعاقب على أحد المثلين ، وتترك الآخر يعب الناس منه عبا . وهذا يخالف المقررات العقلية من أن مايثبت لأحد المثلين يثبت للآخر .

والمحافظة على النسل : وهى المحافظة على النوع الانسانى ، بحيث تكون

الأجيال الانسانية قد ربيت على أساس التآلف الاجتماعى وملاحظة حق الغير وأن يكون الجيل قوياً فى جسمه وفى عقله وفى دينه وفى خلقه ، وإن ذلك لا يكون إلا إذا ربى الطفل بين أبويه ، وإلا إذا كان لكل ولد كالىء يحميه ويحنو عليه ويرعاه ، وإن هذا يقتضى بلا ريب تنظيم الزواج تنظيما يكفل نسلا قوياً ، ويكفل رعاية أبوية تتربى فيها كل العواطف الانسانية التى تكون الألفة الاجتماعية ، وتبتدىء تلك الألفة فى محيط الأسرة ، ثم تتعدى الى محيط الجماعة ، ثم تتعدى الى الانسانية كلها ، فتتسع لابن الانسان حيث كان وأين يكون .

ولذلك نظم الاسلام أحكام الزواج ، وحمى الحياة الزوجية ، ومنع الاعتداء عليها بأى نوع من أنواع الاعتداء ، وإن المحافظة على النسل اقتضت منع اعتداء على الأعراض سواء أكان بالفاحشة ترتكب ، أم كان بالقذف بالزنى ، إذ من شأنه إشاعة الفاحشة فى المجتمع الفاضل فتفسده ، لأن الفاحشة اعتداء على الأمانة الانسانية التى أودعها الله تعالى جسم الرجل والمرأة ، ليكون منها النسل والتوالد الذى يمنع فناء الجنس البشرى ، ويجعله يعيش عيشة هنيئة سهلة فيكثر النسل ويقوى ، والنسل فى ذاته ثروة وقوة ، فهو يوجد الثروة ، والثروة لا توجده .

ولا يكون النسل قوياً كثيراً إذا كان أساس العلاقة بين الرجل والمرأة غير الزواج الذى يباركه الدين ، ويستظل بظله .

ولذلك شدد الشارع الاسلامى فى عقوبة الزنى . وأشد الزنى زنى الزوج أو الزوجة ، لأنه اعتداء مباشر على النسل ، ولا سبيل الى التساهل فيه ، ودون هذا عقاب الزنى من غير المتزوجين ، وكما عاقب الاسلام على الزنى عاقب أيضا على ما يكون ذريعة اليه ، وعما يثير الشبه ، وعما يحرض على

الفسق ، فعاقب الذين يرمون الناس بالزنى ، وجعل عقوبة ذلك ثمانين جلدة أى أقل من عقوبة الزنى نفسه بعشرين جلدة ، وهذا لأن الترامى بالزنى وهتك الأعراض بالقول يؤدى الى إشاعة الفاحشة فى المجتمع الفاضل ، وهكذا عمل الاسلام على حماية النسل والنسب ، وحماية المجتمع فى تلك الرذيلة التى يغضب لها أهل السماء وأهل الأرض .

والمحافظة على الدين . تكون بحماية العقائد من الدعايات الهادمة ، والانحلال الدينى ، أيا كان الدين ، فإنه من المقررات الاسلامية أن من له دين ولو المجوسية غير ممن لادين له ، وذلك لأن الدين رابط روحى ، وحصن نفسى يمنع المتدين من أن يتردى فيما يؤذى ويضر أو يقطع الألفة الاجتماعية ولأن التدين خاصة الانسان ، وإذا كان خاصة الانسان فحمايته حماية لأقدس المعانى الانسانية ، وأشرف الحقائق فى هذا الوجود هو صلة المخلوق بالخالق وهو النور المنبعث من ابن الارض الى السماء ، فكان لابد من حمايته ، وأن تتوافر حرية الاعتقاد كما قال تعالى . « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ولقد اعتبرت الفتنة فى الدين أشد من القتل فمن أرهق إمرءاً ففتنه فى دينه يكون كقتله أو أشد ، لأنه أصابه فى أقدس مافى الانسان ـ وهو التدين الحر ـ ولذا قال تعالى فى الفتنة فى الدين : « والفتنة أشد من القتل »

والمحافظة على المال . تكون بمنع الاعتداء عليه بالسرقة أو الغصب وأكل أموال الناس بالباطل ، ومنع الرشوة والتغرير والنصب والاحتيال ، والمحافظة على المال كما تكون بذلك تكون بالعمل على تنميته ، وتوزيعه بالعدل والمحافظة على إنتاج مايثمر ويزيد فى ثروة الجماعة والآحاد من غير شطط ولا حيف . وتكون المحافظة على المال بوضعه فى الأيدى القوية التى تستطيع حمايته وتنميته .

وقد وضعت العقوبات الزاجرة المانعة للإعتداء على الأموال ، وكانت مرتبة بترتيب قوة الاعتداء فوضع للسرقة أقسى عقاب ، لأنها ضياع للمال حيث لا يمكن الاثبات . إذ أن السارق يأخذ خفية حيث لا يطلع أحد ويروع الآمنين ، ويلقي بالهلع فى نفوس الناس ، وإن هذا الترويع ذاته يستحق عقابا ، وضياع المال ذاته يستحق العقاب الاول ، وليست العبرة بقيمة ماسرق ، إنما العبرة بمقدار ماأنزل بالناس من فزع ، ودون السرقة الاغتصاب لأن الاغتصاب أخذ للمال علنا ، وأخذ المال علنا يمكن أن يجرى فيه الاثبات ، فلا يضيع أصل المال حيث يمكن اثباته ، واسترداده ، ويلى هذا الغصب ، ثم الغش والخديعة ، لأن ذلك وإن كان أكلا لمال الناس بالباطل للإرادة المخدوعة دخل فى ضياعه ، فكان حقاً على الرجل أن يحتاط لنفسه . وهكذا نجد الجرائم تتفاوت بمقدار قوة الاعتداء ، ومع تفاوتها يتفاوت العقاب .

هذه هى المصالح التى اعتبرها الاسلام غاية من غايات الاجتماع الكبرى وهى لا تتحقق إلا إذا كان لها حام من القانون الرادع ، والأحكام الزاجرة ولذلك كان لابد للمجتمع فى الاسلام من عقوبات صارمة رادعة ، وقد بنيت العقوبات فى الاسلام على أساس دفع الفساد ، كما بنى التحليل والتحريم فى الإسلام على أساس مصلحة الجماعة الفاضلة .

وإنه من المقررات الثابتة أن الله تعالى لم يخلق شيئاً ضاراً ضرراً محضاً ولا شيئاً نافعاً نفعاً محضاً ، وإنما العبرة بالغالب فما غلبت المصلحة الجماعية فيه طالب الشارع به ، وما غلب الضرر الاجتماعى فيه منعه الشارع .

هذه هى إشارة موجزة الى الاهداف التى قصدإليها الاسلام ليكون مجتمعاً فاضلا تحكمه الفضيلة ، وتؤلف بين آحاده وتربطها بحبل الله القوى المتين .

وإن هذه الاهداف تدخل فى كل بناء اجتماعى ، فتدخل فى مجتمع الأسرة ، وفى المجتمع الصغير ، وفى مجتمع الامة ، وفى علاقات بنى الانسان بعضهم مع بعض مهما تختلف أجناسهم ، وأقاليمهم ، وألوانهم ، إذ أنها نظم الحياة الفاضلة وقوانينها .

نظام الوحدة عند محمد ﷺ

— ١ —

هذه الكرة الأرضية التى نعيش على ظهرها أحياء ، ونرمس فى بطنها أمواتاً ، وكل ما فيها وما عليها وما يحيط بها وما يخرج منها من الكائنات من الأمهات الأربع : ـ الماء والتراب والنار والهواء ـ والمواليد الثلاث : ـ الجماد والحيوان والنبات ـ كل هذه الحقائق بجميع أصنافها وأنواعها ، ومختلف أشخاصها كلها قد تكونت من أجزاء متغايرة وعناصر مختلفة ، انضم بعضها الى بعض ، وامتزج بعضها ببعض ، على نسبة مخصوصة ووضع خاص حتى صارت حقيقة نوعية لها آثارها الخاصة وخواصها المتعينه ، هذا شجر ، وهذا حجر ، وهذا إنسان .

ولكل واحد من تلك الموجودات العينية فساد وصلاح ، ونقص وكمال ، وصلاح كل موجود هو عبارة عن ترتب الأثر المقصود منه . وحصول الغاية التى خلق من أجلها ، والثمرة المتوخاة فيه ، وفساده عبارة عن تخلف ذلك الأثر ، وعدم حصول تلك الغاية منه ، فصلاح الزرع مثلا أن يثمر الثمر الجيد والحب الذى يطلب من مثله ، وصلاح المسك بأن تفوح منه الرائحة الطيبة ، وإذا لم تكن له تلك الرائحة فهو فاسد .

وإذا تعمقنا فى البحث ودققنا النظر فى الأسباب والعلل لانجد علة الفساد

وسبب الصلاح فى تلك الكائنات سوى مايرجع الى أمر واحد، فصلاح الشيء وترتب أثره المطلوب منه إنما ينشأ من استجماع أجزائه وانضمام بعضها الى بعض ، وارتباطها على نسبة خاصة ووضع معين ، إرتباطا يجعل تلك الأجزاء المتغايرة شيئاً واحداً ذات أثر واحد . فإذا زادت تلك الأجزاء أو نقصت أو اختل وضعها الخاص وتركيبها المعين ، فانحل ذلك التركيب ، وتفككت تلك الأجزاء ، فهناك يأتى الفساد وتتلاشى الحقيقة ، ويفوت الأثر المقصود منها ، فمرجع الصلاح فى الحقيقة فى كل الكائنات الى الوحدة والإنضمام ، ومرجع الفساد الى التفرق والإنقسام .

ولو نظرنا بالنظرة الأولى الأشياء التى يعترضها الفساد ، مثل الفاكهة واللحم ونظائرها ، لانجد فسادها إلا من جهة انحلالها ورخاوتها وتفكك أجزائها ، وماكان صلاحها إلا من جهة تماسك أجزائها وشدة ارتباطها وصلابتها .

وهكذا يتمشى القول فى هذا الهيكل الإنسانى بالنظر الى كل فرد منه فإن صحته وصلاحه ليس إلا عبارة عن استجماع أجزائه المقومة له على تركيب خاص فلو زادت أو نقصت أو اختل ذلك التركيب والوضع ، وتفككت الحجيرات التى تتكون منها لحمه ودمه ، جاء الفساد وعرض المرض وتسربت الى جسده العلة . واستجماعه لأجزائه بالمرتبة المعينة له تستوجب وحدة حقيقية ، بوحدة الحس والإدراك والتعقل ، وهذه الوحدة تستوجب تبادل المنفعة بين الأعضاء .

ومثل ماقلناه فى الفرد يأتى القول فى المجموع - أعنى به الأمة التى تتألف من الافراد ، وكل فرد فإنما هو جزء من أجزائها ، فإن صلاحها بالضرورة إنما هو بانضمام أفرادها وشدة ارتباط بعضها ببعض ارتباطا يستوجب

وحدتها الحقيقية بحيث يعود حال المجموع حال الفرد فى حد نفسه ، له روح واحدة وحس واحد ، حتى لو ضربت العين أو الأنف أو اليد أحست كل الاعضاء بالألم ، وإذا ابتهجت العين بمنظر حسن ابتهج البدن كله ، وهكذا إذا انتعش الأنف برائحة طيبة انتعش كل البدن ، وكذلك المنافع متبادلة بين الاعضاء فاليد تخدم العين وتحامى عنها ، وكذلك العين تخدم اليد كما تخدم سائر الاعضاء فإذا تبادلت المنافع وصار كل واحد من الاعضاء خادماً لسائرها ، فالكل قائم بخدمة الكل ، فهناك البدن الصحيح السوى الصالح القوى ، الذى لا يتسرب اليه شىء من الفساد .

أما إذا فسد بعض الأعضاء انقطعت علاقته من الباقى وزال الأثر المقصود منه من منفعة البدن وخدمته ، وربما سرى فساده الى غيره وكان الواجب قطعه .

هذا حال الإنسان فرداً ، وعلى هذا القياس حاله مجتمعاً ، فإذا ارتبطت أفراد الامة بعضها ببعض ارتباطا يوجب لها الوحدة الحقيقية تعيش بروح واحدة وترمى الى هدف واحد ، وتكون بمثابة الجسد الواحد الصالح الصحيح الذى يسعى كل فرد من المجموع لخدمة المجموع ، وإذا تألم فرد منه تألمت جميع أفراده ، كما قال رسول الهداية محمد ﷺ : « المؤمن من المؤمن كالعضو من الجسد إذا تألم عضو أصيب سائر الجسد بالسهر والحمى » هناك تصير الامة بأفرادها كأنها بنيان مرصوص ، فتتضاعف القوة وتتوحد ، ولا يتسرب اليها شىء من الفساد ، وتدرء الأخطار والكوارث عنها بفضل قوتها المجتمعة وصارت أمة صحيحة حية صالحة قوية ، لها مجدها وكيانها ، وعزها وشأنها .

أما إذا كان كل فرد قد انقطعت علاقته من المجموع وزال ذلك الربط وتمزقت تلك الوحدة ، وصار كل فرد ـ فضلا عن أنه يشتغل لنفسه ، ويعمل بفرده

ويسعى لهدم أخيه والإضرار به وخرابه ، فقد خرب بيت الجميع وانهدم صرح الامة من أساسه وهو على رأسه ، ففسدت الامة بأجمعها . وزال عنها كل عز وملكة ، ووقعت فى أسوء الهلكة ، وأصبحت فريسة للذئاب وطعمة للكلاب - كما أصبحنا نشاهد كل هذا بأعيننا .

ثم أن الفساد الذى هو الإنحلال والتفكيك إنما ينشأ مما كسبت أيدى الناس من عدوان بعضهم على بعض ، وحب الغلبة والإستيثار الناشن كله من الجهل بصالح الفرد وصالح المجموع ، وإن صالح المجموع هو صالح الفرد .

الفساد هو أن يصبح كل إنسان لايهمه إلا أمر نفسه ، ولا يبالى بما أصاب أخاه أو صديقه أو جاره أو رحمه - ولا يؤاسيه فى سرآء ولا ضرآء بهذا ومثله يظهر مغزى قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر » من تقاطع الامة الواحدة وتفككها ، وبغض بعضها لبعض فعندها - يذيقهم الله بعض ماعملوا - فترتفع البركات ، وتنقطع الخيرات ، وينزل البلاء ويحجب الدعاء ، ويحبس غيث السماء - وفى الحديث : « إذا رضى الله عن قوم أنزل عليهم المطر فى وقته وجعل المال فى سمحائهم . واستعمل عليهم خيارهم ، وإذا سخط عليهم حبس المطر عنهم أو أنزله فى غير وقته ، وجعل المال فى بخلائهم ، واستعمل عليهم شرارهم » إذاً فصلاح الامة حاله حال سائر الموجودات والكائنات الحيوية . وكل ما على الكرة الارضية إذا اجتمعت تكون صالحة فى المجتمع ، ولا يكون صلاحها إلا بتضامنها وانضمامها بحيث تعيش بروح واحدة تتبادل منافعها كتبادل أعضاء الجسد الواحد والكل يخدم الكل - قال أمير المؤمنين على عليه السلام : « ألا لايعدلن أحدكم عن القرابة أو العشيرة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذى لايزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه ، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما يقبض منه عنهم يداً واحدة

وتقبض منهم عنه أيد كثيرة » . إذا مددت يدك الى قومك فقد مدت اليك منهم ألف يد ، وإذا قبضتها قبضت عنك منهم ألف يد ، فكل واحد يشتغل بيد واحدة خير لنفسه ، أو يشتغل بألف يد ؟ ولعل الى هذا أيضاً الإشاره فى الحديث المشهور « يد الله مع الجماعة » . إذا اتفقت الأمة وأحب بعضها بعضا كان كل واحد منها تشتغل له الايدى الكثيرة ، واذا تقاطعت فكل واحد منها تشتغل فى تقطيعه الايدى الكثيرة . وهنـــاك الدمار والبوار وخراب الديار .

العرب كانت من أقدم الأمم تجاراً ، وأعظمها آثاراً ، وأشدها بأساً وأبعدها فى التاريخ ذكراً ، وأسماها فخراً ، وكانت لهم فى الجـاهلية مزايا عالية وأخلاق سامية قلما يحصل مثلها فى أمة من الامم : ـ الوفاء والاباء ، وحماية الذمار وحفظ الجار ، وإكرام الضيف وصدق الحديث ، والقناعة والبساطة ، الى كثير من أمثال ذلك . ـ وأفضل ماامتازوا به من الصفات الحسنة صفتان هما من أمهات مكارم الأخلاق ـ « الجود والشجاعة » وإن شئت فقل الاستهانة بالعزيزين (النفس والمـال) . ولـكن هل نفعهـا شيء من تلك المزايا الفاضلة والسجايا الـكاملة ؟ كلا بل كان بأسها بينها ، وقوتها وبالاً عليها ، فكان أكبر شاغر لها الحروب المستمرة بينها ، فكانت وقايعها الشهيرة وحروبها الـكبيرة لاتحصى ، وقد بلغ توالى الحرب فيها وتفاخرها بالسبي والسلب ، والغارة وإراقة الدماء بغير حق وعلى غير قاعدة وقانون الى فوق مايتصوره العقل ، وما يقشعر له الوجدان من الجهل فى الهمجية فى وأد البنات وقتل الأولاد « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » وعبـــادة الأوثان وتأليه الأحجارالتى يصنعونها بأيديهم ويعبدونها ـ فهل كانت الشجاعة والـكرم نفعتهم شيئاً أو جمعت لهم شملا ، أو وحدت لهم كلمة ؟ بل كانوا

بحيث يقتل الأخ أخاه ، والولد أباه ، والعشيرة الواحدة بينها حروب كثيرة

وما زالوا يتخبطون فى حنادس الظلم والظلمات ، وقتل الأولاد والعشيرة فكانت أمة فاسدة ، وشعباً مبعثراً ، وقوة متفرقة ، الى أن لطفت بهم العناية الآلهية ، ونظرتهم عين الرحمة ، فابتعثت اليهم ذلك المصلح الآلهى والطبيب الربانى ، والناصح الشفيق فصدع فيهم بدعوة الحق ، فوحد كلمتهم وجمع قوتهم ، وطهرهم من عبادة الأصنام ورجس الأوثان ، وغسل عنهم درن الأحقاد والأضغان ، حتى صح فيهم قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

نعم صدع فيهم بدعوة الحق وجاهد وتحمل الأذى فى سبيل إصلاح الامة العربية حتى وحدت وتوحدت ، وحدت ربها ، وتوحدت فيما بينها ونفخ فيها من الحياة روحا جديدة فأصبحوا جسداً واحداً بروح واحدة ، يرمون الى هدف واحد ، إذا أصيب فرد واحد بأذى تألم له جميع ذلك الجسد ـ وهو مجموع الامة ـ فما كان بأيسر من أن ملكوا العالم بأجمعه بتلك الروح الطيبة ـ روح الوحدة والإئتلاف ـ التى تحققت بينهم ، فجاؤا بمدهشات العقول ـ حروبهم التى كانوا يتحاربون فيها بينهم جعلوها على الأعداء ، فكان الواحد يقابل ألف .

غزوة بدر كان المسلمون ٣١٣ رجلا فى مقابل مايزيد على الألف من جبابرة قريش ، مع ما كانوا عليه من القوة والسلاح ، وهؤلاء عندهم سبعون بعيراً وفرسان ، ومع ذلك فى يوم واحد فى موقف واحد كسروهم تلك الكسرة الشنيعة ، وقتلوا سبعين وأسروا سبعين ، والإسلام يومئذ ابن سنتين ، ثم أخذوا بهذه الوتيرة ، وبهذه القوة حتى بلغوا ما بلغوا .

حرب اليرموك كان المسلمون ٣٠٠٠٠ وأعدائهم من رومانيا ومن الشام ألف ألف من المشركين ، ومعهم ملوك الافرنج ، فكان كل واحد من المسلمين يقابل ثلاثة آلاف من المشركين حتى غلبوهم فى سنة ١٦ ه .

وفى عين تلك السنة يحاربون من طرف الشام القياصرة ، ومن طرف العراق فى القادسية يحاربون الأكاسرة .

هكذا كانت قوة الاسلام ، لأنهم أصبحوا فى روح واحدة ترمى لغرض واحد . ولكن لم تبق هذه الروح على تلك الحالة ، حتى أصبحت تضعف وتتضائل ، وتأتى عليها العوامل المفرقة والسموم القتالة ، الى أن أصبح المسلمون على هذا الحال الذى نراهم عليه .

الاسلام هو الذى هذب تلك الاخلاق ، وجعل تلك الروح صخرة إيمان ويقين .

كل من سبر غور التاريخ ووقف على الحقائق ، يعلم أن قيام سلفنا الأماثل ووقوفهم فى وجوه الأمم المختلفة ، فزعزعوا كل عرش ووثن وصليب وعابد عجل ، لم يكن باسم الآباء والأجداد ، ولا باسم العروبة كلا وحاشا ، إنما ملكوا ذلك باسم الدين وأحكامه ، كانوا يسيرون على مناهج القرآن وخططه وتعاليمه .

لم يكن للعرب قبل الإسلام تعاليم تستطيع إنقاذهم من تغلب الروم والفرس والزنج ، حتى منّ الله عليهم بأشرف أنبيائه محمد ﷺ فجائهم بشريعة تكفل لمن تمسك بها سعادة الدارين ، وأنقذت العرب حتى دانت لها الأمم واستولوا على أكثر أقطار العالم ، لابسيوفهم فإن سيوف أعدائهم كانت أمضى وأكثر ، وكانت للعرب تلك السيوف قبل الإسلام فلم تجرد إلا عليهم ، إذ كان بأسهم بينهم شديد وهم لسواهم أذلاء كالعبيد ، بل بشريعتهم التى جاء

بها سيد البشر ، ولم يكن لهم نظيرها قبل الإسلام ، ولا لسواهم من الأمم مايدانيها من الأحكام ، وبذلك داست خيولهم الصين من المشرق ، وانتهت الى جبال فرنسا من المغرب ، وأصبح العربى الواحد يحكم القطر الكبير بدينه لابسيفه ، وأهل القطر منقادون لأمره طوعا ورغبة لاخوفا ورهبة .

هذا قتيبة بن مسلم الباهلى قد خطب أيام ولايته على خراسان فقال : « ياأهل خراسان انسبونى تجدونى عراقى الأمم والمولد والرأى والهوى والدين ، وقد أصبحتم فيما ترون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد وأمّن سبلكم ، فالضعينة تخرج من مرو الى بلخ بغير جواز ، فاحمدوا الله على العافية ، واسألوه الشكر والمزيد » .

وهل أوصله الى خراسان وولاه عليها إلا تمسكه بالدين الإسلامى ، والتزامه باحكام الشرع المبين ، وإلا فقد كان للعرب قبل الإسلام من هو أعظم من قتيبة نفساً ، ولم يكن يحلم بالوصول الى العراق إلا وافداً على كسرى مستجديا منه ـ كحاجب بن زرارة وأبى الخير ـ أومكبلا مسوقا الى سابور ذى الأكتاف ـ كبنى تميم وعبد قيس ـ ولما جاء الإسلام مضى ذلك العربى والياً وحاكما مرغوبا فيه ، مهابا ممدوحا محبوباً مأسوفا على قتله من عدوه ووليه .

نعم إن قتيبة العراقى العربى المسلم لم يكتف بملك خراسان وأمانها حتى صارت الضعينة تسير من مروالى بلخ بلا جواز بل ساقته الهمة العربية وحدها لا بل الحمية الدينية والتعاليم الإسلامية معها ، بل الإسلام وحده هو الذى حدى بعراقينا الشهم الباسل الى فتح (كاشغر وبلاد الصين) . انظر مجمل ماجرى له فى ذلك بامعان يأخذك العجب وفيه للمسلم الآن ذكرى وعبر .

سار قتيبة الى (كاشغر) وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند .

وفى هذا من الإيمان والثقة والإطمئنان ما يستغنى عن الوصف ، فإنه كان يرى كل بلد له ملكه أم لم يملكه . ولما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه تمسكا بما يقوله القرآن من حرمة الفرار عند الزحف مهما كان العدو ، وهو قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله ورسوله الآية » . وهذا الحكم أساس الفتح والظفر .

ثم مضى الى (فرغانة) ـ وهى اليوم بيد الروس ـ وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى (كاشغر) ـ وهى أدنى مدائن الصين ـ وبعث جيشا مع (كبير بن فلان) الى (كاشغر) ففتحها وغنم ووسم الأسراء وأوغل حتى بلغ قريباً من عاصمة الصين ومقر ملكهم ، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الي رجلا شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة من رجاله متصفين بصفات الإسلام لا بصفات العروبة فقط : ـ أى لهم جمال وألسن وعقل وبأس وصلاح ـ .

فالجمال صفة بدنية تدل على الخير بتعاليم الإسلام ، إذ قد قال رسول الله ﷺ : « ماحسن الله صورة إمرء إلا أراد به خيراً » وقال ﷺ : « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » وقال ﷺ : « أعظم النساء بركة أحسنهن وجهاً » .

وأما الألسن فبها تقوم الحجة البالغة ويظهر الحق بدلالة الاسلام ، إذ قد بنى أساس الدين على القرآن المبين ، وهو اللسان العربى والفصيح الحكيم والآيات القرآنية التى تدعو الى الفصاحة والبينة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن كثيرة فى القرآن الكريم .

وأما العقل هو أساس الخير والظفر بدلالة الاسلام . وما خاطب الله

البشر فى كتابه العزيز إلا به ، ولا دلّ على آياته إلا أهله ، فقال : « لقوم يعقلون » « لقوم يتفكرون » « لأولى النهى » « أولم يتفكروا فى خلق السماوات والأرض » « الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض » الى غير ذلك من الآيات الشريفة .

والبأس صفة إسلامية ، أمر الله تعالى بالتمسك بها على لسان نبيه فى كتابه ، إذ يقول : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ويقول : « وليجدوا فيكم غلظة » ويقول : « واغلظ عليهم » وغير ذلك من الآيات .

والصلاح قوام الاسلام ، وقد قرن القرآن به الايمان فى أكثر آياته فقال : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقال : « إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت » وقال : « وأصلحوا » وقال : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » والآيات فى ذلك أكثر من جميع الأحكام .

وإنما اختار عراقينا وعربينا هذه الصفات لهؤلاء الرجال ، أراد أن يمثل الاسلام فى سفرائه ، ويصف الدين الحنيف برؤية رسله ، ولم يكن للعروبة بدون الدين فى نفسه وقع ، وما هى لولا الدين حتى تمثل ، ولو كان لها مثال لمثلث قبل الاسلام ، ولم يكتف عراقينا المؤمن وعربينا المسلم بتمثيل الاسلام فى صفات الرجال حتى عمد الى أزيائهم فمثّل فيها الدين الحنيف ، أمر لسفرائه بعدة حسنة ومتاع حسن من الخزى والوشى وغير ذلك وخيول حسنة . ولم يكن ذلك إتباعاً للعروبة ، بل امتثالا لقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ولقوله تعالى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » ولقوله تعالى : « من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وغير ذلك من الآيات الكريمة أراد أن يظهر بهذا الزى لملك الصين سطوة الاسلام للعروبة . وكان

فى سفرائه ـ هبيرة بن مشمرج الكلابى ـ فقال لهم : « إذا دخلتم على ملك الصين فاخبروه أنى قد حلفت أن لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم ـ أى أسمهم ميسم الأسر ـ وأجبى خراجهم » فساروا وعليهم هبيرة ، فلما قدموا عليهم دعاهم ملك الصين ، فعزموا على أن يظهروا ماأعز الله به الاسلام فى مختلف الأحوال ، فلبسوا ثيابا بيضاً تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والأردية ، وفى هذا الزى جمال الاسلام وأريحيته وزينته ، فدخلوا به على الملك وعنده عظماء قومه ، فلما جلسوا لم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا ، فقال الملك لقومه : كيف رأيتم هؤلاء ، فقالوا : رأينا قوماً ماهم إلا نساء مابقى منا أحد إلا انتشر ماعنده ، فلما كان الغد دعاهم أيضاً ، فلبسوا الوشى والعمائم الخز والمطارف ، وغدوا عليه ، وفى هذا الزى هيبة الاسلام وغناه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم ارجعوا ، فقال الملك لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ، فقالوا هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك . فلما كان اليوم الثالث دعاهم أيضاً فأخذوا أهبة الحرب وشدوا سلاحهم ، ولبسوا البيض والمغافر ، وأخذوا السيوف والرماح والقسى وركبوا ، فنظر اليهم ملك الصين فرآى مثل الجبل . فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين ، فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون ، فقال الملك لأصحابه كيف ترونهم . قالوا مارأينا مثل هؤلاء أبداً .

بذلك أظهر مسلمونا ماللإسلام من مختلف الأحوال ، فما ملكت أمة جميع مايلزم من وسائل الحياة إلا سادت وشرفت ، وصلحت وأصلحت ، رأفة ورحمة وجمال وزينة فى محلها ، وكمال وهيبة وحكمة وعزة فى موقعها وبأس وشدة وبسالة وسطوة فى موردها . وهذا هو الاسلام بعينه ، وتلك

تعاليمه ، ولم يكن للعروبة وحدها منه شيء قبل الاسلام ، وهذا هو شعار المسلمين إذ يقول شاعرهم :

نحن قوم تليننا الحدق النجل على أننا نلين الحديدا
طوع أيدى الضباء تقتادنا العيس ونقتاد فى الحروب الأسودا
فترانا لدى الكريهة أحراراً وفى السلم للحسان عبيدا

وقال آخر :

لله إن ضمتهم الأسحار سمة العبيد من الخشوع عليهمو
بيض القواضب أنهم أحرار وإذا ترجلت الضحى شهدت لهم

ومن رجع الى الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية ، وجد الشريعة الإسلامية قد استقرت جميع حاجات البشر واستوفرت منها ، فوضعت لكل حكماً متيناً يكفل بانجازه على أحسن الوجوه . وعرف السر فى أن المسلم فى صدر الاسلام كان شجاعا باسلا فى ميادين الوغى ، وقاضياً فاضلا فى دكة القضاء ، وساعياً ماهراً فى جباية الأموال ، وحاكماً بارعا فى سياسة الملك وعمران البلاد ، وهكذا كان يقف المسلم الواحد فى كل مقام من الشؤون النوعية والشخصية ، كأنه انما خلق له وتخصص فيه ، حتى نبغ فى المسلمين من القواد والأمراء وأرباب الصنايع والعلماء من كان ولم يزل غرة واضحة فى جبين الدهر . وبذلك ساد المسلمون وانبسط بالعدل سلطانهم فى أكثر أقطار الأرض . وكل أمة بلغ أفرادها من العلم والحكمة هذا المبلغ تسود جميع الأمم لامحالة .

وقد مثّل ذلك سفراء قتيبة فى حركاتهم وأزيائهم فى الأيام الثلاث ، وأبانوا عملا أنهم على كل شيء قادرون ، وفى جميع الأعمال ماهرون ، فيستحيل أن يغلب سلطانهم ، أو يهنوا فى حرب أمة .

ولقد عرف ملك الصين ذلك منهم ، فإنه بعث اليهم بعد الأيام الثلاث

أن ابعثوا الي زعيمكم ، فبعثوا اليه هبيرة بن مشمرج ، فقال له : قد رأيتم عظم ملكى ، وإنه ليس أحد يمنعكم منى ، وأنت فى يدى بمنزلة البيضة فى كفى ، وإنى سائلكم عن أمر فإن لم تصدقونى قتلتكم قال سل . فقال : « لم صنعتم بزيكم اليوم الأول والثانى والثالث ماصنعتم » . قال : « أما زينا اليوم الأول فلباسنا فى أهلنا ، وأما اليوم الثانى فزينا إذا أممنا أمرائنا ، وأما الثالث فزينا لعدونا » . قال الملك : « ماأحسن مادبرتم دهركم » .

وهنا أيقن الملك أن قوما هذا شأنهم لايغلبون . غير أنه أخذ بالتهديد ليعلم مبلغ عقيدتهم فى أمرهم وإخلاصهم فى عملهم ، فقال : « قولوا لصاحبكم ينصرف فإنى قد عرفت قلة أصحابه ، وإلا بعثت اليكم من يهلككم » .

وهنا أظهر المسلمون من البسالة والثبات مادهش له لب الملك ، إذ قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون. وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، ولسنا نكرهه ولا نخافه ، وقد حلف صاحبنا أن لاينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم أو تعطوا الجزية .

وهذه السجية والعقيدة هى حكم الاسلام ، فإنه الذى علم المسلمين أن لكل أجل كتاباً ، وإنه لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها « وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » وإن الشهداء ليسوا بأموات « بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » فأفضل الموت هو القتل ، وفى الحرب إحدى الحسنيين . إما أفضل الموت أو النصرة والغلبة .

وإذا رسخت هذه العقيدة فى نفوس أمة سادت وسعدت وعز سلطانها وهيهات أن تذل أو تغلب ، وما من أمة خافت الموت ورهبت منه إلا ذلت

وهانت وسامها أعدائها الخسف والهوان وذهبت نفوسها فى مصلحة أعدائها .

تمكنت هذه العقيدة فى نفوس المسلمين بفضل الاسلام ، وكانت العروبة خلواً منها قبله ، وبها ساد المسلمون وسعدوا .

ولم يهب قتيبة العراقى المسلم أن يهاجم بلادالصين وأهلها أكثر من أربعمائةألف ألف بجيش لايزيد على عشرين ألف مقاتل أكثرهم من الموالى .

ولهذه العقيدة الراسخة اضطرب ملك الصين ، ولم يجد بداً من أن يمد يد الصلح ولهزم الخضوع إلى قتيبة ، وعلم أن المسلم إذا قال فعل ، وإذا حلف فلا بد أن يفعل .

وهذا من تعاليم الاسلام وأحد أسباب السيادة . فتوصل الملك بحيلة لئلا يحنث المسلم فى يمينه ، ـ وهو يعلم أن المسلم لايحنث ـ فقال : إنانخرجه من يمينه ، نبعث تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث اليه ببعض أبنائنا فيختمهم ، ـ أى يسمهم ميسم الأسر والعبودية ـ ونبعث اليه بجزية يرضاها ، فبعث اليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الرسل فأحسن . فقدموا على قتيبة ، ونظر قتيبة الى قلة أصحابه وبعد مملكة الصين ونقصان العدة وكثرة العدو وزيادة عدته وعدده ، فأراد المهلة ليستعد لملك الصين ، فقبل الجزية ، وختم الغلمان وردهم ووطأ التراب . وفى ذلك يقول سوار بن عبد الملك السلولى :

لاعيب فى الوفد الذين بعثتهم ... للصين إذ سلكوا سبيل المنهج

كسروا الجفون على القذى خوف الردى ... حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج

أدى رسالتك التى استدعيته ... فأتاك من حنث اليمين بمخرج

وعاد قتيبة ليستعد الى غزوا الصين وامتلاكها ثانية ، ولم يكن يحسب أن يعوقه عنها عائق ، فهل تمكن من ذلك ؟ كلا ! لم يتمكن قتيبة من غزو

الصين وامتلاكها ثانية ، لا لخور فى عزمه وخطل فى رأيه ، فإنه كان من أصوب القادة رأياً ، وأحوطهم وأمهرهم فى سوق الجيش ، إذن فما منعه من فتحها وتسخيرها ؟

نعم إن شهوات أمية كانت واقفة بالمرصاد أمام الفتح الإسلامى ، تقتل القواد الذين أهلتهم الروح الاسلامية لتسخير الأمم .

ومن متبعى الشهوات الذى وقف لقتيبة ـ سليمان بن عبد الملك ـ فإن قتيبة رآى مافى سليمان من عدم صلاحيته للخلافة ، وغاض سليمان صلاحية قتيبة وعربيته وإسلاميته ، فهمّ بعزله ، ثم أوعز بقتله ، فقتل فى خراسان ونجت منه الصين ، وخسره وخسرها العالم الإسلامى ، وبعث برأسه ورؤوس أهله ـ وهى أحد عشر رأساً ـ الى سليمان بن عبد الملك ـ فى الشام . فكان هذا جزاء أمية لعراقينا المسلم عن فتوحاته وهذه خيانة أمية للعرب والإسلام . وهل أمية إلا الغدرة الفجرة . أتباع الشهوات ، ودعاة الأباطيل ، ومحاة الحق ومحيوا الأضاليل .

ولما قتل قتيبة قال رجل من أهل خراسان : يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لوكان منا فمات لجعلناه فى تابوت فكنا نستسق به ونستفتح به إذا غزونا . وقال الأصبهبد : قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب ، وهما سيدا العرب فقيل له أيهما كان أعظم عندكم وأهيب ، فقال لو كان قتيبة بأقصى حجر فى الغرب مكبلا ، ويزيد معنا فى بلادنا وال علينا لكان قتيبة أهيب فى صدورنا وأعظم من يزيد .

وقال الفرزدق فى رثائه :

أتتنى ورحلى فى المدينة وقعة　　　لآل تميم أقعدت كل قائم

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلى يرثيه :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش الى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والجيش حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنـايا فاستجــاب لربه ... وراح الى الجنات عفواً مطهرا
فما رزء الإســلام بعد محمد ... بمثل أبى حفص فبكيه عبهرا

شهد العدو الخراسانى ، والرئيس المناوء - الأصبهبد - هذه الشهادة الصادقة لهذا العراقى العربى المسلم . وشهد له المواليان - الفرزدق التميمى ، وابن جمانة الباهلى - . وهل سبب ذلك إلا تمسكه بالدين الإسلامى .

أجل قتلت أمية مفخرة من مفاخر العراق ، وقائداً من قواد الإسلام ، وخسر العراق والاسلام بسبب ذلك أعز أبنائه . تفعل أمية هذا بالعرب والعراق والاسلام ، ومع ذلك فإن الفتوحات الاسلامية لم تزل تزداد يوماً فيوماً . لقوة التعاليم الاسلامية وحسن إدارتها .

وإن قتلت أمية القواد الفاتحين تحت كل حجر ومدر ، وأبادت الرجال المصلحين فى جميع الأقطار ، لاسيما فى العراق ، وما ذلك إلا لأن التعـاليم الاسلامية ، والأحكام الشرعية ، فوق مكر المـاكرين ، وعداوة الملحدين .

— ٢ —

أول حادث حدث فى البشرية منذ فجر يومها الأول ومبدأ تاريخها القديم أن قتل ربع العالم ربعه ، حيث قتل ابن آدم أخاه ، ومن ذلك اليوم أخذت البشرية تقاسى آلاماً وتعانى علـلا وأسقاماً ، ويعادى ويعتدى بعضها على بعض ، وفى كل يوم ينتشر الشر ويتفاقم البلاء وتعظم الرزية ، على ذلك تعاقبت الأيام وسلفت الدهور ومضت القرون ونسلت الأحقاب ، وإذا بالعصبية تهبط الى الحضيض وتتربع الرذيلة على كرسيها . فتعالى الضرر وتفاقم الشر واستحكمت العصبية ، وبقى العالم يسود فيه التباغض والتحاسد والتناكر لاشىء فيه من التراحم والتوادد . غنيهم يستعبد فقيرهم ، وقويهم يفترس ضعيفهم يغتصب كل منهم حق صاحبه ، ويشرب كل واحد منهم دم أخيه .

ولـكن الغاية الأزلية جلت بركاتها لم تزل تشفق على هذا المخلوق التعيس فترسل اليه رسلا معالجين ، ورجالا صالحين ومصلحين ، وأطباء ماهرين ، نبياً بعد نبى وولياً إثر ولى ، وصالحاً تلو صالح ، يهدون ويرشدون ، ويعاجلون ويعالجون فلم ينفع فى البشر إلا ماشذ وندر ، والشر على ما كان عليه .

أبتعثت العناية نوحاً - وهو شيخ الأنبياء وأب الرسل - فخـاطبهم بلغتهم ، وأبلغ فى الدعوة . وأقام عمراً طويلا يهتف فيهم ليلا ونهارا سراً وجهارا ، داعياً الى الصلاح والاصلاح ، فلم يؤثر فيهم شيئاً ، وكان عاقبة

كل ذلك الطوفان ، وما استجاب له ونجا معه إلا نفر قليل .

ثم جاء إبراهيم ، وتلاه إسحق ويعقوب ، ثم جاء موسى – وهو بطل الأنبياء ، والقوى الأمين – إعتضد بالمعجزات الباهرات ، من العصا وفلق اليم وأمثالها ، فكانت نتيجة بنى إسرائيل أن قالوا له « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » وأعظم من ذلك عبادة العجل والتخبط أربعين سنة فى التيـه .

ثم آل الأمر الى عيسى – الذى يدعونه بالمخلص – فأراد أن يخلص البشرية من رذائلها فلم يفلح ولم يصنع شيئاً ، وأصبحت أمته اليوم شر أمم العالم وأشدها فى القسوة والظلم ، ثم كان عاقبة أمره الصلب .

كل ذلك والبشرية يتفاقم شرها ، ويتعاظم بلاؤها ، الى أن نفحت العناية بجوهرتها المكنونة ، ولطيفتها المخزونة ، أرسل اليها الحكيم الأعلى والطبيب الآلهى الذى مافوقه طبيب ، أرسل اليها سيد الرسل – محمد بن عبد الله ﷺ فشخص دائها ودوائها ، وعرف العلاج الشافى لها والدواء الناجع القاطع لجرثومة أمراضها ، عرف أن الداء العضال والمرض القتال ، إنما هو التفرقة الناشئة من توغل الأنانيات والعصبيات ، الباعثة على التفاخر ثم التنافر ، فصرخ الوحى على لسانه « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ثم زاد وأوضح البيان فقال : « الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وقال « ليس منا من دعا الى عصبية » – يعنى لافخر بعجمية على عربية ، ولا هندية ولا تركية – إنما الفخر بالعمل الصالح والمزايا الطيبة ، الفخر بالفضيلة واجتناب الرذيلة .

لذا كانت شريعته خاتمة الشرايـع ودينه أكمل الأديان . كان ينادى فى

كل ملأ ومجتمع « أيها الناس أما والذى نفس محمد بيده انكم لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تجتمعوا ولن تجتمعوا حتى تحابوا » ثم مضى على ذلك صحبه الكرام ، فساروا على خططه ومناهجه واحداً بعد واحد ، فكانوا إخوانا على صفاء حتى خاضوا البحار وملكوا الأقطار ، وهم أعراب بادية لادرس ولا مدرسة ، ولا كتاب ولا مكتبة ، فتقدموا ذلك التقدم الباهر ونجحوا ذلك النجاح الزاهر ، كل ذلك بقوة الإيمان وعدة الوحدة والإتفاق ونبذ التفاخر والإختلاف ، حتى أخذوا بقرنى الشمس مشرقها ومغربها ، يقول أمير المؤمنين على عليه السلام : « أيها الناس الزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان ، كما أن الشاذ من الغنم للذئب » .

فرض لازم وحتم واجب على كل مسلم أن لايسأل إنساناً إلا عن الشهادتين ، عن جامعة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن وجدها لايسأل عن شيء بعدها . وكان المسلمون أيام الفتوح والتوغل فى البحار والأمصار إذا سئل أحدهم عن نسبه وقبيلته ، وقيل له من أبوك يقول :

أبى الإسلام لاأب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

أعوزنا وأضرّ بنا عدم الثقة بالله ، وإنا لانعتقد اعتقاد اليقين بجزاء ولا حساب ولا كتاب ، وأن مصيرنا إلى الله ، وأن الأمور كلها بيده وفى مشيئته ، وقد جعلها منوطة بأسبابها .

أمم الغرب على الغالب أيضاً ليس لها ذلك الاعتقاد ، لكن كبرت نفوسهم وتعاظمت هممهم ، فانبعثوا الى الأعمال الجدية لنيل العز والشرف وبذلك تغلبوا علينا ، ونحن مضافا الى لزوم طلب تلك المعالى والعز الذى كان لآبائنا نعتقد بالجزاء وديئونة الحق فى دار القرار ، وكلها روادع وبواعث

يجب أن تدفعنا الى لمّ شعثنا ، وتهذيب أخلاقنا ، واسترداد تراث سلفنا ، الذى ملكوه بالجماجم منهم والدماء بدل الحجارة والماء .

أجدادنا العرب جاؤا الى الخليفة - عمر بن الخطاب - بتيجان كسرى وحلله وعرشه ، وفيها من الجواهر والياقوت مايخطف الأبصار ويدهش الأفكار ، فتعجب الخليفة من ذلك وقال : « إن أمة تؤدى مثل هذا ولا تخون شيئاً منه لأمة أمينة يوشك أن تغلب على سائر الأمم » .

كانوا يؤتمنون على تلك النفائس العظيمة ، ونحن اليوم لانؤتمن على أعراض إخواننا ولا على أموالهم ، ولا على شىء منهم ، نخونهم فى كل شىء ويرمى كل واحد منا أخاه بالعظائم ويقذفه بالفضايح ، من غير ذنب ولا جناية ، ذهب المتاع وبقيت الخصومة والنزاع .

أيها الناس الوعاظ والذاكرون والخطباء يخوفونكم من نار جهنم فى الآخرة ، ومن أغلالها وسعيرها ، وسلاسلها وحياتها وعقاربها ، وأنا أحذركم من نار جهنم فى الدنيا ، هى نار العداوة والبغضاء . تلك نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، نار العداوة فى الدنيا هى التى تتكون منها نار جهنم فى الآخرة .

النمائم هى التى تصير فى القبر عقارب وأفاعى ، الضغائن والأحقاد هى السكاكين التى قطعتكم ومزقتكم وجعلتكم طعمة للأغيار ، هذه الأخلاق الذميمة فى الدنيا هى نار جهنم فى الآخرة ، هذه الأخلاق الرذيلة التى تبعثنا على الأفعال الذميمة المنطوية فينا تظهر فى يوم الحشر حيات وعقارب ، وأغلال وسلاسل تكون أطواقا فى أعناقنا يقول جل شأنه : « ذوقوا ما كنتم تعملون » .

الأمم إنما تنال السعادة بجلائل الأعمال ، وما أتيت أمة إلا من قبل العمل ، والعمل لايصلح إلا إذا بنى على العقيدة والاخلاص فى إجراء

القوانين والشرايع التى تحث على صالح الأعمال ، ورب أمة فتحت البلاد وسادت ولم تكن لها شرايع وقوانين فاضلة ، ولكنها سرعان مازال ملكها وانتهى سلطانها ، فالسيف لا يستطيع أن يسخر القلوب وإن خضعت له الرقاب والتعاليم الفاضلة المبنية على مكارم الأخلاق هى التى تملك القلوب ، ويمكنها أن تسيطر على العالم بأسره دون مشقة ولا عناء .

ملك المسلمون بالدين وأحكامه جميع وسائل الرقى والحكمة والعمران والعلم ، ومن تمسك بالأحكام المتينة والاخلاص ملك كل شىء ولم يعوزه شىء فله القوة والسلاح ، والسطوة والسلطان ، والملك والبلاد ، كل ذلك منوط بالأحكام والشريع والعقيدة ، ومن لم يتمسك بشريعة قوية ذهب سلطانه وسلاحه ، وملكه وعزه مهما كان ، إذ لا حافظ لذلك إلا الشرايع والأحكام القوية ، فهى القوة لا غير ، جاء الاسلام بهذه القوة - أعنى قوة الأحكام والشرايع - فتمسك بها العرب ، ولم يكن لهم شىء فملكوا كل شىء ، ولم يستطع أعدائهم منهم نزع شىء إلا بانتزاع الدين ، فخدعوهم عنه وانتزعوا منهم كل شىء وأحلوهم دار البوار .

القوة والفتح للإسلام والدين لا للعروبة ، فلا يخدع المسلمون عن دينهم فيذلوا .

هذا موسى بن نصير اللخمى - ولخم قبيلة عراقية بل هم ملوك الحيرة ، فالمنذر بن ماء السماء ملك الحيرة لخمى والعراق لخمى - فتح بلاد الأندلس وبماذا فتحها ؟ هل فتحها بالعروبة أو بالدين ؟

ولي عراقينا المسلم بلاد - إفريقيا - وفتح بلاد - البربر - وأسر منهم مأتى ألف ، وعلمهم القرآن وأسلم منهم خلق كثير وحسن إسلامهم ، ورجع من طنجة الى - إفريقيا والقيروان - بمن كان معه من العرب ، ولم

يسمع بأسر فى الاسلام كأسر موسى بن نصير ولم يهزم له جيش قط ولم ترد له راية قط . وفتح زعوان وهوارة وزنانة وكنـــاسة وسجوما والسوس الأقصى وميورقة وقلعة ارساق . وكان عبد الملك بن مروان كارهـا لتولية موسى مـع كل فتوحاته .

ولـما عاد استعمل على ـ طنجة ـ وأعمالها والياً هو مولاه ـ طارق بن زياد البربرى ـ ، ولم يبق عنده إلا قليل من العرب لتعليم القرآن ، وما أسرع ماتمسك البربر بالدين وحسن إسلامهم .

ولـما وثق موسى بن نصير بدين البربر كتب الى عامله ـ طـارق بن زياد ـ يأمره أن يعبر البحر الى بلاد الأندلس ـ فعبر البحر وصعد الجبل المعروف اليوم بجبل ـ طارق ـ صعد طارق الجبل ومعه اثنى عشر ألف من البربر المسلمين ، ولم يكن معه من العرب إلا القدر اليسير ، ولـكن روح الاسلام كانت ترفرف على رؤوسهم ، وأحكامه قد تمكنت من نفوسهم ، فكانوا مسلمين لاعربا ولا بربراً .

وقف طارق البربرى المسلم بأمر موسى بن نصير العراقى المسلم ، فى جبل طارق من بلاد الأندلس ، والدين رائده والإخلاص قائده ، والايمان هاديه والتوكل حاديه ، والثقة تسوقه ، فأمر بإحراق السفن التى عبر بها البحر أياساً لجيشه من الفرار ، وحرض أصحابه على القتال بما فى الدين المبين من الحـكم والأسرار والأحكام .

وقف طارق خطيباً فى أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بمـا هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ، ثم قال : « أيها الناس أين المفر والبحر من ورائـكم والعدو أمامكم فليس لـكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلـكم

عدوكم بجيشه الجرار أسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لاوزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصونه من أيدى أعدائكم ، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذه الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته ـ المحصنة ، وكان رودريك ـ ملك الأندلس ـ قد قصد القوم بسبعين ألفاً كاملى العدة والعدد ، وخرج من مدينته ـ طليطلة ـ المحصنة الى الصحراء ، والى ذلك يشير طارق بقوله :

« وإن إنتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا أحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبدأ فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فيما حظكم فيه أوفر من حظى ـ لأنهم كانوا أحراراً وكان عبداً رقاً ـ لكنه مسلم ـ الى أن قال : والله ولى انجادكم على مايكون لكم ذكر فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب الى مادعوتكم اليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم ـ وهو رودريك ملك الأندلس ـ فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم اليه ، وإن هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى ، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون » .

هذا تحريض طارق فى خطبته ، وليس فيه إلا روح إسلامية قوية ، وعزيمة إيمان ثبتت عليها جوانحه ، لم يعوزه القوت لأنه كان يرى له ولجيشه أقواتا كثيرة بيد عدوه ، ولم يكن بينه وبينها حاجز ، ولم ترهبه كثرة العدو لأنه كان معتقداً أن الله ولى إنجاده ونصره . وإن فى ذلك مايكون له ولجيشه

أعلى ذكر فى الدارين ، ولم يهب الموت لأنه كان راغباً فى الشهادة سامحاً بنفسه للموت ، ولم يخش الخذلان والمغلوبية لأنه كان متمسكا بالصدق والصبر ، ولم تزلزل عقيدته لأنه كان مخلصاً للإسلام غير مراء ، ولم يبخل بنفسه على الفضيلة والشرف ، ولم يرغب فى الحياة دون أصحابه . ولقد كان شعاره « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » .

بهذه العقيدة برز غلام العرب ومولاهم الى ملك الإفرنج وجيشه الجرار غير هياب ولا وكل ، وعلى عقيدته أصحابه البربر المسلمون إذ قالوا له قد قطعنا الآمال بما يخالف ماعزمت عليه . فقصدوا مناخ رودريك وكان فى متسع من الأرض . ولما ترآى الجمعان لم ترهب المسلمين كثرة جيش الإفرنج وقبة الملك المكللة بالجواهر المصفحة بالذهب ، فهجموا عليهم وأزاحوهم عن أماكنهم ، وخلص الملك الى طارق فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره ولم تقف هزيمة الإفرنج على موضع بل سلموا جميع البلاد .

ولما سمع موسى بن نصير بذلك عبر الى الأندلس ولحق بمولاه طارق فأباحه الجزيرة ، وقال طارق : « أيها الأمير والله لا أرجع عن قصدى هذا مالم أنته الى البحر المحيط وأخوض فيه بفرسى » . وكان يرى أن ذلك منتهى الأرض ، وكانت العرب تحسب أن ذلك البحر هو البحر الشمالى ، وهو تحت بنات النعش . فلم يزل طارق يفتح وموسى معه الى أن بلغ جليقيا ـ وهى على ساحل البحر المحيط فى ما كانوا يحسبون ثم عاد .

ملك الإســـلام بأحكامه بلاد الأندلس ، ولم يكن له فيها شىء سوى الأحكام والشرايع والعقيدة الثابتة ، إذ لم يكن فى الجيش عربى ، ولم يكن للعرب فى الأندلس سلاح ولا قوة إلا قوة الدين ، فالجيش بربرى ،

والسلاح بربرى والقائد بربرى ، والحاكم المطلق المطاع هو الإسلام ، وهو الذى فتح للعرب هذه الفتوح العظام ، وكان واسطتها الرجل العراقى الكريم ـ موسى بن نصير ـ .

لم يقتصر الاسلام وأحكامه على نجاة العرب فقط . بل جعل عبيدهم ومواليهم ملوك العالم ، وصار أمراء المسلمين يهبون ممالك ملوك الافرنج لعبيدهم فى مدة قصيرة ، إذ كان فتح الأندلس سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

ملك المسلمون بالاسلام وأحكامه كل شىء ، وأحل الاسـلام عبيد العرب محل ملوك الافرنج ، وسمى بالعرب الى مقام لم يصل اليه أحد من الأمم ممن كان قبلهم .

جاء موسى بن نصير بتيجان ملوك الافرنج وأسرائهم وأموالهم ومائدة عظيمة يقال لها مائدة سليمان الى ـ الوليد بن عبد الملك الأموى ـ مبشراً بفتح أغنى وأجمل ممالك العالم ذلك اليوم ، ومعه ثلاثون ملـكا من مـلوك الافرنج بتيجانهم وحللهم ، وحمل معه من الأموال مالم يرى المسلمون نضيرهـا .

ولـكن فلينظر قارئى الـكريم بماذا جزى ـ الوليد ـ موسى عن فتوحاته العظيمة التى لم يسبق لها مثيل ، كان جزاءه لمـا وصل الى الشام أن أقامه ـ سليمان بن عبد الملك ـ فى الشمس يوماً كاملا فى يوم صائف شديد الحر ، وكان مريضاً ، وهو بدين سمين شيخ كبير حتى خر مغشياً عليه . وأمر به فسجن وبقى مسجونا فى الشام مدة الى أن خرج ـ سليمان حاجاً فاستصحبه معه الى الحج مسجوناً وقتله فى طريقه ودفن بوادى ـ القرى ـ

ولمـا وقف موسى بين يدى سليمان شتمه وجفـاه وقال له : « والله لأقلن عددك ، ولأفرقن جمعك ، ولأبددن مالك ، ولأضعن منك ما كان

يرفعه غيرى » ولما سقط موسى مغشياً عليه كان ـ عمر بن عبد العزيز ـ حاضراً فقال : « مامر بى يوم كان أعظم عندى ولا كنت فيه أكبر من ذلك اليوم لما رأيت من الشيخ موسى وما كان عليه من بعد أثره فى سبيل الله ، وما فتح الله على يديه » .

أمية لم يتهذبوا بتهذيب الدين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ، وقتلوا القادة الفاتحين ظلماً ، حتى أنزل الله تعالى فيهم « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » .

لم تقف عداوة أمية للعرب والإسلام فى قتلهم الفاتحين العظام ، وانتهاكهم حرماتهم عند هذا الحد ، فإن ـ سليمان ـ لم يشفه فعله بموسى ، بل ساقته شهواته وحثته الى ارتكاب ماهو أدهى وأمر ، وأنكى وأمض ، مما قرح قلب كل عربى مسلم الى هذا اليوم .

فإن موسى بن نصير لما وفد الى ـ الوليد ـ استعمل على الأندلس ولده ـ عبد العزيز ـ فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها ، وافتتح فى إمارته مدائن بقيت بعد أبيه ، وكان خيراً فاضلا تقياً صائماً نهاره قائماً ليله ، ولكن ـ سليمان بن عبد الملك ـ أراد مجازاته بعد أن سخط على أبيه ، كما جازا والده ، فبعث الى الجند فى قتله ، فدخلوا عليه وهو فى المحراب وقد صلى الصبح وبقى يقرأ الفاتحة وسورة الواقعة فضربوه بالسيوف ضربة واحدة وأخذوا رأسه فسيروه ـ الى سليمان ـ فى الشام .

هذه كانت جنايات أمية ومعاملتهم مع الفاتحين من أبطال العرب ، ولولا جناية ـ سليمان ـ هذه لأصبحت أوربا كلها بيد المسلمين ، ولأسلموا وحسن إسلامهم كما أسلم البربر ، ولنجت البشرية من شرورهم بفضل التعاليم

الإسلامية ، ولما بلي بهم العالم وهاهو الى الآن على شفا جرف الهلكة من ظلمهم .

لم يكن لموسى بن نصير عند الامويين ذنب إلا كونه عراقى الرأى بما تعلمه من أبيه . فإن والده نصير كان على حرس - معاوية بن أبى سفيان - ومنزلته عنده مكينة ، ولما خرج معاوية لقتال على عليه السلام لم يخرج معه - نصير - فغضب عليه معاوية فى ذلك فقال له نصير لم يمكنى أن أشكرك بكفر من هو أولى منك بشكرى . قال ومن هو ؟ قال الله عز وجل ، قال وكيف؟ قال لا أعلمكم هذا . فأطرق معاوية ملياً ثم قال . أستغفر الله » .

وكان دهاء معاوية وكياسته مانعاً عن أن يحرم نصيراً . فلما ولى الأمر أغرار بنى مروان أخذوا ينتقمون من العراقين فى كل مكان ويقتلون قادة العرب والمسلمين تحت كل حجر ومدر ، خسروا أولئك القادة وأحلوا قومهم دار البوار . كان موسى بن نصير محباً لآل رسول الله ﷺ فكان هذا أعظم ذنبه على كثرة فتوحاته العظيمة بحيث لم يعلم فاتح فى العالم كموسى فى قصر مدته ، ولم يكن جزائه من أمية إلا قتله وقتل ولده .

أرسل - سليمان بن عبد الملك - الى - عمر بن عبد العزيز - فقال : « إنى صالب غداً موسى بن نصير ، فبعث عمر إلى موسى بن نصير يقول : يابن نصير انى أحبك لأربع : الواحدة بعد أثرك فى سبيل الله وجهادك لعدو الله . والثانية حبك لآل محمد ﷺ الى أن قال وقد سمعت أمير المؤمنين يقول : « إنه صالبك غداً فأصدر عهدك ، وانظر ماأنت ناظر فيه من أمرك » فقال له موسى : قد فعلت ولما أصبح موسى اغتسل وتحنط وراح وهو لايشك فى الصلب .

هذه أفعال أمية مع الفاتحين ورجال الدين ، وما الذى يحجز

أمية عن تنفيذ رغباتها وشهواتها أيحجز الدين وهم أعدائه الألداء ، وهل كانت أعمالهم إلا حربا للدين ، أم يحجز الوفاء والصدق ، وهل قامت دولتهم إلا على الغدر والخيانة ، كما ينبئنا عن ذلك حال معاوية (لع) مع الحسن سبط الرسول ، - فإن الحسن عليه السلام ما تنازل لمعاوية إلا على شروط عديدة فلما دخل معاوية الكوفة وافترع منبرها قال : وكل شرط شرطته للحسن فهو تحت قدمى .

— ٣ —

أصول التعاليم وقواعد التكاليف الأولية ثلاثة :

أولها العلم : وهو أول تكليف كافت به البشر ، وأول ماأوجبه الله تعالى عليهم ليرفع عنهم رذيلة الجهل المتوغلة فيهم .

نعم أول تكليف على الإنسان أن يكون عالماً ولا يبقى جاهلا .

ثانيها : أن يعمل بعلمه وإلا فما الفائدة بعلمه ؟ العلم بلا عمل ليس كما يقال كالشجر بلا ثمر ، بل كالشجر الذى يثمر ثمراً مراً ، بلاء ووبال ، قال أمير المؤمنين على عليه السلام : « العالم بغير عمله مثل الجاهل المتحير المستغرق فى جهله ، بل الحجة عليه ألزم والبلية عليه أعظم وهو عند الله ألوم » . وقال أيضاً (وهى من حكمه الرائعة) : « ياجابر قوام الدنيا بأربعة : عالم يستعمل علمه ، وجاهل لايستنكف أن يتعلم ، وغنى لايبخل بماله ، وفقير لايبيع آخرته بدنياه - فإذا لم يستعمل العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم ، وإذا استنكف الجـاهل أن يتعلم بخل الغنى بماله ، وإذا بخل الغنى بماله باع الفقير آخرته بدنيـاه ففسد العالم » - يعنى أن فساد العـالم وعدم استعماله لعلمه هو السبب الأخير لفساد العالم بل السبب الوحيد - .

ثالثها : أن يعلم غيره . وإلا لبطلت فائدة التكاليف ولم يحصل التهذيب والتثقيف ، ولو لم يجب تعليم الغير لبقيت الناس خاملة جاهلة ، محرومة من كرامة العلم وشرف المعرفة . فكل إنسان يجب عليه أن يعلم ويعمل ويعلم ، إلا أن التعليم موكول الى العلماء لأنهم القـــادة والسادة ، وعليهم المعول فى

تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس . والتعليم فرض محتم عليهم . وما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا .

دعائم السعادة فى الأمم ثلاث : تعليم العلماء ، وعمل الأمة ، وعدل الحكومة . فإذا قام كل واحد من هؤلاء بواجبه عمرت البلاد وسعدت العباد. العلماء إذا قاموا بوظائفهم فعملوا بعلمهم وعلموا غيرهم ، ورشدوا ونصحوا وأخلصوا لله فى أعمالهم ، (فطوبى لهم وحسن مآب) فقد كتبوا فى ديوان الله من الأمناء والسعداء الآمنين ، وإن لم يعملوا أو لم يعلّموا ، فتعساً لهم وقد كتبوا فى ديوان الله من الأشقياء الخائنين ، فإن العلم وديعة الله عند العلماء للتعليم والعمل ، لا للإستطالة والكبرياء ، والجدل والمراء ، والعجب والرياء

والأمة إذا تعلمت وعملت وقبلت نصائح العلماء وإرشادهم ، فقد أحرزت حظها من السعادة ، وانقادت لها أزمة الخير .

والحكومة إذا قامت بواجبها نحو الأمة ، وأخلصت المصلحة ، ونصحت للرعية ، فبشرها بالفوز والنجاح والظهور والفلاح .

الحكومة أجراء للشعب تأكل من كد يمينه وعرق جبينه ، فالواجب عليها أن تخدم الشعب بإخلاص ، ولا تتطاول عليه ، ولا تجحف به ، ولا تزاحمه حتى فى بلغة معاشه ولقمة قوته . وأن تقيم فيه موازين العدل والقسط. الواجب أن تخلص الدولة فى خدمة الرعية وتنقاد الرعية للدولة ، وتخضع لقوانينها العادلة .

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام « إن أعظم ماافترض الله سبحانه من الحقوق حق الوالى على الرعية ، وحق الرعية على الوالى ، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل ، نظاماً لإلفتهم ، وعزاً لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية ، فإذا أدت الرعية

الى الوالى حقه ، وأدى الوالى اليها حقها ، عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل ، وجرت على أذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان وطمع فى بقاء الدولة ، ويئست مطامع الأعداء . وإذا غلبت الرعية واليها وأجحف الوالى برعيته ، اختلفت هنالك الـكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الادغال فى الدين ، وتركت محاج السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام ، وكثرت علل النفوس ، فلا يستوحشن لعظيم حق عطل ، ولا لعظيم باطل فعل ، فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار » .

وهذا خلاف ماأراد الله ، فإنه تعالى يريد أن تنعقد ما بينهم عرى الصفاء والمجد حتى يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً ، هنالك ترقى البلاد وتسعد العباد ويعيش كل فرد من المجتمع عيشاً إجتماعياً هنيئاً ، لا كالحال الذى نحن فيه منذ اليوم حيث أصبح كل فرد منا يعيش عيشاً فرديا . والانسان مدنى بالطبع ويستحيل أن يعيش إنسان بانفراده ، فإذا انفرد عن المجتمع وانقطع عنه فليس هو بإنسان ، بل وحش من الوحوش .

نعم نحن فى صورة الظاهر مجتمعون ، ولـكن ماأشد التبـاين ما بين الانسان وأخيه ، وبين المرء وقريبه ، وبين الشخص وجاره ، وهكـذا لاتجد شخصين متفقين على جامعة صحيحة ورأى واحد . فنحن حقيقة كما قال جل شأنه : « تحسبهم جميعـاً وقلوبهم شتى » ولا تسعد أمة مادامت بهذا الحال أبداً .

التشتت واختلاف الآراء والأهواء ، وفقدان الزعيم ، والقائد المخلص الذى يجمع الأمة وتجتمع اليه ، هو السبب الوحيد فى هلاك الأمة .

إذا ماأراد الله إهلاك أمة رماها بتشتيت الهوى والتخاذل

ماوجدنا أمة صعدت الى أوج المجد فسعدت وهى متفرقة متخاذلة ما كان

ذلك أبداً ولا يكون . كما انه لايستقيم أمر أمة بغير زعيم قائد يقودها الى مناهج الهدى وسبل الخير والأمم إما أن يكونها الزعيم ، أو تكون الزعيم لها ، والزعيم ضرورة لها على كل حال . ومن حكم العرب ومحاسنها العالية القديمة قول الأفوه :

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم　　ولا سراة إذا جهالهم سادوا

عليكم أيها الناس بالركون الى العلماء العاملين ، فإنهم الزعماء لهذا الدين وعليكم بالأخذ منهم ، فإنهم بمعونة الحق لا يقودونكم إلا الى الهدى ، ولا يحملونكم إلا على جناح النجاح ، ولعل ماحل بكم من النكبات والرزايا من بعض أسباب التجافى عنهم والتباعد منهم ، وإلا لعرفوكم أن هذا التخاذل يؤدى الى سوء العواقب ، وأن لاثمرة بهذه الخطة ، ولا سلامة فى هذا الطريق .

إن كنتم تريدون سعادة ، وتاريخاً مجيداً كما كان لأسلافكم ، فلا سبيل الى ذلك إلا بالاقتداء بهم والاستضاءة بنورهم ، والسعى وراء العمل النافع والتخلق بالأخلاق الكريمة .

لاينال الشرف والمجد وعز الإستقلال الصحيح ، بالأمانى والأباطيل ، أتحسبون أن الأجانب بلغوا مابلغوا بمثل هذه الأحوال التى نحن عليها ، قد أبى الله سبحانه أن يجرى الأمور إلا بأسبابها ، وأن تؤتى البيوت إلا من أبوابها ، وجعل الجد والعمل هو ملاك الفوز والنجاح ، « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » .

عودوا أيها المسلمون الى ما كانت عليه أسلافكم من الأخلاق الكريمة والعفة والنزاهة ، والصدق فى القول والفعل ، والسعى وراء العمل النافع ومعرفة الوقت الثمين ، نحن نقتل الوقت الذى هو عبارة عن عمرنا العزيز ضياعا فى الأباطيل . نصرفه فى كل رذيلة ويمكننا أن نكسب به كل شرف

وفضيـــلة .

أليس من الخسران أن لياليا　　تمر بلا نفع وتحسب من عمري

سوادنا الأعظم يصرف عامة وقته في المقاهي والملاهي ، والسينما والمواخير ، مسارح اللهو بالناس معمورة مغمورة ، والمساجد ونوادي العلم مهجورة ، تجد تلك مكتظة بالخلايق ونوادي العلم ومعاهد التربية خالية خاوية ، أليس هذا مما يقرح قلب المؤمن الغيور ، ويوقد في فؤاد المســلم شعلة الأسى والأسف ؟

العلم العلم أيها الناس فإن العلم أول مبادىء السعادة . ففي الحديث « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أراد الدنيا والآخرة فعليه بالعلم » .

أوليس من تحت هذه السماء ، ومن جذور هذه التربة ، ومن سائل أثيري جوي سماء العراق انبعثت أشعة جل العلوم الإسلامية الى سائر الآفاق ونشأت أساطين العلم ، وفطاحل المشاهير من رجاله .

أوليست الكوفة ـ وهي مدرسة علي (ع) ـ كانت مطمح أنظار رجالات العالم ، واليها الهجرة وشد الرحال من كل حدب وصوب ، إزدهرت بنوادي العلم والأدب ، وازدحمت عليها الوفود لارتشاف العلم والمعارف من منهلها العذب الزاخر ، كان يقال لها رقبة الإسلام) . أوليس المربد في ـ البصرة ـ وهو أول معهد علمي إسلامي ، ومدرسة كبرى تخرج منه فطاحل علماء العربية ومؤسسوا العلوم الإسلامية ، كأبي الأسود الدئلي مؤسس علم النحو ، والخليل بن أحمد مؤسس علم العروض وصاحب كتاب العين ، ومسلم بن معاذ مؤسس علم الصرف والبيان والمنطق ـ أعني المنطق العربي لا اليوناني ـ هؤلاء الفطاحل الثلاثة هم مؤسسوا علوم الإسلام ـ العلوم التي يتوقف عليها فهم الكتاب والسنة ويستقي من ينابيعها نطف الأدب .

من تربةالعراق نبعت العلوم ، وتبرزت الأساطين ، كسيبويه ، والكسائى والأصمعى ، والفراء ، وخلف الأحمر وكثير من أمثالهم . إذاً فما بال هؤلاء الأخلاف تركوا تراث أولئك الأسلاف .

أجل : كان العراق مركز العلم ، ومدرسته الوحيدة ، ودار التربية والثقافة ، قبل كونه مركز الجيش .

كان العراق خدر الأسد الرابض ، ومسجد المتنسك الصالح ، ومدرسة المدرس الفقيه .

فى العراق كان الإسلام كله ، وما الاسلام إلا السعادة والسلام ، وفيه كانت العروبة ، وليست العروبة إلا بالإسلام .

كان مركز الجيش فى ـ إفريقيا ـ مملوءاً بالموالى والبربر الذين تشكل منهم جيش الاسلام هناك ، وكان جيش الشام خليطاً ليس فيه من الصحابة والعلماء والقراء أحد، وكان جيش العراق عربياً خالصاً ليس فيه من الموالى أحد وهو مضرى ، فيه الصحابة والعلماء والقراء والفقهاء والصلحاء ، فالاسلام كله والعروبة كلها كانا فى العراق .

كتب أمير المؤمنين على (ع) الى أهل العراق فيما كتب : « وأنتم على مافيكم من تخاذل وتواكل ، خير منهم وأهدى سبيلا » (أى من أهل الشام) فيكم العلماء والحكماء والفقهاء وحملة القرآن والمتهجدون بالأسحار ، والعباد والزهاد فى الدنيا وعمار المساجد وأهل تلاوة القرآن ، أفلا تسخطون وتنقمون ينازعكم الولاية عليكم سفهائكم والأراذل والأشرار منكم (نقل ذلك ابن قتيبة فى الامامة والسياسة) قاله بعد وصف جيش الشام بالفسق والجهل وكل سوء ، كما شهد معاوية بذلك مراراً . هذا ما كان فى العراق فبماذا عاملته أمية ؟

أمية مدعاة الجفوة والقسوة ، عدوة العلم والصلاح ، داعية الشر والفساد ، مبيدة العروبة والاسلام . رأت أمية أن العراق لا يسلم لها ، ولا ينقاد لشهواتها ، إن فى العراق الاسلام والعروبة وهى عدوتهما اللدود .

أمية شهوة وفساد وجهل ، والعراق ورع وصلاح وعلم ، فهما ضدان لا يجتمعان .

رأت أمية ذلك فصممت على أن تبيد العراق ، وتميت بذلك العروبة والاسلام ، لتسلم لها شهواتها ولا يبقى لها معارض .

جاء - عبد الملك بن مروان - الى العراق بجيش الشام ، فقتل بين الشام والعراق مصعب بن الزبير وخلقاً كثيراً من أهل العراق . وبعث بعد ذلك الى - الحجاج بن يوسف الثقفى - بعهده على العراقين - الكوفة والبصرة - والحجاج كما هو معروف سافك الدماء ، منتهك الحرمات ، كان يطرب إذا رأى أمامه دم مسلم عربى مسفوكا . ولا غرو فإن أمه - فارعة - كانت تحت الحارث بن كلدة - حكيم العرب - فطلقها ، وكانت معروفة بالزنا ، وهى المتشبهة بالصبيان ، المتمنية لقاهم فى حال السكر ، وقصتها مع عمر بن الخطاب فى نصر بن الحجاج معروفة مشهورة . فإن عمر سمعها ليلا تغنى بهذا البيت :

هل من سبيل الى خمر فأشربها   أم من سبيل الى نصر بن حجاج

والقصة مشهورة . وظلم الحجاج وفساده أشهر من بغى أمه . كان يقول : ليس عندى شىء ألذ من سفك الدماء ، لأنه لم يكن يأخذ ثدى أمه عند ولادته، وولد ممسوحاً لادبر له ، فألعق الدم وثقب له دبر فالتقم ثدى أمه .

وهو أول من حبس النساء مع الرجال مربوطين بحبل واحد . قال عمر بن عبد العزيز : « كل أمة تأتى يوم القيامة بأهل الشر منها

ونحن نأتى بالحجاج فنفوق جميع الأمم » وإن عبد الملك قال يوماً للحجاج : « لم يبق أحد لم يطلع على عيوبك فاذكر أنت عيوب نفسك ؟ قال الحجاج : إنى رجل لجوج ، حقود ، حسود . قال عبد الملك : ما بينك وبين الشيطان من النسبة ؟ قال ماآنى الشيطان إلا وخضع لي واستسلم » (هذا ماورد فى تاريخ ابن الاثير فى ذكر نسب الحجاج وشىء من سيرته) .

ومر الحجاج يوماً (بخالد بن يزيد بن معاوية) ، فقال له رجل من هذا ؟ قال هذا عمرو بن العاص . فقال الحجاج : والله لاأرضى أن أكون ابن العاص ، أنا الذى قتلت ماءة ألف أو يزيدون (كما عن ابن الأثير) . قال القاضى ابن خلكان فى وفيات الأعيان بترجمة الحجاج : (وابن الأثير فى تاريخه فى الجزء الرابع من المجلد الثانى فى ذكر نسب الحجاج وشىء من سيرته) : « بحث أهل الأثر والتاريخ فما أحصوا الصالحين الذين قتلهم الحجاج صبراً وأكثرهم من الصحابة والتابعين » . روى الدميرى فى حياة الحيوان ج ١ فى مادة ـ تيس ـ : بترجمة الحجاج إنه قال يوماً لكاتبه : كم عدة من قتلنا فى التهمة ، قال ثمانون ألف »

ولى عبد الملك بن مروان الحجاج على العراق ، وأمره أن يحتال بقتل علمائه وصلحائه وفطاحل زعمائه فتوجه الحجاج ومعه ألفا رجل من مقاتلة الشام ، وأربعة آلاف من أخلاط الناس ، وتقدم بألفى رجل ، وتحرى دخول البصرة يوم الجمعة فى حين أوان الصلاة ، فلما دنى من البصرة أمرهم أن يتفرقوا على أبواب المسجد على كل باب مأة رجل بأسيافهم تحت أرديتهم ، وعهد اليهم أن إذا سمعتم الجلبة فى داخل المسجد والوقيعة فيهم ، فلا يخرجن خارج من باب المسجد حتى يسبقه رأسه الى الأرض . وكان المسجد له ثمانية عشر باباً يدخل منها اليه . فافترق القوم عن الحجاج وبدروا الى الأبواب

فجلسوا عندها مرتدين أسيافهم ينتظرون الصلاة . ودخل الحجاج وبين يديه مأة رجل ، وخلفه مأة رجل ، كل منهم مرتد برداثه وسيفه قد أفضى به الى داخل أزاره . فقال لهم إنى إذا دخلت فسأكلم القوم فى خطبتى وسيحصبوننى فإذا رأيتمونى قد وضعت عمامتى على ركبتى فضعوا أسيافكم فى رقابهم واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين . فلما دخل المسجد وقد حانت الصلاة ، فصعد المنبر وتهدد الناس وتوعدهم وشتمهم ، فحصبه الناس ، فوضع عمامته على ركبتيه ، وكان له داخل المسجد جند كثير فجعلت السيوف تبرى الرقاب. فلما سمع الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين ورأوا تسارع الناس الى الخروج ، تلقوهم بالسيوف ، فأردعوا الناس الى جوف المسجد ولم يتركوا خارجا يخرج ، فقتل منهم بضع وسبعون ألفاً ذلك اليوم ، فسالت الدماء الى أبواب المسجد والسكك . وفى المقتولين كثير من الفقهاء والمتنسكين والمعتكفين فى المسجد والشيوخ والأطفال ، والحجاج لايبالى بذلك بل يقول : رؤوس قد أينعت وحان قطافها ، وضرب الجزية على العراقيين ، فأخذها منهم كما تؤخذ من اليهود والنصارى . (نقل هذه القصة ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة فى أحوال الحجاج) .

لم تنته مظالم الحجاج عند هذا الحد . فإن سفكه الدماء فى الكوفة وواسط وبعض بلاد ايران والحجاز مما عجز الواصفون عن شرحها وتفصيلها . لذلك لجأ العراقيون الى السيف تخلصاً من ظلم بنى أمية ، فوقعت حروب فى البصرة بين عبد الله بن الجارود ، ومعه أشراف البصرة ، وبين الحجاج ومعه أعوان بنى أمية . وكان أنس بن مالك - وهو من شيوخ الصحابة ، وممن خدم النبى ﷺ عشر سنين - فى أصحاب ابن الجارود ، فأسر وشفع فيه قتيبة بن مسلم ، ولما أحضر الى الحجاج قال له : لا أهلا ولا مرحباً أنت الذى

قضيت عمراً طويلا فى الضلالة تتبع حينـا أبا تراب ، وحينـا ابن الزبير ، وشتمه وجفاه ملياً وتهدده بالقتل .

وبعد فتنة ابن الجارود لجأ العراقيون ـ من ظلم بنى أمية ـ الى صالح بن مسرح ، وكان رجلا معروفا بالصلاح والدين ، وقد اصفر لونه من شدة الرياضة والعبادة ، وكان له أتباع كثيرون يتعلمون منه القرآن والفقه ، فلما سمع بمظالم عبد الملك قال لأتباعه : قد انتشر الظلم وكثر الظـالمون ، فاتفق القوم بدفع الجائرين ، فنهض بنفسه لذلك ودعى الناس الى جهاد الظالمين من أمية ، وقامت حروب بين بنى أمية وصالح قتل فيها خلق كثير ، (منهم صالح بن مسرح) ، فقام من بعده شبيب الشيبانى ـ رئيس بنى شيبان ـ وهو من أصحاب صالح ومعه العراقيون ، وقعت بينه وبين بنى أمية حروب عظيمة فى المدائن ، وفى خانقين ، وفى النهروان ، وفى تكريت ، وفى الحيرة ، وعلى أطراف الكوفة ، وفى أقاصى ولاية الموصل ، وفى الأنبار ، وخوزستان وفارس ، وكرمان ، والأهواز ، حيث هـلك شبيب غرقا . وفى فتنة الأزارقة قتل من العراقيين خلق عظيم لايحصى عددهم . كل ذلك بسبب ظـلم بنى أمية ـ أعداء العرب والإسلام ـ ولم يقتصر ظلمهم وسفكهم للدماء فى العراق على هذا ، فإنهم ألجأوا العراقيين الى إمتشاق الحسام ومحاربتهم بعد ذلك مع (عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث) .

دعت الحجاج شهواته الى بعث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث والياً على سجستان وكرمان ، ومعه جيش ، ثم كتب اليه أن يقـاتل حصوناً ويسفك دماءاً بريئة ، فامتنع عبد الرحمن وفى جيشه حقد على أعمال بنى أمية وكلهم يحدثون أنفسهم بالتخلص من ولايتهم .

جمع عبد الرحمن أصحابه وفيهم من شيوخ قريش ، وأهـل الصلاح

والفقهاء والعلماء والزهاد والحفاظ والقراء والعباد ، خلق كثير ، فيهم سعيد بن جبير ـ فقيه أهل الكوفة ـ وكميل بن زياد ـ من الصحابة والتابعين ـ وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وعامر بن سعيد الشعبى ـ فقيه أهل البصرة ـ الى كثير من أمثالهم ، فأجمع رأيهم على خلع ولاية بنى أمية ، وقالوا إن خلعها من أفضل أعمال البر . ودارت حروب بين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فى العراقيين ، وبين جيوش بنى أمية بقيادة الحجاج ، سفك فيها من دماء العراقيين ماصبغت به أرض الكوفة ، وأرض خوزستان والعراق ـ بين واسط والبصرة ـ وكرمان وسجستان وغيرها ، وتجاوز عدد القتلى عشرات الألوف من العراقيين ، وطلب الحجاج المدد من الشام ، ولم يستطع الوقوف أمام العراقيين إلا بالخديعة التى أنجزت الى فرار عبد الرحمن الى خراسان وتفرق أصحابه . وصار الحجاج يقتل كل من ظفر به من العراقيين ، ويذبح صبراً كل من جيىء به من الأسرى حتى مل هو وأهل الشام من كثرة من قتل من أهل العراق . على مافى نفس الحجاج الخبيثة من الحب لسفك الدماء ، ولم يكن يوم يمر بالحجاج وجند بنى أمية إلا جيىء فيه بكثير من الأسرى فيأمر بضرب أعناقهم . وتحصن قوم من العراقيين فى فارس فحاصرهم أعوان الحجاج وأسروهم وبعثوا الى الحجاج بوجهاء قريش منهم ، كمحمد بن سعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن موسى التميمى ، وغيرهما . فكتب الحجاج الى عبد الملك شافعاً فى الأسرى ، فأبى عبد الملك ، وتهدد الحجاج وأمره بقتل الأسرى ، فضرب أعناقهم جميعاً ، وفيهم كميل بن زياد ـ وهو من أصحاب رسول الله وخاصة على ـ فهدده بالقتل ، وقال له : « أحببت أن أجد عليك سبيلا . فقال له كميل : لاتصرف عنى بأنيابك ، ولا تهدر على بكلامك ، فوالله ما بقى من عمرى إلا مثل كوئل الغبار » . وكان شيخاً كبيراً

سنه ـ تسعون سنة ـ فأمر به فضربت عنقه . وفاز بالشهادة عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه . وابن البحترى الطائى . وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم من مشاهير رجال الإسلام .

وأتى بسعيد بن جبير ـ فقيه أهل الكوفة ـ وجرت بينه وبين الحجاج مناظرة تقرح القلوب .عاب فيها الحجاج على سعيد زهده وورعه وتقواه، ولامه على عدم ضحكه ولعبه ، وأمر بالناى والعود فضرب العود ونفخ الناى ، وسعيد يبكى . وقال للحجاج وهو يبكى ذكرتنى النفخة فى الناى النفخ فى الصور . وأما مصران العود فهو من نفس ستحشر معك يوم الحساب وأما هذا العود فهو من شجرة نبتت بحق وقطعت بغير حق . وشتم الحجاج سعيداً وجفاه ، وأراه الذهب والفضة ، والقطائف والجواهر ، وقال لسعيد هذا لأمير المؤمنين ـ عبد الملك ـ قال سعيد : هذا حسن إن قمت بشرطه . قال الحجاج وما شرطه : قال أن تشترى له بما تجمع الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة وإلا فإن كل مرضعة تذهل عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، ولا ينفعه إلا ماطاب منه . قال الحجاج وكأنه يئس من أن يخدعه بالمال : إذ هبوا به فاقتلوه . فقال سعيد : أشهدك ياحجاج أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أستحفظكهن ياحجاج حتى ألقاك . فلما أدبر ضحك قال الحجاج . مايضحكك ياسعيد قال عجبت من جرأتك على الله ، وحلم الله عليك . قال اضربوا عنقه . قال سعيد حتى أصلى ركعتين فاستقبل القبلة وهو يقول : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين » . قال الحجاج : اصرفوه عن القبلة الى قبلة النصارى فإنه من حزبهم ، فصرف عن القبلة ، قال سعيد : « أينما تولوا فثم وجه الله » فقال أكبوه لوجهه قال سعيد « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها

نخرجكم تارة أخرى » فقال اقتلوه ، فجعلوا كلما قطعوا عرقاً صاح سعيد أشهد أن لا إله إلا الله . ولما قتل سعيد قال الحسن البصرى أللهم إئت على فاسق ثقيف ، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا فى قتله لكبهم الله على وجوههم فى النار .

ولم يفرغ الحجاج من قتل سعيد حتى خولط فى عقله ، وجعل يصيح قيودنا قيودنا - يعنى القيود التى كانت فى رجل سعيد - ومرض مرضاً أنتنت به ريحه ، وأصابته الآكلة فى بطنه ، فكان اللحم يشد بالخيوط ويدلى الى بطنه فيخرج محاطاً بالدود ، والحجاج يستغيث ويضطرب ، وقلبه يلتهب نار وبدنه مثلج ، حتى أن الكوانين كانت تضرم وتدنى الى جلده حتى يحترق وهو يرجف من شدة البرد . وأرسل الى الحسن البصرى أن يدعو له فقال الحسن لا أدعو لمن ولغ بدماء أمة محمد . فقال الحجاج لا أريد أن يدعو لى بالعافية ، إنما أريد أن يدعو الله ليعجل موتى فيريحنى من هذا العذاب .

هذه أمية ، وهؤلاء عمالها ، هتك - عبد الملك بن مروان - حرمة مسجد البصرة ، وجعل يوم الجمعة يوم تفرق الكلمة ، وبدل الصلاة - وهى من أهم العبادات - بسفك دماء المصلحين والناسكين ، وبذلك ضاعت الجمعة وحرم المسلمون فوائدها وحكمها ومصالحها الى هذا اليوم .

جاء النبي ﷺ بالجمعة لحفظ الإسلام والعروبة ، فأبطلتها أمية ، وبدلت عز المسلمين بذلهم وعبادتهم بقتلهم صبراً .

وليست هذه أول حرمة انتهكها - عبد الملك بن مروان - أن قتل العلماء صبراً . وفى الحرب أعظم من انتهاك حرمة المسجد . وأى أمة أقدمت على قتل علمائها العاملين فنصيبها الذل والهوان ، والعار والنار ، والحلول فى دار البوار ،

سفكت دماء علماء العراق جيوش أمية ، حتى أصبح العراق خلواً من العلماء الذين بهم نجاته وسطوته ، وانتهكت حرمة مساجد المسلمين ـ وهى مظهر الحرمة لجميع الأمم ـ . قيل إن الذين قتلهم الحجاج بسيفه صبراً فى العراق كانوا مأة وعشرين ألفاً ، ولا يعلم أحد عدد من قتلهم صبراً إلا علام الغيوب .

ولما مات الحجاج وجد فى سجنه الخاص خمسون ألفاً . ثلاثون ألف رجل ، وعشرون ألف إمرأة ، وكانت سجونه بلا سقف ، والمسجونون تحت الشمس والمطر . فأى مسلم عربى يرضى بهذا . لعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به .

وأشنع مافعلته أمية هتك حرمة الكعبة وهدمها . أرسل عبد الملك الحجاج بن يوسف ـ بعد قتل مصعب بن الزبير ـ الى قتال أخيه عبد الله بن الزبير بمكة ، فجاء الحجاج ونصب المنجنيق على أبى قبيس ونواحى مكة كلها فرمى أهل مكة بالحجارة ، فأشار على ابن الزبير نفر من قريش بطلب الأمان من عبد الملك ، فأبى الدنية وقال :

ولا ألين لغير الحق أسأله　　حتى تلين لضرس الماضغ الحجر

ثم دخل على أمه ـ أسماء بنت أبى بكر ـ وهى عمياء من الكبر وقد بلغت من العمر مأة سنة ـ فقال لها ياأماه أما ترين قد خذلنى الناس ، وخذلنى أهل بيتى . فقالت يابنى لايلعبن بك صبيان بنى أمية عش كريماً ومت كريماً . فخرج وجعل يقاتل أهل الشام حتى قتل وقتل معه كثير من شيوخ قريش ، وبعث برؤوسهم الى عبد الملك

وفى هذه الوقعة هدمت الكعبة التى هى فخر العروبة ، ولها المنزلة العظمى عند العرب قبل الإسلام . وفى هدمها جنت أمية على العروبة والإسلام جناية لم يسبق اليها غير أمية . وفى قتل ملوك المسلمين وأسرهم ، وقتل الأسرى

من المسلمين والعلماء بالله والفقهاء والمتنسكين والزهاد ، وإهانة النساء ، وعدم رعاية حرمة المساجد ، وكل ماجاء به الإسلام ، وإخافة المؤمنين فى حرم الله وغير ذلك من الجنايات التى اقترفتها أمية ماحقق عداوتها للعروبة والإسلام ودأبها على محوها من عالم الوجود . لولا أن الله تعالى أراد أن يظهر دينه ولو كره الكافرون .

هذه أمية وتلك عداوتها للإسلام والعروبة ، بل للبشرية عامة وللعراق خاصة ، إذاً فما الذى حمل بعض شبابنا على الدعوة باسم أمية ، زاعماً أنها من الدين بمكان ، وأنها فخر العروبة ، بل هى العروبة كلها ، أليست هذه خديعة الإستعمار - إن اللبيب من الإشارة يفهم - أترى أن العرب تنجوا إذا اقتدت بأمية التى هدمت الكعبة والمساجد ، وقتلت العلماء ، وسفكت دماء المسلمين فى الحرم الذى جعله الله تعالى أمناً لمن دخله ، فقال « ومن دخله كان آمناً » .

— ٤ —

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم فإذا هى بحمية كل واحد منها . كون بديع النظـــام ، قوى الأركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة بعد ماثبتت أصولها ورسخت جذورها ، وامتد لهـــا السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ، ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة إلا فى انتهاج منهجها وورود شريعتها ، وصارت ـ وهى قليلة العدد ـ كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهى بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصى ، وتبدد ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منعقداً ، وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لايلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية .

هذا هو الذى بلغ بالأمة مرضاً يعجز عنه الطبيب الحاذق . بلغ بها حداً أشرف بها على الهلاك وطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأينا كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت ، ولكن أليس لكل علة دواء .

وأسفاه ماأصعب الداء وما أعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج . كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهى لم تفترق إلاالآن كلا عكف على شأنه .

نحن الذين كنا نملك الدنيا أصبحنا مملوكين ولا نملك شيئاً من الدنيا ، أفليس هذا من أسوء العار ، لماذا كل هذا أتحسبون أن ذلك لقصور فى عقولنا أو نقص فى جوارحنا ، أو خلل فى شيء من حواسنا . كلا وعزة الله ، لا نقص فينا حسب المواهب الفطرية ، ولا زيادة لهم علينا ، ولكنهم زادوا علينا فى الجد والنشاط ، والإستهانة بهذه الحياة . فى سبيل الشرف وطرح الفوارق الشخصية فأصبحت كل أمة منهم كشخص واحد ، بهذا تفقوا علينا ، وإلا فنحن أدق فهما ، وأرق طبعاً ، وأسمى خلقاً وخلقاً ، ومنا أخذوا وعلينا تظاهروا واستظهروا .

أفليس بعد هذا حرام علينا أن يتعادى أو يعتدى مسلم على مسلم ، أو يتنابذ أخ مع أخيه . أوليس من الحتم علينا أن ننتظم تحت راية واحدة ونكون إخواناً كما أراد الله تعالى منا أن نكون .

مما نتخوفه كثيراً إهتمام رجال يزعمون - أنهم من البشر أو من المسلمين - فى خلق العراقيل لتفريق الكلمة فيما بيننا ، وإحداث المشكلات فى سبيل الوحدة التى نتطلبها . يعملون العوامل الفعالة فى فشلها ، والمعاول الهدامة لتمزيقها ، فيجب علينا أن نحترز منهم ، وأن لانغتر بأقوالهم .

إن أعظم الدسائس وأقتل العلل علة النفاق ، وإن المنافقين (الأمويين)

يزعمون أنهم من المسلمين ، وأنهم منا ، وهم بين ظهرانينا يسعون فى إحباط مساعينا وغل أيدينا ، « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم » .

فاحذروا أمية أيها الناس فإن لهافى كل زمن رجال ، واحذروا دسائسها فإنها التى أحلت قومها دار البوار .

نسأله تعالى أن يرد كيدها فى نحرها ، « والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

أعمال أمية هى قتل الفاتحين العظام ، وفقهاء الإسلام ، وهدم الكعبة وإباحة بيت الله الحرام ، وهدم المساجد ، ومنع الجمات والجمعيات ، وتمزيق القرآن ، ورفع حرمة النساء ، وتعطيل الحد والأحكام .

يقول علماء الاجتماع : إن الجمعيات عنوان الأمة ، وإن العائلة عنوان الجماعة ، فلا تصلح أمة إلا إذا صلح مجتمعها ، ولا يصلح المجتمع مالم يصلح نظام العائلة ، وقد واظب الاسلام على هذين الأمرين فى جميع أحكامه ، فمجتمعاته من الصلوات الجامعة والجمعة والعيدين والحج وغيرها من أفضل المجتمعات ، ونظام العائلة فيه من زواج وطلاق وحسن معاشرة الزوجين ، وتربية الأولاد ، وحقوق كل على الآخر ، وغير ذلك أفضل نظام عرفه البشر فى قانون العائلات الى اليوم .

وقد جدت أمية فى إبطال المجتمعات ، وتعطيل المساجد والجمعات ، كما اجتهدت فى تهريش نظام العائلة وحل عقد نظامها .

أمية لم تحترم نظام العائلة الاسلامية ، واستخفت بالأعراض ، وتهاونت بالأنساب ، وأحلت العروبة بسبب ذلك دار البوار .

لم يعرف لزياد بن أبيه أب فادعى معاوية انه ابن أبى سفيان . وهذا أول استخفاف بالأنساب وبنظام العائلة الاسلامية .

كنت لاأود الخوض في غمار هذه المباحث ، لاحباً لأمية وإعظاماً لها ، بل اشتغالا بما دهم المسلمين وحاق بهم فى هذه الأعصر من الظلم والذل عما كان قد أصابهم فى سالف الأزمان والأعوام ، وكنت أمر على تلك الفجائع المؤلمة والحوادث المؤسفة - التى أحدثتها أمية - فأتلو قوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا تسألون عما كانوا يعملون » فكنت أمر عليها مسرعا كى لا أشغل فكرى فيها فتؤثر على ، ولكن حثنى على ذكر ذلك جهل بعض المؤرخين من المسلمين فى عصرنا هذا وغفلتهم عن الحق ، فحسبوا أمية من العرب أو من الدين ، وليست هى كما يزعمون .

أمية خزى العرب لو كانت من العرب ، وأنى لها بذلك برئت العرب من أمية فما أمية إلا عبد رومى تبناه عبد شمس كما هى عادة العرب فى الجاهلية من تبنى الموالى والغلمان . وفى وسع القارىء أن يفسر التنكر الشديد منهم للعرب والإسلام فيرجعه الى هذا النسب المدخول ، وبحكم هذه الظاهرة يرى أنهم كانوا أعداء فى البداية والنهاية .

فإن أمية شخصية غامضة النسب ، مشكوكة الإنتساب الى قريش ، قامت حوله إمارات من حقنا أن نشير اليها ، ومن حقها أن تثير حفيظة الشك وتبعد النسبة ، أو على الأقل تحوط النسب المدعى بسياج من الشك والغموض ، وفى الرواة من يقول : إنه ابن عبد رومى تبناه عبد شمس ثم ألصق به . والعرف العربى لاينكر مثل هذه البنوة ويتسامح فى هذا الإلصاق . والشواهد لا تخفى على الباحث المتتبع .

ولعل فى قول أبى طالب (ره) مايسند هذه الشكوك ، ويرفع درجتها حيث يقول من أبيات :

توالى علينا موليان كلاهما ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر

أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلا هما نبذانا مثلما تنبذ الخمر
قديماً أبوهم كان عبداً لجدنا بنى أمة شهلاء جاش بها البحر

فإن شأن الشاعر والخطيب فى موقف بيان الحقائق . وفى مقام التحدى أن يدون ماهو معروف وملموس فى عصره من حقائق . ومن البلاهة أن نقول إن أبا طالب كان يلقى الكلام إرسالا بدون مارويه ، ولا يملك منطقه ولسانه فيطعن فى بنى عمه . - إن صح التعبير - فى أعز شىء يملكه العربى الصميم فى الساعة الحرجة التى يشتد فيها الخصام والجدال بين الهاشميين والأمويين ويتقابل الخصمان ، فهل يطعن هذا الطعن ، ويقذف هذا القذف ، وليس عنده مايبرر ذلك . ومن الصعب جداً على أبى طالب أن يقف من خصمه العنيد هذا الموقف إذا لم يكن يرتكز على حقائق ثابتة لا تقبل الشك . ولا يمكن أن يقف الأمويون من هذه الطعنة مكتوفى الأيدى لا ينبسون ببنت شفة ، ولا يدافعون عن نسبهم ، لولا أن الحقيقة يومئذ أوضح من أن تستر أو يتنصل منها الأمويون . ولم يصلنا منهم شىء وفيهم من يفكر تفكيراً خبيثاً ، وفيهم من يعد للشر عدته .

ولعل ماوصل الينا عن معاوية يقرر الشبهة ، فإنهم حدثونا أن معاوية قال لولده يزيد : فاخر بن عمك ، فقال عبد الله بن جعفر : بأى آبائك تفاخرنى أبحرب الذى أجرناه ، أم بأمية الذى ملكناه ، أم بعبد شمس الذى كفلناه . قالوا فلم يرد عليه وقال لولده يزيد : يابنى إياك ومنازعة بنى هاشم فإنهم لا يجهلون ماعلموا ولا يجد مبغضهم لهم سبا . وليس هذا بالأمر اليسير من شاب هاشمى بين يدى سلطان معاوية .

ونرى شيخ الأبطح فى شعره التمس طريقة فنية ، قد يجد الدارسون للأدب فى هذه الطريقة مايحملهم على الإعتراف بدخالة هذا النسب ، أفلا

يجدون فى نصب (بنى) على التخصيص أن المعنيين هم بنو أمية ، ويلاحظون معنى ، أن تأنيث الإسم ، وتأنيث الصفة ، وإعادة الضمير مؤنثاً ، يرمى الى إستصغار هذا الإنسان الحقير ، ثم إلحاق ذلك كله ، بأن هذه السلعة (جاش بها البحر) كان للتدليل على أن هذا الإنسان كان عبداً رومياً ، وذلك لأن البحر لم يكن فى ذلك العصر ليجيش من السلع الآدمية بغير الرقيق من العبيد والإماء الذين يفد بهم النخاسون من بلاد الروم وغيرها . وأحسب أيضاً انهم يلاحظون فى كلمة (شهلاء) جرساً يرن بأن هذا العبد كان رومياً لأن الشهل زرقة فى العين ، وهذه الزرقة من صفات العين الرومية ، ولا تتصف بها العين العربية . ولئن أثار كلام أبى طالب الشك فى نسب الأمويين فإن فى كلام ابنه على عليه السلام مايزيد الشبهة ويقوى الشك . فإنه كتب الى معاوية « وليس المهاجر كالطليق ، ولا الصريح كاللصيق » فإن فى كلمة (اللصيق) أسلوبا يجنح عن مألوف اللغة إذ ليس فى مألوفها معنى لهذه اللفظة أظهر من انتحال النسب ، وهى فى ذلك أصرح من دلالتها على أنه لصيق بالاسلام كما يؤيد ذلك مقابلتها بلفظ الصريح المقصود منه الصراحة فى النسب ليس إلا ، ولا أرى مايدفع هذا الشك إلا ماربما يقال من جرأة أمية على منافرة هاشم ، ونلاحظ أن هذه المنافرة مدسوسة ، أو قد كان للدعاية الأموية سلطان فى تكوينها . ويكاد يتضح طابع الوضع لو حاكمنا التاريخ بشىء من الدقة والإمعان ، فإنهم رووا أن هاشماً وأمية توأمان ، وذكروا أن هاشماً مات وله من العمر عشرين سنة ، وأوسع رواية انه مات عن خمس وعشرين سنة ، والروايتان تنطويان على أشياء كثيرة ، وتصور لنا مقدار الدس ، فمتى تزوج عبد شمس وولد له أمية يوم مات هاشم ، ومتى كانت هذه المفاخرة ، وهل يجوز لولد غرير لم يبلغ العشر سنوات أن يفاخر هاشماً سيد العرب . وفى

رواية أن هاشماً أسن من عبد شمس ، وإن صحت الرواية فالشبهة أقوى . أجل ولو أنصف الميزان ، وتحررت المعايير لاستطاع المؤرخ أن يختبر هذا النسب ، ويرجعه الى أصله ، ولكن الميزان كان بيد السلطان .

قد يكون هذا الرأى واضحا ، وقد لايكون كذلك ، ويكون مجال الريب فيه متسعاً ، فإنى لاأريد أن أفرض على قارئ هذا الرأى فرضاً ، وإنما أضعه بين يديه وله الحكم . ولعل نطاق البحث العلمى سيتسع أكثر منه الآن فيكشف لنا القناع عن وجه هذه الحقيقة التاريخية ، وسواء أكان الشك فى أمية انه عبشمى أو رومى ، فإن الشك فى سلالة أمية يكاد أن يكون واضحا ، وكفة ميزان الشك تكاد أن ترجح ، وقد تتجاوز الشك الى اليقين أو على الأقل الى الظن بدخالة سلالة أمية إذا خلت كفة الميزان من السياسة ، وقد رووا أن دغفل النسابة دخل على معاوية فقال له معاوية : « أرأيت عبد المطلب قال نعم رأيته رجلا نبيلا وضيئاً كأن فى وجهه نور النبوة . قال أرأيت أمية قال نعم رأيته رجلا ضئيلا منحنياً أعمى يقوده عبده ذكوان . قال مه ذلك ابنه — أبو عمرو — . قال أنتم تقولون ذلك أما قريش فلم تكن تعترف إلا انه عبده » .

وحدثونا أن القلاح قال لمعاوية وقد سأله عن أمية « رأيت أمية بعد ماذهب بصره يقوده عبد له من أهل صفورية يقال له ذكوان . فقال معاوية إنه ابنه — أبو معيط — . فقال القلاح هذا شىء قلتموه وأنشد :

يسائلنى معاوية بن هند لقيت أبا سلالة عبد شمس
فقلت له رأيت أباك شيخا كبير السن مضروبا بطمس
يقود به أقيبح عبد سوء فقال بل ابنه لبزيل لبسى

وذكر الهيثم فى كتاب — المثالب — : إن أبا عمرو كان عبداً لأمية

اسمه ذكوان فاستلحقه » . وهذا العبد أبو سلالة أمية ، وذلك أن أمية أنكح عمرواً هذا زوجته ، وكان العبد ذكوان يبنى عليها وهو يراه . وقد يكون من الشواهد على ذلك قول الفضل بن العباس فى جواب الوليد بن أبى معيط .

أتطلب ثاراً لست منه ولا له   وأين ابن ذكوان الصفورى من عمرو
كما اتصلت بنت الحمار بأمها   وتنسى أباها إذ تسامى أولو الفخر

وقد استعرض حسان بن ثابت ـ شاعر النبى ـ أبا سفيان بقوله مشيراً الى هذه الظاهرة :

ولست من المعشر الأكرمين   ولا عبد شمس ولا نوفل
وليس أبوك بساق الحجيج   فأوقع على الحسب الأرذل
ولكن هجين منوط بهم   كما نوطت حلقة المحمل
تجيش من اللؤم أحسابكم   كجيش المشاشة فى المرجل

وما أبو سفيان إلا ابن زنا ، ومعاوية ابنه كذلك ، وإن يكن منهم نجيب قرشى فلعله ـ زياد بن سمية ـ ، أو عبيد الله بن مرجانة ـ

يقول علماء السير كان أبو سفيان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ قبل الإسلام ، فهو السبب فى حرب بدر الكبرى ، وهو الذى أب على حرب النبى ﷺ فى أحد ، وحرب الأحزاب فى وقعة الخندق ، وحرض المشركين وقادهم على حرب النبى فى أكثر الحروب حتى أرغم الله أنفه بفتح مكة وأسلم كرهاً ولم يحسن إسلامه بل كان من المنافقين بعد الإسلام . « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » .

يقول بن عبد البر فى (الإستيعاب) فى خبر بن الزبير : « إنه رآه يوم اليرموك . فكانت الروم إذا ظهرت قال أبو سفيان إيه بني الأصفر ،

وإذا ظهر المسلمون قال ويح بنى الأصفر ، ولما فتح الله على المسلمين حدث ابن الزبير أباه بذلك ، فقال الزبير قاتله الله يأبى إلا نفاقاً ، أو لسنا خيراً له من بنى الأصفر » . ولما انهزم المسلمون يوم حنين قال ابو سفيان : « لاتنتهى هزيمتهم دون البحر ، والله لقد غلبت هوازن » فقال له صفوان : « بفيك الكثكث » .

وذكر ابن المبارك وغيره من أهل السير ، وكذا ذكر بن عبد ربه فى ـ العقد الفريد ـ فى خلافة أبى بكر ماخلاصته . « إن أبا سفيان لما قبض النبى ﷺ ورآى إرتداد العرب ، واختلاف أهل المدينة فى أمر الخلافة انتهز الفرصة ، فجاء الى بيت على عليه السلام وصار يحرضه فى طلب الخلافة وهو يقول :

بنى هاشم لايطمع الناس فيكم　　ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكموا　　وليس لها إلا أبا حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم　　فإنك بالأمر الذى يرتجى ملى

ثم قال أغلبكم على هذا الأمر أقل بيت فى قريش ، والله لأملأنها عليهم خيلا ورجالا وأنشأ يقول :

ولا يقيم على ضيم يراد به　　إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته　　وذا يشج فلا يرثى له أحد

فانتهره على عليه السلام وقال له : مازلت عدواً للإسلام وأهله فما ضر ذلك الاسلام » .

ورد أبا سفيان عن بغيه كثير من المهاجرين والأنصار ذلك اليوم ، منهم ـ سهيل بن عمرو ـ إذ خطب الناس فقال : « والله إنى لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها الى غروبها ، فلا يغرنكم هذا

الرجل من أنفسكم - يعنى أبا سفيان - فإنه ليعلم من هذا الأمر ماأعلم ولكنه قد ختم على قلبه حسد بنى هاشم » .

ولما صارت الخلافة الى عثمان دخل عليه أبو سفيان ، وقال : « هل فى الدار أحد غير بنى أمية - وكان يومئذ أعمى - فقيل له لا فقال تلقفوها يابنى أمية - يعنى الخلافة - تلقف الصبيان للكرة ، فوالله مامن جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب . وفى رواية الحسن البصرى إنه قال لعثمان : قد صارت اليك بعد تيم وعدى ، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بنى أمية فإنما هو الملك ، ولا أدرى ماجنة ولا نار » . فصاح به عثمان قم عنى فعل الله بك وفعل . وكان من شدة حقده انه لما سمع بلالا يؤذن على سطح الكعبة تمنى الموت ، وأن لوكان مصيره مصير قتلى بدر من المشركين ، حيث قتلوا ولم يشهدوا ماشهده من غلبة المسلمين وانتشار الاسلام ، والأذان على سطح الكعبة .

وكما كان أبو سفيان شديد العداوة للنبى ﷺ ، بغيظاً للإسلام ، كانت زوجته - هند بنت عتبة بن ربيعة - كذلك . كانت من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ . ولما حدثت حادثة بدر الكبرى وقتل فيها أبوها عتبة ، وأخوها الوليد ، وحنظلة بن أبى سفيان وكثير من قومها ، كانت تظهر من الحقد على النبى ﷺ مالايوصف ، وتحرض المشركين شعراً ونثراً على حرب النبى ، وتذكر قتلى بدر وترثيهم ، وكان من قولها ترثى بعض قتلى بدر :

أيا عين جودى بدمع سرب على خير خندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حر أسيافهم يعرونه بعد ما قد شجب

ولما تجهز المشركون الى حرب النبي ﷺ - في غزوة أحد - خرجت هند في نساء مكة يحرضن المشركين على القتال والأخذ بثار قتلى بدر . وكانت أشدهن تحريضاً . ولما مر المشركون (بالأبواء) وفيه قبر آمنة بنت وهب - أم النبي ﷺ - قالت هند لو بحثتم قبر أم محمد فإن أسر منكم يوم أحد فديتم كل إنسان بإرب من آرابها - أي جزء من أجزائها - فقال بعض قريش لا نفتح هذا الباب ، ووردوا أحداً وهند تحرض المشركين ، حتى أنها وعدت وحشياً أن تمكنه من نفسها وتهب له حليها وقلائدها إن قتل أحد ثلاث : محمداً ، أو علياً ، أو حمزة . وكانت بين المحاربين في أحد في ثلة من النساء يضربن بالدفوف ويقلن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الإدبار

ضربا بكل بتار

ولقد رآها أبو دجانة الأنصاري تحرض الناس ، فهمّ ليضربها بالسيف فولولت . قال أبو دجانة : فعلمت أنها إمرأة فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به إمرأة .

ولما قتل وحشي - حمزة - عمدت اليه هند فبقرت بطنه فأخرجت كبده فلاكتها فصيرها الله حجراً فلفظتها ، وقطعت أعضاء حمزة وشوهت به وجعلت بعض أعضائه قلادة لها بدل ماأعطته لوحشي . وكان النبي ﷺ قد هدر دم هند - عام الفتح - فأقبلت مختفية في نساء من قريش ، وأسلمت هي وزوجها .

يقول أبو عمرو الجاحظ في (رسالة مفاخرة بنى هاشم وبنى أمية) : قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي ، وفي محاربته له وإجلابه عليه وغزوه إياه ، وعرفنا إسلامه حيث أسلم ، وإخلاصه كيف أخلص ، ومعنى

كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود ، وكلامه يوم حنين ، وقوله يوم صعد بلال على الكعبة فأذن . على أنه إنما أسلم على يد العباس ، والعباس هو الذى منع الناس عن قتله وجاء به رديفاً الى رسول الله ﷺ وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه ، وأن ينوه به ، وتلك يد بيضاء ومقام مشهود ، ويوم حنين غير مجحود . فكان جزاء بنيه أن حاربوا علياً ، وسموا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء على الأقتاب حواسر ، الى أن قال : وأكلت هند كبد حمزة . فمنهم آكلة الأكباد ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين ثنيتى الحسين بالقضيب » .

هذه أمية وهذه أعمالها أفيصح أن ترمى بها العروبة ، برئت منها العروبة ولحقها الخزى الدائم .

أمية تولدت من الزنا وليست من العروبة فى شىء ، وأغض النظر عن عمر بن عبد العزيز ، لقول الامام ـ محمد بن على الباقر عليه السلام ـ قال : « لكل قوم نجيبة ، وإن نجيبة بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، وانه يبعث يوم القيامة أمة وحدة » . كما روى ابن الأثير ـ فى الكامل ـ وذلك أن بنى أمية كانوا مولعين بالشر إقداماً عن قصد رجالا ونساء ، حتى أنهم كانوا لايتزوجون بالأبرار مخافة أن يصلح أولادهم ، وكانت عمة عمر بن عبد العزيز فى كآبة وحزن من تزويج عبد العزيز بأم عمر ـ وهى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ـ ولها فى تزويجها قصة مشهورة ، لأن هذا التزويج صار سبب صلاح رجل أموى ، وهذا مما لاترضاه نساء بنى أمية ورجالهم من قسوة نسائهم ماصنعته إمرأة مروان ابن الحكم حيث وضعت وسادة كبيرة على وجهه وهو نائم ، وجلست عليها مع جواريها حتى مات لأنه كان قد شتمها . وقول أم معاوية بن يزيد لابنها معاوية لما رأت مافيه من الصلاح ليتك كنت حيضة

كما سيأتى ذكر ذلك . وفى عمل أم معاوية بن أبى سفيان من أكلها كبد حمزة وغيره غنى عن البيان .

وكان السر فى صلاح عمر بن عبد العزيز تعلمه بالمدينة ، ومعاشرته لبنى هاشم ، فقد كان يصحب أبا هاشم - عبد الله بن محمد بن الحنفية - ولزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فعرفه مقام على بن أبى طالب عليه السلام وأن سبه كفر وإلحاد ، فلما ولى الخلافة أمر بترك سب على ، وكان بنو أمية يسبونه فى كل خطبة ، واعتاض عمر عنه بقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر » الآية فحل محله عند الناس ، وغضب بنو أمية غضباً شديداً ، وكانوا يقولون : « لو علم الناس مالعلى من الفضل لتفرقوا عنا » ومدحه كثير عزه من أجل ذلك على ما فى - الكامل لابن الأثير - بقوله :

وليت ولم تشتم علياً ولم تخف بريئاً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه من الأود الباقى ثقاف المقوم

فقال عمر حين أنشده هذا الشعر : « أفلحنا إذاً » ورضى كل مسلم بترك سب على عليه السلام إلا أن بنى أمية غضبوا أشد الغضب .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز نقض جميع ما كان أبرمه أسلافه من بنى أمية وغيرهم ، ونظر الى العراق نظراً خاصاً لما كان قدأصابه من ظلم أسلافه وكتب الى عبد الحميد أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وإن قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكون شىء أهم اليك من نفسك ، فلا تحملها قليلا

من الاثم . ولا تحمل خرابا على عامر وخذ منه ماأطاق وأصلحه حتى يعمر ولا تأخذن من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض . الى آخر ما كتبه » . وفى كتابه هذا دلالة على خروج بنى أمية عن الاسلام فى أعمـــالهم .

ولما ولى صعد المنبر فقال : « بعد الحمد والثناء : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع الينا حاجة من لايستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على مانهتدى اليه ، ولا يغتابن أحداً ، ولا يعترض فيما لايعنيه » . فانقشع الشعراء والخطبـــاء ، وثبت عنده الفقهاء والزهاد .

قال ابن الأثير — فى الكامل — : « ثم أحضر قريشاً ووجوه الناس وقال إن فدكا كانت بيد رسول الله ﷺ فكان يضعها حيث أراه الله ، ثم وليها أبو بكر كذلك ، وعمر كذلك ، ثم أقطعها مروان — كذا فى ابن الأثير — والظاهر سقوط كلمة عثمان ، والعبارة ثم قطعها عثمان مروان ، لأن عثمان هو الذى أعطاها مروان وأقطعها إياه — ثم أنها صارت الي ولم تكن من مالي أعود منها على ، وإنى أشهدكم إنى قد رددتها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ . قال : فانقطعت ظهور الناس ويئسوا من الظـــلم » .

وقال — لمزاحم — : « إن أهلى أقطعونى مالم يكن لي أن آخذه ، ولا لهم أن يعطونيه ، وإنى قد هممت برده على أربابه . قال كيف تصنع بولدك فجرت دمعه وقال : « أتكلهم الى الله فردها . ثم أخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ، ففزع بنو أمية الى عمته فاطمة بنت مروان ، فأتته فقالت : تكلم أنت ياأمير المؤمنين فقال : « إن الله تعالى بعث

محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابا الى النـاس كافه ، ثم اختار له ماعنده ، وترك للناس نهراً شربهم سواء ، ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملهما ، ثم لم يزل النهر يستسق منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان إبنا عبد الملك حتى أفضى الأمر الي وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه » . فقالت حسبك قد أردت كلامك قدماً إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً ، ثم قالت له إن بنى أمية يحذرونك يوماً من أيامهم ، فغضب وقال : « كل يوم أخافه غير يوم القيامة فلا آمنت شره » . فرجعت اليهم فأخبرتهم وقالت : أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد ـ عمر بن الخطاب ـ فجاء يشبه جده فسكتوا .

هذه كانت سيرة عمر بن عبد العزيز . فإنه ذكر مظالم بنى أمية وحيادهم عن طريق الحق ، وقتلهم المسلمين ، وسبهم أمير المؤمنين ، ورفع تلك المظالم وردها الى أهلها ، وحمى المسلمين عن القتل ظلماً ، ورفع السب عن أمير المؤمنين ، وعمل بما توجبه أحكام الدين ، فهل أرضى ذلك أمية . لم يرض أمية قول الحق وفعله وأبت إلا البـاطل ، فغضبت على عمر بن عبد العزيز نساء ورجال وتربصت به الدوائر حتى اغتالته فسقته السم وقتلته وهو فى أيام شبابه ، وهذه فظيعة أخرى تضاف الى فضايعهم ، وجريمة تضم الى جرائمهم التى ملأت الآفاق .

هذه أمية وقسوتها وظلمها وجفوتها وفسقها نساء ورجال ، وبغيها على الدين ونبذها وراء ظهرها الكتاب المبين .

ويشبه معاوية بن يزيد بن معاوية عمر بن عبد العزيز ، وعمل أمية مع عمر عملهم مع معاوية .

هلك يزيد بن معاوية (لـع) فبويع لإبنه معاوية ، ولم تخدعه الدنيا فلم

يغتر لانقياد أمية ، وخلع نفسه . قال الدميرى فى ـ حياة الحيوان ـ وغيره من مؤرخ الاسلام .

إن معاوية بن يزيد لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلا ، ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ مايكون من الحمد والثناء ، ثم ذكر النبى ﷺ بأحسن مايذكر . ثم قال :

«أيها الناس ماأنا بالراغب فى الإئتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم ، وإنى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لأننا بلينا بكم وبليتم بنا ، ألا إن جدى معاوية قد نازع فى هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره ، لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله وسابقته ، أعظم المهاجرين قدراً ، وأشجعهم قلباً ، وأكثرهم علماً ، وأولهم إيمانا ، وأشرفهم منزلة ، وأقدمهم صحبة ، ابن عم رسول الله ، وصهره وأخوه ، زوجه ابنته فاطمة وجعله لها بعلا باختياره لها ، وجعلها له زوجة باختيارها له ، أبو سبطيه سيدى شباب أهل الجنة ، وأفضل هذه الأمة تربية الرسول ، وابنى فاطمة البتول ، من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية ، فركب جدى معه ماتعلمون وركبتم معه مالا تجهلون ، حتى انتظمت لجدى الأمور ، فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدى المنون ، بقى مرتهناً بعمله ، فريداً فى قبره ، ووجد ماقدمت يداه ورآى ما ارتكبه واعتداه . ثم انتقلت الخلافة الى يزيد أبى فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد ﷺ ، فركب هواه واستحسن خطاه ، وأقدم على ما أقدم من جرأته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ، فقلّت مدته ، وانقطع أثره ، وضاجع عمله وصار حليف حفرته رهين خطيئته ، وبقيت

أوزاره وتبعاته ، وحصل على ماقدم وندم حيث لا ينفعه الندم ، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه ، فليت شعرى ماذا قال وماذا قيل له هل عوقب بإساءته وجوزى بعمله وذلك ظنى ثم خنقته العبرة فبكى طويلا وعلى نحيبه ثم قال أنا ثالث القوم والساخط على أكثر من الراضى ، وما كنت لأتحمل آثامكم ، ولا يرانى الله جلت قدرته متقلداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم ، فشأنكم أمركم فخذوه ، ومن رضيتم به عليكم فولوه ، فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام » .

فقال مروان بن الحكم . وكان ـ تحت المنبر ـ أسنة عمرية ياأبا ليلى ـ فقال : « أغدوا عنى أعن دينى تخدعنى فوالله ماذقت حلاوة خلافتكم فأتجرع مرارتها ، إئتنى برجال مثل رجال عمر ، والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد قال أبى مغرماً ومأثماً ، ولئن كانت سوء فحسبه منها ماأصابه » . ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكى ، فقالت له أمه : « ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك » فقال : « وددت والله ذلك » ثم قال : « ويلى إن لم يرحمنى ربى » ثم إن بنى أمية قالوا للمؤدبه ـ عمر المقصوص ـ . « أنت علمته هذا ولقنته إياه . وصددته عن الخلافة ، وزينت له حب على وأولاده ، وحملته على مارجمنا به من الظلم ، وحسنت له البدع حتى نطق وقال ماقال » . فقال : « والله مافعلت ولكنه مجبول ومطبوع على حب على » فلم يقبلوا منه ذلك ، وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات .

وذكر كثير من المؤرخين . أن بنى أمية قتلوا معاوية هذا بعد أن خلع نفسه ، بأربعين ليلة ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة

نعم هذه أمية وقسوتها وظلمها رجال ونساء ، ودفنها الصلحاء أحياء ، وخلاعتها . قتلت القائدين الفاتحين وأبادت فى العراق جيوش المسلمين .



سيقول بعض القراء : مالنا وللأمويين لقد مضى عليهم زهـاء ثلاثة عشر قرنا . أليست هناك مواضيع أخرى ألصق بحياتنـــا الحاضرة تستلزم البحث والإستقصاء ، ألا يثير البحث فى هذا النوع من المواضيع اختلافا بين المسلمين نحن فى غنى عنه فى الوقت الحاضر ، أليس البحث فى هذا الموضوع بالذات ينم عن رجعية فى التفكير ؟

إن هذا النمط من التساؤل ينطوى على ما أرى إما على سذاجة فى الإدراك أو على نفاق وتهافت ، أو أنه يتضمن المغالطة والتضليل ، كل ذلك بالطبع يتوقف على الجهة التى يصدر منها . ذلك لأن الأمويين يلازم تاريخهم الناشئة العراقية ـ بنين وبنات ـ طوال المراحل الدراسية الثلاث : الإبتدائية ، والثانوية ، والعالية ، وفى أكثر من جانب من جوانب منهـج التدريس : فى دروس التاريخ والدين والأدب والمطالعة والنصوص . يضاف الى ذلك أن الأمويين يطلون علينا ـ بين حين وآخر ـ من نوافذ المنظمات القومية المنبثة فى أنحاء القطر وبعض أرجاء العـالم العربى . هذا الى أن المرء كثيراً مايصـــادفهم فى منظوم القول وفى منثوره . فقد تغنى بمجدهم فريق من الكتاب المعاصرين . وحن الى عهدهم رعيل من الشعراء المحدثين . فالدكتور بديـع شريف ، مثلا ، يشيد بمجدهم فى كتابه الممتع « الصراع بين الموالى والعرب » والدكتور عبد الرزاق محيي الدين فى قصيدته الرقيقة ـ

. . . . اما معـاوية　　يعلو الأريكة أو أبو الحسن

فلماذا لا يعترض المعترضون على ذلك ؟ ويعتبرونه رجعية فى التفكير ؟ لأنه يدعو الى إرجاع عهد مرت عليه مئات السنين . لماذا لا يطلبون من وزارة المعارف أن ترفع كابوس الأمويين عن كاهل الطلاب والطالبات ؟ هل الرجعية المزعومة ناتجة عن كون بحثنا هذا يختلف عما ألفه المعترضون من حقائق مدرسية عن التاريخ الأموى .

أما الدعوة الى البحث فى أمور ألصق بحياتنا القومية من الأمويين فكلمة حق يراد بها الباطل . ذلك لأن الحديث عن الأمويين لا يحول دون التصدى للبحوث الأخرى بالتمحيص والنقد . وأما الإختلاف بين المسلمين فموجود فى أغلب نواحى الحياة ، بما فى ذلك موقفهم من الأمويين . وما هذه الدراسة فى الواقع إلا صدى لذلك الإختلاف . فهى نتيجة من نتائجه لا سبب من أسباب حدوثه . ولعلها ـ إذا ما قرئت بعين الانصاف والتدبر ـ تخفف من حدة ذلك التوتر بين المسلمين فى موقفهم من الأمويين على الأقل .

على أن الأمر ، مع هذا ، أعمق من ذلك كله بكثير . فالأمويون ملتصقون بحياتنا العامة أشد الالتصاق : تؤثر سيرتهم فينا بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة أحياناً أخرى . فالقومية العربية بشكلها النازى الممقوت من حيث موقفها من العرب غير المسلمين ومن المسلمين غير العرب ، هى إحدى مخلفات الأمويين . وتظاهر الكثيرين منا باحترام الدين واتباع أوامره ونواهيه فى القول ومخالفتهم ذلك فى (العمل) هو الآخر من آثارهم . واهتمام كثير من المشتغلين بالأمور الدينية بالجوانب الثانوية الأهمية من الدين على حساب جوهره هو أيضاً من مخلفاتهم .

والخلاصة . أننا مرضى فى أخلاقنا ، يأمر أغلبنا بالفضيلة ولا يفعلها ، وينهى عن الرذيلة ويتعاطاها . وما هذا الانحراف الخلقى ، على

ماأرى إلاأحد مخلفات الآمويين . تدست أمة تستوحى مثلها العليا ، فىالسياسة والأخلاق ، من معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن سمية ، والحجاج بن يوسف ، ومن هم على شاكلتهم من الحكام والأمراء »١

ومعى قصة ظريفة أستعرضها بهذه المناسبة وهى :

أن صاحب المنار ـ محمد رضا رشيد ـ ذكر فى كتابه (الوحى المحمدى) تحت عنوان ـ علو حضارة الاسلام ـ :

« ان أحد كبار علماء الألمان فى الأستانة قال لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : إنه ينبغى لنا أن نقيم تمثالا من الذهب ـ لمعاوية بن أبى سفيان ـ فى ميدان كذا من عاصمتنا برلين ، قيل له لماذا قال لأنه هو الذى حول نظام الحكم الاسلامى عن قاعدته الديمقراطية الى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لعم الاسلام العالم كله وإذن لكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوربا عربا مسلمين » .

لقد كان معاوية يسير فى حكمه على سياسة جاهلية مكشوفة هى والدين الاسلامى على طرفى نقيض ، وتتلخص تلك السياسة بجملة واحدة ، هى الانصراف الكلى للحياة الدنيا ـ بأبشع صورها ـ والتكالب على موبقاتها وملاذها الرخيصة على حساب الدين .

ولم يكتف « أمير المؤمنين » و « خليفة » رسول الله ـ إن صح هذا القول ـ بضرب المسلمين ببعضهم بشتى الوسـائل ومختلف المؤامرات للمحافظة على سلطانه ، بل حالف البيزنطيين ـ أعداء المسلمين والاسلام ـ على حساب المصلحة الاسلامية العليا . فقد عقد معاوية مع أمراء البيزنطيين سلسلة من المعاهدات الرامية الى تثبيت قواعد ملكه على حساب الاسلام

---

١ ـ نورى جعفر فى كتابه ـ الصراع بين الأمويين ومبادىء الاسلام

والمسلمين . ولعل أبشع تلك المعاهدات ـ غير المتكافئة ـ تلك التى عقدها معاوية ـ بمحض اختياره ـ مع الأمير البيزنطى ـ كونستان الثانى فى عام ٣٩ هـ . فدفع معاوية ـ وفقاً لمستلزمات هذه المعـــاهدة ـ الجزية للأمير البيزنطى المذكور . كل ذلك نكاية برابع الخلفاء الراشدين ، عند ما أعلن معاوية العصيان عليه والتمرد على القرآن وسنة النبي ﷺ .

أفبهذا تفخر العروبة أى خزى وذل على العروبة والاسلام أنكى من هذا .

ولقد كان النبي ﷺ يلتقى مع معاوية أحياناً ويصارحه بقوله : « أنت رأس الحطم ومفتاح الظلم أكلك كثير وظلمك عظيم ، تتخذ البدعة سنة والقبيح حسناً يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير » .

ويحدث بن أبى الحديد فى المج ٣ ص ١١٥ من شرح النهج ط م عن المغيرة بن شعبة إنه قال . « قال لي عمر بن الخطاب يوماً يامغيرة هل أبصرت بعينك العوراء منذ أصيبت قلت لا قال . أما والله ليعورن بنو أمية الإسلام كما اعورت عينك هذه ثم ليعمينه حتى لا يدرى أين يذهب ولا أين يجىء » .

والنبي ﷺ يقول : « ويل لأمتى من بنى أمية » وقوله : « رب يوم لأمتى من معاوية ذى الإساءة » .

بعث محمد ﷺ فأنقذ العرب من الظلمات الى النور ، وملك العرب بأحكامه شرق الأرض وغربها ، وتمت كلمتهم . ولما بسط الاسلام جناح الرأفة على وجه البسيطة اختص به بنو أمية أعداءه بالأمس . وقتـــلوا أبناء محمد فى كل مكان .

ما كان ذنب يحيى بن زيد بن على بن الحسين عليه السلام ـ سبط رسول الله ـ حتى يقتل فى أرض الجوزجان من أعمال خراسان ، ويهدى رأسه ورؤوس أصحابه الى فاسق بنى أمية ـ الوليد بن يزيد ـ .

وبأى جريمة أخذ زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام وكان يسمع شتم آبائه على المنابر ، فغار لذلك ، وسير من المدينة الى الشام ، ومنها الى العراق ، حتى قتل بالكوفة ودفن ثم نبش وأخرج واحتز رأسه وسير به الى الشام وصلب على بابها ، ثم سير الى المدينة . وصلب بدنه فى الكوفة بالكناسة مع نفر من أصحابه ، وبقى مصلوبا أربع سنين ، الى أن هلك هشام وولي الوليد بن يزيد ، فكتب ـ بعد قتل يحي بن زيد ـ ، الى يوسف بن عمر ـ عامله على العراق ـ أن خذ عجل أهل العراق فأنزله من جذعه واحرقه بالنار ثم انسفه باليم نسفا . فأمر يوسف فأحرق جسد زيد ورض بالهراوين ، وحمله فى سفينة ، ثم ذراه فى الفرات . هذه أعمال أمية مع أهل بيت محمد ﷺ وبه صاروا ملوكا بعد أن كانوا رعاة الإبل ، فكان جزاءه منهم ما اقترفوه من ذريته .

وأعظم خطب وأفظع أمر ، والمصيبة كل المصيبة ، والرزية كل الرزية قتل بن بنت محمد وابن على فى أرض العراق بأمر يزيد بن معاوية ، وانتهاك يزيد حرمة الإسلام .

كان الأولى أن لا أتعرض لذكر يزيد . وما جناه على الإسلام . فإن مصيبة الإسلام به عظيمة ورزيته جليلة ، تذيب الأكباد وتقرح القلوب ، وتقشعر لها الأبدان . ويبرأ منها كل إنسان كافراً كان أم مسلماً . ولم أكن أود أن أزعج النفوس بذكر فجائع بن معاوية الطليق ـ خزى العروبة وعار البشرية ـ . ولكن أيقنت بخطيئتى الكبرى من الكف عن ذكره وذكر مساويه . وعرفت سعر قول النبى ﷺ ـ ماأخرجه الطبرانى ـ والخطيب البغدادى ـ « حتى متى ترعوون عن ذكر الفاسق اهتكوه يحذره الناس » ، وقوله ﷺ ماأخرجه بن أبى الدنيا ـ « ثلاثة لاتحرم عليك أعراضهم ، المجاهر

بالفسق ، والإمام الجائر ، والمبتدع » .

وعلى ذلك جرت سيرة الصحابة فى ذكرهم معائب معاوية وبنى أمية وأهل الفسق والنفاق ، والأصل فى ذلك كله القرآن ، فإن السر فى ذكر معائب الأمم ومثالب الكفار ، هو الدعوة الى تجنب نظائر أعمالهم والحذر عن الوقوع فى مثل ماوقعوا فيه ، وذلك من أهم مقاصد المصلحين . لذلك عزمت على ذكر شىء من مثالب أمية . ومن يستطيع ذكر جميع معائبهم . ولقد أجاد كهية بغداد عبد الباقى العمرى بقوله :

واحربا ياآل حرب منكم ياآل حرب منكم واحربا
فيكم ومنكم واليكم وبكم مالو شرحناه فضحنا الكتبا

ولكن لايترك الميسور بالمعسور ، ولا بد من ذكر شىء على سبيل الايجاز ، ليعلم الناس ذلك ويتجنبوا نظائر أعمالهم المهلكة المردية .

ولم أعتمد فى نقلى مثالب أمية على الكتب الشيعية - وإن كانت مليئة بذلك - وكلما نقلته سابقاً وأنقله لاحقاً إنما أنقله عن الكتب السنية المعتبرة - كالصحاح والمسانيد والجمع بين الصحيحين ، وكتاب المفاخرة بين بنى هاشم وبنى أمية للجاحظ ، وشرح العقائد النفسية للتفتزانى ، وكتاب تجويز لعن يزيد للسبط بن الجوزى ، وشرح البخارى لابن حجر ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ، وتاريخ بن جرير الطبرى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وتفسير الرازى وأبى السعود والبيضاوى والخازن البغدادى ، وتاريخ الخميس وابن خلدون - وغيرها من الكتب المعتبرة عند أهل السنة . وقلما سميت إسم الكتاب الذى أنقل عنه لانتشار هذه الكتب ، وعدم الحاجة الى ذكر أسمائها .

والسبب فى الاقتصار على الكتب المعتبرة عند أهل السنة دون غيرها

هو الدعوة الى اتحاد الكلمة ، فإن أحد أغراض رجال الاستعمار من الدعاية الأموية هو تفريق كلمة المسلمين ، فمن داع الى أمية ، ومن داع الى هاشم ، وبذلك تعود الفروق والاختلافات التى كانت بين الشام بدعوة أمية ، والعراق الهاشمى ، والحروب التى أهلكت الفريقين ، وبذلك يصح المثل الانكليزى السائر (فرق تسد) .

وها نحن ندعو جميع المسلمين أن لا يقتدوا بأمية فى أفعالها ، ولا يسببوا اختلاف الكلمة بإسم أمية وهاشم ، ولينظروا أمية وهاشماً بعين الانصاف ويحلوا كلا محله اللائق به ، ويعطوه منزلته التى أنزله الله فيها ، ولا ينخدعوا للأغراض الأموية ، ويقول الحق ولا يهمهم سواه ، فالحق أحق أن يتبع

وبالأحرى أن نلفت أنظار شبابنا العراقى المثقف ، الذى هو السلاح الجاهز للأمة وقوتها النارية وعدتها فى الشدائد ، والذى تسيره حنكة الشيوخ فى تجاربهم كى ترتسم فيه فضيلة الشجاعة والاعتدال هذا الشباب الذى أصبح فى عصر تجلت به الحقائق وتقلصت فيه الخيالات فما أقبح بالذكى أن يتغابا ، وبالبصير أن يتعامى ، وبالعالم أن يتجاهل . أيها الشباب لا يخدعنكم عن الحق استهواء من يستهويكم ، وكيد من يكيدكم ، ولا يميلن بكم عن صوب الصواب مقال بعض المنتسبين اليكم ، والمتخذين هذا الشعار جنة ووسيلة لنيل أغراضهم

ونرجو من جمهوريتنا خاصة أن تعيننا على ردع الجهال عن الأعمال الأموية ، والدعارة الوليدية ، والخمور اليزيدية ، فإن ذلك هلاك العراق والعروبة والاسلام .

وبعد هذا التوضيح والبيان أقول : يزيد مثل سائر الأمويين عدو للإسلام ، لكن الخمر انضم الى خبث المولد فيه فدعاه الى المجاهرة بما تكتم به غيره ، وحارب الاسلام ـ منقذ العروبة ـ انتقاماً لآبائه الذين قتلوا فى

حرب بدر وأحد ، وأكثر غزوات النبي صلى الله عليه وآله . فحارب الاسلام بكل مايستطيع وهو المتمثل بقول - ابن الزبعرى - بعد قتل الحسين عليه السلام .

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا ولقالوا بعد غيب لاتشل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لست من خندق إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

وفي هذه الأبيات دلالة صريحة على أنه لم يقصد إلا الانتقام لقتلى بدر ومن قتلى بدر عمه - حنظلة بن أبي سفيان - كان قد قتله علي عليه السلام يوم بدر وانه لم يؤمن بالله ، ولا بالمعاد ، ولا يعرف للإسلام حرمة . وانه مغضب على رسول الله صلى الله عليه وآله حيث دعى الى التوحيد والاصلاح ، ونبذ عبادة الأصنام والافساد ،ولم يترك أمية تذل العروبة بشركها ، وإفسادها ، وإلحادها وتحرم البشر من الاصلاح الاسلامي والرحمة الدينية .

كان يزيد - لخبث نسبه - يجاهر بالعداء للنبي خاصة وللإسلام عامة قولا وفعلا ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله يتخوف يومه على الاسلام ، والأحاديث في ذلك كثيرة نقل السيوطي - في تاريخ الخلفاء - عن مسند أبي على : إن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لايزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من ثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد » . وروى أيضاً عن مسند الروياني - عن أبي الدرداء - : إن النبي صلى الله عليه وآله قال : « أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد »ومن شعر يزيد الذي يهتك به ستره ويذيع سره قوله :

شميسة كرم برجها قعر دنها ومشرقها الساقي ومغربها فمي
فإن حرمت يوماً على دين أحمد فخذها على دين المسيح بن مريم

وقوله :

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم   وداعى صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة   فكل وإن طال المدى يتصرم

ماأشبه هذا بقول الفرنسيين اليوم ، إذ يقول الأب لابنته إذا بلغ لها من العمر ثمانية عشر سنة : إغتنمى فرصة شبابك من هذه الحياة وتلذذى بما شئت .

وقوله :

علية هاتى واعلنى وترنمى   بذلك إنى لاأحب التناجيا
حديث أبى سفيان قدماً سمى بها   إلى أحد حتى أقام البوا كيا
ألا هات سقينى على ذاك قهوة   تخيرها العنسى كرماً شآميا
إذا مانظرنا فى أمور قديمة   وجدنا حلالا شربها متواليا
وإن مت ياأم الأحيمر فانكحى   ولا تأملى بعد الفراق تلاقيا
فإن الذى حدثت عن يوم بعثنا   أحاديث طسم تجعل القلب ساهيا

وقوله :

معشر الندمان قوموا   واسمعوا صوت الأغانى
واشربوا كأس مدام   واتركوا ذكر المعان
شغلتنى نغمة العيدان   عن صوت الأذان
وتعوضت عن الحور   عجوزاً فى الدنان

الى غير ذلك مما نقله ـ السبط بن الجوزى ـ من ديوان يزيد . يقول ولهذا تطرق الى هذه الأمة العار بولايته عليها . ولما لعنه جدى أبو الفرج على المنبر ببغداد بحضرة الامام الناصر وأكابر العلماء ، قام جماعة من الجفاة من مجلسه فذهبوا ، فقال جدى : « ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » .

وحكى لي بعض أشياخنا عن ذلك اليوم : ان جماعة سألوا جدى عن يزيد فقال : ماتقولون فى رجل ولي ثلاث سنين فى السنة الأولى قتل الحسين وفى الثانية أخاف المدينة وأباحها . وفى الثالثة رمى الكعبة بالمجانيق وهدمها فقالوا يلعن فقال : فالعنوه .

وقال جدى فى كتاب الرد على المتعصب العنيد : قد جاء فى الحديث لعن من فعل مالا يقارب عشر معشار فعل يزيد ، وذكر الأحاديث التى ذكرها - البخارى ، ومسلم فى الصحيحين : - مثل حديث بن مسعود عن النبي ﷺ « إنه لعن الواشمات والمتوشمات » . وحديث بن عمر لعن الله الواشمة والمتوشمة ولعن الله المصورين » . وحديث جابر لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله » . وحديث بن عمر لعنت الخمر على عشرة وجوه » . وهذه الأشياء دون فعل يزيد فى قتله الحسين وأخوته وأهله ، ونهب المدينة وهدم الكعبة وضربها بالمجانيق ، وأشعاره الدالة على فساد عقيدته .

كان حنق يزيد على الاسلام شديداً ، ولم تطف غلته مجاهرته بالعداء للإسلام وترويج الفساد عامة ، بل عمد الى أركان الاسلام فنقضها ركناً ركناً فقد قتل ذرية محمد ﷺ وسبى نساءهم ، واستباح حرمة المدينة وحرم النبي وقتل من بقى من أصحاب محمد من شيوخ المهاجرين والأنصار الذين أعانوا ونصروا محمداً فى إنقاذ البشر ، وعمد الى - الكعبة - شعار العرب قبل الاسلام ، ومنتسك المسلمين بعده - فنصب المنجنيق عليها ورماها بالحجارة وأحرقها وأراد هدمها ، لكن الله تعالى عجل له الويل من نقمه قبل هـــدم الكعبة .

أفبهذا تفخر العروبة ، أليس فى ذلك هلاك العروبة وحلولها دار البوار . يقول أبوا العلاء المعرى :

أرى الأيام تفعل كل نكر　　وما أنا بالعجائب مستزيد

أليس قريشكم قتلت حسيناً　　وكان على خلافتكم يزيد

قال ابن الجوزى الحنبلى فى رسالة تجويز لعن يزيد : « وفد من المدينة الى الشام وفد ، ولما رجعوا شتموا يزيد وقالوا : قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويلعب بالكلاب » . كأنه من دعاة المدنية الحاضرة .

وروى محمد بن على بن طباطبا - المعروف بالطقطقى - فى تاريخه - الآداب السلطانية - فى أحوال يزيد (لع) قال : كان - يزيد بن معاوية - أشد الناس كلفاً بالصيد ، لايزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه » . قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية وجعلها فى خزن بيت المال　فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق ليشكو حاله الى يزيد - وكانت دمشق فى تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل الرجل الى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه فى الصيد ، فكره أن يدخل دمشق وليس يزيد حاظراً فيها ، فضرب مخيمه ظاهر المدينة وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، فبينا هو فى بعض الأيام جالس فى خيمته لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه الخيمة وفى قوائمها الأساور من الذهب وعليها جل يساوى مبلغاً كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وقد كادت تموت تعباً وعطشاً ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه ، فقام اليها وقدم لها ماء وتعهدها بنفسه ، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل وعليه زى الملوك وقد علته غبرة ، فقام اليه وسلم عليه ، فقال له أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع ، فقال نعم يامولاى ها هى فى الخيمة قد شربت ماء واستراحت

وقد كانت لما جاءت الى هنا جاءت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر الى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بحبلها ليخرج فشكا الرجل اليه حاله وعرفه ماأخذ منه عبيد الله بن زياد ، فطلب منه دوات وكتب له برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج . فرجع الرجل من ساعته الى الكوفة ولم يدخل دمشق » .

ويحدثنا المسعودى فى (مروج الذهب) بقوله : « وفى أيام يزيد ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب » وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ ،وكان قرداً خبيثاً وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة فجاء فى بعض الأيام سابقا فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء الحرير الأحمر والأصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع الألوان .

نقل بن الجوزى الحنبلى فى ـ رسالة تجويز لعن يزيد ـ « إن أهل البيت (ع) لما وردوا إلى الشام ووصلوا الى محلة جيرون بالقرب من المسجد الأموى أنشد يزيد :

لما بدت تلك الحمول وأشرقت　　تلك الشموس على ربا جيرون

نعب الغراب فقلت نح أولا تنح　　فلقد قضيت من النبى ديونى

لم يكن لبنى أمية من قتل الذرية الطاهرة غرض إلا الإنتقام لمشركى بدر (من النبى ﷺ) قال أبو عبيدة فى كتاب ـ المثالب ـ وأبو جعفر الطبرى فى ـ تاريخه ـ « إن عبيد الله بن زياد كتب الى ـ عمرو بن سعيد ابن أبى العاص الأموى ـ بقتل الحسين عليه السلام ، « وكان والياً على المدينة)

فصعد المنبر وقرأ كتاب بن زياد وأظهر البشر ، ثم أومأ الى القبر الشريف - قبر النبي ﷺ - وقال يامحمد يوم بيوم بدر ، أما انها لدمة بلدمة ، وصدمة بصدمة » فأنكر عليه قوم من الأنصار .

يقول عبد الباقى العمرى الموصلى :

على يزيد دون إبليس إذا　　ماذكر اللعن انتمى وانتسبا
نحكم فى تكفيره إن صح ما　　قد قال للغراب لما نعبا

والموجود فى ديوانه إن صح وهو من التحريف ، لأنه لعنه بلا شرط فلا ينبغى أن يحكم بتكفيره بشرط .

قال منصور النميرى - شاعر هارون الرشيد - :

لاشك عندى فى كفر قاتله　　لكننى قد أشك فى الخاذل
يقتل ذرية النبي　　ويرجون جنان الخلود للقاتل

تذكرنى هذان البيتان مارواه الدميرى - فى حياة الحيوان - : « من أن سبايا بنات النبي ﷺ ورؤوس ذريته لما مروا بهم فى طريقهم الى الشام على دير فى البيداء ، وجدوا مكتوبا على حائط الدير هذا البيت :

أترجوا أمة قتلت حسيناً　　شفاعة جده يوم الحساب

فسألوا الراهب عن كاتب هذا البيت . فقال انه مكتوب هنا قبل أن يبعث نبيكم بخمسمائة عام » . وقيل إن الجدار انشق فظهرت كف مكتوب فيها بالدم هذا البيت .

هذا يزيد أمير أمية وخليفتها ، وهذه بعض جرائمه وآثامه . ولو أردت استيفاء مانقل عنه فى مدة إمرته القصيرة اضاق بى المجال . ويكفى منها هذا المختصر لبيان أن أمية لم يكن لها غرض إلا هدم الإسلام ، وبهدمه إبطال نبوة محمد وهدم العروبة ، وانه لم يهم أمية إلا الإنتقام ممن بنى مجد العروبة على

أساس الإسلام ، وأخرجها من الذل ، وصيّر رعاة إبلها ملوك الأرض .

هذه أمية وهذا ابنها يزيد . يزيد هذا هو الذى نصبه معاوية أبوه لخلافة المسلمين ، وأمره على شيوخ الأنصار والمهاجرين وصحابة رسول رب العالمين ، وتقحم فى سبيل ذلك الهلكات ، وهدم بسببه أساس الإسلام ، وعطل جميع الأحكام ، إذ لم تكن الخلافة قبل ذلك إرثاً وإنما كانت بالنص أو بالشورى ، فخالف معاوية الإسلام وجميع المسلمين وجعلها إرثاً وملكا عضوضاً .

يقول الشيعة : يجب أن يكون الإمام معصوما لئلا يخطأ فى الحكم على الرعية ، ويسوقهم الى الردى والحيف والهوى ، ولا يعرف ذلك إلا خالق البرية ، فهو الذى ينصب لخلقه إماماً هادياً مقيما للحدود والشرايع ، كما يرسل لهم نبياً بشيراً ونذيراً .

ويقول أهل السنة . الخلافة بانتخاب الأمة أصلحهم وأقواهم على الحكم وإقامة شعائر الاسلام .

ويقول معاوية . لاهذا ولا ذاك ، وإنما هو ابنى يزيد شارب الخمور ورأس الفجور ، ناكح الأمهات والأخوات والعمات ، هو الذى يتأمر على شيوخ المهاجرين والأنصار ، فهل هذا إلا سوق للعروبة الى دار البوار بهدم أمتن أسس الاسلام . فحسب معاوية فى دعوته الى ابنه يزيد وأخذ البيعة له من المسلمين كرهاً قول النبى ﷺ فيما أخرجه الحاكم - فى المستدرك - انه قال : « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . وما أخرجه البخارى - فى صحيحه - من قول النبى ﷺ : « مامن وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » . وأي غش للمسلمين أعظم من نصب يزيد على

كفره وزندقته وعداوته للإســـلام خليفة عليهم وفيهم من هو أرضى لله منه ومن أبيه ومن كثير من المسلمين . فيهم خيرة الصحابة ، وبقية الأنصار والمهاجرين والبدريين ، فيهم عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، فيهم أولى الناس بالخلافة ـ ريحانة رسول الله ، وسيد شباب أهل الجنة ـ الحسين عليه السلام أى خيانة لله ولرسوله ، وغش للإسلام والمسلمين أكبر من كره معاوية خيرة الصحابة على البيعة ليزيد .

ذكر المؤرخ بن قتيبة فى كتابه ـ الامامة والسياسة ـ من أمر معاوية وإكراهه الناس على البيعة ليزيد ، ونصح أهل التقى والرأى من المسلمين له فى ترك ذلك ، وذكرهم أن القرآن والسنة يمنعان من تولية يزيد . ومثله ذكر سائر المؤرخين . إلا أن معاوية لم يعتن بنصح الناصحين ، ولم يزد إلا عتواً وغرورا فجاء المدينة وجمع العبادلة ـ عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن الزبير ـ وكلمهم فى ذلك ، وذكر أنه لم يحضر الحسن والحسين (ع) إلا لأنهما إبنا أبيهما ، فأظهر له الجماعة كراهتهم لهذا الأمر ورده ابن عباس ، وقال عبد الله بن جعفر بعد الحمد والثناء :

« أما بعد فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن » « فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ﷺ فأولوا رسول الله ، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين ـ أبى بكر وعمر ـ فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ولأطيع الله وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان . فاتق الله يامعاوية فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيتك فإنك مسؤول عنها غداً . وأما ماذكرت من بنى عمى وتركك أن تحضرهما فوالله ما أصبت الحق ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وأنت

تعلم أيهما معدن العلم والكرم ، فقل أودع وأستغفر الله لي ولكم » .

ونصحه ابن الزبير وذكر له فضل الحسنين والعبادلة ، واستحقاق يزيد الخلافة وهن فى الأمة ، وحكمه من نفسه » وتكلم معه ابن عمر بمثل هذا وكذلك ابن عباس . لكن معاوية لم يصغى لنصحهم ولم يزدد إلا عتواً وغرورا فقام وأخذ البيعة من أهل المدينة بالقهر والسطوة والإخافة والتوعيد ، فبايع الناس إلا هؤلاء والحسين عليه السلام ومن تابعه من بنى هاشم فخلا معاوية سراحهم ولم يجبرهم الى أن هلك ، فأوصى نغله يزيد أن يأخذ البيعة منهم قهراً .

نظام القتال عند محمد ﷺ

إن القتال فى سبيل الله فريضة شاقة . ولكنها فريضة واجبة الأداء واجبة الأداء لأن فيها خيراً كثيراً للفرد المسلم . وللجماعة المسلمة ، وللبشرية كلها ، وللحق والخير والصلاح .

والإسلام يحسب حساب الفطرة ، فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا يهون من أمرها . ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها وثقلها . فالإسلام لايمارى فى الفطرة ، ولا يصادمها ، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التى ليس الى إنكارها من سبيل . ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، ويسلط عليه نوراً جديداً . . إنه يقرر أن من الفرائض ماهو شاق مرير كريه المذاق ، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسيغ مرارته . وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لايراه النظر الإنسانى القصير . عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ، ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التى يراه منها . نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور . . إنه من يدرى فلعل وراء المكروه خيراً . ووراء المحبوب شراً . إن العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذى يعلم وحده حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة .

وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة . وتتفتح منافذ الرجاء ، ويستروح القلب فى الهاجرة ، ويجنح الى الطاعة والأداء فى يقين وفى رضاء .

هكذا يواجه الإسلام الفطرة . لامنكراً عليها مايطوف من المشاعر الطبيعية ، ولا مريداً لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف . ولكن مربياً لها على الطاقة ، ومفسحاً لها فى الرجاء . لتبذل الذى هو أدنى فى سبيل الذى هو خير ، ولترتفع على ذاتها متطوعة لامجبرة ، ولتحس بالعطف الآلهى الذى يعرف مواضع ضعفها ، ويعترف بمشقة ما كتب عليها ، ويعذرها ويقدرها ، ويحدو لها بالتسامى والتطلع والرجاء .

وهكذا يربى الإسلام الفطرة ، فلا تمل التكليف ، ولا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند المشقة البادية ، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة ولكن تثبت وهى تعلم أن الله يعذرها ويمدها بعونه ويقويها . وتصمم على المضى فى وجه المحنة ، فقد يكمن فيها الخير بعد الضر ، واليسر بعد العسر ، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء . ولا تتهالك على ماتحب وتلتذ . فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة ! وقد يكون المكروه مختبئاً خلف المحبوب وقد يكون الهلاك متربصاً وراء المطمع البراق .

انه منهج فى التربية عجيب . منهج عميق بسيط . منهج يعرف طريقه الى مسارب النفس الانسانية وحناياها ودروبها الكثيرة . بالحق وبالصدق . لا بالايحاء الكاذب ، والتمويه الخادع . فهو حق أن تكره النفس الانسانية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه الخير كل الخير . وهو حق كذلك أن تحب النفس أمراً وتتهالك عليه ، وفيه الشر كل الشر . وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لايعلمون ! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب ؟ وماذا يعلم الناس

مما وراء الستر المسدول ؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لاتخضع للهوى والجهل والقصور ؟ !

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشرى لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذى تبصره عيناه . وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل فى صميم الكون وتقلب الأمور ، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه وإنها لتتركه حين يستجيب لها طيعاً فى يد القدر ، يعمل ويرجو ويطمع ويخاف ، ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل ، وهو راض قرير . إنه الدخول فى السلم من بابه الواسع . فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله . وأن الخير فى طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان ! إن الاذعان الواثق والرجاء الهادىء والسعى المطمئن . هى أبواب السلم الذى يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة وهو يقودهم اليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط ، فى يسر وفى هوادة وفى رخاء . يقودهم بهذا المنهج الى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال . فالسلم الحقيقية هى سلم الروح والضمير حتى فى ساحة القتال .

إن هذا هو المنهج التربوى الذى يأخذ القرآن به النفس البشرية لتؤمن وتسلم وتسلم فى أمر الغيب المخبوء ، بعد أن تعمل ماتستطيع فى محيط السعى المكشوف .

* * *

فهل عرف ذلك خصوم الاسلام قبل أن يكيلوا له الكيل ، ويرددوا قولهم بأن الاسلام إنما شق طريقه بالقوة ، وانتشر بحد السيف ، واستقر فى البلاد المفتوحة بالقسر والاجبار . وأغلب الظن أن هذا الزعم وليد العصر الحديث ، إذ كان من هم الاستعمار الغربى للعالم العربى والاسلامى أن يزلزل

عقيدته . ويقوض حصنه الذى عز على الخطوب ، وقهر القوى كلها .

وقد انقسم المسلمون فى تنفيذ هذا الزعم الى فريقين . فريق قليل لم يجد على الاسلام غضاضة فى أن يجبر الناس على اعتناقه بالسيف ، لأنهم أصحاب ضلالة وعناد وشرور توشك أن تقضى عليهم ، فلا تثريب عليه فى أن يضطرهم بالقوة الى مافيه خيرهم ورشادهم ورقيهم ، فهو كالمربى الحازم المخلص لامندوحة له عن التوسل بالقوة إذا وجد من يربيهم إصراراً على المعصية ، وتماديا فى الغـــواية .

وفريق آخر أكثر عدداً وأقرب الى الصواب لم يطمئنوا الى هذا الدفاع وجعلوا يستمدون من القرآن والسنة مايثبت أن الاسلام لايعرف الاجبار والاكراه على اعتناقه ، ويستدلون على تأييد هذا بتاريخ الأمم المفتوحة .

أما طريقتنا فى الرد والكشف عن الجهاد الاسلامى ، فستقوم على تتبع الأحداث والكشف عن بواعثها ، والاعتماد على القرآن والحديث وتاريخ البلاد التى فتحها المسلمون ، ثم نمزج بها ونعقب عليها بشهادات من المسيحين أنفسهم ، ونعقد موازنات بين سماحة الاسلام ، وسماحة المسلمين فى معاملة المحاربين من خصومهم ، وبين قسوة اليهود والمسيحيين وغيرهم فى التنكيل بأعدائهم ، والتضييق عليهم فى كل ناحية من نواحى حياتهم ، لنخلص من هذا كله الى أن الاسلام برىء مما اتهموه به ، وأنه دين رحمة وسلام ، كما أنه دين قوة أيضاً حيث تلتمس القوة لصيانة العقيدة وحماية الأرواح .

حالة العرب قبيل الاسلام :

كان العرب فى العصر الجاهلى يحيون حياة قبلية ، لايهدأ فيها القتال إلا

ريثما يتأهبون لقتال آخر ، ومن شأن نظام مثل هذا أن يقطع الأواصر ، ويزلزل السكينة ، ويعوق عن التقدم ، ويقضى على الناس . لهذا إمتن الله عليهم بالاسلام الذى أنجاهم من الفناء فى قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » وكان المجتمع العربى يدين أكثره بالوثنية ، وتتفشى فيه أمراض اجتماعية شتى ، كالخمر والميسر والسلب . وبعض قبائل من هذا المجتمع كانوا يئدون البنات مخافة الفقر أو السبى فى الحرب .

وفى تاريخ العرب ماينبىء أن بعض عقلائهم سخطوا هذه الأحوال ، والتمسوا مايخففها أو يلطفها . يدل على ذلك ظهور جماعة سموا بالحنفاء ، طلبوا الحقيقة الدينية ، وهاجروا الى البلاد فى التماسها . ويدل على ذلك أن بعض العرب حرم الخمر على نفسه ، وأن بعض سراتهم تعاهدوا على دفع الظلم وإنصاف المظلومين فى حلف الفضول . وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف فى دار - عبد الله بن جدعان - وقال عنه : « لقد شهدت حلفاً فى دار بن جدعان ، ماأود أن لي به حمر النعم » .

هذا التطلع من بعض العرب كان إستشراقا لحياة أرقى ، وإعداداً إلهياً لظهور الاسلام ، وتربية إجتماعية ودينية وسياسية ، لأن يبعث من الجزيرة العربية رجالا يحملون رسالة يجاهدون فى نشرها ، ويفدونها بالأموال والدماء والأرواح .

مقاومة المشركين للدعوة :

جاء محمد - ﷺ - بدين جديد ، ينشىء مجتمعاً مثالياً فى عقيدته وعبادته ، ونظمه . ويلغي كثيراً مما ألفوه من عقائدهم ونظمهم وأخلاقهم

وعاداتهم . وأخذ يدعو الى الإسلام سراً ، فآمن به بعض المقربين اليه ، فلما ازداد عددهم جهر بالدعوة « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »

١ – حينئذ تصدى له المشركون من قريش ، يكذبونه ويؤذونه ، وهو يصبر على الأذى والتكذيب ، ويبين لهم ما في دعوته من حق وخير . ثم تحداهم بالقرآن ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فإذا عجزوا كان عجزهم برهاناً على أنه من عند الله ، وأنه نبي مبعوث اليهم بهذا الدين الجديد .

فهل قدروا أن يأتوا بسورة أو ببعض سورة ؟ لا . وهل صدقوه ؟ لا ، بل تمادوا في عنادهم واستكبارهم ، فرموا النبي بالكذب وبالجنون وبالسحر كما حكى القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاؤا ظلماً وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » . وفي قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » . وفي قوله تعالى . « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ، ويقولون إنه لمجنون » . واستكبروا أن يعبدوا الله كما يدعوهم محمد الى عبادته « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » . وطالبوا النبي ﷺ بمعجزات تدل على تعنتهم وإصرارهم على الكفر ، قال تعالى . « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربي ، هل كنت إلا بشراً رسولا » وعجبوا من أن يكون الرسول رجلا منهم يأكل كما يأكلون ، ويمشي

كما يمشون ، لا يصاحبه ملك من السماء يؤيده فى دعوته ، وليس له كنز من المال يغنيه ويدل على رسالته ، وليست له حديقة مثلهم تدر عليه الخير .

« وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » .

لكن النبي ﷺ صبر على تكذيبهم وسوء اتهامهم ، وألم إعناتهم وأمره الله أن يقول لهم : « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » . كانت الدعوة تشق طريقها الى القلوب بقوتها الذاتية ، وسموها الإجتماعى . وكلما ازدادت الدعوة ذيوعا ازدادت قريش حنقاً على النبي وعلى من أسلموا فما الذى أحنق قريشاً ؟

لم يكن من سبب لحنقهم إلا الأنفة من أن يتبعوا رجلا منهم يبلغ عن ربه . والخشية على مكانتهم السياسية والإجتماعية والإقتصادية أن يقوضها هذا الدين الجديد الذى يدعو الى نظم سامية لم يألفوها ، والى مساواة عادلة لم يطيقوها ، والى عقيدة نقية لا سلطان فيها للأصنام وسدنة الأصنام . فلما أعيتهم الحيلة فى مناهضة الإسلام لجأوا الى أحط أنواع الخصومة .

٢ ـ إضطهدوا المسلمين . فأخذ كل رجل يعذب من أسلم من عبيده عذابا أليما ، وأخذت كل قبيلة تنكل بمن أسلم من أهلها تنكيلا .

حدثوا أن ـ أمية بن خلف الجمحى ـ كان يطرح عبده بلالا على بطحاء مكة إذا حميت الظهيرة ، ثم يضع الصخرة العظيمة على صدره ويهدده بأن يبقى هكذا الى أن يموت أو يكفر بمحمد ويعبد اللات والعزى .

وحدثوا أن بنى مخزوم ـ كانوا يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه إذا حميت الشمس ، فيلقونهم على الرمال والصخور الملتهبة ، لتحرقهم الحرارة

من فوقهم ومن تحتهم . وكان رسول الله ﷺ يمر بهم فيقول : صبراً آل ياسر ، فموعدكم الجنة . وبلغ بهم جبروتهم أن قتلوا أم عمار ، لأنها رفضت أن ترجع عن الإسلام . وكان أبو جهل يؤنب الرجل ويحقره إذا أسلم ، فإن كان ضعيفاً ضربه ، وحرض عليه السفهاء ، وإن كان تاجراً أنذره كساد تجارته وخسارة ماله .

٣ - ولم يسلم النبي من عدوانهم وعداوتهم - وهم أهله ، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب يحمونه - فكان أبو جهل يتربص به حتى يراه يصلي فيرميه بالقذارة ، فيحتمل الأذى فى صبر ، ويذهب الى بنته فاطمة لتطهر ثوبه . بل لقد بلغت القحة والحقد والحسد - بعقبة بن معيط - أن تربص للنبي حتى سجد فوطىء عنقه . حدث النبي فى يوم بدر بقوله : « إنه وطىء على عنقي وأنا ساجد ، فما رفعت حتى ظننت أن عيني قد سقطتا » . وكان - الحكم بن العاص - يتربص للنبي ويشتمه ، ويمشي وراءه ساخراً منه . ويخلج أنفه وفمه زيادة فى السخرية . وكانت أم جميل - زوجة أبي لهب - تلقى الأقذار عامدة أمام بيت الرسول ، فيزيلها بنفسه .

ولقد عزم - أبو جهل - أن يضرب النبي بحجر وهو ساجد ، وشجعته قريش على عزمه ، وعاهدته أن تحميه من بني هاشم وبني عبد المطلب ، فلما حمل الحجر ليضرب به النبي ارتد ولم يفعل ، وعاد الى قومه ، فسألوه : لماذا لم تضربه ؟ فقال : رأيت كأن جملا عظيما ضخم الرأس والأنياب لم أر مثله قط يهجم على ليأكلني .

٤ - فلما ضاق النبي ﷺ بما ينزل بالمسلمين من تعذيب ، وعز عليه أنهم ضعفاء لايقوون على رد العذاب عن أنفسهم ، أمرهم بالهجرة الى الحبشة حتي يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه . فخرج منهم فريق الى الحبشة نجاة بحياتهم

وخوفا على دينهم . فهل تركتهم قريش وشأنهم ؟ لا . فقد جدت فى أن تستردهم ، فبعثت مندوبين الى الحبشة ، ومعهما هدايا للنجاشى وبطارقته ، وطلبا من النجاشى أن يرد هؤلاء القوم الذين ابتدعوا ديناً لاهو دين العرب، ولا هو دين النجاشى . لـكن النجاشى لم يوافق على إرجاعهم . ورفض الهدايا

٥ - عاد مندوبا قريش - عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص خائبين وبطل تدبير قريش .

وفى هذا الوقت كان قد أسلم بطلان من أبطال قريش ، وهما - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب - فركبت قريش رأسها ، وتعاهدت على مقاطعة بنى هاشم وبنىعبد المطلب ، فلا يزوجوهم ولا يتزوجون منهم ، ولا يبيعونهم ولا يشترون منهم . وكتبوا هذه المعاهدة فى صحيفة ، وعلقوها فى الـكعبة ، توكيداً لها وحضاً على العمل بها . وكان الغرض من هذه المقاطعة الحصار الإقتصادى والاجتماعى والمدنى ، وتعويق سبل الحياة أمام المسلمين وجعلهم منبوذين سجناء حتى يموتوا جوعاً وهماً . واصطبر بنو هاشم وبنو عبد المطلب على هذا الاضطهاد سنتين أو ثلاثاً ، أنفق فيها أبو طالب ماله ، وأنفقت خديجة مالها ، وشعروا جميعاً بآلام الحصار وضيق المقاطعة ، غير أن الرسول لم يكـّف فى هذه الضائقة عن الدعوة الى الاسلام ، ثم دعا بعض عقلائهم الى نقض المعاهدة الجائرة ، فنقضت .

٦ - إشتد أذى بعض المشركين للرسول بعد وفاة عمه أبى طالب (ره) فاتجه الى ثقيف بالطائف ليدعوهم الى الاسلام ، ويلتمس منهم النصرة ، فلم يستجيبوا له ، بل لقوا دعوته بالاستهزاء ، وأغروا سفهائهم وعبيدهم ليسبوه ويصيحوا به ، فعرض الدعوة فى موسم الحج على جماعة فى المدينة فأسلموا ، وبايعوه على أن ينصروه إذا هاجر إليهم .

ومن هنا بدء الاسلام يجد بيئته الحرة ، فطار صواب قريش لما علموا بمحالفة الأوس والخزرج للرسول ، فتآمروا على اغتياله ، واجتمعوا فى دار الندوة للتشاور ، فأشار بعضهم بحبسه ، وأشار آخرون بنفيه ، وأوعز بعضهم بقتله ثم انتهى بهم الرأى الى أن يجمعوا من كل قبيلة شجاعاً يعطى سيفاً صارماً ليضربوا محمداً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً .

فكيف نجا النبي من تدبيرهم ؟ أوحى الله اليه ، فهاجر الى المدينة ، ونجا من الشر الذى دبروه « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

٧ ـ الى هذا الطور نرى أن الدعوة الاسلامية قد شقت طريقها فى مكة وفى المدينة ، وهى ضعيفة لاتقوى على المقاومة ، لأنها ليس لها من سلاح إلا الحق والخير والعدل .

وبهذا نتبين أن المجتمع الاسلامى الأول قد اعتمد على حقه الطبيعى فى أن يدين بالعقيدة السامية ، إذ أنه تسلح بحيويته وإخلاصه وصبره وثباته فى مقاومة الكفار وطغيانهم .

إضطرار المسلمين الى الحرب

هاجر النبي وبعض أصحابه الى يثرب ، فراراً من الأذى . فهل سلموا من قريش ؟

لقد ازدادت . بغضة لهم ، وتحرشاً بهم ، وتدبيراً للقضاء عليهم فى دارهم الجديدة ، واستمالت العرب ليقضوا معها على الاسلام والمسلمين .

فياللعجب !

المسلمون يدعون الى الحق والخير فى غير منٍ ولا إستعلاء ولا طمع فى عرض من أعراض الدنيا ، لكن المشركين يجرون عليهم ، ويصدون الناس عن سبيلهم ، ولا يعترفون لهم بحق الحياة ، وبحق الحرية فى العقيدة ، وفى العبادة وفى العمل ، بل يناصبونهم العداء . فهل يسلك المسلمون سبيلا غير النضال عن أنفسهم ، بعد أن ناضلوا بحقهم باطل خصومهم ، وكافحوا بخيرهم شرور أعدائهم ؟

لا . إن المسلمين مضطرون الى الدفاع عن عقيدتهم وعن وجودهم . وهكذا تتابعت بين المجتمع الاسلامى الحديث ، وبين ماحوله من مجتمعات وثنية أو كتابية موجات من الهجوم ومن الدفاع .

وسنعرض لبعض هذه الموجات ، لنتبين منها الهجوم الكافر الغادر ، والدفاع المؤمن النبيل ، وسنتوخى فيما نعرض مايتصل بموضوعنا من بواعث الحرب فى إيجاز كاشف .

أسباب غزوة بدر

أغلب الظن أن النبى ﷺ أراد بتعرضه لقافلة قريش أن يقرع أسماعها . ويفتح عيونها لتوادعه موادعة تقيه وتقيها شرور العداوة المستمرة ، وتكفل له أن يدعوهو وأتباعه الى الاسلام ماوجدوا الى الدعوة سبيلا ، وتكفل لقريش أمن طريقها الى الشام ، والغدو والرواح بقوافلها المثقلة بالعروض والسلع .

وإذا كان النبى لايستطيع أن يحتبس الدعوة ، ولا يطيق أن يعوقها

معوق عن الذيوع والإستقرار ، فإن قريشاً لاتستطيع أن تكف عن رحلتها الى الشام ، ولا تطيق أن تقيم فى مكة بغير غدو ورواح .

وكيف تصبر قريش على انقطاع قوافلها عن الشام وهى مصدر تراثها وقوام حياتها ؟

لقد كانت مكة المستودع لتجارة الجنوب القادمة من الهند والحبشة واليمن وكانت تحملها الى الشام فى كل عام فى ألفى بعير . وقد قدرهـا المستشرق - اسبرنجر - بنحو ماءة وستين ألفاً من الجنيهات الذهبية . فإذا أيقنت قريش أن المسلمين فى المدينة سيقطعون طريقها الى الشام ، ويترصدون لها فى ثناياه اضطرت الى مصالحتهم أو موادعتهم ، فكسبت من ذلك إطمئنانها على مورد ثروتها . وربح المسلمون اطمئنانهم على عقيدتهم ونشرها بين الناس ، واطمأنوا الى حريتهم فى دخول مكة زواراً وحجاجاً .

وإذن فلم يكن بد من إرهاب قريش بالقوة بعد أن عجزت وسائل السلام عن اجتذابها الى التفاهم والوئام .

والحق أن النبى صلى الله عليه وآله لم يكن يريد الحرب ، ولم يخرج ليبادىء عير قريش بالعدوان ، وإنما كان يريد إرغام قريش على أن تكف عن مناوأته ، أو تتخذ لقوافلها بين مكة والشام طريقاً آخر ، حتى يطمئن المسلمون الى أن قريشاً لن تفاجئهم بالهجوم تأميناً لطريقها الحيوى الذى تقوم حياتها عليه .

وعلم أبو سفيان أن المسلمين يترصدون طريقه ، فعدل عنه ، وسار على ساحل البحر مسرعا ، بعيداً عن الطريق المعتاد . وبهذا نجحت القافلة كلها . لكنه قبل أن يستوثق من نجاة القافلة خشى من المسلمين ، لأنه يعلم أنهم موتورون من قريش ، إذ عذبتهم ، وطردتهم من وطنهم - مكة - وصادرت أموالهم وأملاكهم ، فبعث الى قريش فى مكة - ضمضماً الغفارى -

ليخبرها أن محمداً وأصحابه قد تصدوا للقافلة فلما وصل ضمضم الى مكة أراد أن يثير قريشاً بوسائل الإستفزاز والتهويل ، فقطع أنف بعيره ، وشق قميصه وصاح (أللطيمة أللطيمة) - أى إدركوا الإبل التى تحمل التجارة - وما أن دوى صياحه فى مكة حتى استجابت له قريش ، وتجهزت للرحيل ، وحرض سهيل بن عمرو - أحد التجار الأغنياء - كثيراً من النـاس على الخروج للقتال ، ومدهم بالمـال والسلاح . والحق أن العير كانت قد نجت ولم يتعرض لها المسلمون بشر . وكان أبو سفيان قد إطمأن الى نجاتها ، وخاف سوء العاقبة من صدام قريش والمسلمين ، فأرسل الى قريش يقول لهم إنكم قد خرجتم لتحموا عيركم ورجالـكم وأموالـكم ، ثم نجت ونجوا فارجعوا .

ووافقه على رأيه عدد كبير ، لـكن - أبا جهل - أصر على ألا يرجعوا وصاح : والله لانرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً نحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسق الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فـلا يزالون يهابوننا أبداً .

فلما سمعه القوم ترددوا بين الرجوع والإقدام ، وخشوا أن يتهموا بالجبن إذا رجعوا ، فلم يرجع إلا بنو زهرة ، أما الباقون فقد ساروا ليختاروا منزلا للقتال وهنا يقتضينا الإنصاف أن نعجب من إصرار قريش على الحرب بعد أن نجحت عيرها ، وبعد أن أشار عليهم رئيس العير بأن يعودوا .

لقد كان المنطق السليم يقتضيهم أن يستجيبوا الى دعوة أبى سفيان ، وأن يعودوا الى مكة فرحين بأموالهم التى أفلتت من أيدى المسلمين ، وفرحين برجالهم الذين نجوا بغير قتال . ولـكنها قريش أبا عليها عداؤها لمحمد وأصحابه إلا أن تصطدم بهم حيث لامجال للصدام .

وظل النبي ﷺ حريصاً على حقن الدماء ، فأوصى المسلمين ألا يقاتلوا

حتى يأذن لهم ، وأوصاهم ألا يقاتلوا أناساً سماهم لهم ، لأنهم أخرجوا مع قريش كرهاً . فلما لم يجد بداً من القتال قاتل مضطراً ليحمى نفسه وأتباعه . وشاء الله أن ينتصر المسلمون فى غزوة بدر . « أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله » .

أسباب غزوة أحد :

لم يكد يمضى على موقعة بدر عام وبعض عام حتى استنفرت قريش العرب ، وزحف على المدينة جيش ضخم ، ليثأر من المسلمين ، وليقضى على المجتمع المثالي فى المدينة ، وسخا أغنياؤهم بالمال لتجهيز المحاربين « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » . فاضطر النبى أن يدافع عن المدينة ومسلميها ، وانتصر المسلمون فى أول المعركة ، ثم خالف الرماة أمر الرسول فانهزموا .

ولم تشف الهزيمة حنق قريش وحلفائها ، فتوعدوا النبى بحرب أخرى بل فكروا أن يكروا على المدينة عقب النصر ، لولا حيلة بارعة دبرها المسلمون إذ أوهموهم أنهم جمعوا جموعهم ليتعقبوهم ، وخشى المشركون أن ينتصر عليهم المسلمون فاتجهوا الى مكة .

وما من شك فى أن المسلمين حزنوا ، فجاءهم العزاء فى قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم

الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

أسباب غزوة الخندق :

شجع اليهود قريشاً على غزو النبي ، وأثارت قريش قبائل شتى من بنى أسد ، وبنى فزارة ، وبنى مرة والشجع ، وغطفـان . وتجمع الحلفـاء ليضربوا المدينة الضربة القاضية . وعلم المسلمون فتحصنوا بمدينتهم ، ولم يبادئوا أحداً بقتال ، واكتفوا بأن حفروا حول مدينتهم خندقاً يحول بينهم وبين المهاجمين .

وكانت قريش فى شهر الحصار تتحرش بالمسلمين . وتستفزهم ، ثم يئس المعتدون من دخول المدينة . وانقسموا على أنفسهم ، فرجعوا بغير قتال ، فضلا من الله على المسلمين ونعمة ، « ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

أسباب فتح مكة :

خرج رسول الله ﷺ فى جماعة من المسلمين سنة ٦ هج ليعتمر وليعلم العرب جميعاً أن الإسلام يجل البيت الحرام أكثر مما يجلونه ، ويبقى على الشعائر الصحيحة التى يمارسونها ، فيكسب الإسلام عطف بعض خصومه ويزيل ماألصقته به الدعاية المغرضة الحاقدة .

ومن ذا الذى يحول بين المسلمين والبيت الحرام؟ انه بيت العرب من مسلمين ومشركين ، بل إن للمسلمين فيه حقاً أعظم . وليس لقريش أن تصد عنه فريقاً من أبنائها شرح الله صدورهم للإسلام ، مادام هذا الفريق لايبغى لقريش عدواناً ، ولا يستذلها فى الوصول الى البيت الحرام .

واجتهد النبى ﷺ فى أن يمحو ماقد يتسرب الى نفوس قريش من سوء الظن ، فأعلمهم منذ خروجه للعمرة أنه يبغى سلاماً لاخصاماً ، وأنه لايسعى لحربهم ، وإنما يريد أن يزور الكعبة . ثم حقق فعله قوله إذ خرج هو وأصحابه لايحملون من السلاح إلا مايحمل المسافر ، وساقوا الهدى أمامهم الى فقراء مكة . غير أن قريشاً الحاقدة لم تسالم من سالمها . ولم ترد أن تترك للمسلمين الحرية فى زيارة البيت الحرام ، فعبأت قواها لحرب النبى .

وكان نذيرها الى الحرب أن أرسلت مائتى فارس طليعة لها ، ليصدوا المسلمين عند عسفان — على مرحلتين من مكة — فلما علم النبى ﷺ بهذا قال : « ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لوخلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهر ذلك ، أو تنفرد هذه السالفة » .

وحرص النبى على السلام ماوجد الى السلام سبيلا ، فأمر أصحابه أن يعدلوا عن طريق الفرسان حتى لايلتحم الفريقان ، فساروا الى أن بلغوا الحديبية — على مرحلة من مكة — فنزلوا بها . وحينئذ كرر النبى رغبته فى حقن الدماء بقوله : « والذى نفس محمد بيده لاتدعونى قريش لخصلة فيها صلة الرحم إلا أجبتهم اليها » .

ثم سفر الرسل بينه وبين قريش ، ناقلين عنه أنه لايريد إلا زيارة البيت . وأنه يؤثر أن تكون بينه وبين قريش هدنة لاحرب فيها ، لكن قريشاً رفضت وسخرت ببعض السفراء .

ثم بعث النبي ﷺ سفيراً من عنده هو - عثمان بن عفان - ، فأبت قريش أن تجيبه الى ما عرض عليها من سلم ، واشتدت فى حنقها ، فحبسته عندها ، وهى تذكر أن النبي لم يحتجز سفيراً من سفرائها الثلاثة الذين أوفدتهم اليه فرادى .

وفى هذا الوقت أرسلت خمسين رجلا ليطوفوا بالمسلمين ، لعلهم أن يصيبوا منهم غرة . فلما رمى هؤلاء بالنبل والحجارة فى عسكر الرسول أسرهم حراس المسلمين ، وأتوا بهم الى الرسول ، فعفا عنهم وخلا سبيلهم .

وبهذا كله أعلن النبي ﷺ مرات إيثاره للسلام فى صراحة لا مواربة فيها ولا خديعة من ورائها .

وسرعان ماذاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فلم يجد النبي بدأ من الإستعداد لمحاربة قريش بعد أن يئس من سلمهم ، ويئس من جدوى التسامح معهم ، فكانت بيعة الرضوان .

عرفت قريش أن المسلمين قد اعتزموا على الحرب ، فلانت بعض اللين . وأرسلت بشروطها للموادعة وهى :

(أ) بين قريش ومحمد هدنة لاحرب فيها مدتها عشر سنوات .

(ب) من جاء الى محمد من قريش بغير إذن وليه رده ، ومن جاء قريشاً من محمد لم ترده .

(ج) يرجع المسلمون فى هذا العام من غير عمرة ، فلا يدخلون مكة . وفى العام القادم يدخلونها بغير سلاح معهم إلا السيوف فى قرابها ، ولا

يبقون فى مكة أكثر من ثلاثة أيام .

(د) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل .

وهذه شروط متعسفة أرادت بها قريش أن تتحرش بالمسلمين ، وأن تظهرهم فى مظهر المهزوم ، ومع ذلك قبلها النبي ﷺ فدهش بعض الصحابة من قبوله ، وعجبوا من أن يرد المسلمون الى قريش من جاءهم مسلماً ، وألا ترد قريش الى المسلمين من جاءها من المسلمين . لكن النبي كان أبعد نظراً ، وقد تجلى بعد نظره بعد زمن قصير ، إذ تجمع الذين حبسوا بمكة حول - أبى بصير بن عتبة بن أسيد - وكان عددهم سبعين رجلا ، وتربصوا بقريش (بالعيص) فى طريق تجارتها الى الشام ، وقطعوه عليها ، فلم يظفروا بأحد من قريش إلا قتلوه ، ولم تمر بهم عير إلا سلبوها ، فطلبت قريش من النبي أن يلغى هذا الشرط ، واستحلفته أن يؤوى هؤلاء ، لأنها لاحاجة لها بهم ، فآواهم رسول الله ﷺ .

على أن قبائل العرب التى كانت تناصر قريشاً من قبل غضبت بعد الصلح لأن قريشاً انفردت بموادعة النبي ، لذلك لم تنضم قبيلة الى قبيلة بعد ، على حين أن قبائل كثيرة أخذت تنضم الى النبي ، وبهذا لم تستطع قريش أن تؤلب العرب على المسلمين كما كانت تفعل من قبل .

ثم إن قريشاً لم تقنع بما فى هذه المعاهدة من سماحة النبي وتساهله واشتياقه الى السلام ، فنقضتها بعد سنتين ، إذ ساعدت حلفاءها من - بنى بكر بن عبد مناة من كنانة - على حلفاء النبي من خزاعة . وقد سبق أن قريشاً اشترطت على النبي فى صلح الحديبية ، أن العرب أحرار ينضمون الى من يشاؤون ، فمن أحب أن يحالف الرسول فليحالفه ، ومن أراد أن ينضم الى قريش فلينضم

وكان من أثر هذا أن دخلت - بنو بكر - فى حلف قريش ، ودخلت - خزاعة - فى حلف الرسول . فلما كانت الهدنة التى اتفق عليهـا الرسول اغتنمها - بنو الديل من بنى بكر - فاعتدوا على خزاعة ، وآزرت قريش حلفاءها البكريين بالسلاح ، وآزرهم بعض القرشيين بأنفسهم مستخفين بالليل فقتلوا من بنى خزاعة حتى لجأوا الى الحرم ، فقاتلوهم فيه وبذلك نقضت قريش ماكان بينها وبين الرسول من العهد والميثاق ، لأنها اعتدت على حلفائه .

وكان من الطبيعى أن ترسل خزاعة وفداً الى النبى يخبره بما اقترفت بنو بكر وقريش ، وكان من حقها أن تستنجد به ، ليوازرها مراعاة لحلفه معها كما آزرت قريش حلفاءها غادرة ، وأنشد رئيس الوفد - عمرو بن سالم - رسول الله وهو بالمسجد :

يارب إنى ناشـــد محمداً   حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنـــا والدا   ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً عتدا   وادع عباد الله يأتوا مددا
فى فيلـــق كالبحر يجرى مزبدا   إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكد   وجعلوا لى فى كداء رصّدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا   وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجـــدا   وقتلونا ركعاً وسجدا

ثم وفد على النبى ﷺ - بديل بن ورقاء - فى نفر من خزاعة ، فأخبروه بأن قريشاً ظاهروا بنى بكر عليهم . حينئذ كان النبى مضطراً الى أن يناصر حلفاءه ، تحقيقاً للمعاهدة والحلف ، وانتصافا للمظلوم ، وصيانة لكرامة المسلمين ووفاءهم بالعهد . فتجهز لفتح مكة وخرج سنة ٨ هج ففتحها سلماً لاعنوة ، لأن كثيراً من زعمائها كانوا قد أسلموا من قبل - كخالد بن

الوليد وعمرو بن العاص ـ وقد أسلم زعيم المشركين ـ أبو سفيـــان ـ والمسلمون على أطراف مكة . وكان المشركون يتوقعون أن ينكل النبى بهم ، ويثأر منهم ، لكنه لم يفعل ، بل عفا عنهم وهو قادر عليهم .

أسباب غزوة حنين :

فتح النبى مكة فهاجت قبيلة هوازن ، واجتمع بنو ثقيف ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، وبعض بنى هلال . واستعدوا جميعاً لمهاجمة النبى فلما استوثق من استعدادهم لحربه ، خرج للقائهم قبل أن يباغتوه . لكن المشركين كانوا قد كمنوا فى شعاب واد منحدر ، فباغتوا المسلمين فى ظلام الصباح ، وحملوا عليهم ، فانفض المسلمون وتقهقروا ، ولكن الرسول ثبت فى نفر من الشجعان ، وصاح بالمسلمين فرجعوا وانتصروا « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً . وضاقت عليكم الأرض بما رحبت . ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » .

حرب اليهود :

أما اليهود فقد سلكوا وسائل شتى فى إحباط الدعوة الى الإسلام ، وفى تدبير المكايد للقضاء على المسلمين ، ونقضوا عهودهم مع النبى مرات .

١ ـ بنو قينقاع حنقوا على النبى لما انتصر فى بدر ، وأخذوا يبيتون

الشر ، ولم يستطيعوا أن يكتموا مابأنفسهم ، فقالوا للنبي : يامحمد ، لايغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس . وبدءوا يتحرشون بالنبي ، فحاربوا بعض حلفائه فيما بين غزوة بدر وأحد . واعتدى صائغ منهم على إمرأة مسلمة فى سوقهم عدواناً قبيحاً ، فقتله مسلم فوثب اليهود على المسلم فقتلوه . واحتدم الشر بين المسلمين واليهود ، فكان جزاؤهم أن أجلاهم النبي عن المدينة .

٢ ـ وبنو النضير دبروا حيلة دنيئة لقتل النبي ، وهو فى حصن من حصونهم فى نفر من أصحابه . وكانوا قد عاهدوا النبي على أن يشتركوا فى الدفاع عن المدينة إذا أغير عليها ، لكنهم تخلوا عن الوفاء بعهدهم فى غزوة أحد ، إذهجمت قريش وحلفاؤها على المدينة . وكان الواجب على اليهود أن يناصروا المسلمين فى صد المغيرين عن المدينة ـ موطن المسلمين ـ واليهود جميعاً ، تنفيذاً للعهد .

فماذا يكون جزاء الخونة الذين لاأمة لهم ولا عهد ؟

إن بقـــاءهم فى المدينة خطر لايمكن دفعه ، لهذا حاصرهم الرسول ، فطلبوا منه أن يجليهم ، على أن يحملوا معهم أموالهم إلا السلاح ، فأباح لهم أن يحملوها ، فحملوا مااستطاعوا حمله ، حتى الأبواب نزعوها ونقلوها معهم « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولى الأبصار » .

٣ ـ أما بنو قريظة فقد نكثوا معاهدتهم مع النبي فى أشد الحالات حرجا وضيقاً ، إذ انضموا الى الأحزاب فى غزوة الخندق ، وتعاهدوا معهم على

أن يغيروا على المدينة .

فهل يعامل هؤلاء الخونة بغير القسوة والإنتقام ؟

لقد عامل النبي - بنى قينقاع - بالرحمة فأجلاهم عن المدينة ، ثم عامل بالسماحة - بنى النضير - . وكان فى هذا ردع لبنى قريظة ، وحض على الوفاء بالعهد . أما وهم لم يرتدعوا ، فى الوقت الذى يقيمون فيه بالمدينة ، يتربصون بالمسلمين كل شر ، ويكيدوا إخوانهم الإسلام من - بنى قينقاع ، وبنى النضير - فالحكمة أن يعاملهم النبي معاملة أخرى ، لأن غدرهم متكرر وشرهم مستطير ، ولأنهم لو عوقبوا بالإجلاء الى خيبر كما عوقب سابقوهم لصاروا جميعاً قوة خطرة على المدينة وعلى المسلمين .

وقد رضوا أن يحكم فيهم - سعد بن معاذ - فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم أموالهم ، وسبى نساءهم وأولادهم « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شيء قديراً » .

٤ - ثم بدأ يهود خيبر يعتدون على المسلمين ، إذ خرج نفر من زعمائهم يتقدمهم - بنو النضير - الى قريش ، فدعوهم الى حرب الرسول ، ووعدوهم أن يكونوا معهم فى القضاء على الرسول . وبلغ بهم الحسد والحنق على النبي وعلى الإسلام أن فضلوا الوثنية على التوحيد ، حين سألتهم قريش أديننا خير أم دينه ؟ فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

ثم تركوا قريشاً : وخرجوا الى - غطفان - ليحرضوهم على قتال النبي ، ويعدوهم أن يناصروهم عليه ، ويخبروهم أن قريشاً جمعت قوتها لحربه

وجعلوا لغطفان ثمرات خيبر سنة ، ليزيدوهم حماسة ورغبة . وهم الذين قص الله حالهم فى قوله : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . وبنو النضير هؤلاء هم الذين زينوا لبنى قريظة - اليهود الباقين بالمدينة - أن ينقضوا عهدهم مع النبي وأن ينضموا الى الأحزاب التى تحاصر مكة .

ولقد نجحت مؤآمراتهم ، فكانت غزوة الأحزاب .

أليس الرسول مضطراً بعد هذا كله الى محاربة هؤلاء ؟

ألم يتحقق مرات من أنهم أعداؤه الذين لاعهد لهم ؟

ألم يصرحوا بالشر حينما ألبوا عليه العرب ؟

عرف الرسول هذا كله ، وعرف أنهم لن يهدأ بالهم إلا بالقضاء على الإسلام فهاجمهم فى خيبر ، وانتصر عليهم ، ثم صالحهم . وحتى بعد الصلح ، وقبل أن يجف مداد المعاهدة ، أبى غدرهم إلا أن يعادوهم ، فإن إمرأة منهم قدمت للنبي طعاماً مسموماً ، فلما ذاقه عافه ، وعرف أنه مسموم ، فسأل المرأة فلم تستطع أن تنكر ، وادعت أنها كانت تختبر نبوته ، فعفا عنها ، وهو يعلم أنها كاذبة .

٥ - ثم أن اليهود أضافوا الى خيانتهم للمسلمين وتربصهم بهم ، أنهم اتخذوا علماءهم من رجال الدين سادة لهم ، يطيعونهم فى معاصى الله ، فيستحلون ما أحلوه لهم مما حرم الله عليهم . ويحرمون ما حرموه عليهم مما قد أحله الله لهم .

وأغرق بعضهم فى الضلالة ، فادعى أن عزيراً - وهو عالم تقى يهودى - ابن الله ؟ وقالوا للنبي كيف نتبعك وقبلتك غير قبلتنا ، وأنت لاتدين بأن

عزيراً ابن الله ؟ « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم . يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، سبحانه عما يشركون »

وكان منهم أميون لايكتبون ولا يقرأون ، ولا يعرفون التوراة إلا أوهاما وأباطيل وأكاذيب . ويدعون أن مايرددونه ويقولونه من التوراة لأنهم سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أموراً زعموها من التوراة ، وهى ليست منها ، فاتبعوهم فى باطلهم ، وعاندوا محمداً ﷺ .

وأما علماؤهم فقد حرفوا التوراة وزادوا فيها ، ونقصوا منها وخالفوا ماأنزله الله على موسى ، وزيفوه على قومهم الذين لاعلم لهم بالتوراة ، وادعوا أن ما أتوا به هو التوراة . وقد عمدوا الى مافى التوراة من التبشير بمحمد فمحوه يريدون الابقاء على مناصبهم الدينيه ، وعلى منافعهم المادية « ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كسبت أيديهم ، وويل لهم مايكسبون » .

حرب النصارى :

١ ـ كان اليهود خصوم الاسلام كما رأينا ، وكان النصارى مثلهم فى خصومتهم للإسلام ، لأنه يناقض ماهم عليه ، ولأنه ينشىء مجتمعا جديداً ، ويسن نظما سامية تقضى على نظمهم الفاسدة .

وقد صدق الله العظيم فى قوله : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى

حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » . وفى قوله : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، إن الله على كل شىء قدير » .

ولم يكن هناك أمل فى هدوء مقاومتهم ، واستجابتهم للحق « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » .

وهم جميعاً يتخذون الحرب وسيلة لإطفاء نور الإسلام ، ماوجدوا الى الحرب سبيلا « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

٢ ـ كان الغساسنة ـ ملوك الشام ـ يمثلون النصرانية فى الشرق ، منذ عيّن الإمبراطور ـ جستيبيان ـ الحارث بن جبلة ـ (حوالى ٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) أميراً على جميع القبائل العربية فى سورية ، ومنحه لقب فيلارك ـ أمير ـ ثم منحه لقب بطريق ، وهو لقب الأشراف ، وأرفع لقب فى الدولة بعد الإمبراطور .

وكان الحارث نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة الشرقية .

فلما توفى سنة (٥٦٩ م) خلفه ابنه المنذر ، وأعان الروم فى مواقع كثيرة ، وشخص سنة ٥٨٠ م الى القسطنطينية ـ عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ـ فاحتفى به القيصر ـ طيباريوس ـ وألبسه التاج . فمن الطبيعى

أن يناوىء الغساسنة الإسلام والدعوة الى الإسلام ، لا لأنه يغاير عقيدتهم المسيحية فحسب ، بل لأنه يقضى على سلطانهم السياسى و نفوذهم الدينى .

وطبيعى أيضاً أن تحارب الدولة - البزنطية - الاسلام ، لأنه يقوض قوتها الاستبدادية ، ويطوح بما كسبه رجال الدين والسياسة من سلطان و نفوذ وأموال . وهل كان من المعقول أن تطبق الكنيسة الملكانية - وهى تحارب كل رأى مسيحى يخالفها - ديناً ينكر عقيدة التثليث والفداء ، ويذيع فى الناس أن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولا يعترف بما لرجال الدين من سلطان على النفوس ، ووساطة بين العبد وخالقه .

٣ - ولم يلبث النصارى أن كشفوا عن شرهم وعزمهم على محاربة الاسلام .

(أ) ففى سنة ٦ هج (٦٢٧ - ٦٢٨ م) صلب البيزنطيون عاملهم على عمان وهو - فروة بن عمر الجذامى - لأنه اعتنق الاسلام ، وأرسل الى النبي فرساً وبغلا وحماراً وعباءة وأقمصة . وحاول الروم أن يجبروه على الارتداد عن إسلامه فأبى فسجنوه ثم صلبوه .

(ب) وفى سنة ٨ هج (٦٢٩) بعث النبي كتيبة من خمسة عشر رجلا الى حدود شرقى الأردن ، ليدعوا الناس الى الاسلام ، فخرج عليهم جمع كثير فى مكان يقال له (طلة) وقتلوهم إلا واحداً لاذ بالفرار .

(ج) وفى السنة نفسها أرسل النبي كتابا الى - الحارث بن أبى شمر الغسانى - يدعوه الى الاسلام كما دعا غيره من الملوك والأمراء ، فرد عليه ردّ المغرور المتوعد بالعدوان .

ولما أرسل النبي ﷺ الى هوقل يدعوه الى الاسلام - الحارث بن

عمرو الأزدى ـ تصدّى له ـ شرحبيل بن عمرو الغسانى ـ فى موته وقتله

(د) وفى السنة التاسعة أمر هرقل بعد انتصاره على الفرس بجمع جيش لغزو بلاد العرب وقتال رسول الله ، للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره . وبلغ النبي أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا على قصده .

٤ ـ فكان لامفر من حملة لتأديب هؤلاء المعتدين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقتلون دعاة رسول الله ، ويتأهبون للهجوم المفاجىء . ولو لم يفعل الرسول ذلك فماذا يستطيع أن يفعل بهذا الجزء الشمالى من الجزيرة الذى أغلق فى وجه الدعوة ؟ أليس من واجبه أن يحمى الطريق أمام دعوته من هؤلاء الطغاة ؟

بلى . ومن الحكمة وبعد النظر أن يختبر قوة أعدائه ، ويتعرف السبب فى تجمعهم .

فسار النبي بجيشه الى تبوك ، ولكن لم يحدث بينه وبين خصومه صدام ، لأن الروم اختفوا وراء حدود الشام ، ولم يفكر النبى فى إختراقها واكتفى بما عقد من صلح بينه وبين بعض العرب مثل ـ يوحنا بن رؤبة ـ وعاد الى المدينة . لكن الأفاعى خرجت من أحجارها بعد عودة النبى ، وبدأ نصارى العرب والروم يعتدون على المسلمين ، فصلب هرقل أمير ـ أيلة ـ يوحنا بن رؤبة ، لأنه عقد مع النبى صلحاً ، كما قتل ـ فروة بن عمرو الجذامى ـ لأنه أسلم وأصر على الاسلام فبعث النبى جيشاً بقيادة ـ زيد بن حارثة ـ الى الشام فى السنة الثامنة للهجرة (٦٢٩ م) .

وتصدى الروم والعرب للقاء هذا الجيش الصغير الذى لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان جيش الروم فى مائة ألف أو مائتين ، يقوده هرقل

نفسه أو أخره ، والتحم الجيشان إلتحاماً لم يكتب فيه النصر الحاسم لأيهما فآثر المسلمون العودة الى المدينة .

غير أن النبي ﷺ أراد أن يتدارك ماعساه أن يحدث من هذا الانسحاب ، وأن يسترد هيبة المسلمين فى الشمال . فأمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد لمحاربة الروم ، لكن الرسول لحق بالرفيق الأعلى قبل أن يسير الجيش من المدينة .

حرب الفرس :

أما الفرس فقد دعت أسباب الى قتالهم :

١ - أرسل النبي ﷺ كتاباً الى كسرى ملك الفرس يدعوه الى الاسلام فهاج ومزق الكتاب ، وأرسل الى عامله على اليمن يأمره بأن يرسل رجلين قويين من عنده ليأتياه بمحمد ، فذهبا الى النبي وقابلاه ، ثم رجعا .

وطبيعى أن ينقم كسرى من النبي أن دعاه الى الاسلام ، فهو يأبى أن يرشده العرب ويعلموه ، فى الوقت الذى يبسط فيه سيادته على عرب الحيرة واليمن والبحرين ، وهو يخشى من الدين الجديد على حياته وعلى سلطانه وحكمه المطلق .

٢ - وللفرس ببلاد العرب كلها - الخاضعة لهم وغير الخاضعة - صلات تجارية ، وهم والرومان يتصارعون على هذا المجال الحيوى للتجارة ، فهل يغمض الفرس أعينهم عن الدولة الجديدة التى تنشأ فى قلب بلاد العرب . وهم يتخوفون منها على حدود بلادهم ، ويتخوفون منها أن تنضم الى خصومهم الروم فتزيدهم قوة ؟

٣ ـ وكانوا مجوساً يعبدون النار والشمس ، وكان الشعب مستعبداً يكره حكامه ، لأنهم لايرعون مصالحه ، ولأنهم جعلوا ديانة ـ زرادشت ـ الدين الرسمي وكانت من قبل بغيضة الى الناس وفسحوا المجال لكهنتها . فصار لهم نفوذ فى السياسة وشؤون الملك ، وصاروا يضطهدون الفرق الدينية المخالفة من يهود ومسيحيين وصابئة وبوذيين ومانويين .

هذا الى الترف المفرط الذى كان الملوك والأغنياء غارقين فيه ، وهو ترف يقابله شقاء الشعب وبؤسه من الضرائب الباهظة المفروضة عليه ومن اغتصاب أمواله .

وحسبك أن تعلم أن الفساد الاجتماعى قد بلغ بالفرس أنهم شجعوا ديانة مزدك حينا ، فأباحوا الشيوع فى النساء ، وإن الفساد الاجتماعى والسياسى قد اضطر شيرويه بن كسرى أن يقتل أباه ، ويستولى على عرشه من بعده .

وإذاً فمن الحتم اللازم أن يناهض الفرس الاسلام . وأن يضيقوا على الدولة الناشئة ليقوضوها قبل أن تقوضهم .

٤ ـ وكان عرب الحيرة تابعين للفرس ، وهم الذين اعتدوا على المسلمين المجاورين لهم ، فأرسل أبو بكر ـ خالد بن الوليد ـ اليهم ليخضعهم ويكف أذاهم ويؤمن المسلمين المجاورين لهم . وسرعان ما انتصر عليهم خالد . فحنق ملك الفرس ، لأن الحيرة تابعة له . ثم بدأ ملكهم (يزدجرد) يستثير المسلمين ، فبعث جيشاً ليطردهم من الحيرة ، وكان ذلك فى عهد ـ عمر بن الخطاب ـ فأرسل اليه عمر ـ قبل أن يشتبك معه فى حرب ـ يخيره بين الاسلام ودفع الجزية ، فإن أبى هذا وذاك فالحرب فيصل بين المسلمين والفرس . فازدرى كسرى ماعرضه عليه ـ عمر ـ واعتزم على أن يحارب المسلمين . ثم انتصر المسلمون ، وعقدوا صلحاً مع ـ يزدجرد ـ وأمرهم

عمر أن يتعدوا نهر دجلة ، ليكون فاصلا بينهم وبين ما بقى من فارس ، غير أن الفرس مالبثوا أن نقضوا الصلح ، فاضطر المسلمون الى محاربتهم وإخضاعهم

الغاية من الحرب فى الاسلام

١ - تبين من العرض السابق أن جهاد المسلمين كان فى جميع أحواله ضرورة ملجئة لامناص منها ، وأنهم كانوا مضطرين إضطراراً الى أن يحاربوا لحماية مجتمعهم الصغير فى المدينة ، ثم لحماية دولتهم الناشئة فى جزيرة العرب ، ولصيانة عقيدتهم من العادين عليها وعليهم .

وما من شك فى أن المسلمين اضطروا الى الحرب لحماية عقيدتهم التى تكفل الخير للناس ، وترتفع بهم عن مهاوى الشرك والوثنية والرذيلة الى سماء التوحيد والفضائل والحياة الكريمة التى تليق بالبشر .

وماذا كان النبى يستطيع أن يفعل حيال عدوان قريش وتدبيرها ؟ أيستكين لها فتقضى عليه وعلى الاسلام ! أيغمض عينيه عن أتباعه الذين يعذبون فى مكة جزاء لهم على أن اشتروا الهدى بالضلال والتوحيد بالشرك؟ أيعيش بدعوته فى برج مشيد ، فلا يذيعها فى الناس ، وقد أمره ربه أن يصدع بها ليهدى الناس الى الحق والخير والحرية والاخاء والمساواة ؟ إنه مضطر الى أن يحارب ، والى أن يلقى القوة بالقوة ، بعد أن صبر طويلا . وصفح كثيراً . لذلك قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . وإذاً فلم يكن الغرض من الجهاد إجبار أحد على إعتناق الاسلام ، فإنه لم يعرف فى تاريخ الاسلام كله أن المسلمين اضطروا أحداً الى أن يسلم .

ولقد فتحوا الممالك وحكموها ، ولم يحدث قط أن أرغموا كتابياً أو غير كتابى على أن يدين بالاسلام ، بل كانوا المثل الأعلى فى رعاية العقائد الدينية ، وكفالة الحرية لمن خالفوهم فى الدين .

* * *

فالذين ذهبوا الى أن الاسلام قد انتشر بالسيف قوم مخطئون كل الخطأ . لأن الدين الذى يعتمد على السيف لكى ينتشر دين ضعيف ، وليس الاسلام كذلك ، إنما هو كالنور الوهاج يجذب اليه الأنظار ، فدخلت أفواج الناس فيه عن رضى وارتياح وإيمان .

فأسلوبه بعيد كل البعد عن الدماء ، برىء كل البراءة من شهر السيف وامتشاق الحسام ، وإنما السبيل الى ذلك مسطور فى حنايا الكتاب العزيز فى أكثر من آية من آيات الله ، فسبيل نشر الدعوة ينحصر فى أن قوة الدعوة نفسها أمضى وأقوى من قوة السيف .

فالله تعالى يقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . النحل ١٢٥

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . آل عمران ٢٠

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . الكهف ٢٩

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . يونس ٩٩

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . البقرة ١٩٠

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن

تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . الممتحنة ٨

« ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . المائدة ٣

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » النساء ٨٩

« ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » . النساء ٧٩

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فانما عليه ما حمّل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » . النور ٥٤

« إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون » . الأعراف ١٨٧

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » . البقرة ١٩٣

« ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » الأنعام ١٠٧

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . ق ٤٥

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » الغاشية ٢٢

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » . البقرة ٢١٣

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » التوبة ١٤

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » الحج ٣٩

« فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » . النساء ٨٣

هذا هو دستور الدعوة الى الإسلام ، سبيل كله سلام وحرية اختيار لاإجبار ولا إكراه . لذلك لما علم سكان المستعمرات الرومانية وغيرها هذه الظاهرة من الإسلام رحبوا به لينقذهم من عسف الحكام ، ومن الإضطهاد الدينى .

٢ ـ الجهاد حماية للموحدين المؤمنين بالله مسلمين ، ويهود ، ونصارى من اضطهاد المشركين لهم أو إكراههم على ترك دينهم .

هو كفالة لحرية الذين يدينون بدين سماوى ، لأنه لولا الحرب لهدم المشركون جميع المعابد التى يذكر فيها إسم الله ، كصوامع العبّاد وكنائس النصارى وبيع اليهود ، ومساجد المسلمين .

٣ ـ إن الاسلام يريد بالحرب إحقاق الحق ونشر العدل والسمو بالمجتمع فى عقيدته وأعماله وأخلاقه . فليس الغرض من الحرب والنصر السيطرة والإستعمار والإستئثار بخيرات البلاد المفتوحة وتسخير أهلها ، ومزاحمتهم فى أرزاقهم ، وإنما الغرض إقامة عالم مثالي سعيد . يدل على ذلك قوله تعالى : « الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

الإسلام دين القوة :

عرفنا أن الإسلام دين سلام ، لايجنح الى الحرب إلا مضطراً ، وإذ

كانت الحرب شراً لامفر منه فقد دعا الاسلام الى مقابلة الحرب بالحرب ، وسن فى دعوته أسمى النظم وأعظمها سماحة .

١ - فى القرآن الكريم حض على الاستعداد الحربى لصد الأعداء ، وإرهابهم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وهذا صريح فى أن الإسلام بعيد عن التحرش بالآخرين ، لأن الآية فى معرض الأمر بالتقوى والإستعداد للدفاع تجهر بأن الغرض هو إرهاب الأعداء حتى لايطمعوا فى المسلمين . والمراد بالأعداء هم الذين يقاومون الإسلام ، ويمنعون نشره ، ويضطهدون أهله ، ويعادون المسلمين ، ويتطلعون الى السيطرة عليهم واحتكار موارد ثروتهم وتعويقهم عن الرقى .

٢ - وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحرض على قتال المشركين . وهى لاتأمر بأن يبدأ المسلمون بالحرب ، لأن القرآن طالما نفّر من الظلم والعدوان وإنما يأمر بالشجاعة فى الحرب والصبر على نارها مادامت قائمة ، وهذه الأوامر نتيجة للحرب لاسبب له ، هى ملابسات للحرب لادوافع إليها . مثل قوله تعالى : « ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » وقوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » وقوله : « فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم ، لعلهم يهتدون . ألاتقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ، وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » . وقوله : « واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » وقوله . « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون » وقوله . « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين » . وقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »

٣ ـ وعد الإسلام المجاهدين الذين يستشهدون فى الحرب دار الخلد ، مثوبة لهم على الإستشهاد فى حماية العقيدة ، والذود عن الأرواح والأموال قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن » .

وهؤلاء الشهداء أحياء لم يموتوا : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لايضيع أجر المحسنين » .

ووعد المجاهدين ثواباً عظيما فى قوله : « ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

٤ ـ حض الإسلام على الثبات فى وجه العدو ، مالم يكن من القتال بد وحض على الثقة بالنفس وبالله ، وأمر بالإتحاد ، قال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع

الصابرين » . وقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

٥ - وحرم الفرار من ميدان الحرب ، وأعده كبيرة من الكبائر تستحق غضب الله وعذابه الأليم . قال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

٦ - وقرع الجبناء المتخلفين عن الجهاد ، لأنهم ضعاف النفوس يؤثرون سلامتهم على سلامة الدين والمجتمع . قال تعالى - فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وثبطوا غيرهم : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لاتنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لوكانوا يفقهون » وقال : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

٧ - وكما بغض الاسلام الى أتباعه العدوان على المسالمين ، وبغض اليهم الاستمرار فى قتال المعتدين إذا جنحوا الى السلم ، نفرهم من الاستخذاء وقبول الضيم والاقامة فى أوطانهم على الخسف والاعنات .

قال تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء

والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفورا » .

أرأيت كيف توعد الله الراضين بالذل بأنهم حطب جهنم ؟

أرأيت كيف رحم الله الضعفاء الذين لايقدرون على الجهاد أو الهجرة من رجال ونساء وولدان ، فاستثناهم من الوعيد بالعذاب ، لأنهم لايقدرون على المقاومة ولا يستطيعون الرحيل ؟

أما الأحاديث النبوية فهى حافلة بالدعوة الى الجهاد والترغيب فيه كقوله ﷺ : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » وقوله ﷺ : إن فى الجنة لمـائة درجة ، مابين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله » وقوله : « رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

فلم يكن بعد هذا عجيباً أن تهافت المسلمون على الجهاد حينما اضطروا إليه ، وكان النبي ﷺ يقودهم بنفسه فى أكثر الغزوات .

سماحة الاسلام فى الحرب

سن الاسلام أحكاماً للحرب ، وأوجب مراعاتها لتخفيف ويلات القتال ، وهى خير ماعرف من قوانين الرحمة بالناس . والقوانين التى سنها الاسلام تتفق والقانون الدولي فى كثير من الأحكام ، لكنها تسمو على القانون الدولي بأنها أحكام دينية لهـا من الجلال والطـاعة النفسية ماللدين وأحكامه .

أما أحكام القانون الدولي فليس لها من الطاعة والاجلال ما لأحكام الدين وليس وراءها قوة نفسية تكفل تنفيذها ، وتعاقب عصاتها .

لذلك كان بعض الباحثين على حق فى ذهابه الى أن تسميتها بالقانون ضرب من التجوز والتسامح ، لأن القانون لابد له من قوى تحميه ، وتلزم أحكامه ، وليس فى العالم قوة تخضع الدول لما يسمى بالقانون الدولي العام .

ونستطيع أن نجمل القوانين التى سنها الاسلام للحرب فى ثلاثة أمور : فى دوافع الحرب ، وفى سير الحرب ، وفى نتائج الحرب .

دوافع الحرب :

١ - ضيق الاسلام من نطاق الحروب ، فلم يقر الحرب الهجومية الظالمة كتلك الحروب التى كانت تنشب بين القبائل العربية ، وبين الدول القديمة ، وكتلك الحروب التى مازالت تنشب فى العالم ، وليس لها من دوافع الا الرغبة فى التوسع وبسط السلطان ، والاستئثار بخيرات البلاد المفتوحة وإذلال أهلها .

وإذا كان هذا قد حدث من المسلمين فى بعض الأعصار فإنه من طبائع البشر لا من طبائع الاسلام .

لهذا لايحارب المسلمون إلا مدافعين عن أنفسهم وحقوقهم ، سواء أكان العدو قد هاجمهم حقيقة ، أم تأكدوا من أنه يعد العدة للهجوم عليهم . قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم »

٢ - ونهى عن العدوان حتى على الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

فانظر كيف نهاهم عن الاعتداء ، وكيف أمرهم بالتقوى وهم يحاربون أعداءهم ، وكيف خوفهم عذابه الشديد إن تجاوزوا الحد فى حربهم .

سير الحرب :

الاسلام حريص على أن يكون السلام هو الأصل ، والحرب عمل طارىء موقّت ، وحريص على رعاية الكرامة الانسانية والحرب مشتعلة . لهذا شرع من النظم مايتفق مع سموه وسماحته ، وسنّ من القوانين مايكفل التخفيف من ويلات الحرب ، ويحصرها فى أضيق نطاق .

١ - فلا يجوز أن تتعدى الحرب الى المدنيين الذين لايشتركون فيها من شيوخ ونساء وعجزة وعبـــاد منقطعين للعبادة ، وعلماء منقطعين للعلم ، إلا إذا قاتلوا ، أو كان لهم فى تدبير الحرب رأى ومكيدة ، لأن القتال هو لمن يقاتلنـا .

فقد كان رسول الله ﷺ مع أصحابه فى غزوة ، فمر بإمرأة مقتولة فوقف وقال : ما كانت هذه لتقاتل .

وفى يوم الفتح أمر بأن لاتقتل ذرية ، ولا عسيف ، ولاإمرأة . وقال لهم : اخرجوا باسم الله ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، لاتغدروا

ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع .

٢ - أن تكون الحرب الدفاعية عقاباً للمعتدين ، وكفاً لعدوانهم ، فلا يتجاوز المسلمون الحد فى عقوبتهم . قال تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

٣ - لا يجوّع المسلمون أعداءهم ولا يمنعون عنهم الماء ، فإنه لما أسلم ثمامه بن أثال هو وقومه من أهل اليمامة ، منعوا عن قريش الحبوب التى كانوا يبيعونها لها ، فاشتد الجوع بقريش ، فذهب أبو سفيان الى المدينة واستنجد بالنبي وقال : « ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ ثم قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع » . فكتب النبي الى ثمامة يأمره بأن يبيع الحبوب لقريش كما كان يفعل .

٤ - وكثيراً ما كان يقدم على رسول الله ﷺ مندوبون من أعدائه الذين يحاربونه ، فلا يقتلهم ولا يسىء لقاءهم . فقد قدم عليه مندوبا مسيلمة : - عبد الله بن النواحة وابن أثال - فقال لهما النبى : فماذا تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال مسيلمة - أى أنهما أقرا مسيلمة على دعواه - فقال لهما رسول الله : لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

٥ - ومن سماحة الاسلام مع مخالفيه أنه يكفل للمستأمنين فى دياره - من رعاى الدولة المعادية التى تحارب المسلمين ويحاربونها - حقوقهم كاملة كان لم تقم حرب بين قومهم وبين المسلمين فأموالهم مصونة لا تسلب ولا تصادر وأعمالهم محمية وأرواحهم مرعية وهم مطمئنون على هذا كله حتى يعودوا الى أوطانهم .

قال تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله

ثم أبلغه مأمنه » .

وإذا رأى إمام المسلمين أن يضرب لمستأمن أجلا تنتهى إقامته فى دار الإسلام بانتهائه فعليه أن يراعى الزمن الذى يكفيه ويتلاءم مع عمله ، وإن زاد على الشهر وعلى الشهرين .

فماذا تفعل الدول المتمدينة اليوم ؟

إنها تقبض على المستأمنين ، وتصادر أموالهم ، فتضطرنا الى أن نقابل العمل بمثله ، وهى البادئة بالشر « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثـــل ما اعتدى عليكم » .

٦ - فإذا جنح العدو الى السلم وآثرها على الحرب كان على المسلمين أن يسالموه ، ذلك بأن الاسلام حريص أشد الحرص على السلام ، فهو يهادن من يجنح الى الهدنة ، حتى الخونة الذين نقضوا عهدهم ، فلعلهم أن يفوا به بعد النقض الأول ، وحتى المنافقين الذين يدعون الى السلام خدعة ورياء . على شرط ألاّ يكون فى قبول الصلح إهدار لحق من حقوق الدين ، أو تعويق للدعـــوة .

قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم » . وقال : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

نتـائج الحرب :

إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، وانتصر المسلمون ، فليس من حقهم

أن يبطرهم النصر ، فيتعسفوا بالمهزومين ويستذلوهم ، وإنما هم مقيدون بأحكام يجب عليهم أن يتبعوها .

١ - لا يبيح الاسلام التمثيل بالقتلى ، ولا تخريب العمران . ولا إحراق المساكن وقطع الأشجار وإتلاف الزرع إلا فى حال الاضطرار .

٢ - على المسلمين أن يرحموا المهزومين من خصومهم المحاربين فيكفوا عن قتلهم ويكتفوا بأسرهم . وهم مخيرون فى الأسارى بين إطلاقهم بغير مقابل وإطلاقهم بالفدية . ولهم أن يقتلوا من يجدون فى حياته خطراً عليهم أو يرون فى قتله قصاصاً عادلا .

قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

وقال تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » وقال : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

٣ - بعد أن ينتصر المسلمون على محاربيهم يخيرونهم فى أن يبقوا على دينهم أو يدفعوا الجزية .

فهى نتيجة للحرب لادافع اليها ، وباعث عليها ، وهدف من أهدافها

٤ - أوجب الاسلام الوفاء بالعهود فى الحرب والسلم ، وحرم الخيانة للعهد سراً أوجهراً ، وحذر منها بأن الخونة لايحبهم الله . قال تعالى :« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ماتفعلون » . وبلغ من حرص الاسلام على الوفاء بالعهد أن الله تعالى لم يبح للمسلمين أن ينصروا إخوانهم المسلمين غير الخاضعين لحكمهم على الكفار الذين بينهم وبين المسلمين عهد . قال تعالى : - فى شأن المسلمين الذين لم يهاجروا - « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر

إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق والله بما تعملون بصير » .

٥ - وإذا ماتثبت النبي من أن معاهديه قد نقضوا عهدهم ، فعليه أن يكاشفهم بعدائه لهم ، حتى يحاربهم وهم على بينة من أمره وعلم بنقضه العهد فيكونوا مثله فى العلم . وهذه أعظم درجات الأمانة والوفاء قال تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين » حتى المشركين - أعداء الله وأعداء المؤمنين - يجب على المؤمنين أن يفوا لهم بعهدهم الى أجله ، ماداموا لم يعتدوا على المسلمين ، ولم يناصروا المعتدين عليهم .

قال تعالى : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين » . بل إن المشرك الذى لاعهد بينه وبين المسلمين إذا لجأ الى المسلمين واستجارهم ، فعليهم أن يجيروه ويبصروه بدين الله ، ثم يردوه الى مأمنه . قال تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لايعلمون » .

وإن السماحة هنا لتتجلى إذا ماوازنا بين ما أوجبه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، وما ترتكبه الدول المعاصرة التى تتشدق بالعلم والحضارة ، إذ تلجأ الى الهجوم المفاجىء ، أو تخفى نواياها بوسائل خداعة لايقرها خلق كريم

٦ - جرى المسلمون على السماحة فى حربهم وفى فتوحهم ، فكانوا يبعثون الى البلد الذى يريدون فتحه شروطاً للصلح قبل أن يخوضوا المعركة مع أهله ، كما فعل - عمرو بن العاص - مع أهالى غزة حينما حاصرها فى السنة السابعة عشر من الهجرة ، وكما فعل مع مصر ، إذ عرض على المصريين حرية

دينية كاملة .

قال (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) : وأبدى العرب مثل هذا التسامح فى المدن السورية الأخرى ، فلم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب ، وانتحل أكثرهم الإسلام . ويقول أيضاً : « كذلك أحسن العرب سياسة سكان أسبانيا ، كما أحسنوا سياسة أهل سوريه ومصر . فتركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وحق التقاضى الى قضاة منهم ولم يفرضوا سوى جزية سنوية تبلغ ديناراً عن كل شريف ، ونصف دينار عن كل مملوك فرضي سكان أسبانيا بذلك طائعين . ورضي المصريون بالفتح العربى ، وشكروا ـ لعمرو بن العاص ـ أنه لم يتعرض لدينهم ونظمهم وعاداتهم ، وأنه لم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرها دينار عن كل رأس فى مقابل حمايتهم . ولم يتمرد سوى الروم ـ أى الجنود والموظفين ورجال الدين أبوا أن يخضعوا للغزاة ، فالتجأوا الى الإسكندرية ـ فحاصرها العرب أربعة عشر شهراً ، قتل من العرب فى أثنائها ثلاثة وعشرون ألفاً . ولكن ـ عمرو بن العاص ـ لما افتتحها لم يعاملهم إلا بالرحمة ، على الرغم من الخسائر التى أصيب بها ، ولم يقس عليهم ليثأر منهم » . هكذا ذكر جوستاف لوبون فى كتابه ـ حضارة العرب ـ .

ملاحظة لا بد منها :

ألآن بعد أن جلونا منهج الإسلام فى الحرب ، وأنه لا يسمح بالجهاد إلا دفاعا عن العقيدة ، أو صيانة للروح ، أو حماية للوطن . وما القول العدل فى الحروب التى شنها بعض المسلمين فيما بعد ؟

أكان التوغل فى الشرق الأقصى لغرض من هذه الأغراض ؟

أكان فتح الأندلس دفاعا أم هجوماً ؟

أكان التوغل فى فرنسا صيانة للأرواح ؟

هذه الأمثلة وأشباهها تعترض الباحث المنصف ، ويقتضيه الانصاف أن يجيب عنها فى غير مواربة أو انتحال للأسباب .

الحق إن بعض هذه الحروب وأمثالها لم تكن من الحروب الاسلامية فى شىء . فهى حروب اقتضاها – الملك – وسببتها السياسة . وليس يصح أن نعزوها الى الاسلام ، وندعى أنه يبيحها ، بناء على القائمين بها كانوا من الخلفاء أو الأمراء المسلمين ، لأن الاسلام لايقر الحرب القائمة على التوسع والاستيلاء ، ولأن هؤلاء الفاتحين لم يدعوا أنهم يحاربون دفاعا عن الاسلام ، أو تمكيناً له من الذيوع والانتشار ، فمن الجور أن نحمل الاسلام تبعة حروبهم وفتوحهم .

نعم من الجور أن نحمل الاسلام أخطاء بعض أتباعه ، لأنهم بشر يعتريهم الضعف كما تعتريهم القوة ، ويخضعون لأوامر دينهم ، لكنهم أحياناً يخالفونها عن علم أو عن جهل ، وهم كانوا مدفوعين بباعث السياسة والملك لابدافع الدين . فقد فتحوا بلاداً إسلامية وبلاداً مسيحية ، فالفاطميون فتحو مصر المسلمة ، – وصلاح الدين الأيوبى – فتح مصر من الفاطميين ، وفعل بهم الأفاعيل الموحشة ، وهم ذرية على وفاطمه ، شردهم فى البلدان وحرث قبورهم وأحرق مكتبتهم – تلك المكتبة التى فيها عز الاسلام وتراثه الخالد – ورمى بها خلف تلال المقطم ، وتركيا افتتحت مصر المسلمة ، واليونان المسيحيــــة .

وهذا عمل شخصى بحت لايحتمل الاسلام جريرته .

وقد حدث مثل هذا ، بل أشد منه ، فى تاريخ الدول المسيحية .

ذلك بأن المسيح عليه السلام حرم الحرب ، ونهى عن مقاومة الشر بالشر فى قوله : كما ـ فى انجيل متى ـ « أما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر بالشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه ميلين » . وفى قوله للقديس بطرس : « أعد سيفك الى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » .

لكن المسيحيين اختلفوا بعد قليل ، فخضع أتباع الكنيسة الغربية لدعوة المسيح ونفذوها ، وكفوا عن الحرب ولو كانت دفاعا عن النفس ، على حين أن أتباع الكنيسة الشرقية مزجوا فى شخص الإمبراطور الرياسة الزمنية والرياسة الدينية ، وكان من آثار هذا المزج أن جعلوا الحرب حقا للإمبراطور لايشركه فيه أحد ، ولا يقيده إلا الصالح الذى يراه .

ونجم عن ذلك أن الأباطرة طالما حاربوا ظالمين ، وطالما سيرتهم أهوائهم ، فأشعلوا الحرب فى الشرق وفى الغرب منذ العصور الوسطى .

وفى تاريخ المسيحية حروب شتى باسم السيد المسيح ، أريقت فيها أنهار الدماء . فالحرب الصليبية أشعلها المسيحيون لا المسلمون ، وكثيراً مازحفت الجيوش الأوربية باسم الصليب منحدرة من أوربا الى الشرق لتحارب وتسفك الدماء . وفى كل مرة كان البابوات (خلفاء السيد المسيح) يباركون الجيوش المعتدية ، وهم يعلمون أن المسيحية تحضر القتال ، لكنهم لايجهلون أنها لاتحضره على الإطلاق .

يقول السير ـ توماس أرنولد ـ : « وربما حل الإضطهاد والتنصير الإجبارى محل الدعوة الهادية الى كلمة الله . حتى كان الملك أولاف ـ ترايجفسون ـ ينشر الدين المسيحى فى فيكن (القسم الجنوبى من النرويج) بذبح الذين

أبوا الدخول فى المسيحية ، أو بقطع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم
وفى وصية القديس لويس : عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسيىء اليها فإنه ينبغى ألا يذود عنها إلا بسيفه « فيجب عليه أن يطعن به الـكافر فى أحشائه طعنة نجلاء » .

فهل معنى هذا أن نتهم المسيحية بأنها دين حرب ؟

وهل من العدل أن نحمل المسيحية وزر المنتسبين إليها ؟

لا ، كـذلك من الجور أن نلقى على الإسلام وزر ما اقترفه بعض أتباعه - من الأموية والعباسية ومن تأخر عنها من الدول الإسلامية - ، فنزعم أن فتوحاتهم كانت دينية ، وأن الإسلام دين حرب ودماء .

الاسلام والسلام

كان النـاس - وما زالوا - يتحاربون فى كل عصر وفى كل صقع ، وكلما تقدمت بهم الحضارة أفتنوا فى صنع عتاد الحرب والتخريب والتدمير ، يقوضون بمخترعات العلم والحضارة وما أبدع العلم والحضارة ، ويهدمون اليوم مابنت الأجيال من قبل .

وهم لايريدون من الحرب إلا توسيع الرقعة . وبسط السلطان ، وإرواء الظمأ الى الشهرة والمجد ، واستعباد الضعيف ، والاستئثار بخيرات بلاده .

وكثيراً ماعلت صيحات الدعوة الى السلام ، لـكنها كانت تذهب دخاناً فى الهواء . وليس صراع العالم اليوم - وهو صراع يهدد البشر بالانقراض ويعرض الحضارة للدمار - ناشئاً عن بواعث سامية ، أو غايات راقية .

وإنما هو صراع مبعثه وهدفه الغلب والسيطرة والاستئثار بالسلطان والخيرات .

أما الاسلام فهو دين سلام ، يؤثر السلم على الحرب ما كان فى الطاقة إيثار ، فإذا لم يكن بد من الحرب للإبقاء على العقيدة أو على الحياة ، فالحرب شر لامندوحة عنه .

١ ـ ذلك بأن الاسلام يدعو الى المثل الأعلى فى جميع الصلاة والمعاملات فإن لم ينجح المثل الأعلى تمشى الاسلام مع الواقع ، أو جارى الأحداث .

وقد دعا الاسلام الى السلام فلم يستجب خصومه ، وأبو إلا الحرب ، وصبر المسلمون على أذاهم فلم يزدادوا إلا عتواً وفساداً فى الأرض ، فلم يكن بدمن حربهم ، لأن الاسلام يدعو أتباعه الى القوة مادية ونفسية ، ليحموا أنفسهم ودينهم ، كما يدعوهم الى المسالمة والأناة .

٢ ـ وكيف لايكون الاسلام دين سلام ، والمسلمون يقولون فى تشهدهم فى صلواتهم مرات فى كل يوم (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) ويختمون كل صلاة بالسلام ؟

كيف لايكون دين سلام والقرآن يسمى الجنة دار السلام « لهم دار السلام عند ربهم » ويجعل التحية فيها سلاماً « تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجراً كريماً » « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون » . ويصف المؤمنين المتقين بالمسالمة « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

٣ ـ وإذ كانت الحرب فى طبائع البشر فغاية ماتطمح اليه الانسانية الراقية أن تضيق نطاقها ، وأن ترعى فيها حرمات الانسانية رعاية كاملة .

وقد رأينا الاسلام يكفل ذلك ويرعاه .

رأينـــا المسلمين لم يحاربوا إلا ليصدوا الاعتداء عليهم وعلى دولتهم

وعقيدتهم ، ووجدناهم لم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مسالمة الأعداء .

ورأيناهم لم يحاربوا إلا المحاربين ، ولم يتجاوزوا فى حربهم حد الدفاع والترهيب الى الانتقام الحاقد المبيد .

ورأيناهم يجنحون الى السلم إذا ماجنح لها الأعداء .

ثم رأيناهم رحماء بالبشر لايمثلون بالقتلى ، ولا يخربون العمران ، ولا يجبرون أحداً على نبذ دينه واعتناق الاسلام .

نعم لم يستغل المسلمون القوة ليقسروا أحداً على أن يسلم ، وليس أدل على ذلك من أن الاسلام ذاع فى مكة ، والنبى وأتباعه قلة لايملكون من القوة مايحمون به أنفسهم من الأذى والعدوان ، وذاع فى المدينة قبل أن يهاجر النبى اليها ، وتعهد الذين اعتنقوه بحماية النبى ﷺ ونصرته إذا هاجر اليهم . ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية فى كل عصر حتى فى العصور التى ضعف فيها المسلمون .

وحسبنا هنا شهادة السير - توماس أرنولد - فى كتابه - الدعوة الى الاسلام - « تصدعت أركان الامبراطورية العظمى ، وتضعضعت قوة الاسلام السياسية ، ولكن ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع . وعندما خربت جموع المغول بغداد عام (١٢٥٨ م) وأغرقوا فى الدماء مجد الدولة العباسية ، وعندما طرد (فرديناند) - ملك ليون وقشتالة - المسلمين من قرطبة عام (١٢٣٦ م) ودفعت غرناطة - آخر معاقل الاسلام فى أسبانيا - الجزية للملك المسيحى ، فى هذا الوقت كان الاسلام قد استقرت دعائمه ، وتوطت أركانه فى جزيرة (سومطرة) وكان على أهبة أن يحرز تقدماً ناجحاً فى الجزر الواقعة فى بلاد (الملايو) . وفى هذه اللحظات التى تطرق فيها الضعف السياسى الى قوة الاسلام نرى أنه قد حقق بعض غزواته

الروحية . فهناك حالتان تاريخيتان كبريان وطىء فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول ، أولئك الأتراك السلاجقة (فى القرن الحادى عشر) ، والمغول (فى القرن الثالث عشر) وفى كلتا الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين . وقد حمل دعاة الاسلام الذين فقدوا مظهر السلطان والقوة عقيدتهم الى إفريقية الوسطى ، والصين ، وجزائر الهند ، والروسيا ، وغيرها ، ثم صار للإسلام فى السنوات الأخيرة أتباع فى إنكلترا ، وأميركا وأستراليا ، واليابان » .

٤ ـ ولقد حرص الاسلام على السلام ، وحض على صونه بالسيف إن لم يستطع أن يصونه غير السيف .

ذلك أن الاسلام عقيدة وعمل ، دين ونظام سياسى واجتماعى يكفل للبشر الخير أفراداً وجماعات .

ومن عبقرية الاسلام أنه لم يغفل عن الغرائز البشرية ، فيتغاض عن وجودها أو يفترض محوها ، وإنما عرفها وعرف أثرها ، فسن لها من الوسائل مايكفل تهذيبها ، والتسامى بها ، ودرىء أخطارها .

ومن هذه الغرائز غريزة المقاتلة .

نعم فإن الناس يعيشون جماعات لا بد أن ينشب بينها خلاف ، وتنازع على المصالح ، وكثيراً ماتعجز الوسائل السلمية عن حسم هذا الخلاف ، فتنشب الحرب .

فما حكم الاسلام حينما تتحارب أمتان مسلمتان أو طائفتان منهما ؟

أتقف الأمم الاسلامية الأخرى من هذه الحروب وقفة المتفرج اللاهى الذى لا يعبأ بالأرواح المزهقة ، والدماء المراقة والأشلاء الممزقة ، والعمران المقوض ، والأموال المبعثرة فى طاعة الشيطان ، والأبرياء الذين يفجعون ؟

أم ينحاز بعض المسلمين الى هؤلاء وينحاز بعضهم الى أولئك ؟

لا . لا هذا ولا ذاك ، لأن فى موقف المسلمين موقف المتفرج مجافاة للأخوة الاسلامية . وللصلة الانسانية ، وتمكيناً للمتحاربين من أن يتفانوا أو يفنى قويهم ضعيفهم .

ومن الذى يرى أخويه يقتتلان فيدعهما ويخلى بينهما ، ويرضى بأن يصبر عليهما ، وينتظر نتيجة ما بينهما من صراع ؟ ثم أن فى تحيز فريق من المسلمين الى طائفة ، وتحيز فريق آخر الى طائفه ، توسيعاً لميدان الحرب ، ومداً فى أجلها ، وإفساداً للعلاقات التى تربط المسلمين . وتخريباً فى الأرض وتدميراً للحضارة ، وتعويقاً للرقى ، وإضعافاً للمسلمين جميعاً .

وإنما الخطة المثلى هى التى رسمها القرآن الكريم . قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء الى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فإذا تحاربت أمتان أو جماعتان من المسلمين كان على الأمم الإسلامية أن تسعى جهدها للصلح بينهما ، فتعرف أسباب النزاع ، وتقضى بينهما بالعدل فإن رضيتا بهذا الحكم فقد وضعت الحرب أوزارها وكفى الله المؤمنين القتال . وإن رضيت إحدهما ورفضت الأخرى ، وأصرت على الإستمرار فى عدوانها وطغيانها ، مغترة بقوتها ، كان على المسلمين أن يحاربوها حتى تخضع لحكم الله .

وهنا تتجلى سماحة الاسلام وسموه . لأنه دعا الى إنصاف المظلوم وإقرار السلام كما سبق . ولأنه قيد المنتصرين تقييداً يمنعهم من الإنتقام . ذلك بأن

المنتظر ان تضطغن الدول الغالبة على الدولة المغلوبة ، وأن يذيقوها النكال ، وفاقا لتمردها وغرورها ، لكن الاسلام قضى بغير ذلك . قضى بأن يستأنف المنتصرون ـ الذين رفضت وساطتهم وحكمهم العادل فيما سبق، فاضطروا الى محاربة الباغي ـ الصلح بين المتنازعين صلحاً قائماً على العدالة ، لا على التحيز والمحاباة والتشفى والانتقام . وحبب الى المسلمين هذا العدل بأن الله يحب العادلين .

وقد بنى القرآن الكريم دعوته الى الاصلاح بين المسلمين المتحاربين على أنهم أخوة للمسلمين الآخرين ، أخوة فى الدين ، والدين رباط وثيق بين نفوس المسلمين لايقل عن رباط النسب والدم ، وأخوة فى الانسانية لأنهم جميعاً من أب وأم .

تباركت يارب ، لقد هديت عبادك الى أعظم نظام لصون السلام وحفظ الأمن ، والفصل العادل بين الأمم المتنازعة .

وهذا هو مجلس الأمن الحقيقى ، مجلس الأمن الذى يستمد قوته من الحق والعدل ، ولا يرعى شيئاً غير الحق والعدل ، مجلس الأمن الذى شكله الخالق ، فهو يسعى الى الخير ، ويقر السلام على الأرض ، ويعتز برهبته الروحية الدينية .

وهيهات أن يصل الى شىء من ذلك ماقام على أهواء الأمم من جماعات مثل (عصبة الأمم) و (هيئة الأمم المتحدة) و (مجلس الأمن) ، لأنها جماعات خيبت الآمال كلها ، فليس لها من حقيقتها إلا إسمها ، وهدف كل دولة فى هذه الجماعات أن ترعى مصالحها ، وأن تحتفظ بنفوذها ، وأن تحابى من يوادها ، وتضع العراقيل فى طريق من تخشى قوته ، أو ممن لا يوادها . أما الحقوق ـ وحقوق الضعفاء بخاصة ـ أو السلام الذى يتشوف الناس اليه

فقد صار هذا كله نسياً منسياً .

لهذا لا تكاد تنقطع الحرب ملتهبة وباردة ، ويتحزب العالم شيعاً وكتلا ولهذا يطغى القوى على الضعيف ، ويطمح المسلح فى الأعزل ، ولا تكاد تنتهى حرب حتى تبدأ فى أعقابها حرب أخرى أشد طحناً ، وأهول فتكا ، ويفتخر المنتصر الظالم بنصره على أخيه ، كأنما كسب للإنسانية مملكة ، أو حماها من تهلكة .

موازنات وشهادات

أما وقد تجلت سماحة الاسلام والمسلمين فى معاملة مخالفيهم فى العقيدة ، فإنا نريد أن نزيدها جلاء ، وأن نزيد النفوس بها إعجاباً إذ نوازن بين هذه السماحة ـ التى كانت من طبائع الاسلام ـ وبين القسوة التى استمرأها غيره .

١ ـ لم تجر اليهودية على سماحة فى معاملة خصومها . فقد جاء فى العهد القديم : « حين تقرب من مدينة لتحاربها أدعها الى الصلح ، فإن أجابتك وفتحت لك فكل من فيها مسخر لك ومستعبد وإن لم تسالمك وحاربتك فحاصرها . فإذا رفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب ذكورها بحد السيف . وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافى المدينة فهو غنيمة لك . وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هذه الأمم التى هنا . وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسخة ما ، بل أهلكها إهلاكا » . سفر التثنية ٣٠ / ١٠ - ١٤

ولقد قتل ـ بنو لاوى ـ ثلاثة آلاف رجل من شعب إسرائيل ،

جزاء لهم على عبادة العجل » . سفر الخروج ٣٢ / ٢٥ - ٢٨

« وأرسل موسى إثنى عشر ألف رجل لمحاربة أهل مدين فحاربوهم ، وانتصروا عليهم ، وقتلوا كل ذكر منهم وخمسة ملوك ، وسبوا نساءهم وأولادهم . ولما رجعوا غضب عليهم موسى ، لأنهم استبقوا النساء والأطفال ثم أمر بقتل كل طفل ذكر ، وكل إمرأة ثيب ، وأبقى الأبكار ، وكان عددهن ٣٢ ألفاً » . سفر العدد ٣١

« وكان داود يقاتل أعداءه ، ولا يبقى ذكراً ولا أنثى ولا طفلا » . صموئيل الأول ٢٧ / ٩

وكان أحياناً يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل « وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت المناشير ونوارج حديد ، وفؤوس حديد ، وأمرّهم فى آتون الآجر . وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون » . صموئيل الثانى ١٢ / ٣١

٢ - لما اعتنق بعض المصريين النصرانية ، نكلت بهم الدولة الرومانية الوثنية ، وطاردهم الوثنيون من الشعب ، حتى لقد سالت دماؤهم بشوارع الإسكندرية سنة ٢٠٢ م . ونفى كثير منهم وقتل بالسيف أو أحرق بالنار أو الذبح قرباناً لآلهة الوثنية سنة ٢٥٠ م . وفى سنة ٣٠٤ نكل الإمبراطور - دقلديانوس - بالقبط ، فنفى بعضهم من مصر ، ورمى بعضهم للوحوش الضارية فى حلقة الألعاب على مشهد من النظارة الوثنيين ، وما زال القبط يذكرون هذا العصر ويسمونه عصر الشهداء ، ويتخذونه مبدأ لتقويمهم الخاص ويبدأونه بحكم - دقلديانوس - سنة ٢٨٤ م .

على أن هذا الإضطهاد لم تنفرد به الدولة ، فقد ذبحت سيدة كريمة مثقفة تمكنت من نفسها الإفلاطونية الحديثة ، وأخذت تذيعها فى الناس ،

وتعارض العقائد المسيحية ، ذبحها فى أحد شوارع الإسكندرية على مرآى ومسمع من الناس مسيحى منحه التاريخ لقب - قديس - ويرجح المؤرخون أن الذى أوعز اليه بقتلها بطريق الاسكندرية - كيرولص - (الذى عين سنة ٤١٢ م) وكان معروفا بالقسوة والغلو فى إضطهاد مخالفى المسيحية ، ولا سيما اليهود الذين كانت معابدهم تهاجم بالقوة المسلحة . وكانت أموالهم وديارهم عرضة دائماً للسلب والنهب . هكذا جاء فى كتاب - الاسلام ظهوره وانتشاره « تأليف حامد عبد القادر » .

وكان المفروض أن يستريح القبط من هذا الإعنات الوحشى إذا ماصارت المسيحية دين الدولة الرسمى . لكنهم اصطلوا فى العهد المسيحى للدولة بمثل ما كانوا يصلونه فى عهدها الوثنى .

ذلك بأن كنيسة بيزنطة كانت صاحبة مذهب سمى بالمذهب (الملكى) وهو قائم على أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية ، وكانت كنيسة الاسكندرية تدعو الى مذهب آخر أساسه أن للمسيح طبيعة واحدة .

وجهدت الدولة - البيزنطية - فى أن تفرض مذهبها الملكى ، وأصر القبط على مذهبهم ، فنكلت بهم الدولة تنكيلا ، كأنما حق على القبط أن ينصب عليهم طغيان الدولة وهى وثنية لاختلاف الدين ، وأن ينصب عليهم طغيانها وهى مسيحية لاختلاف المذهب فى الدين الواحد .

وحسبنا أن نشير الى بعض ما احتملوا فى العهد المسيحى للدولة من عذاب أليم . فقد أمر الامبراطور - فوقاس - (٦٠٢ - ٦١٠ م) بعزل المصريين من الحكومة ، وإجبارهم على طاعة الكنيسة الرسمية - فى القسطنطينية - ولم يكونوا فى عهد خلفه - هرقل - (٦١٠ - ٦٤١ م) أسعد حالا ، ولا أهدأ بالا ، لأن النزاع بينهم وبين الامبراطورية كان على أشده . وتبادل

الفريقان تهمة الكفر والخيانة ، وكانت أيسر تهمة لمخالفى مذهب الامبراطور أنهم وثنيون خونة .

فلم يكن عجباً أن رحب القبط بالمسلمين الفاتحين ، ولا غرابة فى قول المؤرخ المسيحى ميخائيل السورى : إن الله المنتقم الجبار أتى بأبناء إسماعيل من الصحراء لينقذوا الأمم من عسف الروم ومن عسف الرومان .

٣ ـ ولقد لقى سكان الامبراطورية ـ البيزنطية ـ مثل ما لقى سكان ـ مصر ـ من عسف الامبراطور ـ جستينيان ـ الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) فقد كان شديد القسوة فى معاملة من يدينون بمذهب غير مذهب الكنيسة الملكانية . ويمكن تلخيص آرائه عن الحكومة فى هذه العبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة . وعلى الرغم من أن مخالفى مذهب الكنيسة الرسمية كانوا يؤدون مايؤديه المواطنون من ضرائب وواجبات ، فقد حرم عليهم التمتع بالحقوق التى يتمتع بها أتباع الكنيسة الرسمية ، وحرم عليهم الأشغال بالمهن الحرة ، بل أمر بهدم كنائسهم ، وحظر عليهم الاجتماعات العامة ، وأمر بألا تقبل شهادتهم القانونية على ـ الارثوذكس ـ وبأن تصير وصاياهم باطلة ، وبألا يرثوا ولو كان الميراث بوصية إختيارية ، أو بغير وصية . وبهذا أصبح المخالف للكنيسة الرسمية منبوذاً من المجتمع .

واستحال النظام الكنسى الى عسف ثقيل ظالم على رجال الكنيسة وعلى العامة ، حتى لقد انفجرت ثورة سنة ٥٣٢ م على الدولة وعلى الكنيسة معاً ، ولم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألفاً .

وبسبب هذا العسف وضع جماعة المتذمرين إحتجاجا قوياً فى ناديهم على

إضطهاد الامبراطور ، ونادوا قائلين لقد فقد العدل من الدنيا ، ولن يعود أما نحن فسنتهود ، بل سوف نعود الى الوثنية الاغريقية . (إنتشار الاسلام) - أرنولد .

٤ - كذلك نكلت الدولة الرومانية باليهود ، فهدمت هيكل سليمان وطردتهم من بيت المقدس ، وطاردتهم فى البلاد الخاضعة لها ، وأجبرتهم على عبادة الامبراطور قبل أن تعتنق الدولة المسيحية ، ثم أكرهتهم على المسيحية بعد ذلك . وحسبنا أن نذكر ماحل بهم قبيل الفتح الاسلامى لمصر ، فقد طردهم الامبراطور فوقاس (٦٠٢ - ٦١٠ م من وظائف الدولة بالاسكندرية ، وأمر بتعميدهم كرها ، وبأن يقتل من يرفض التعميد . ثم جاء من بعده الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) وكان اليهود قد أسهموا فى نصره عليه والحرب دائرة بينهما ، وترقبوا أن يكافئهم بتركهم أحراراً فى دينهم ، فإذا هو أنكى وأقسى على اليهود من سلفه ، فقد نكث بعهده الذى أعطاهم ، وقتل منهم خلقاً كثيراً جداً بمصر والشام ، حتى لم يبق منهم إلا من نجاه الفرار أو الاختفاء .

٥ - لما فتح المسلمون - الأندلس - أعفوا من الجزية غير القادرين عليها ، ووكلوا جمعها الى موظفين من النصارى . وسلك المسلمون مسلكا نبيلا فى تصريف الشؤون هناك . واستمتع بالحرية النصارى واليهود .

(أ) أما النصارى فقد ظلوا أحراراً فى إقامة شعائرهم الدينية ، وبنوا عدة أديار جديدة ، ولم تكن المناصب المسيحية الدينية سبباً فى حرمان بعض المسيحيين من أن يتولى المناصب العالية فى قصور الملوك أو فى الجيش ، لذلك اندمج المسيحيون بالمسلمين ، وتسمى كثير منهم بأسماء عربية ، وحاكوا المسلمين فى كثير من عاداتهم وأعمالهم ، فاختتن كثير منهم ، وتعلموا اللغة

ودرسوا العلوم الاسلامية .

ولما هاجر بعض المسيحيين الى فرنسا ليعيشوا فى ظلال حكم مسيحى لم يصيروا أحسن حالا من إخوانهم النصارى بالأندلس . وإن الفرق فى الحرية الدينية ليتضح من الموازنة بين الحرية والسماحة فى ظلال الحكم الاسلامى وبين العسف والاضطهاد قبله فقد فتح المسلمون الأندلس فى الوقت الذى كان فيه المذهب - الكاثوليكى - قد انتصر على المذهب - الآريوسى - وقد أصدر المجمع السادس فى طليطلة قراراً يقضى على كل الملوك بأن يقسموا أنهم لايسمحون بانتشار مذهب آخر غير - الكاثوليكى - وأن يقاوموا بالقوة من يخرج عليه ، ثم صدر قانون آخر يحرم على كل شخص أن يشك فى الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وبذلك عظم نفوذ رجال الدين فى شؤون السياسة والملك والدين .

وليس أدل على تسامح الاسلام والمسلمين من أنهم احتملوا بصدر رحب تحرش المسيحيين بالاسلام ، وطعنهم فى النبى ﷺ . ذلك أن القسس والرهبان - حينما كان عامة المسيحيين فى قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين ولا يشكون من حكم العرب - هيجوا بعض المسيحيين على المسلمين والاسلام فاندفعوا الى الطعن فيه وفى نبيه جهراً ، وفى المحاكم على مسمع من القضاة ، وتخيل بعض المتهوسين أن قتلهم أو تعذيبهم على هذا زلفى الى الله ، واستمر الهوس من سنة ٨٥١ الى ٨٥٩ م

وكان القضاة المسلمون يحكمون عليهم آناً ويصمون آذانهم حتى لا يسمعوهم فيحكموا عليهم أحياناً ، وكان المسلمون مشفقين على هؤلاء المجانين الذين لا يقابلون الحسنى بمثلها ، ولا يرعون حرمة الاسلام كما يرعى المسلمون حرمة المسيحية (الاسلام . الكونت هنرى دى كاسترى .)

ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الاسلام حتى بلغ نهر - اللوار - فى فرنسا ، ويتساءلون عن مصير أوربا لولم يقف - شارل مارتل - فى وجه المسلمين فى سهل - بواتييه - ؟ والحق أن السؤال معكوس ، إذ الأولى أن يتساءلوا : ماذا كان مصير أوربا المسيحية لوكان المسلمون متعصبين لدينهم ؟

ذلك أن هزيمة المسلمين - فى بواتييه - ليست سبباً فعـالا فى تعويق الاسلام عن الانتشار ، ولم تكن هزيمة واحدة فى الحرب لتنتج هذه النتيجة الـكبرى ، فالعادة أن الحرب سجال ، وكثيراً ماجبرت الهزيمة بنصر مؤزر وإنما السبب الأول فى ذلك هو تطرف المسلمين فى المحاسنة ، لأنهـا سهلت العصيان للعصاة ، ومهدت لبعض الأسر المستقلة فى المغرب الخروج على الجامعة فى بلاد الأندلس وبلاد المغرب ، وانتهى الأمر - مع المحاسنة - الى إنحلال عناصر المملـكة العربية .

ومن المرجح أن المسلمين لوعاملوا الأندلسيين كما عامل المسيحيون الأمم السكسونية و (الواندية) لأخلدت الى الاسلام واستقرت عليه ، لأنها كانت - مع تمتعها بحرية دينها المسيحى - كثيرة الانشقـــاق والأحزاب ، (الاسلام . لـكونت هنرى دى كاستر) .

(ب) وأما اليهود فقد كانوا قبل الفتح الاسلامى يرزحون تحت عسف (القوط) وظلوا على ذلك زمناً طويلا ، الى أن دخل المسلمون الأندلس ، فخلصوهم من هذا الاضطهاد ، وسمحوا لهم بحرية التجارة التى كانت محظورة عليهم من قبل ، وأباحوا لهم أن يمتلـكوا ، بعد أن كانت الملـكية محرمة عليهم ، ولهذا نهضوا واشتهر كثير منهم بالعلم والأدب بعد أن استنشقوا نسيم الحرية .

ولمـا اضطهدت أوربا اليهود لجأوا الى المسلمين بالأندلس فى قرطبة .

على أنه لما دخل الملك (كارلوس) - سرقسطة - أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين . ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية مادخلوا بلاداً إلا أعملوا سيوفهم فى يهودها ومسلميها . وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأ فى الاسلام . فإن كانت لهم باقية حتى اليوم ، فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم ، لا الى مابين الاثنين من وحدة فى الأصل والجنس واللغة والدين كما ادعاه (افيديكور شايكين) (الاسلام خواطر وسوانح . لـكونت هنرى دى كاستر .)

(ج) وكان بالأندلس طبقة العبيد ورقيق الأرض ، وقد رحبوا بالعرب الفاتحين ، ليخلصوهم من قيود سادتهم القوط . ثم اعتنق كثير منهم الاسلام واستمتعوا فى ظلال الحكم الاسلامى بحقوق مدنية كانت محظورة عليهم ، فصاروا يزرعون الأرض لحسابهم . ويؤدون عنها خراجا للدولة . ولم يحدث أن أرغمت الدولة أحداً على أن يسلم .

٦ - منذ أن صار النساطرة رعية للمسلمين نهضوا بدينهم ، ونشطوا فى نشره ، فأرسلوا البعوث الدينية الى الهند والصين ، وارتقى كل منها الى مرتبة المطرانية فى القرن الثامن الميلادى ، وفى العصر نفسه رسخت أقدامهم فى مصر ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية فى آسيا .

وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت فى إظهار مثل هذا النشاط القوى ، فليس المسلمون هم المسؤولين عن هذا الإخفاق ، إذ كانت الحكومة الإسلامية تعامل الطوائف كلها على حد سواء ، وكانت تحمى بعضهم من إضطهاد بعض .

٧ - فى مستهل العصر الحديث حاطت بجماعات (الهيجونوت) فى - فرنسا - كوارث من إخوانهم - الكاثوليك - وفى زمن - هنرى الثامن -

انفصلت الكنيسة الإنكليزية عن كنيسة رومة . واقترن هذا الإنفصال بأشد أنواع القسوة والنضال والاضطهاد لفرض المذهب الجديد ، حتى لقد استعملت إنكلترا النار والمشنقة من جراء التطاحن الديني المذهبي عن كتاب (أهل الذمة فى الإسلام) وفى سنة ١٦٢٠ هاجر من إنكلترا الى أميركا جماعة من البيوريتان الانكليز فراراً من الاضطهاد الديني ، وأقاموا هنالك جمهورية حرة ، أول أساس فى دستورها حرية العقيدة ، ثم لحق بهم أشباه لهم . وكانت هذه الطائفة - البيوريتان - طائفة متطرفة من البروتستانت ، وكانت ثائرة على نظام الحكم فى إنكلترا وثائرة على الكنيسة ، وتعتقد أن المسيحية دين ودولة والمثل الأعلى للبشرية هو إقامة ثيوقراطية - حكومة الله - وهى حكومة ليس فيها كهنوت ، ولا ملوك ، ولا قانون إلا ماجاء فى التوراة والانجيل » (دراسات فى الأدب الامريكى) .

يهمنا من هؤلاء المهاجرين الفارين بعقيدتهم أنهم بعد أن اصطلوا بنار العسف والاضطهاد الديني أسسوا دستور جمهوريتهم الصغيرة على حرية العقيدة الدينية ، وأباحوا لكل عضو أن ينتقد مالا يروقه ، لكنهم لم يلبثوا أن نسوا ماعقدوا العزم عليه ، فجعلوا مذهبهم (الدين الأوحد) وحاربوا مخالفيهم من أتباع المذاهب الأخرى ، أو ممن ليس لهم مذهب معين يلتزمونه . بل لقد بلغ من عنتهم أنهم فى سنة ١٦٩٢ م أعدموا أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة من مخالفيهم فى الدين ، وسجنوا مئآت منهم بتهمة السحر .

٨ - كان اعتناق دين يخالف الكنيسة الأرثوذكسية محرماً فى القانون الروسى الى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥

ومن النتائج التى أنتجها هذا المرسوم أن دخلت جموع كثيرة فى الإسلام من سكان القفقاز من طوائف الانجاز الذين قضوا زمناً طويلا يدينون

بالمسيحية إسماً ، وقد بلغ من ضخامة عددهم أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد خشوهم أشد الخشية ، فألفوا جماعات لتوزيع منشورات دينية بينهم ، أملا فى مناهضة النفوذ الاسلامى » . (كتاب انتشار الاسلام . أرنولد) .

٩ - شهد البطريق (عيشويابه) الذى تولى منصبه سنة ٦٤٧ - ٦٥٧ هج بأن « العرب الذى مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون . إنهم ليسوا أعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قديسنا وقسيسنا ويمدون يد المعونة الى كنائسنا وديننا » . (كتاب أهل الذمة فى الاسلام تريتون) .

١٠ - وذكر القس ميشون فى كتابه (سياحة دينية فى الشرق) أنه من المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وحسن المعاملة ، وهما أقدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والأمم » . (كتاب محمد رسول الله)

١١ - قال (ميشون) فى تاريخ الحروب الصليبية . لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً . ولكن لما استولى عليها المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا ، وأحرقوا اليهود إحراقا . وقال الحبر - ميشون - مما يؤسف له أن المسلمين هم الذين كانوا يبدأون المسيحيين بالمسالمة وحسن المعاملة ، مع أن المسالمة هى منبع الخير بين الأمم بعضها وبعض » (الاسلام . لكونت هنرى دى كاستر) .

ولقد أيقنت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة ، وتدل على حسن مسايرة ولطف مجاملة . وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك ، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت إمارات ضعف عند الأوربيين ، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها » . (الاسلام . لكونت هنرى دى كاستر) .

١٢ ـ وقال السير توماس أرنولد : « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح فى القرون المتعاقبة ، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الاسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح » . (الدعوة الى الاسلام توماس أرنولد) .

١٣ ـ وقال الكونت هنرى دى كاسترى : « وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام الى استقرار حكومته إستقراراً منظما رأيناه أكثر محاسنة ، وأنعم ملمساً ، بين مسيحى الشرق على الاطلاق . فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى ، بل بقيت رومة نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية » .

وفى سنة ١٠٥٣ م كتب البابا (ليون التاسع) الى مسيحى إفريقية يوصيهم باعتبار أسقف ـ قرطاجنة ـ مطراناً عاماً بينهم . وكان الوئام مستحكما بين المسلمين والمسيحيين ، حتى أن (غريغوريوس) السابع كتب الى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام المسلمين . وكان ذلك فى ٥ سبتمبر سنة ١٠٧٣ م .

على أن الاسلام لم يكن له عمال يختصون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما فى الديانة المسيحية ، فقد شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب ، بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التى كان يصلى بها الأمم حرباً تجعل الولدان شيباً . لكننا لا نعلم للإسلام مجمعاً دينياً ، ولا رسلا وأحباراً وراء الجيوش ، ولا رهبنة بعد الفتح ، فلم يكره أحداً على الاسلام

بالسيف ولا باللسان .

نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا وراء منافعهم ، لكنهم قلة بجانب من أسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح ، وكان ذلك من أسهل الأمور ، لبساطة الدين وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين . ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس ، حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمان . ثم ينقل عن دوزى قوله : لقد أبقى المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف ، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ، وكثير منهم تولى قيادة الجيوش ، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية الى المسلمين ، وحصل بينهم زواج كثير . وكم من أندلسى بقى على دينه ، ولكن أعجبته طلاوة التمدن العربى ، فتعلم اللغة وآدابها ، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة ، والتعلق بأشعار الظافرين .

ويقرر فى موضع آخر أن حكام المسلمين إحترموا مدينة (بنارس) لأنها مقدسة عند الهنود البراهمة . ويرى أن اتهام الاسلام بأنه انتشر بالقوة خطأ ، والصواب أن يقال إن مسالمة المسلمين ، ولين جانبهم كانا من أسباب سقوط المملكة العربية » . (المرجع السابق) .

١٤ - وإذن فقد تبين لنا أن سماحة الاسلام وتسامح المسلمين من العوامل القوية الفعالة فى انتصارهم السريع ، وفتحهم الخاطف ، إذ لم يجدوا مقاومة عنيفة من الشعوب

وهذه إحدى العلل التى غفل عنها نابليون حينما علل لانتشار الاسلام ، وذهب الى أن وراء هذا التعليل سراً لايعلمه ، فى قوله : إننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب ، فلا بد أن يكون من وراء

انتشار الإسلام سر لا نعلمه ، وأسباب مجهولة مكنته من الانتصار السريع على المسيحية . وربما كانت العلة المجهولة أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت فى أثنائها أخلاق قوية ومواهب عبقرية وحماسة غلابة . وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل » . (مذكرات سانت هيلين) .

الصلواة وطرق التقدم الثلاث عند محمد ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » .

إن سورة الكوثر أقصر سورة فى القرآن الكريم لعرض خير الفضائل والتبشير بها ، بغاية الإيجاز . وذلك بعض ما امتاز به الكتاب المجيد .

تتألف هذه السورة من ثلاثة آيات : تحتوى الأولى والثالثة على جملة واحدة . أما الثانية فعلى جملتين . وتعنى الآية الأولى « إنا أعطيناك الكوثر » يارسول الله لقد منحناك الخير . وتعنى الآية الثالثة « إن شانئك هو الأبتر » إن عدوك الذى يروم محوك سوف يحرم من كل خير . والباقى « فصل لربك وانحر » ـ يعنى أقم الصلاة ، وقدم الضحية .

وهذه هى الطرق الوحيدة للوصول الى الخير . وقد بين الله سبحانه غاية الدين الجوهرية ، والسبيل الى نيلها بصورة واضحة مجملة .

إن غاية الدين أو الإيمان لا تتعدى جلب السعادة والخير للعالم . وقد فسر ابن جبير (الكوثر) بالخير . وفى الواقع أن المقصود بهذه الكلمة خير المادة وخير الروح .

ولا ريب فى أن هذا الوحى الالهى وإن كان قد خوطب به النبى الكريم محمد ﷺ ولكنه فى الحقيقة موجه الى كل مؤمن ، بل أن كل وحى مذكور فى القرآن موجه فى الواقع الى كافة المؤمنين . فمعنى السورة إذن : أيها الإنسان لقد منحناك كل خير بوحينا . ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالصلاة والتضحية . وهذه هى الوسيلة الوحيدة لايصال البشر الى الرفعة والسمو المادى والمعنوى .

الصلاة - حجر الزاوية

لقد تحقق لدى العالم بعد طول الاختبار أنه مامن أمة تستطيع التقدم إلا بالتضحية . فكلما زادت من هذه زيد لها من ذاك ولكن الظاهر أن الله تعالى قد قدم الصلاة عليها .

إن التضحية عمل . وفى الحق أن التقدم والرفعة يتوقفان على أعمال الانسان ، بمعنى أن الانسان ينال الشىء بعد أن يسعى اليه « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » كما أن أعمال الانسان نتيجة لاحساسه وعواطفه وآماله وبدونها لايقدم على أى عمل .

إن العواطف تؤدى الى أعمال مثلها إن رديئة فرديئة أو حسنة فحسنة ، فالقتل بسبب الطمع ، ومعاونة ذوى الحاجة سلوكان يؤدى اليهما نوعان من الأفكار ردىء وحسن .

وإن القرآن الكريم ، والنبى محمد ﷺ هما اللذان نبها الى ذلك ، قال الله تعالى فى كتابه المجيد : « أقم الصلوة إن الصلوة تنهى عن الفحشاء

والمنكر ولذكر الله أكبر » . إن غاية المجد والرفعة لتكمن فى نبل وسمو أفكارنا وعواطفنا وشعورنا . وهذا هو السبب فى أن الصلاة تعتبر علاجا شاملا لكل شرور البشر . « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . ويصف الحديث الصلاة بأنها نهر جار يطهر منا أرجاسنا . وقد وصفت بحق بأنها معراج المؤمنين ، وهى فى الواقع أيسر سبيل لبلوغ هذه الرفعة ، بل أن الأمر بالصلاة قد عاصر المعراج - أى صعود النبى محمد ﷺ - حيث فيه تلقى الأمر من الله تعالى بالصلاة .

«الإنسان يسمو غاية السمو »

إن تقدم الانسان يجرى فى ناحيتين . فهو قد يصل الى غاية الرفعة وحده أو مع الناس . وحيث أن الانسان لايستطيع العيش منفرداً معزولا عن أمته أو عن المجتمع البشرى المحيط به ، فينتج من ذلك أن التقدم الفردى إذا ماقيس بالتقدم الجماعى لم يأبه له أحد فى حين أن تقدم الجماعات والكتل ماهو إلا تقدم كاذب إن لم يصاحبه تقدم الفرد . إن الجماعة وحدة ، والأفراد أقسامها ، أو هى سلسلة والأفراد حلقاتها ، فإذا لم تكن هذه الحلقات متينة بحد ذاتها فإن ذلك يؤدى الى أن تكون كل السلسلة ضعيفة ، بقطع النظر عن متانة كل حلقة من حلقاتها ، كذلك الإنسان لايمكن أن يتقدم إلا إذا ارتقى فردياً وجماعيا .

وإن الصلاة تمهد الطريق ليس فقط لهذين الشكلين أو النموذجين من النجاح ، ولكنها تفتح باب نجاح ثالث سنشير اليه فى محله المناسب . ويمكن

الوصول الى هذه الأشكال الثلاثة من النجاح بضبط النفس والسيطرة على نوازع الشر فيها ، وإثارة الأفكار الطيبة بدلها .

وتوجد بالطبع وسائل أخرى للوصول الى هذه الغاية ، فالغذاء الجيد والثقافة النافعة ، والمحيط الراقى يمكن أن تفيد ، ولكنها ليس فيها الكفاية أما الصلاة فهى الوسيلة الوحيدة التى يمكن الوصول بها الى ذلك الأمل ، ومن المحتمل أن يكون شعور الإنسان الفياض بالله عند أدائه للصلاة هو السبب فى ذلك إذ يحس من أعماقه بأنه مخلوق خاشع ، أما الخالق الجبار ليس هناك من حائل بينهما ، وإن هذا الشعور المستند الى الإيمان والعقيدة الثابتة ، والكامن فى ثنايا عقل الانسان يمكنه من رؤية نفسه على حقيقتها بعد أن هتكت كل الستور التى تحجب عنه أشد أنواع ضعفه الداخلى ، وهنا تكمن الرابطة الحقيقية بين ضمير الانسان والله كما وضح ذلك فى القرآن الكريم : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » . ولهذا لا يصل إشعاع ضمير الانسان الى أوجه إلا عندما يشعر فى أعماق قلبه بوجود الله ، فكلما قوى فيه هذا الشعور عم منه ذلك الاشعاع ، وفى الصلاة كل الفضائل والوسائل لبلوغ هذه الغاية حيث تمضى الأفعال والأقوال جنباً الى جنب لمعاونة هذه القوة للشعور بوجود الله .

تحليل النصوص

إن الكلمات المقدسة التى نكررها عادة فى صلواتنا هى ـ الله أكبر ـ وبذلك تفتتح الصلاة بهذا التكبير لله . كما أن الانسان يقر عند وقوفه أمام الله

بأن لاقيمة لأية عظمة فى الدنيا أزاء عظمة الله ، وهذا الشعور بالله يستتبع تحولا وانقلابا لانظير لها فى الصلاة التى نقيمها . وإن الانسان إذ يشعر شعوراً دافقاً بضعته أمام الخالق إذ يسجد أمامه ويعفر جبهته بالتراب ، وفى كل لحظة يكرر من أعماق قلبه « الله أكبر » ليقوى فى نفسه الشعور بقوة الله ، وتتمكن جذوره فى قلبه .

إن الاسلام يعلم الناس طريقة للعبادة تنعش فى النفس الايمان . وتوقظ فى الانسان العقيدة بعظمة الله . فإن فى حركاتها الواضحة من وقوف ، وركوع وسجود ، بالاضافة الى التكبيرات لله تعالى ، والضراعة له بالخلاص والهداية الى الطريق السوى ـ وكل أولئك خمس مرات فى اليوم والليلة ـ مافيها من قوة كافية لاشك فيها ، لأن تدفع بالانسان دفعاً الى الشعور بوجود الله بعد فترات الكفاح لأجل العيش .

وبالنسبة للإنسان الكامل تمهد الصلاة للنجاح الفردى والجمعى . وفى الصلاة فضل التقدم الفردى على تقدم الجماعة . وتبدأ الصلاة بشعور الفرد من أين يشع له النجاح ، وتنتهى بعقيدة أين يكون أسمى سمو فردى . وإن فى السجود لبرهاناً ناصعاً على صحة ذلك ، فلماذا الاهتمام بالتقدم الفردى ؟ ذلك لأن مجد الفرد وقيمته العالية أمران لازمان لمعرفة الله تعالى ، ولا يفيد التجمع فى هذه الحالة فضلا عن أن أعمال الله تعطينا النفع والفائدة لأنفسنا وإن من لايجهد نفسه لن ينال أية رفعة فى أية ناحية من نواحى الحياة . كما أن جريرة المجرم لايمحوها وجود أناس طيبين فى العالم ، ومن أجل ذلك سيكون كل إنسان فى يوم القيامة مسؤولا عن نفسه وحدها .

ويستحيل الوصول الى تقدم الجماعة دون تقدم الفرد ، وإذا فرضنا أنه قد حصل عن طريق الصدفة أن تقدمت جماعة دون تقدم أفرادها فإن

هذا التقدم لن يكون مستقراً ثابتاً . فكلما ضعف الفرد انحطت الجماعة والعكس صحيح ، فإذا كان الأفراد ينقصهم النبل فلن تفلح الأمة فى عمل الخير ، بل أن هؤلاء الأفراد يكونون مصدر شر لكل نظام .

أما فى الميدان السياسى فإننا نرى أن الاهتمام بالفرد أكبر مجال لتقدم الأمة ، على عكس الأمم التى تهتم بالجماعة دون الأفراد ، فإن تلك الأمم - شرقية كانت أو غربية - سوف تجلب الموت والدمار لكل الجنس البشرى طالما هى تهمل الفرد فى فكرتها السياسية .

إن الإسلام يهتم بتقدم الذات الانسانية الحقيقية . وإن المسلمين وهم يجهلون هذه الحقيقة الأخلاقية يقلدون غيرهم من الأمم - غير الاسلامية - تقليداً أعمى ، الأمر الذى سوف يؤول بهم الى الانحطاط .

خطوة الانسان الأولى نحو التقدم

إن أول خطو الانسان نحو التقدم الروحى بعد مدح الله تعالى والاقرار بعظمته ، يكمن فى الابتداء بالصلاة حيث يعترف الانسان بضعفه ويتوق أن ينطلق ليسمو . وما الصلاة إلا دعاء ، وليس الدعاء تلاوة بعض الكلمات المرسومة ، ولكن الدعاء ما أريد به أن يخلق حركة فى صميم عقل الانسان ، إنه رغبة حافز ونشاط ، بل دافع يعبر عنه بكلمات . ويكمن خلف هذا النشاط ، ووراء هذه العواطف قوة عظيمة تعبر عن طبيعتها أمام الله فيشع من حنايا ضمائرنا نور ، وتجيش نفوسنا بثورة ، وفى خلال هذه الثورة نتضرع بطلب الرحمة من الله القدير . وإن هذه القوة الالهية تعين الضعيف

فتر توى بها روحه وتقوى .

وفى الدعاء إعتراف بسيطرة الإله الجبار على خلقه ، وأن الله لا يسيطر على أجسامنا فحسب ، ولكنه يحكم عقولنا وضمائرنا أيضاً . وفى الدعاء رابطة بين الله والانسان . وفى الدعاء إعتراف الانسان بالعبودية لله تعالى ، فيقوم بطبيعة الحال بواجبات هذه العبودية للإله . وفى الحق أن الدعاء الحقيقى هو الذى يبين بواعث الانسان الحقيقية واعترافه بذنوبه ، وخطاياه وضعفه ، وانه ليبدى رغبته فى أن يرتفع من هذه الوهدة ، ويطلب المعونة من الله تعالى للخلاص منها ، ومن انحطاطه وطاعته لأفكار السوء .

هكذا تخلق الصلاة فى الانسان نشاطاً وقوة بحيث يمتنع عن ركوب الخطايا والمآثم ، وربما أبعدت عنه المعاصى بعد ما بين المشرق والمغرب ، وجعلت روحه نقية نقاء القماش الأبيض من الأوضار والأقذار ، وقد يغفر الله للإنسان ما ارتكب من ذنب ويمحوه كما يغسل الماء أى شىء .

والخطوة الأولى فى تقدم الإنسان الروحى هى التجرد من أى فعل ردىء ولا يستطيع الإنسان أن ينجح قط ونفسه عرضة لارتكاب الذنوب ، وكما تنبت الأرض الخصبة النبات الحسن فى نوعه ومقداره ، فكذلك العقل المنزه عن المعاصى يفسح المجال للتقدم الروحى الخالد . وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله : « قد أفلح من زكاها » .

وعندما يدعو الانسان ربه الدعاء الحقيقى تشع من داخل نفسه رغبة بأن يتنزه عن الظلم والقسوة والكذب ، والدعاوة الخادعة ، ومن كل الظنون السيئة والأعمال الرديئة . وبذلك يقف سداً منيعاً ضد نزعات الشيطان وفى هذا القتال المقدس ضد الشيطان يعاون الله تعالى الانسان الضعيف إذا طلب المعونة مخلصاً .

أما الخطوة التالية . فطموح فى عقل الانسان الى الزيادة فى الرفعة حتى يصل الغاية فيها . والخشوع هو الوسيلة لهذه الغاية إذ يركع الانسان أمام الجبار ويقول خاشعاً « سبحان ربى العظيم وبحمده » ثم يمّس بجبهته الارض ويقول فى إخلاص وضعة : « سبحان ربى الأعلى وبحمده » . وما هذا بدعاء ولكنه تسليم وقبول بعظمة الله تعالى ورفعته ، وإن الانسان مرتبط بالله بحيث إذا أقر بعظمته تعالى وقداسته بالقول وعمل عليها بالفعل مّن الله على روحه المخلصة بهذه الأهلية . إذ يمكن الشعور بانعكاس محدود فى المجال المحدود لعقل الانسان ، وقد تنعكس الصفات الالهية على الانسان عندما يكون عقله صافياً كالبلور بفضيلة عمله وتعبيره . وتزيد فعالية هذه الانعكاسات الآلهية مازاد إخلاص المرء فى تواضعه لله ، فيتزود الانسان بقبس من الفضائل الآلهية ليس لها مثيل .

وما هذا بنقاش فلسفى بل أنه حقيقة مجربة ، فكلما زاد سجودنا لله زادنا رفعة وسمواً روحياً وأخلاقياً وكلما زاد انحناؤنا أمام الخالق الجبار ، ارتفعت مكانتنا الروحية ، وازددنا علواً ، فتحظى ضمائرنا بأبهى نصيب من النور الالهى الباهر ، ويتجلى جمال التضرع لله بذلك باستعمال كلمة « ربى » .

وعندما ينحنى المرء فى صلاته يقر من أعماقه بأن الله العظيم مصدر حياته ، وأنه هو القوة السماوية التى تدفعه الى نيل المجد الروحى فيطلب سراً وعلانية وضع حد لضعفه وترديه وذنوبه ويأسه وحطته ، ويقر أن الله قد خلق الانسان وهو أحسن الخالقين . وهو يصلحه ويرحمه ويغذيه . وإن المرء ليحس بذلك ، فهو يدعو الله شاعراً بما يدعو أن يرفعه الى الكمال وأن يهبه الجمال الروحى .

وقد أضفى الرسول الأعظم ﷺ أهمية خاصة على الصلاة فوصفت

فى الوحى بأنها « طعام الروح » و « رزق ربك خير وأبقى » ووسيلة الاستمداد المعونة من عند الله « إستعينوا بالصبر والصلاة » وإنها أسلوب لكبح جماح النفس واجتثاث الرذائل والنوازع المنحطة من جذورها ، « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » كما أنها واسطة للنجاح فى الدنيا والآخرة « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .

إن الله تعالى يرفع الأمم الى أعلا الدرجات بالصلاة ، ولا مشاحة أن كتّاب الغرب ، وإن كان يذكرون الرسول بلهجة المعارضة ، إلا أنهم يقرون أنه حاز من النجاح مالم يصبه غيره من الشخصيات الدينية ، وإن ماأحدثه من تغيير فى العالم ليس له مثيل ، ولم يسبق مايوازيه ، وإنه كان نسيج وحدة فى التاريخ . بما أصاب من نصر دنيوى عظيم ، كما أن انتصاراته فى ميدان الأخلاق والسمو مقدرة لاتنكر . كان الفساد والانحطاط فاشيين فى العرب قبل الاسلام ، وقد استقامت أخلاقهم فى ضمن مدة قصيرة : هى ثلاثة وعشرون عاماً فى الاسلام ، وانتشروا فى الأرض متقمصين أثواباً من القداسة يبشرون بالاخلاق السامية والشهامة . ومرد ذلك كله الى الصلاة . إذ لم يكن هناك مدارس ولا جامعات ، ولا أية واسطة لترقية الزراعة والتجارة ، وإنما هى « سبحان ربى العظيم وبحمده » و « سبحان ربى الأعلى وبحمده » غذت أرواحهم وأوصلت كل واحد منهم الى ذروة المجد الذى لايمكن نيله بواسطة أخرى .

إن نيل الفضائل عمل جبار ، وما أندر أن تتصاحب العظمتان الدنيوية والأخلاقية . وما ينال الفضائل إلا الذين ينحنون أمام الله ، ويصغون باهتمام الى أقوال رسله ، بينما تنحنى أمامهم الأمم متطلعة الى أمجادهم الدنيوية ، والخلقية والروحية ، التى لم يسبق لها مثيل . ذلكم هو تأثير « سبحان ربى

العظيم وبحمده » و « سبحان ربى الأعلى وبحمده » عندما تتلى من أعماق القلوب .

وللتمييز بين وسائل نيل العظمة والرفعة ، وجد ركوع واحد وسجدتان فى كل ركعة من الصلاة . وإن الحاجة الى رفعة الروح والأخلاق والطباع معادة مكررة . ولا يخفى أن للعظمة الدنيوية المقام الثانى إذا قورنت بالمجد الروحى ، فإن العظمة المادية شىء سهل ، ولكن الرفعة الروحية شىء شاق وقد تنال الأولى ببذل الجهود المادية ، ولكن لن تنال الأخرى إلا بالإتصال الروحى بالله وحده ، والخير كل الخير كامن فى الجهاد الأكبر فى سبيل السمو الأخلاقى .

أما الشكل الثانى للتقدم الذى تعبّد الصلاة اليه الطريق فهو التقدم الجمعى أو الإجتماعى ، وحجر الزاوية فيه سورة الفاتحة .

إن الإنحناء أمام الله يرفع من شأن الأفراد ، ولكن الإنتضام بصفوف مرتبة أمامه يدفع للنجاح الجمعى . وإن الصلابة والجمود يقللان من أثر الصلاة فى تقدم الفرد ، إذ يجب الإفصاح عن كل مايطرأ على ذهن الإنسان عند الصلاة ، لأن فيها يتلائم العمل والتعبير ، ويشتد تأثير الدعاء إذا اقترن بحركات جسمية تنبىء عن تواضع عظيم أمام الله . وقد قال الرسول الكريم محمد ﷺ « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » .

يتلو المرء سورة الفاتحة من القرآن ، وهى سورة جليلة القدر . وأولى آياتها : « الحمد لله رب العالمين » .

إن ألوهية الاله تتصل بهدى البشر ، وغاية القرآن الحقيقية رفع الجنس البشرى وإعلاؤه الى ذروة الرفعة ، وترمى كلمتا « رب العالمين » الى أن هذا الكتاب المقدس لم يوح به لأجل شعب معين ، أو جو معين ،

أو قطر معين ، وقد صرح النبي الكريم أيضاً ، بأنه جاء لهداية أهل الأرض طراً .

وقد فكر بعضهم بأنه إذا كان الله تعالى يشمل كل الناس برحمته فلماذا لم يجدد نشاط الجميع روحياً بعد بعثه فيهم الرسول ، . لقد قدر الله للإنسان مايغتذى به جسمه تدريجياً ، وإن العناصر الأربعة : (النار ، والماء ، والهواء ، والذرة) ، تمتد فى القدم الى غايته منذ ظهور الحياة على هذا السيار وقد سيطر عليها الانسان تدريجياً ، ولقد يستطيع أحد أن يقول إن هذا المخلوق مطلع على أسرار الطبيعة ومكنوناتها ، وانه قد أخضعها لارادته . ومع أنه قد استنفذ قوته ووقته لفك مغالق الكون . فما يزال هناك الكثير الذى يمكن البحث عنه . أما الانجازات الروحية فأدعى الى الدهشة ، وإن الافصاح عنها أصعب ، وقد وعد الله تعالى أن يرفع الانسان الى ذروة التقدم الروحى ولا يمكن الوصول الى ذلك بدون وقت ، وسوف يصل اليه الانسان تدريجياً وقد أرسل الله تعالى رسله لهداية الأمم بصورة متفرقة ، ثم أنزل كل رسالاته على خاتم النبيين محمد ﷺ لينشرها بين أهل الأرض كافة ، ولا بد من مرور زمن ليدرك الناس أصول هذا الوحى والقوة الباعثة له ، وسينتفع الناس تدريجياً من إدراكهم هذا .

إن آية « الحمد لله رب العالمين » حجر الزاوية فى التقدم الجمعى . وتتحد عند تلاوتها أفكار الانسانية جمعاء فى الخضوع لله ، ويشعر الانسان باتصاله التام بالجنس البشرى ، على الرغم من انتسابه الى عائلته ، وعنصره ، وأمته ، وبلاده ، فهو يشعر بشعورهم ويتمنى خلودهم جميعاً . وإذا حل الهدم والتخريب والموت بأفراد جنسه فى أية بقعة من بقاع الأرض تغشى قلبه أسى ، وردد فى غمرة هذا الألم « الحمد لله رب العالمين » ودعا الله ضارعا

طالباً خير كل ذى حياة فى هذا الوجود . وتلك نفس الصرخة التى تخرج من قلوب القديسين والحكماء والأنبيـــاء ، فتغدوا بلسما شافياً لأدواء الامم . وما أخلص هذا الدعاء : « يارب أنقذ كل مخلوقاتك من رذائلهم ومفاسدهم وصلهم بنورك بحيث يعرفونك ، ياخلاق يارب ياالله ، إن مخلوقاتك تتنكب سبيلك وتسير نحو الرذيلة مقسمة الى مجاميع متميزة مهطعة نحو الفناء . إرحمهم يارب وأنر ظلمات قلوبهم ، وأمطر شآبيب الرحمة على أرواحهم الضامئة ، واسكب الحكمة القرآنية فى قلوبهم ، كما تنير أشعة الشمس كل ظلام » .

إن رفع السلاح ضد العدو ضرورة ماسة ، ولكن هناك سلاحاً آخر هو سلاح الصلاة الجبار الذى فرضه الله تعالى على المسلمين . إن أى انتصار ناله المسلمون فى بدر لم يكن بسبب تفوق قوتهم أو عددهم ولكن بسبب الصلاة التى صلوها ، ودعاء المضطر الذى دعوه طيلة الليلة السابقة التى وجدوا القسم بها أضعف كثيراً من عددهم . ويشبه ذلك حالة المسلمين اليوم ونقصهم فى القوة والنفوذ . ولو أفادوا من سلاح الدعاء الذى لايخيب ، وخشعوا أمام الله تعالى طالبين منه النصر لفتح سبحانه لهم أبواباً من حيث لايحتسبون النصر إن فى القنبلة الذرية ـ والحقيقة أولى أن تقال ـ لبأساً شديداً ، وفى مقدورها أن تدمر مدناً وأقطاراً ، ولكن الدموع المسفوحة أمام الله القوى الجبار ، أكثر بأســاً ، ويمكن أن تغير مجرى الحوادث بصورة مدهشة تبلغ حد الاعجاب .

ثم تأتى « الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » فهو يرحم الانسان ويرزقه سواء سعى أو لم يسع ، فمن يعمل صالحاً يره ، وتلك رحمة من الله ، ومن عمل سيئة عوقب ، ليتبع سوى الصراط ، وتلك رحمة أيضاً .

تتكلم الآية الاولى عن الرحمة الالهية ، وتفسرها الآيتان التاليتان تفصيلا .

وأول أوجه الرحمة : إن الله يغذى الإنسان ويرزقه سواء سعى أو لم يسع ، ويمده تعالى دونما طلب بوسائل ووسائط لبلوغ المجد الروحى . وبهذه الصفة الإلٓهية أرسل الله أنبيائه لهداية البشر .

وأما الوجه الثانى : فهو المتعلق برحمته الواسعة . فإذا ماسعى المرء كوفىء على سعيه بأكثر مما يستحق ، ونجد عين ذلك فى الأمور الدنيوية أيضاً إذ تنتج الحبة الواحدة مئآت من أمثالها ، ورب عمل صالح واحد جلب رحمة واسعة من لدنه تعالى .

أما ثالث وجوه الرحمة الإلٓهية : فهو أن الله يرحم حتى أولئك الذين يقتفون خطى آبائهم فى المعاصى ، والتائهين فى بيداء الفساد ، والهاوين فى مهواة الضلال ، والذين يسعون لكسر شوكة الحق فى هذه الأرض .

ثم يلى ذلك القسم الثالث من سورة الفاتحة « إياك نعبد وإياك نستعين » والمراد بها المؤمنون بالله حق إيمانه ، المعتقدون بوحدانيته ، وهم المسلمون الذين اتبعوا النبى الكريم محمد ﷺ ، ويمتازون بنشاطهم : « إياك نستعين » وهم يقرون بعجزهم أمام الواجبات العظيمة ، ويؤمنون بعون الله لهم ، ولا يعبدون غيره ، ويسألونه المعونة فى كافة مرافق الحياة . وما أقوى الصوت المنبعث من قلب المؤمن إذ يصلى من أجل كل المؤمنين أينما حلوا . وإن مفتاح تقدم الإنسان الروحى كامن فى حقيقة شعوره بالألم لمصاب الآخرين ، ولن يسمو الانسان روحياً ، ولا أخلاقياً لوجرد من هذا الشعور . وما هذه الصلاة فى الحقيقة إلا الخطوة الأولى للتقدم الجمعى ، إذا ماطلب الانسان العون لقوم أو جماعة .

إن القلب ليأسى إذ نقرأ « إياك نعبد » ونحن نتأمل حال المسلمين اليوم أهم يعبدون الله حقيقة ؟ أيكفى أن تؤدى الفريضة فى كل يوم ثم تستتبع

بما لا يتفق مع أوامر الله و نواهيه ، وما عبادة الله إلا الخضوع له ، والاستكانة أمامه . أفيطيع عامة المسلمين ربهم و نبيه الكريم ؟ وإذا تركنا جانباً الطاعة لأوامر الله نجد المسلمين غير حريصين على تأدية فريضة الصلاة . أويذهبون هم الى المساجد خمس مرات يومياً ؟ أفيركعون هم أمام الله ؟ وهم فى ذلك سواء أغنياؤهم والفقراء . تلك حالة صلواتنا ، فكيف نستمد العون من الله ؟ ألا ان هذه مخالفة صريحة لأوامر الله تعالى .

وعلى الرغم من ذلك يوجد من يؤدى صلواته ويسجد لله . فهناك من يهرعون الى المساجد اذا دعوا للصلاة تاركين واجباتهم وأعمالهم وأشغالهم . وهناك من يتهجدون فى الليل ويذرفون الدموع أمام الله . وفيهم من يضحون بأرواحهم وأموالهم وأوقاتهم ونفائسهم لاتمام نور الله ، وان بعض الناس يضحون برؤوسهم دفاعا عن سلامة الاسلام من تهجمات المعاندين . ومن المسلمين من يشعر براحة عظيمة بالصلاة وطاعة رسول الله . وان عدد من ذكرنا محدود بالطبع ، ولكن الله على كل شيء قدير ويستطيع أن يجعل هذه الأقلية أكثرية ، ولو شاء الله لعفى عن الأكثرية إكراماً لهذه الأقلية

أما القسم الرابع من سورة الفاتحة : فيوضح نوازع الانسان نحو الدين القيم ليس لنفسه فحسب ، ولكنه يتمنى لاخوانه فى البشرية أن يسيروا معه فى طريق الخلاص ، وهذا القسم « إهدنا الصرط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ويعبر الانسان هنا عن نفسه بصيغة الجمع كما فى « إياك نستعين » ليشمل جميع البشر ، وكذلك « إهدنا » اذ يراد بها كافة الناس وهم يطلبون الهداية للطريق السوى . فنحن جميعاً مقصودون بآية « إياك نعبد » نحن جماهير المسلمين ، أتباع النبي محمد ﷺ ، أينما كنا ، والى أى عنصر انتمينا ،

وفى أى بلد عشنا .

فما هو هذا الصراط المستقيم الذى نطلب الهداية اليه ؟ انه طريق يسلكه من أنعم الله عليهم ، وهم الحكماء ، والأولياء ، والأنبياء ، فهم الذين يشعرون بعجز الجنس البشرى ويسعون للخير العام بطريق مستبين المعالم . واذا مامس هذه الأنفس الطاهرة لغوب من جهادها للمصلحة العامة فى محاربة شذوذ الالحاد ، سجدت لله وصلت له من الأعماق .

ولصلاة الفرد من أجل المجموع أثر عظيم وقابلية حقة ، إذ يوجد بين البشر فى كل الأمم ومختلف العصور من سمت أخلاقهم وطهرت أرواحهم فكانت غايتهم من الدنيا خدمة الانسان ، وتوثيق صلته بالله ، ومعاونته على ذلك ، وكان صحابة النبي ﷺ من هذا الطراز الأمثل إذ أحسوا فى قرارات نفوسهم بعد أن اعتنقوا الاسلام بما يدفعهم الى نشره والذب عنه . ويستطيع أتباع النبي أن يقوموا بمثل هذا الفعل النبيل فى يوم الناس .

وتمهد الصلاة السبيل فضلا عن التقدم الفردى والجمعى الى تقدم ثالث هو نشر الاسلام ، والأخذ بناصر الحق . ولا خير فى التقدم الفردى أو الجمعى مالم يكن فى نفوسنا ميل لهذا التقدم الثالث ، وإن الفرد ليرقى برقى الجماعة ، وفى ذلك كل الخطر الذى لايكسر شوكته إلا الانصياع للحق . فكم من أمة بلغت أوجاً من الحرية الفردية والجمعية والتقدم ولكنها تنكبت طريق الرشاد لفقدانها الضرورة الثالثة . وفى الواقع أن العالم اليوم يؤمن بأن التقدم الاجتماعى للجماعة غاية فى ذاته . وإذ لايمكن خدمة الأخلاق والحق بالقول فقط ، فلذلك تأبى قلوب الجماعات المتقدمة هذه الخدمة غير المخلصة . وقد أفلح الاسلام بالصلاة فى أن يحكم صلة الحق والنور الآلهي بروح الانسان .

وهناك حقيقة ناصعة تنبىء عن تواريخ الأمم : هى أنه مامن أمة قامت بالصلاة بكل معنى الكلمة ، إلا ونالت التقدم بثلاثة أشكاله تدريجياً ، ويصل فيها الأفراد الى أسمى الخلق . وقد نال المجتمع الاسلامى رقياً لامثيل له فانتشر فى بضع سنين صوت الله وعم وحيه ونوره أقاصى العالم ، وتفتحت أذهان الناس عن عواطف دينية مقدسة ، ورفعهم الله الى قمة المجد الروحى والمادى . وليس لذلك من سبب إلا الاتصال بينهم وبين الله ، ذلك الاتصال الذى كونه النبى محمد ﷺ ، وما هذا الاتصال إلا الصلاة ، وإن سنة الله ثابتة لايمكن مخالفتها . فعلينا أن نبحث عن إتصال صحيح بالله عن طريق الصلاة الخالصة ، وسوف ننال دون ماريب نفس المجد الذى ناله الاسلام والمسلمون فى الأيام الطيبة المنصرمة .

* * *

إن لفظ الصلاة من الأسماء الشرعية . ولا شبهة فى أنها عربية . فلا يجوز أن يكون الشرع ارتجلها ابتداء من غير نقل ، وإلا فلم يصح قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرءآناً عربياً » ، فلا بد أن يكون له فى اللغة معنى آخر ، فاختلفوا فى أصله فقيل الدعاء) قال الأعشى :

عليك مثل الذى صليت فاعتصمى يوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً

ـ أى دعوت ـ . وقيل اللزوم) قال الشاعر :

لم أكن من جناتها علم الله وفى بحرها اليوم صال

ـ أى ملازم بحرها ـ فكان معنى الصلاة ملازمة العبادة على الحد الذى أمر الله به . وقيل أصلها من (الصلا) ـ وهى عظم العجز ـ لرفعه فى الركوع والسجود . وقيل مأخوذة من (المصلى) وهو الفرس الذى يتبع غيره . وعلى القول الأول أكثر العلماء ، إذ لاصلاة إلا ويقع فيها الدعاء

أو مايجرى مجراه . وربما تخلو صلاة عن متابعة الغير ، واذا عم وجه الشبه فى كل الصور ، كان أولى ممايختص ببعضها . وأيضاً اطلاق اسم الجزء على الكل أمر شايع مشهور ، فالحمل عليه أولى . قال بعض الصوفية اشتقاق الصلاة قيل من (الصلى) وهى النار ، والخشبة المعوجة اذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوّم . وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمارة بالسوء وسبحات وجه الله الكريم التى لوكشف حجابها لأحرقت من أدركته، يصيب بها المصلى من رهج السطوة الآلهية والعظمة الربانية ، مايزول به اعوجاجه ، بل يتحقق به معراجه ، فالمصلى كالمصطلى بالنار ، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لايعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم .

روى أبو جعفر (محمد بن يعقوب الكلينى (ره) ـ فى الكافى - والصدوق فى كتاب ـ من لايحضره الفقيه ـ « إنه قال رسول الله ﷺ مامن صلوة يحضر وقتها إلا نادى ملك بين يدى الناس ، أيها الناس قوموا الى نيرانكم التى أوقدتموها على ظهوركم فاطفؤها بصلواتكم » . وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له » . ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلى فيخشع ، والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون ، وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح ، وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين . وروى ابن عباس عن رسول الله ﷺ « لما خلق الله تعالى جنة عدن ، وخلق فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال : لها تكلمى قالت قد أفلح المؤمنون ثلاثاً » . وعن رسول الله ﷺ « إن العبد إذا قام الى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن ، فإذا التفت قال له الرب الى من تلتفت الى من هو خير لك منيى ، ابن آدم اقبل الي فأنا خير لك ممن تلتفت اليه » . وأبصر رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»

وقال بعضهم : الصلاة فى اللغة هى الدعاء ، فكأن المصلى يدعو الله بجميع جوارحه ، فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهراً وباطناً وتشارك الظاهر والباطن بالتضرع والتقلب فى الهيآت والتملقات ، تملق متضرع سائل محتاج ، فإذا دعا بكليته أجابه مولاه ، لأنه وعد فقال : « ادعونى أستجب لكم » أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاجابة ليس بينهما شرط ، والاستجابة والإجابة هو نفوذ دعاء العبد ، وان الداعى الصادق العالم بما يدعوه بنور يقينه تخرق دعوته الحجب ، وتقف الدعوة بين يدى الله متقاضية للحاجة .

وخص الله هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء ليكون أسرع الى الإجابة ، وهى تعليم الله عباده كيفية الدعاء . وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم . وقيل سميت مثانى لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين ، مرة بمكة ومرة بالمدينة . فكان له ﷺ بكل مرة نزلت منها فهم آخر ، بل كان له بكل مرة قراها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر . وهكذا أهل التحقيق من المصلين من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها ولوامع أنوارها ، ويقذف لهم كل مرة درر بحارها . وعن رسول الله ﷺ انه قال : « إذا قام أحدكم الى الصلاة فليسكن أطرافه ، ولا يتميل تميل اليهود ، فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة » وقال ﷺ : « تعوذوا بالله من خشوع النفاق . قيل وما خشوع النفاق . قال : خشوع البدن ونفاق القلب » واليهود يتميلون فى الصلاة ، قال بعض الصوفية : سببه انه كان موسى عليه السلام يعامل بنى اسرائيل على ظاهر الأمور لقلة مافى باطنهم من نور المعرفة ، وكان يهيب الأمور فى أعينهم ويعظمها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى اليه أن يحلى التوراة بالذهب .

قال عظيم هذه الأمة وفخرها الشيخ ملاصدرا الشيرازى قدس الله روحه

الطاهرة : « ووقع لي - والله أعلم - أن موسى عليه السلام كان يرد عليه الوارد فى صلاته ومحال مناجاته ، فيتموج باطنه كبحر ساكن يهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج ، فكان تمايل موسى عليه السلام لتلاطم أمواج بحر القلب اذا هبت عليه نسمات الفضل ، وربما كانت الروح تتطلع الى الحضرة الالهية فيهم بالاستعلاء للقالب بها تشبه وامتزاج . فيضطرب القالب ويتمايل فيرى ظاهره متمايلا . ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنكاراً على أهل الوسوسة : « هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى اسرائيل حتى شهدت أبدانهم وعلت قلوبهم لا يقبل الله صلاة امرء لا يشهد فيها قلبه كما يشهد فيها بدنه وان الرجل على صلاته دائم لا يكتب له عشرها اذا كان قلبه ساهياً لاهياً » .

* * *

إن الله تعالى أوجب الصلوة الخمس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصلاة عماد الدين ومن ترك الصلاة فقد كفر » وعنه صلى الله عليه وآله فى طريق أهل البيت عليهم السلام « مايقرب العبد الى الله بشيء بعد المعرفة أفضل من الصلاة » فبالصلاة تحقيق العبودية ، وأداء حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائل الى تحقيق سر الصلاة . قال - سهل بن عبد الله التسترى - : يحتاج العبد الى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ، ويحتاج الى النوافل لتكميل السنن ويحتاج الى الآداب لتكميل النوافل ، ومن الأدب ترك الدنيا . وقد ورد فى الأخبار أن العبد اذا قام الى الصلاة رفع الله تعالى الحجاب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه الكريم ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وان المصلى لينثر عليه من البر من عنان السماء الى مفرق رأسه ، ويناديه مناد لو علم المصلى من يناجي لما التفت .

وقريب من هذا مارواه أبو - جعفر محمد بن يعقوب الكليني - عن

محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام إنه قال : « المصلى ثلاث خصال إذا هو قام فى صلاته : حفت به الملائكة من قدميه الى عنان السماء ، وتناثر البر عليه من عنان السماء الى مفرق رأسه ، وملك موكل به ينادى لو يعلم المصلى من يناجي ما انفتل » . وقيل قد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة مافرق على أهل السماوات ، فلله ملائكة فى الركوع مذخلقهم لايرفعون رؤوسهم من الركوع الى يوم القيامة ، وهكذا فى السجود والقيام والقعود . والعبد المستيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم ، وفى السجود بصفة الساجدين منهم ، وفى كل هيئته هكذا ، ويصير كالواحد منهم وبينهم » وقيل فى الصلاة أربع هيئات وستة أذكار « فالهيئة :القيام والقعود والركوع والسجود والأذكار هى التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء ، والصلاة على النبي وآله » . فصارت عشرة كاملة تتفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة كل صف عشرة آلاف فيجتمع له فى الركعتين مايتفرق فى ماءة ألف من الملائكة .

« أقوال وآراء فى الصلاة »

وفى طريق أصحابنا الإمامية وغيرهم من أساطين علماء الإسلام - رضوان الله عليهم - أحاديث وأقوال كثيرة فى فضل الصلاة وأسرارها ، ونقلها جميعاً يؤدى الى عناء وإسهاب ولكننا نستعرض منها ماتيسر .

قال رسول الله ﷺ : « الصلاة مرضات الله ، وحب الملائكة وسنة الأنبياء ، ونور المعرفة ، وأصل الإيمان ، وإجابة الدعاء ، وكراهة

الشيطان ، والشفيع بين صاحبها ، والسراج فى القبر ، والفراش تحت جنبه وجواب منكر ونكير ، والمؤنسة فى السراء والضراء ، والصائرة معه فى قبره الى يوم القيامة » .

وقال أمير المؤمنين - على - عليه السلام : « تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقربوا بها ، فإنها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، ألا تسمعون الى جواب أهل النار حين سئلوا ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ، وإنها لتحت الذنوب حت الورق . وتطلقها إطلاق الربق ، وشبهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحمة تكون على باب الرجل ، فهو يغتسل منها فى اليوم والليلة خمس مرات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن ، وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لاتشغلهم عنها زينة متاع ، ولا قرة عين من ولد ولا مال ، يقول الله سبحانه : «رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .

وأقبل عليه السلام ذات يوم على الناس فقال : « أية آية فى كتاب الله أرجى عندكم فقال ، بعضهم « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » قال : حسنة وليست إياها . فقال بعضهم : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه الآية » فقال : حسنة وليست إياها . فقال بعضهم : « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » قال : حسنة وليست إياها . وقال بعضهم : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » قال : حسنة وليست إياها ثم أحجم الناس فقال مالكم يامعشر المسلمين . قالوا لا والله ماعندنا شيء . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أرجى آية فى كتاب الله « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل » وقرأ الآية كلها ، وقال ياعلى والذى بعثنى بالحق بشيراً ونذيراً

إن أحدكم ليقوم الى الوضوء فتساقط عن جوارحه الذنوب فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمه ، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك ، حتى عند الصلوات الخمس . ثم قال ياعلي إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحدكم فما يظن أحدكم لوكان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات في اليوم أكان يبقى في جسده درن فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي » .

وقالت فاطمة (صلوات الله عليها) في خطبتها الشهيرة : « فرض الله الصلاة تنزيها من الكبر » .

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : « وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة الى الله تعالى ، فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل الحقير ، الراغب والراهب الراجي ، الخائف المستكين ، المتضرع ، المعظم لمن كان بين يديه بالسكون والوقار ، وتقبل عليها بقلبك ، وتقيمها بحدودها وحقوقها ، مع الإطراق وخشوع الأطراف ولين الجناح ، وحسن المناجاة له في نفسه ، والرغبة اليه من فكاك رقبتك التي أحاطت بها خطيئتك واستهلكتها ذنوبك » .

وقال الإمام - الباقر عليه السلام - : « ياباغي العلم صل قبل أن لا تقدر على ليل ولا نهار تصل فيه ، إنما مثل الصلاة لصاحبها كمثل رجل دخل على ذي سلطان فأنصت له حتى فرغ من حاجته ، وكذلك المرء المسلم بإذن الله عز وجل مادام في الصلاة ، لم يزل الله عز وجل ينظر اليه حتى يفرغ من صلاته » .

وقال الإمام - الصادق عليه السلام - حينما سئل عن أفضل مايتقرب به العباد الى ربهم ، فقال : « ماأعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة ، ألا ترى أن العبد الصالح - عيسى بن مريم عليه السلام - قال : وأوصاني بالصلاة

والزكاة مادمت حيا » .

وجاء عن الإمام - الرضا عليه السلام - : « إن علة الصلاة إنها إقرار بالربوبية لله عز وجل ، وخلع الأنداد ، وقيام بين يدى الجبار جل جلاله بالذل والمسكنة ، والخضوع والإعتراف والطلب للإقالة من سالف الذنوب ووضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاماً لله عز وجل ، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطراً على ذكر الله عز وجل بالليل والنهار لئلا ينسى العبد سيده ومدبره وخالقه فيبطر ويطغى . ويكون فى ذكره لربه عز وجل وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصى ، ومانعا له من أنواع الفساد » .

كان - سليمان الفارسى ره - مع جماعة من أصحابه تحت شجرة ، فأخذ غصناً منها فنفضه فتساقط ورقه ، فقال : « ألا تسألونى عما صنعت . فقلنا خبرنا . قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى ظل شجرة فأخذ غصناً منها فنفضه فتساقط ورقه ، فقال : ألا تسألونى عما صنعت . قلنا خبرنا يارسول الله . قال : إن العبد المسلم إذا قام الى الصلاة تحاتت عنه خطاياه كما تحاتت ورق هذه الشجرة » .

« إن الصلاة عبارة عن تشبه ماللنفس الانسانية بالأشخاص الكريمة الآلهية ، فى تحريكها للأجرام الفلكية ، فما أشد شباهة الانسان حين التشغل بالصلاة الكاملة بتلك الأشخاص الكريمة بأرواحها الملكية ، فى تعبدها الدائم وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها طلباً للثواب السرمدى ، وتقرباً الى المعبود الأحدى ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله : « الصلاة معراج المؤمن » . وقال : « الصلاة عماد الدين » وأصل الدين تصفية الروح عن الكدورات والهواجس النفسانية . والصلاة الحقيقية هى التعبد للمبدأ الأعلى والمعبود الأعظم والخير الأشرف . والتعبد فى الحقيقة عرفان الحق جل مجده ، والعلم بآياته بالسر

الصافى ، والقلب النقى . والنفس الفارغة . فسر الصلاة التى هى عماد الدين هو العلم بوحدانية الله ، ووجوب وجوده ، وتنزه ذاته ، وتقدس صفاته وأحكام أفعاله ، ونفاذ أمره فى خلقه ، وجريان قضائه فى قدره . وقلمه فى لوحه ، وتعلق عنايته ورحمته بعباده ، ومن فعل هذا فقد أخلص وصلى وما ضل وما غوى ، ومن لم يفعـــل هكـذا فقد افترى وعصى » . (ملا صدرا الشيرازى فى تفسيره) .

« إن الصلاة أنشودة إلٓهية تخاطب الضمائر ، وتذكرها بالاخلاص لله والانسانية ، وتربط قلوب المصلين برابط الإخاء فى الله ، وتزيدهم قوة على قوة ، تنهار أمامها جميع الفوارق ، وتبعث على تضامن المؤمنين لإعلاء كلمة الحق ، والانتصار لأهله . وهل الحكمة من صلاة الجماعة إلا إحترام إرادة الجماعة ، وعدم الخروج على الجماعة » . (محمد جواد مغنية . الاسلام مـع الحيـــاة) .

« وما نستفيده من الصلاة . عزة النفس ، وحب الكرامة ، حيث توصلنا الصلاة بالله تعالى وتعلمنا السؤال منه ، دون سائر مخلوقاته من الناس لأن السؤال منهم ذل واحتقار ، والطلب منهم كبت للنفس العالية ، وشعور بالعبوديه الممقوتة . أما عبادة الله ، فيضها تمام الشعور بالعزة ، وكمال رفعة النفس . وخاصة عندما نلتفت الى ما منحه الله للمؤمنين من الحرية ، والكرامة الشخصية . والمصلى عندما يكرر هذا الفصل « الله أكبر » أكثر من مرة فى صلاته لأجل أن يجعل هذه الكلمة أمام نفسه ، ويتفهم أسرار معانيها . يدرك منها أن الله أكبر كل مخلوق ، وأعظم من كل إنسان ، فيصبح لايخشى أحداً ، ولا يهاب ملكا غير الله . ونستفيد من الصلاة (أيضاً) الصدق والأمانة ، وحسن الخلق والعطف والرأفة ، وغيرها من مصاديق الفضيلة

وأفراد الخير التى إهتم الإسلام فى نشرها ، وتعميمها بين الأفراد والجماعات وكل ذلك لأجل نشر الاسلام فى نفوس الأفراد ، ونفسية المجتمعات . والصلاة شرعت للتذكير بالاسلام والدعوة اليه ، ولهذا يختم المصلى صلاته بدعاء السلام حيث يقول : « ألسلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ألسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . (محمد رضا شمس الدين كتاب فلسفة الصلاة) .

« لاريب فى أن الصلاة عقد بين الله والانسان . وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادل ، وعلى ضوء هذه الملاحظة ينكشف لنا سر تكرار الصلاة اليومية على الشكل المعروف فى الاسلام وجعلها ليلية ونهارية وهذا السر هو تجديد العقد وتوكيده حتى لا تضعف فعاليته ، وحتى لا تمر بالمرء ساعات فتور واسترخاء ينحل فيها بأحكام العقد فينحل بذلك دائماً طرفاً فى عقد جديد . وكما هو معروف على الباحث أن الضمير ، والوجدان ، والعقائد تتولد من التكرار والتلقين ، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً . هذا فهمنا الى الصلاة فى الإسلام من ناحية عملية : وأما هى من ناحية فلسفية فإنها أصح طريق وأسلوب ، وأصح شكل وصيغة لما يسميه ـ ساندرسون ـ أحد علماء النفس التطبيقى ـ معبد الرؤيا ـ هذا المعبد الذى يتأمل فيه المرء منفرداً ، ويخشع مستغرقاً متفكراً ؛ وهو يرى بأنه لا اصلاح للفرد ، وبالتالى للجماعة . إلا بمعبد الرؤيا ، أو ساعة التأمل اليومية ، وقد ضمنها الاسلام على شكل مدهش من التكرار فى صخب النهار وفى هدوء الليل ، وكأن الاسلام بصلاة النهار ينتزع الانسان انتزاعا ليغرقه فى التأمل والاشراق ولو لحظات » . (عبد الله العلائلى : أيام الحسين)

« ثم اعطفوا أنظاركم الى أسرار تشريع الصلاة ، وما تضمنت من استعراض جميع من بلغ الرشد ، من أربعمائة مليون مسلم خمس مرات فى

كل يوم وليلة ، فى صفوف منتظمة ، بكل سكينة وخشوع ووقار . الأمير بجانب المأمور ، والخادم بأزاء المخدوم ، والفقير بحذاء الغنى ، والضعيف بجانب القوى ، والرفيع مع الوضيع ، والسيد بصف المسود ، والكل منكسر لله ، ذليل بين يدى رب عظيم قاهر ، دون ميزة لبعضهم ، ولا أفضلية فيما بينهم ، وكلهم يستقبلون الكعبة المشرفة ، ويتجهون الى بقعة أشرقت منها شمس الهداية المحمدية ﷺ ، يتلون النشيد الآلهى ، والسبع المثانى ، ويوجهون قلوبهم ونفوسهم الى المبدأ الواحد ، والآله القادر . وفى ذلك وحدة الشعور ، وتوحيد المشاعر ، والمفاداة فى سبيل نصرة الحق والتمرين على النظام والطاعة والاتباع والانقياد للإمام ، وفى جميع ذلك تعويد لهم على أسس العدل الاجتماعى ، من المساواة والحرية والائتلاف ، وصفاء النفس من كدر الشوائب ، واتصافها بجلائل الخصال والمكارم ، وأمهات الفضائل وعدم الاعتداء على أحد فى ماله وحقوقه وعرضه ونفسه ، وهذا كاف للسلم العام ، مضافا الى أن الخضوع والخشوع لله يزيلان الطمع وحب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة ، وحب المادة الذى هو منشأ الحروب » . (عبد الكريم الزنجانى : من كتاب الرحلة) .

« إن الصلاة تخط للإنسان خطة مستقيمة فى حياته ، يكون الماشى عليها مهذباً فى جميع جهاته ، « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فكل قول أو فعل ، منها رمز الى حقيقة وأصل : فطهارة البدن واللباس عن الأقذار والنجاسات ، تعلم الانسان تطهير باطنه عن نجاسة الأخلاق الذميمة ودرن الصفات الرذيلة كالكفر والحسد والبغضاء والشحناء وغيرها ، وإن تنظيف الباطن والقلب ـ الذى هو موضع نظر الحق ـ ، أوجب عليه من تطهير الظاهر بغسل الأطراف وتنظيفها ، « فإن الله تعالى لاينظر الى صوركم ولكن

ينظر الى قلوبكم » . وإباحة المكان واللباس التى هى من شرائط الصلاة أيضاً تشير الى أن الانسان يجب عليه أن يحافظ الحدود ولا يتعدى طوره فى معاملاته مع الناس ، وينقلع عن التغلب والتعدى الى حقوق الغير ، ويحب لهم مايحب لنفسه ، ويكره لهم مايكره لنفسه ، ولا يتعاطى شيئاً من أموالهم بلا إذن منهم ولا رضاً . والتكبير الذى يفتتح به الصلاة ، يفهمنا عظمة الخالق ، وأنه أكبر من كل شىء من مخلوقات ملكه وملكوته ، وهذا رمز الى جميع العلائق المادية ، وفصم كل رابطة بينه وبين من هو دون خالقه ، والتوجه بكله الى حضرة قدسه . والقراءة التى هى مكالمة ومخاطبة بين الخالق والمخلوق : ترشدنا الى مناجاة الروح والقلب مع رب الأرباب .

وفى الركوع يستشعر الإنسان عز مولاه ، وعلو مقام ربوبيته ويجرى ذلك بلسانه فيسبحه وينزهه ، ويشهد له بالعظمة والكبرياء ، بقوله : « سبحان ربى العظيم وبحمده » . ثم السجود الذى هو غاية مراتب الخضوع وأحسن درجات الخشوع ، وأعلى مراتب الإستكانة : عبارة عن تمكين أشرف الأعضاء وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب ، وهذا إشارة الى تذكر أصله وأنه خلق من التراب ، واليه يرد كما ذكر تعالى « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . (محمد جواد التبريزى : عن مجلة العدل الإسلامى) .

« الإنسان مخلوق من الطين ، والطين مادة فانية لا بقاء لها ، يعتريها الضعف والهزال ثم الإنحلال . فيذهب الإنسان ولو كان أقوى الخلق وأجملهم كأنه لم يكن ، فيصبح تراباً تذروه الرياح ، ولكن الله تعالى قد وضع فى هذا الجسد روحاً منه ، تلك الروح التى بها تعقله وجميع مواهبه الأدبية . هذه الروح المودعة فى الجسد ، تحن الى مصدرها وهو الله سبحانه وتعالى ، ولا

يرى لها كمال إلا الاتصال به على كل حال من الأحوال ، ولكن كيف يتأتى ذلك لمن كان طول نهاره يشتغل فى مهنته ، ثم يعود ليلا الى منزله ، فيأكل حتى إذا إمتلأ بطنه ، وصعدت أبخرة المأكل الى دماغه غالبه النعاس حتى غلبه فنام أو خرج الى بعض أصحابه ، فأخذوا يتجاذبون أطراف الملح ، حتى قلّت قواهم ، فخمدت أجسامهم ، كيف يتأتى للروح أن تتمتع بالاتصال بمصدرها ، وهى محبوسة فى جسد طينى ، صاحبه على هذا الشغل الشاغل من صناعته ، وأهله وأصحابه . قد يعيش الانسان على هذه الحال ماءة سنة ، ثم ينحل جسمه ويتلاشى ، وروحه لم تنل من بغيتها من الاتصال بمصدرها الذي نشأة منه حاجة من حاجاتها ، بل هى الجامعة لجميع حاجاتها ، إذ منه تستمد وجودها ، وبه تستتم نورها ، وتستديم إشراقها . فإذا لم يؤتها صاحبها بهذه الحاجة كانت كمن انقطع عن عالمه ، فانقبضت وظهر الانقباض منها على صاحبها بمظهر الوحشة والاكتئاب ، وعدم القناعة بشىء ، وربما ظن أن وحشته واكتئابه وعدم قناعته بسبب إملاقه من حطام الدنيا ، فجد فى الاستكثار منه ، وخاض لذلك الغمرات والأهوال . بل ربما تخيل أن وحشته واكتئابه نشأ من عدم أخذه حظاً من الملهيات ، فألقى بنفسه بين أحضانها ، وجره ذلك الى الكأس والدنان ، فقضى حياته فى كلتا الحالتين شديد الكلب على الدنيا ، عظيم الشره فيما لم يبلغ اجتهاده ، ناظراً لما فى يد غيره من الحطام ، دائم الحيرة كثير الهلع ، حتى تنتهى حياته وهو بين تلك العوامل ، وما درى ذلك المسكين أنه لو نال الدنيا ملكا ، ومن فيها خولا وخدما ، وامتد سلطانه حتى حكم على هذه المجموعة الشمسية ، وهو مع ذلك حارم روحه من الاتصال بمصدرها السماوى ، مازاده ماله إلا حيرة ووحشة ، ثم انتهى وجوده بين دافع هلع ، وعامل جزع ، كما تنتهى

حياة كل غريب عن عالمه .

ومن هنا يتبين أن إتصال الروح بمصدرها السماوى ، ولو فى اليوم والليلة لحظات ، من الضروريات للإنسان ، لذلك شرع الله الصلاة فى كل دين ، وقد ثبت أن أكمل أنواع الصلاة ، هى الصلاة فى الاسلام لما يتقدمها ويتخللها من الأعمال المعينة على كمال الاتصال بالله .

يبدء المؤمن صلاته بالوضوء ، وهو من حاجات الجسد الماسة بالحياة ثم يقف موجهاً وجهه للكعبة ، رافعاً يديه قائلا « الله أكبر » أتدرى مامعنى هذه التكبيرة ، وما وجه جعلها فى بدء الصلاة : لاشك أن أحدنا وهو ذاهب الى الصلاة ، يكون خارجا من العمل ، أو محاطاً بشواغل من الفكر ، أو مهتم بأمر خطير ، ولكنه بقوله : « الله أكبر » يكون قد محق كل ماسوى الله من الهواجس والوساوس ، وكأنه يقول « الله أكبر » من كل ماشغلنى ، فلست بمصغ الى حديث نفسانى ، ولا هاجس شيطانى ، بل أنا متوجه الى الذى فطرنى ، غير مفكر فى سواه ، ولا شاغل نفسى بما عداه .

إذا اتى أحدنا هذه التخلية الذهنية والقلبية ، وصدق العزم فى توجهه الى مولاه ، خلص فؤاده من الشوائب ، فأشرق عليه الحق سبحانه وتعالى وأمده بصلته ونوره ، فأحس الانسان بروح جديدة تنبث فيه ، وطمأنينة كاملة تستولى عليه ، وسكينة تامة تنزل عليه . ثم إذا تلى بعدها فاتحة الكتاب وأعقبها بسورة أو ببعض آيات ، بقلب حاضر ، وضمير طاهر ، إزدادت الصلة بينه وبين ربه . وتوالى الصلاة تقوى هذه الرابطة السماوية فيه ، فيصير إنساناً بالمعنى الصحيح ، لا إنساناً يقيمه الهم الحقير ، ويقعده ويرغبه الوهم الصريح . ويزيده قصد الشارع سبحانه وتعالى من فرض الصلاة ،

إحداث هذه الصلة . فالصلاة وسيلة لغاية عالية : هى هذه ، وليست هى ذاتها غاية ، فلا يجوز لانسان أن يعتقد أن الله تعالى فرض علينا الصلاة لنقوم ونقعد ، تالين القرآن بلا تدبر ولا تفهم ، بل يجب عليه أن يعتقد بأن هذه الصلاة وسيلة للإتصال به سبحانه ، والاستمداد من نوره وقوته .

هكذا فهم من كان قبلنا معنى الصلاة . فكان النبى ﷺ يصلى حتى تتورم قدماه ، ويركع مدة مايقرأ أحدنا خمسين آية ، ويسجد كذلك .

وروى عن أتباعه الصحابة الصادقين مايقرب من ذلك . فكان منهم من إذا قام للصلاة انقطعت عنه الخواطر ، فلا يعى شيئاً حتى ولو أوذى فى جسمه . فعلينا أن نجتهد فى جعل صلاتنا صلاة صحيحة بالفكر فيما نقرأ ، وبالتوجه الى الخالق بهمة كبيرة ، وعزم صحيح ، وإلا ذهب تعبنا منها سدى قال ﷺ : « كم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب » . (محمد فريد وجدى : فى دائرة المعارف) .

« النفوس قد تغفل عن التذكير بإنهماكها فى مشاغل الحياة ، أو فى تمتعها باللذات ، فتتنكب عن جادة الهدى ، وتتفرق بها السبل ، ومن ثم كانت فى حاجة الى مذكر يرقى بها الى العالم الروحى ، ويخلصها من عالم الحس ، ويوجهها الى مراقبة من برآها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران ، وترتفع عن البغى والعدوان ، وتميل الى العدل والاحسان ، ذلك المذكر هى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتنفى الجزع والهلع عند المصائب ، وتعلم البخيل الكرم والجود » . (أحمد مصطفى المراغى : فى تفسيره) .

« المحافظ على هذه الصلاة الفضلى ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، فلا يرضى لنفسه أن يكون حلساً من أحلاس بيوت القمار ومعاهد اللهو والفسق . المحافظ على هذه الصلاة لايمنع الماعون ، بل يبذل معونته ورفده لمن يراه

مستحقاً لها . المحافظ على هذه الصلاة لايخلف ولا يلوى فى حق غيره ، وإن حقاً فرضه على نفسه ، أو التزمه براً بغيره ، كالاشتراك فى الجمعيات الخيرية المحافظ على هذه الصلاة لايضيع حقوق أهله وعياله ، ولا حقوق أقاربه وجيرانه ، ولا حقوق معامليه وإخوانه . المحافظ على هذه الصلاة يعظم الحق وأهله ، ويحتقر الباطل وجنده ، فلا يرضى لنفسه ، ولا لأمته بالذل والهوان ، ولا يعتز بأهل البغى والعدوان . المحافظ على هذه الصلاة لاتجزعه النوائب ، ولا تقل غرار عزمه المصائب ، ولا تبطره النعم ، ولا تقطع رجاءه النقم ، ولا تعبث به الخرافات والأوهام ، ولاتطير به رياح الأمانى والأحلام ، فهو الانسان الكامل الذى يؤمن شره ويرجى فى النـــاس خيره » . (محمد عبده : فى تفسيره) .

« وتشمل الصلاة بفوائدها الجهاز العصبى للإنسان . . فعلاوة على أنه لوحظ إنخفاض ضغط الدم فى أثنائها مما يكون له تأثير مباشر على القلب والعمل على الحد من زيادة ضرباته . فإن للصلاة تأثيراً مباشراً على الجهاز العصبى ، إذ أنها تزيل توتره . . . وتهدىء من ثورته ، . . وتشفيه من اضطرابه بل تعتبر علاجا ناجعاً الأرق الناتج عن الاضطراب العصبى » . (عبد الرزاق نوفل . فى الاسلام والعلم الحديث) .

« أما الصلاة وهى الركن الثانى من أركان الاسلام فحكمها استحضار معنى الألوهية . وإذكاء الخوف والرجاء فى نفوس المؤمنين كى لايتعرضوا لمخالفة أمر الله ، ولا يبغى بعضهم على بعض ، ليقوى عنصر الخير على صد عادية عنصر الشر ، وحصره فى حدوده الطبيعية ، فلا يعم الفساد ، ولا تتهدم نظم السعادة ، ولذلك يقول الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » . (راغب العثمانى) .

« المجتمع الانسانى بحاجة الى قوة روحية ترفع من نفسية الأفراد على وجه الاستمرار الى مثل عليا ، وذلك خشية أن تنحصر روابط الأفراد فى الحاجات المادية والمصالح الشخصية ، مما يؤدى الى الفساد فى الأرض ، والصلاة هى التى تمد الجماعة الانسانية للإستمرار بالقوى الروحيةالتىلابد منها لاصلاح المجتمع .

أما من الناحية النفسية فالانسان إذا لم تتصل روحه بمبدعها ظهرت فيه مظاهر الوحشة والاكتئاب ، وعدم القناعة بشىء ، وربما ظن أن وحشته واكتئابه حصلا من عدم أخذه حظاً من الملهيات فألقى بنفسه بين أحضانها وجره ذلك الى تعاطى الخمر ، فقضى حياته وهو شديد الإقبال على الدنيا ، عظيم الحسرة فيما لم يبلغ اليه إجتهاده فيها ، دائم الحيرة ، كثير الهلع ، بينما الصلاة تتيح للمرء أن يسأل بارئه كل مايريد حتى ينفس عن مشاعره ، وتخلق فى الإنسان عقيدة إطاعة أوامر الله ، ولو كانت تتعارض ورغباته الشخصية ، كما تبث فيه عدم اليأس ، وتدعو الى التماس القوة من الله ، فالإنسان الذى يعتمد على الله لايعرف اليأس الى قلبه سبيلا ، ويملك من القوة النفسية مايواجه بها أعظم المشاكل دقة وخطراً » . (عفيف عبد الفتاح طباره : فى روح التمدن الاسلامى) .

« الصلاة مظهر من مظاهر شكر المنعم ، وهى أعظم مظهر لشكره سبحانه فى عامةالشرائع تشتمل الصلاة فىالشريعة الاسلامية علىمنتهىالخضوع والعبودية ، كالركوع والسجود لواجب الوجود ، وعلى الدعاء ، والتوسل والتضرع الى الله سبحانه بدوام فيوضات الانعام واللطف ، والاحسان على العباد الذين « لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، ولايملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » .

تتجلى صورة الصلاة بمظهر الاقرار لواجب الوجود بالربوبية ، بمظهر التوحيد وخلع الأنداد ونفى الشرك والالحاد ، بمظهر نعته سبحانه بالعزة ، والعظمة والجود والكرامة . بمظهر مثول العبد للمعبود بهيكله ، وأركانه ، ولسانه وجنانه . (محمد صفى الدين الحسينى العاملى : فى مناهل الأشواق) .

ولأجل إحكام الرابطة بين الخالق والمخلوق لم يكتف الرسول المرشد ﷺ بالأخلاق المهذبة ، بل أرشد الناس الى تعاليم أوجبها بصفة عبادات تكفل طهارة النفوس وتقربها تجاه الخالق ، لأن الرابطة لاتكون محكمة بين الناس ، قائمة على المعاملة الحسنة ، والعدل والانصاف والرحمة والغفران والحب والائتلاف والانسانية ، إلا إذا كانت الرابطة محكمة قبله بين العباد وخالقهم ، كى يكون إيمانهم المتغلغل فى نفوسهم عندئذ حسيباً عليهم فى معاملاتهم بينهم ، ووجدانهم الطاهر رقيباً على تصرفاتهم ، ومتى فقدت مزية الايمان وطهارة الوجدان زال الوازع النفسانى بين الناس . وكثر التعدى وفشا الفساد وانطمس الكون بالفجور ، وأصبحوا لايرقبون ذمة ولا إلاً وأصبح الحق للقوى . فلذلك أرشدهم الهادى الى عبادات تتوجه الى الخالق الرازق ، مكون الكون ، بما تدل على عز الربوبية ، وذل العبودية ، والتقصير بحقه وطلب الغفران منه تعالى والعفو والرحمة ، ولا يخفى الحكمة فيها بمباشرة الصلاة بكيفيتها من وضوء وغسل وقيام وقعود ، فان فيها نفعاً مباشراً للأفراد فى أجسامهم وحياتهم . من حيث النظافة وإزالة الأوساخ والمكروب عن الأعضاء ، ومن حيث الرياضة الجسدية المنشطة للإجسام . وسن الصلاة جماعة والاجتماع فى المساجد فى كل يوم خمس مرات ، وكل أسبوع مرة عموماً وفى كل سنة مرتين فى الأعياد ، ولا يخفى على أحد مافى هذا الاجتماع من الفوائد الكثيرة ، ومن بعض فوائد هذا الاجتماع حصول المحبة والالفة ،

وتجديد الاستنارة بنور الشريعة المقدسة ، وتذكر حال هذا الدين ، وحسن تعاليمه وزيادة الاستمساك به عند تذكر محاسنه عن سائر الأديان ، واقتفاء آثار هذا النبي الكريم صاحب هذه التعاليم الجليلة ، والاقتباس من أنواره . وإن فى التعارف بين الناس وائتمامهم بإمام واحد ، ربطاً لعرى المودة ، وممارسة لاتباع المجموع الأفضل والأتق ، ولعمرى هى الحكمة العظيمة العاملة على إسعاد المجتمع فى دنياه فضلا عن الحكمة الروحية بطهارة النفس ونقاوة الضمائر استعداداً للصلاة . الأمر الذى يكفل السعادة الأخروية بالاجمال . فإن فى الصلاة رياضتان رياضة روحية ، ورياضة بدنية ، وفائدة أحكام عرى المحبة بين الجماعة ، واقتفاء آثار النبى الطاهر ، فإن بأمثال هذه الآثار ترقى الشعوب وتسعد الأمم وتحي النفوس .

(محمد الحر مجلة العرفان مج ٢٨)

« الصلاة صلة بين العبد والرب ، وستر للعيب وكفارة للذنب . الصلاة صلة بلا مسافة ، وطهارة كل خطيئة . الصلاة مواصلة ومصافاة وأمر ومناجاة المصلى يقرع باب الله ، ويطمع فى ثوابه ، وهو على بساط الله عز وجل .

إذا كبر العبد تكبيرة الاحرام تساقطت الأوزار ، وإذا توجه العبد الى القبلة فقد بدا من نفسه الخضوع والذلة ، واتبع الشرع والملة ، وإذا فرغ العبد من الصلاة كفر الله عنه سيئآته وخطيئته وأجزل عطيته ، إذا خاص العبد من القراءة والتلاوة سطع فى قلبه النور والحلاوة ، وإذا قرأ الفاتحة أدرك الصفقة الرابحة . وإذا تبعها بالسورة كثر فى الآخرة سروره ، وكفاه الله محذوره وإذا انحنى للركوع فقد أظهر لله الخضوع ، وإذا قام للإعتدال نفى عنه الاشتغال وإذا هوى للسجود فقد خرج من الجحود ، واستحق من الله الجود ، وإذا انهدم على التمام سلمت عليه الملائكة الكرام وبشروه بدار السلام .

الصلاة شرح للصدور وفرج من جميـع الأمور . الصلاة نور فى الفؤاد وسرور يوم المعاد ، الصلاة للقلوب منهاج وللأرواح معراج . الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ويؤمن صاحبها من نكير ومنكر . الصلاة تغنى عن الافلاس وتلبس العبد الإئناس . الصلاة قرة العين وجلاء الدين . المصلى على بساط المولى يناجى المـلك الأعلى .

الصلاة ضياء فى الصدور وفسحة فى القبور ورفيقة فى الحشر والنشور الصلاة تجوز على الصراط وتورث صاحبها النشاط ، الصلاة تنزع فسادالقلوب وتكفر الذنوب . الصـلاة تسهل العسير وتمحو الذنب الـكبير . الصـلاة توسع الأرزاق وتطيب الأخلاق ، الصلاة تقرب العبد الى المولى ويؤمن من البلوى ، من لزم المحراب قرع الباب ، ومن قرع الباب أتاه الجواب ، صحة الودادة لزوم المساجد للعبادة .

الصلاة تخفف الأوزار وتوقى صاحبها من النار ، أقرب مايكون الى ربه من سجدوقام وصلى وصام . لوعلم المصلى لمن يناجى لمـا التفت فى صلاته من سهى فى صلاته فقد ضيع أشرف أوقاته .

إخضع لربك فى الصلاة ذليلا   واذكر وقوفك فى الحساب طويلا

لوعلمت بين يدى من تقوم كنت تلازم على بابه وتدوم .

محسن الفيض الـكاشانى : فى المحجة البيضاء

قد تمثل الاعتقاد بالتوحيد والاذعان بامتناع المشاركة فى الألوهية ـ كما بينه الإسلام وساق اليه جموع الأفئدة ـ فى نظـام عملى ، هو تمام الظهور لهذا الإعتقاد الثمين الذى أثبت فى عالم الإنسان كمالا منيعاً قاده الى السعادة المطلقة وهو (الصلاة) التى تضمنت عقيدة التوحيد فى سلسلة أعمال وأقوال ، تنتج السعادة وتهدى الى ناموس الإتحاد والائتلاف ، فالاعتقاد بالتوحيد مبدء

العقائد ومفتاح المعارف ، ومركز دائرة كمال النفس فى جريانها العملى . الصلاة الداعية الى الأنس والائتلاف فى بلاط الملكوت النافضة للأهواء الشخصية الضالة والآراء الفاتنة . فساق الشارع الاسلامى جميع الناس بتشريعها الى الوحدة الروحية ومهد لهم النظام العملى وسلك بهم سبيل الخير ، لأن فيها تتظاهر المساواة المطلقة فى مقام العبودية ، والناس الى أمثالهم أميل وبنظرائهم أأنس فيرى الفقير المعدم خضوع الغنى المترف ، ويشاهد الضعيف العاجز خشوع القوى الباسل ، فتتولد بينهم ألفة واستيناس ، وترى الكبراء الأشراف يتحملون من عامة الناس فى موقع الدعاء والعادة مالا يتحملون شيئاً منه فى غيره ، بل ربما يلوذ الأغنياء وأرباب الشؤون فى هذا المقام بالعجزة والضعفاء لما يشاهدون من عظمة الله ويعتقدون من توجهه الى الخاضع الذليل له .

وقد جمع الشارع الاسلامى فى هذا العمل المحاسن الأخلاقية ، والآداب الاجتماعية ، ففرض فيه الطهارة من الأحداث والأدناس ، لئلا يكون فى الانسان من المواد الموجبة للأمراض المسرية ، أو الأقذار التى توجب تنفر الطباع ، لئلا يكره كل واحد الاجتماع مع غيره فى هذا العمل . وفرض فيه ستر العورة لئلا يتمثل الانسان فيه بمنظر قبيح . وفرض فيها الوقت والقبلة ، لتتمثل الأفراد حين الاشتغال به فى صورة واحدة تتميما لأركان الائتلاف ، وتشييداً لمبانى الاتحاد ، واستيصالا لشأفة الخلاف وسن فيها من كرائم الأخلاق ومحاسن الأعمال التى كانت مجلية للطباع المستقيمة ، ومركزاً للمتباثنات من النفوس ، ماملئت مجلدات فى الفقه الاسلامى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . (الميرزا محمد باقر الخمينى العراقى : الدين فى طور الاجتماع) .

« إن الصلاة صلة ولقاء بين القلب والرب صلة يستمد منها القلب

قوة . وتحس فيها الروح صلة . ويستهين فيها الفرد بقوى الأرض وهو على اتصال بقوة الأزل والأبد . وقد كان الرسول ﷺ - إذا حزّ به أمر فزع الى الصلاة . وهو الوثيق الصلة بالله ، الموصول للقلب والروح بالالهام وما يزال هذا الينبوع الدافق فى متناول كل مؤمن ، يستقى منه حينما يشاء . ويستعين به على رحلة الحياة وما فيها من جهد ، وما فى تكاليفها من عناء »

(سيد قطب : فى تفسيره)

« إن الصلاة عمود الدين ، والصلة بين العبد والرب ، ومعراج الوصول اليه ، فإذا ترك الصلاة فقد انقطعت الصلة والرابطة بينه وبين ربه . ولذا ورد فى أخبار أهل البيت عليهم السلام أنه ليس بين المسلم وبين الكفر بالله العظيم إلا ترك فريضة أو فريضتين ، وعلى أى فإن للصلاة بحسب الشريعة الاسلامية من الأهمية ، لا يوازيه شىء من العبادات » .

(محمد حسين كاشف الغطاء . فى أصل الشيعة)

« فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها فقال : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

فالابتعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل ، هو حقيقة الصلاة ، وقد جاء فى حديث يرويه النبى ﷺ عن ربه : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » .

(محمد الغزالى . فى خلق المسلم) .

« إن المصلى يتوجه بصلاته الى الله توجه عبد كامل العبودية الى مولى بيده كل الأمور . فالانسان حين يتلبس بالصلاة يتهرب من شخصيته ، ويفر

من عظمة نفسه ، ويطأطأ خاضعاً مذعناً مؤمناً بأنه أمام قوى يحاسبه على الكبيرة والصغيرة ، أمام رب لايحجب دعاء المظلوم ولا ينسى ظلامته ولا يقر ظالما على ظلمه . فالانسان فى مثل هذا الحال يفقدالغطرسة والجبروتيةفإذا انفتل من صلاته ببدنه ، فإنه لاينسى الله بقلبه ولا ينسى أنه عبدله وإن ملك العالم ، وتذهب من رأسه نشوة الملك ، ويعود الى نفسه فلا يرى لها فضلا على أحد . وتتساوى عنده القيم ولا يبقى عنده من المقاييس إلا ماأقره الدين » .

(أحمد الهندى : فى ظل الوحى) .

« الركن الأول من أركان الأسلام الصلاة وما الصلاة فى حقيقة الأمر إلا أن تعيد بلسانك وأعمالك ، خمس مرات فى الليل والنهار ، ذكر ماقد آمنت به فإذا استيقظت صباحاً ، مثلت بين يدى ربك طاهراً نظيفاً قبل أن تشتغل بشىء آخر ، ثم أقررت بين يديه بعبوديتك له قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، واستعنته واستهديته . ووجدت مابينك وبينه من ميثاق الطاعة والعبودية ، وأعدت مرة بعد مرةأمنيتك فى نيل رضاه والابتعاد عن غضبه ، وأعدت درس كتابه ، وشهدت بصدق رسوله ، وذكرت يوماً ترجع فيه الى محكمته لتسئل فيها عن أعمالك ، ثم تنال عليها الجزاء الذى تستحقه .

إن الصلاة هى التى لاتنفك تدعم أساس إسلامك خمس مرات فى كل يوم ، وتعدّك للعبادة الواسعة الحقيقية وهى التى تذكرك دائماً بالعقائد التى تنحصر فيها طهارة نفسك ، وارتقاء روحك ، وصلاح أخلاقك وأعمالك

قل لي بالله بعد كل ذلك : هل يمكن أن تكون فى الدنيا تربية خير من الصلاة تجعل المرء مسلماً حقاً ؟ وهل يمكن أن تكون للإنسان تربية خير من أن يجدد ذكر الله تعالى وخشيته ، واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، والاعتقاد

بالحضور فى محكمته يوم القيامة ، ويتبع الرسول عدة مرات فى ليله ونهاره ، ويتدرب على القيام بالواجب بعد كل ساعة من يومه وليله ؟ إن هذا الانسان يرجى منه عند مايشتغل بأمور معاشه بعد خروجه من المسجد أن يخاف الله ، ويتبع قانونه ، ويتذكر عند كل خطيئة يزينها الشيطان فى قلبه ، إن الله ناظره ولا يخفى عليه أمر من أموره . أما إذا كان المرء لايخاف الله ولا يكف يده عن معصيته ، ومخالفة أحكامه ، حتى بعد هذه التربية العالية ، فما ذلك لسقم فى أصل التربية ، وإنما ذلك لما فى نفس هذا الانسان وطبيعته من الفساد والخبث والشر .

ثم إن الله قد أكد تأكيداً شديداً ، أن يؤدى المسلمون فريضة الصلاة جماعة ، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة فى كل أسبوع على الوجه الخاص . فالصلاة جماعة تنشىء الاتحاد والمحبة والاخاء بين المسلمين ، وتجعل منهم كتلة متراصة . فإنهم عندما يجتمعون ويقنتون لربهم ويسجدون له ، ويركعون معاً . تأتلف قلوبهم ، وينشأ فيهم الشعور بأنهم أخوة فيما بينهم . ثم إن الصلاة فى جماعة تدربهم على طاعة أمير ينتخبونه من بين أنفسهم ، وتربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات ، وتنشىء فيهم المواساة والتعاطف والتراحم والمساواة والائتلاف ، فتراهم جميعاً غنيهم وفقيرهم ، وكبيرهم وصغيرهم وأعلاهم وأدناهم يقومون جنباً الى جنب ، فلا شريف فيهم ولا دنىء ولا رفيع ولا وضيع » .

(أبو الأعلى المودودى : فى مبادىء الاسلام)

« الصلاة أجل الشعائر الدينية ، وأعظم المظاهر الاسلامية ، وأفضل مايتقرب به العبد الى ربه ، وهى رأس الاسلام وعموده ، وهى الفرق مابين المسلم والكافر والبر والفاجر . فما حافظ عليها إلا كل سعيد ، وما ضيعها

وحرم منها إلا كل شقي عنيد .

فرضها الله سبحانه وتعالى فوق سبع سماوات ، ومنحها لحبيبه محمد ﷺ فى أعلى المقامات . وأكد الله تعالى بها فى كثير من آيات القرآن الكريم تأكيداً عظيما ، وحثاً على أدائها ، وهى (الركن الثانى للإسلام) ولها أسرار عظيمة وحكم بالغة . فهى تهذب النفوس وتزكى الأرواح وتقوى رابطة الإيمان والمحبة بين العبد وربه ، وتزيد من أسباب المودة والإخاء بين المؤمنين الذين هم على صلاتهم يحـافظون . وتنهى عن الفحشاء والمنكر . وتدعو الى كل خير وبر .

والصلاة خير جامعة للمسلمين ، وأقوم درس للتمرين على الجهاد والوقوف فى وجه أعداء الله ، وخير مثال لتعويدهم الطاعة للقائد وتمرينهم على ضبط أعمالهم وحفظ أوقاتهم . . . . وتكسب الثبات وتقوى العزيمة وتغرس فى النفس حب المحافظة على المواعيد وتذكير الغافلين ، وتدعو الى التعارف والتآلف وتقوية الروح المعنوية ، وتوطيد دعائم الوحدة الإسلامية ،

(الحاج عباس كراره)

« فى الحدائق يروى عن الشيخ فى التهذيب ، بسنده عن - على عليه السلام - قال : « قال رسول الله ﷺ : إن عمود الدين الصلاة ، وهى أول ماينظر فيه من عمل ابن آدم ، فإن صحت . نظر فى عمله ، وإن لم تصح لم ينظر فى بقية عمله » .

وفيه عن المشايخ الثلاثة ، فى الصحيح ، عن معاويه بن وهب ، إنه سئل أبو عبد الله عليه السلام عن أفضل مايتقرب به العباد الى ربهم ، فقال عليه السلام : « ماأعلم بعد المعرفة أفضل من الصلاة » .

إن الحديثين بلغتهما الخاصة يترجمان لك مكانة الصلاة ومنزلتها فى دنيا

المسلمين ، إن الإسلام لايقوم إلا بها ، كما أن الخيمة لاتقوم إلا بعمودها انها روح الأعمال والمآثر فإن صحت صحت الأعمال ، وإن ردت ردت ، فكل مايأتى به الانسان لافائدة فيه إذا لم يأت صاحبها بالصلاة المقبولة ، إن إنسانيتك لاتثبت إلا بالصلاة لأن الانسانية بالأعمال فإذا كانت الأعمال لاتثبت إلا بالصلاة فمعناه أن الانسانية لاتثبت إلا بالصلاة.

وأما الحديث الثانى : فانه يجعل مرتبة الصلاة بعد مرتبة معرفة الله التى لاشيء فوقها ، ولا شك بأن المعرفة قبل كل شيء ، لأنها أول مايتوجه اليها الإنسان فى وعيه ، فإذا كانت الصلاة بعدها فى المنزلة ، كان معناه أن الواجب الثانى للإنسان هو الصلاة ، فهى قبل كل شيء من المواضيع الإنسانية ، ولا يتقدم الموضوع إلا مايتوقف عليه ذلك الموضوع ، فالمواضيع الإنسانية كلها تتوقف على الصلاة « إن قبلت قبل ماسواها ، وإن ردت رد ماسواها » .

محمد جمال الهاشمى : الاسلام فى صلاته وزكاته

« . . . بل ليست الصلاة المفروضة ، إلا من أصول تلك الفضائل الروحية يتصل الانسان بربه ، خمس مرات أثناء اليوم ، يشخص بقلبه لتلك القوة الجبارة يذكر أنه عبد مخلوق ، سوف يسئل عن كل عمل يقوم به ، صغر أم كبر . . . فيلتمس العون من الله تعالى ويشهده على إيمانه ، ويستمد منه الهداية فى أداء واجب الحياة ، يشعر أن هذا الواجب ، شكر ضئيل جداً ، وضئيل جداً ، أمام عظمة ذلك الخالق ، الذى أسبغ عليه ثوب الوجود والحياة ، وأتم عليه نعمته بالهداية والايمان . . . وأى تساو بين البشر كهذا التساوى ، يقف كل مؤمن جنب أخيه لأداء تلك الفريضه الواجبة لافرق بين غنى وفقير ، أو حر ومملوك . . .

إذن فالصلاة ليست إلا دوام اتصال بين الروح الانسانية والملأ الأعلى

من القداسة ، يعترف فيها العبد بعبوديته وتقصيره ونعمة سيده وآلائه ، فهو لعظمته يخضع ، وأداء لشكره يسجد ويركع ، متصلا بروحه معه ، نادماً على مافرط من ذنوب ، سائلا ربه أن يهديه سبل الحياة . . . ويشبع نفسه من الكمالات العالية » .

علي كوران : عن كتاب أخي المثقف

يتفق الأطباء والدكاترة على احتياج بدن الانسان الى الرياضة ، إذ الرياضة تسبب تحريك العضلات والجوارح ، وتكون سبباً لجودة هظم الطعام ولنشاط البدن ، ولذا نرى أصحاب الرياضة أقوياء الجسم ، وقد عينوا لكل عضو رياضة خاصة ، فرياضة الرئة والقصبة الهوائية وما اليها (القراءة) تحرك الروح وتلين الأجهزة . ورياضة السمع سماع الأصوات اللذيذة التى لاتسبب فساداً . ورياضة العين ، النظر الى الخط الدقيق ـ أحياناً ـ والنظر الى الأزهار والأوراد وسائر الأشياء الجميلة . وقد ذكروا لكل من اليد والرجل كيفية خاصة من الحركة ، لترتاض وتقوى عضلاتها ، وقالوا : إن السباق مما يقوى جميع الأعضاء .

والشرع الاسلامى ندب الى بعض هذه الأقسام ، كالمسابقة بالخيل ونحوها بشروط مقررة .

والصلاة المفروضة فيها أنواع الرياضات الجسمية ، فكل من قيامها وركوعها وسجودها رياضة . والعلم يعترف بكثير من مزايا هذه العبادة فهى ذات فعالية ظاهرة فى تقويم بنيان الجسم ، فلقد ثبت أنها تؤثر فى تنظيم حركاته وترويض عضلاته وتليين عظامه . وهى بالاضافة الى ذلك رياضة للنفس ، فتغسلها من الأدران الراسبة فى زوايا القلب ، وتنظف الجهاز الروحى من أوساخ الأنانية ، وتقوم بدور تربوى للأخلاق والملكات ، فإن من يقف

كل يوم خمس مرات أمام (الله) ويرى روحه متصلا بعالم النزاهة والقدس لابد وأن يتأثر بالملكات الفاضلة ، ويتخلى شيئاً فشيئاً من الأخلاق العفنة .

إن الأنانية تدخل فى قلب من لايرى فوقه عظيما ، غير متناهى العظمة والكبر يجوب أفئدة الذين لايرون أنهم عبيد لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ، والتكالب والتنازع يجدان طريقاً فى روح من لايدرك أن هناك مودع عادل حكيم . والظلم يجرى على أيدى من لايعترف بأن للكون نظاماً عادلا يدبره حاكم خبير ، فلا يظلم أحداً ، وهو للظالم بمرصاد

والصلاة بدورها تقوم بهدم هذه الرذائل ، وتطهر النفس عن هذه الأقذار ، فهى حين يتلبس الشخص بها تسيطر على جسمه وعلى قلبه ، فيتضائل أمام البارى الكبير ، ويتذكر أنه بمرءاً منه ومسمع ، حين يفعل مايفعل ، فينتزع عن الظلم والنفاق والحسد وما اليها ، ولذا يقول القرآن : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

غلام على : عن مجلة الأخلاق والآداب

إليك يارب أقبلنا مصلينا　　الحق يحفزنا والشوق يدعونا

إذا سمعنا اسمك اهتزت جوانحنا　　كأنما الملأ الأعلى يحيينا

وإن تلونا من الفرقان فاصلة　　جلت علينا من النعمى أفانينا

تزيل مالابس الأرواح من ظمأ　　كأنها من نمير الخلد تسقينا

* * *

مالامست من قفار النفس مجدبة　　إلا كستها جنى غضاً ونسرينا

وأرسلت فى ثناياها أشعتها　　فأكسبتها تفاويفاً وتلوينا

وفجرت فى صحاريها منابعها　　فأنبتت فى بواديها الرياحينا

وأطلقت فى مغانيها عنادلها تشوق مرأى وتطريباً وتلحينا

* * *

إليك يارب أخلصنا مناجينا الخوف يدفعنا والحب يحدونا
إذا سقمنا فنور منك يبرئنا وإن ضللنا فوحى منك يهدينا
نثنى عليك بما أسديت من نعم فاقت مآثرها أقصى أمانينا
فلو سكتنا لأبدتها جوانحنا ولو كتمنا لقالتها مآقينا

* * *

إليك يارب نجوانا نقدمها عساك تقبل إخبات المناجينا
صغارنا عن سناك القدس يبعدنا لكن وجهك بالاقبال يدنينا
فما ارتكبنا من الآثام يؤنسنا وما منحت من الغفران يغرينا
ناموسك العدل أغرتنا شرائعه فحسبنا منه دستوراً وقانونا
لو لم تنزل لنا ديناً يطهرنا من الشرور لأوحى حبك الدينا
ياطيبها دعوة تحيي ضمائرنا إذا دعانا إلى لقياك داعينا

* * *

« الله أكبر » إن رنت مدوية على الأثير أجبناها ملبينا
نسمو لديها ، فلا الأموال تشغلنا عن الخشوع ، ولا الأولاد تلهينا
تخف أجسامنا فيها وأنفسنا كأننا قد نفضنا عنها الطينا
حتى لنسمو فننسى أننا بشر وأننا لجميع الخلق قانونا

* * *

هى الصلاة من الأدواء تنقذنا ومن ضلال الهوى والرأى تحمينا
فيها الشفاء لنا من كل طارقة أعيت إزالتها النطس المداوينا
ففى هداها عزاء عن تفاهتنا وفى سناها نجاة من غواشينا

في ظل دستورها نحيا سواسية مرعينا يستوى فيها وراعينا
فأكرم الناس عند الله أسرعهم الى رضاه وإن عاشوا مقلينا
وحى السماوات نادتنا هواتفه فهل ترانا إليه مستجيبينا

* * *

يارب إن اختلاف الرأى أضعفنا فهب لنا منك إيماناً يقوينا
وارجع الى الشرق والاسلام ماضيه واجمع على الطهر والاخلاص وادينا
إذا دعوناك والأنفاس صاعدة إلى علاك أجاب الدهر آمينا

على عبد العظيم : عن مجلة المصور

أقوال علماء الغرب وآرائهم

« إننا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفاً : فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة ، تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التى تشعر هى أنها تابعة لها ، وإن مقدوراتها تحت مشيئتها . فالصلاة هى الدين فى حالة العمل ، أو هى الدين الحق » ثم يقول . « والدين لا يكون شيئاً يعتد به إذا لم يكن عملا حيوياً ، بواسطته تحاول النفس أن تنجو من الهلاك بالتجائها الى أصلها الذى نزلت منه ، وهذا العمل هو الصلاة ، وهى كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات أو ترديد عبارات ، ولكنها الحركة التى تقوم بها النفس لتضع نفسها فى علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التى يحس الانسان بوجودها حتى قبل أن يستطيع أن يطلق عليها إسماً ، فحيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين » .

اجوست سباتييه مدرس الفلسفة بجامعة باريس
في كتابه (فلسفة الدين)

« إن من أهم مقومات النوم التى عرفتها فى خلال سنين طويلة من الخبرة والتجريب هو الصلاة ، وأنا ألقى هذا القول بوصفى طبيباً ، فإن الصلاة هى أهم وسيلة عرفت الى الآن لبث الطمأنينة فى النفوس وبث الهدوء فى الأعصاب » .

الدكتور توماس هايسلوب

« أمكن إبراء كثير من الأمراض المعدية فى وقت قصير مدهش بالنسبة لقصره . ولكن بقطع النظر عن جميع معجزات العلاج التى تمت فى دنيانا هذه ، مازالت هناك معجزات أخرى فى إبراء المريض ، والأعراض والكسيح والأعمى لايمكن تعليلها ولا ينفع فيها العلاج الطبى أو الجراحى أو السيكولوجى أو الاهتزازى . فهناك ألوف الحالات التى لم يجد فيها أشهر الأطباء وأشدهم فطنة أدنى بارقة أمل ، والتى تم فيها مع ذلك شفاء المرضى واستعادتهم الصحة والعقل خلال معجزة من معجزات الصلاة » .

الدكتور إدونى فردريك باورز
استاذ الأمراض العصبية بالولايات المتحدة بامريكا

« إنها تحدث عن بعض النشاط فى أجهزة الجسم وأعضائه ، بل هى أعظم مولد للنشاط عرف الى يومنا هذا ، وقد رأيت بوصفى طبيباً أن كثيراً من المرضى أخفقت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليما تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم . إن الصلاة كمعدن (الراديوم) مصدر للإشعاع ومولد ذاتى للنشاط . ويجب أن نفهم أن الصلاة ليست مجرد تلاوة ميكانيكية للأدعية ولكنها تسام صوفى يحس فيها الانسان بالله سبحانه كما يحس

بحرارة الشمس أو كما يحس بعطف صديق . والانسان فيها يقدم نفسه لله ، ويقف بين يديه كأنه لوحة من القماش أمام النقاش ، أو قطعة من الرخام أمام المثال . إن الصلاة تخلق ظاهرة غريبة إنها تأتى بمعجزة ، فقد شاهدنا تأثير الصلاة فى الحالات الباثولوجية إذ برىء كثير من المرضى من أمراض مختلفة متعددة ، كالتدرن البريتونى ، والأخرجة الباردة ، والتهاب العظام ، والجروح القائحة ، والسرطان وغيره . . . . » .

الدكتور ألكسيس كارليل

الحائز على جائزة نوبل فى الطب : ورئيس قسم البحوث فى مؤسسة روكفلر بأمريكا

« هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الامارات المميزة للمسلمين عن غيرهم فى حياتهم الدينية ، فكثيراً مالاحظ السائحون وغيرهم فى بلاد المسلمين ما لكيفية أدائه من التأثير فى النفوس » .

السير توماس أرنولد . فى كتاب العقيدة الاسلامية

« لايستطيع أحد يكون قد خالط المسلمين أن لايدهش لأول مرة ويتأثر بمظهر عقيدتهم ، فانك حيثما كنت : فى شارع مطروق ، أم فى محطة سكة حديد ، أم فى حقل أكثر ماتألف عيناك مشاهدته ، أن ترى رجلا ليس عليه أدنى مسحة للرياء ، ولا أقل شائبة من حب الظهور ، يذر عمله الذى يشغله ، وينطلق فى سكون وتواضع لأداء صلاته فى وقتها المعين . أما صلاة الجماعة فإنه لايتأتى لأحد يكون قد رأى مرة فى حياته مايقرب من خمسة عشر ألف مصلى فى مسجد يوم الجمعة كلهم مستغرقون فى صلاتهم ، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية فى كل حركة من حركاتهم . لايتأتى لأحد يكون رأى ذلك المشهد أن لايبلغ تأثره به أعماق قلبه ، وأن لايلحظ

ببصره القوة التى تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها » .

الأسقف لوفروا

« خرجت الى الصحراء لأرفه عن نفسى ، راكباً فرساً صحبة ثلاثين عربياً ممتطين جيادهم ، وبعد برهة توقفوا عن المسير . . فقد حانت صلاة العصر . . فنزلوا عن خيولهم ووقفوا صفاً واحداً . . وبرانسهم البيضاء ينحنون ويسجدون بحركاة منتظمـــة يكبرون الله . . فاستولى علىّ شعور لا يوصف هو مزيج من الخجل والغضب . . فإن هؤلاء الأعراب البسطاء كانوا على يقين من أنهم أشرف منى نفساً وأكبر همة . . وما كان أبدع منظرهم وجيادهم تقف على مقربة منهم ، وأعنتها ملقاة على الأرض وقد ضربت السكينة عليها بجناحيها ، وكأنها تولاها الخشوع من رهبة الصلاة وخشية الله لقد خيل إلي وأنا بين أهل البادية أنى أرى بعينى لأول مرة فى حياتى رجالا يعبدون الله . . . » .

كونت هنرى دى كاسترى فى (كتاب : الإسلام سوانح وخواطراً)

« إن الحركة والإرشادات فى الصلاة الإسلامية هى ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها . كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشخوص الى السماء واستنزال الدموع التى تذكرنا بالدموع الجليسرينية التى يصطنعها ممثلوا السينما فى عصرنا الحاضر . حقاً إن الصلاة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التى خصها المسيحيون بالصور المسيحية مما جعلها فى غير جمال ولا جلال ولا وقار . حقاً أن الأقوال والحركاة التى فى الصلاة الإسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك مما هو غريب فى العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور وهو الغنى العزيز .

وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية . فهى مفروضة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد . وكم من شيخ كبير وبدين سمين . يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف ، دون كبير عناء ولا مشقة مما لا يستطيعه مسيحى فى مثل هذه السن أو فى مثل هذه الحال . مالم يكن قد تريض على ذلك من قبل . أضف الى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة ، ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة ، والنظافة من الايمان .

المستشرق الفرنسى إيتين دينية : عن سلسلة الثقافة

« فما أن يدعو المؤذن جماعة المؤمنين الى أداء أول واجباتهم الدينية الصلاة حتى يذكروا ، - مهما كانوا منغمسين فى شؤونهم الدنيوية - بخالقهم.

إنهم يستهلون هذه الشعيرة بتمجيد الله ويختمونها برفع تحياتهم اليه .

إنهم يشعرون بالطمأنينة دائماً فى حضرته . وهم إذ يذلون أنفسهم بالسجود إنما يعبرون عن خضوعهم المطلق للقوة الآلهية . إن لكل من الكلمات والأعمال فى الصلاة الاسلامية معنى خاصاً ، لكنه ليس من العمق بحيث يعجز العقل الانسانى العادى عن استيعابه .

وليس هاهنا مجال شرح هذه المعانى . من أجل ذلك نجتزىء بالنص ، إن على الصفة الانضباطية لمختلف الحركاة التى ترافق الكلمات تساعد على إبقاء أفكار المصلى مركزة وراء عالم الجسد ، وتمكنه من التعبير عن ولائه وتقديم شكره على الهبات الآلهية على أعمق وجه .

إن التوجه نحو مكة ليذكر العالم الاسلامى دائما بالموطن المجيد الذى شهد ولادة هذا الدين التجددى ، وهو مركز مقدس تدور حوله فى

جميع الأوقات عواطف المؤمنين الدينية ، وقد اتحدوا كلهم فى عبادة الإله الواحد .

لقد أشار القرآن الى قيمة الصلاة البالغة الرفعة كوسيلة للسمو الأخلاقى وتطهير الفؤاد فقال : « أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلوة ، إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولذكر الله أكبر »

الدكتورة فاغليرى فى كتابها : دفاع عن الاسلام

الزكاة ونظام التعاون عند محمد ﷺ

قبل أن ندرس موضوع الزكاة نتشرف بذكر حديثين يتصلان بموضوعنا اتصالا مباشراً ، ذكرهما صاحب الوسائل (قدس سره) :

الأول عن محمد بن بابويه عن أبى الحسين محمد بن جعفر الأسدى - عن محمد بن اسماعيل البرمكى . عن عبد الله بن أحمد . عن الفضل بن اسماعيل عن معتب مولى الامام الصادق عليه السلام . قال : قال الصادق (سلام الله عليه) : « إنما وضعت الزكاة إختباراً للأغنياء ، ومعونة للفقراء ، ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيراً محتاجاً ، ولا استغنى بما فرض الله له ، وان الناس ماافتقروا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء ، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله فى ماله ، وأقسم بالذى خلق الخلق وبسط الرزق : انه ماضاع مال فى بر ولا بحر إلا بترك الزكاة ، وما صيد صيد فى فى بر ولا بحر إلا بترك التسبيح ذلك اليوم ، وان أحب الناس الى الله تعالى أسخاهم كفاً ، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ، ولم يبخل على المؤمنين بما فرض الله لهم فى ماله . . . » .

الثانى : عن محمد بن يحيى . عن أحمد بن محمد . عن عثمان بن عيسى . عن سماعة بن مهران . عن أبى عبد الله عليه السلام قال : « إن الله فرض للفقراء

فى أموال الأغنياء فريضة لايحمدون إلا بأدائها ، وهى الزكاة ، بها حقنوا دماءهم وبها سموا مسلمين » .

لقد شرع الله تعالى لعباده مبدأ التعاون وحصره فى أمرين إثنين :
الأول : التعاون على كل أمر فيه بر وإحسان واكتساب لمحبة عباد الله .
الثانى : التعاون على كل أمر يراعى فيه اتقاء غضب الله بالانتهاء عما عنه نهى وحرم سبحانه وتعالى بصورة قاطعة التعاون فى أمرين اثنين : الأول : كل أمر يكون فيه مخالفة لأوامر الله . الثانى : كل أمر يكون فيه اعتداء على حقوق الغير حيث قال تعالى فى الآية ٣ من سورة المائدة : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقـاب » .

هذا هو أساس التعاون الذى رسمه الله لعباده ، وترك لهم الحرية فى أن يطلقوا لأفكارهم العنان فى تخيير مايرونه صالحاً ومفيداً ، أو أصلح فى العمل من سواه . وجههم نحو مايراه تعالى من خير ماينبغى أن يفكروا فيه من الشؤون التعاونية حيث قال فى الآية ١١٤ من سورة النساء : « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين‌الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

ومعلوم أن المراد بالنجوى مايتحدث الناس به فى سرهم ، أو يتفقون عليه ويبيتونه فى مقاصدهم ليعملوا على تحقيقه . وقد أخبرنا جل وعلى أن الخير فى ذلك محصور فى أمور ثلاثة .

١ ـ الأمر بالصدقة وهى تشمل جميع أوجه الخير من بذل المال للفقير ومعونة من يحتاج الى العون بكل الوسائل وتفريج كربة كل صاحب كربة كما سنفصل ذلك .

٢ - الأمر بالمعروف أى مافيه خير للناس ومنع للضرر عنهم ، وقد فسره الرسول ﷺ « بقوله من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وهذا داخل فى معنى الصدقة .

٣ - الأمر بالاصلاح بين المتخاصمين بإزالة أسباب الشقاق والتنازع ، وتقريب وجهتى النظر للتراضى على مايقنع الجميع بالخير المشترك والمصلحة العامة ، وهو داخل أيضاً فى حكم الصدقة .

ولما كانت الصدقة من أهم أعمال الخير قدمها الله تعالى فى الذكر ولما كانت فى ذاتها مما تؤذى المتصدق عليه وتضع من كرامته ، وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة للفقير من ايتائه إياها جهراً - ولو كان ذلك ابتغاء مرضاة الله - جعل الله النجوى بالتعاون على إيتائها خفية للمستحقين من أهل الحياء والكرامة من أهم مايتناجى به الناس ، وأخبرهم أن الصدقة الخفية أفضل من الصدقة العلنية حيث قال تعالى فى آية ٢٧١ من سورة البقرة « إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » . وأخبرنا الرسول ﷺ أن الصدقة فى الواقع ماهى إلا باب من أبواب فعل الخير الذى يشمل كل أمر فيه قضاء حوائج الناس وتفريج كربهم ، وعونهم على تحقيق غاياتهم .

قال ﷺ : « تصدقوا ولو بتمرة ، فإنها تسد من الجائع ، وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » وقال : « مامن عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً ، إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها له كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد » وقال : « ماأحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » « وقال : « كل امرىء فى ظل صدقته حتى

يقضى بين الناس » وقال ﷺ : « أرض القيامة نار ماخلا ظل المؤمن فإن صدقته تظلله » وقال . « إن الله لا إله إلا هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة والحرق والغرق والهدم والجنون » وعد سبعين باباً من الشر .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : « البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان فى العمر ، ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة سوء » وقال الإمام الصادق عليه السلام : « داووا مرضاكم بالصدقة وادفعوا البلاء بالدعاء واستنزلوا الرزق بالصدقة فإنها تفك من بين لحى سبعمائة شيطان ، وليس شىء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن ، وهى تقع فى يد الرب تعالى قبل أن تقع فى يد العبد » وقال عليه السلام : « باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لايتخطاها ، ومن تصدق بصدقة أول النهار رفع الله عنه شر ماينزل من السماء فى ذلك اليوم ، فإن تصدق أول الليل دفع الله عنه شر ماينزل من السماء فى تلك الليلة » .

كل ذلك كى يستمتع الفقير بباهج الحياة المعقولة ويتنعم بما هو فوق ضروراته ، لأن الحياة لابد أن تستساغ وأن تجمل ، وأن تكون بهيجة فى غير لهو ولا إسراف . لذلك قرر للفقراء نصيباً يعطونه من الزكاة للتوسعة عليهم فى الرزق ، لا لمجرد الكفاف ، فهم يملكون الكفاف . ذلك أن الاسلام لايدعو للكفاف وحده ، انما يدعو للمتاع بالحياة ، والمتاع فوق الكفاف .

وثمة ناحية أخرى يلحظها الاسلام فى تقرير الزكاة هى كراهة حبس المال فى أيد قليلة من الناس عن التداول والانفاق « كى لايكون دولة بين الأغنياء » ، فحبسه هكذا تعطيل لوظيفته ، والناس فى حاجة الى تداول الأموال العامة ، لتنمى الحياة فى شتى مظاهرها ، وتضمن الإنتاج فى

أوسع ميادينه ، وتهيء للعاملين وسائل العمل ، وللإنسانية طريق النشاط . وحبس المال عن مستحقه يعطل هذا كله ، فهو حرام فى نظر الاسلام لما فيه من تعطيل للصالح الخاص والصالح العام .

ذلك عدا أحقاد النفوس ، وتغير القلوب على ذوى الثراء الفاحش من المحرومين الذين لايجدون ماينفقون ، فهم إما أن يحقدوا ، وإما أن تتهاوى نفوسهم وتتهافت وتتضاءل قيمهم الذاتية فى نظر أنفسهم ، فتهون عليهم كراماتهم أمام سطوة المال ومظاهر الثراء ، ويصبحون قطعاً آدمية حقيرة صغيرة ، لاهم لها إلا إرضاء أصحاب الثراء والجاه .

فريضة الزكاة

والآن فلنتحدث عن الزكاة ـ الركن الإجتماعى البارز من أركان الإسلام ـ فحديث الزكاة أدخل شيء فى نظام التعاون فى الإسلام . الزكاة حق المال ، وهى عبادة من ناحية ، وواجب اجتماعى من ناحية أخرى ، فإذا جرينا على نظرية الإسلام فى العبادات والاجتماعات قلنا : إنها واجب إجتماعى تعبدى ، لذلك سماه (زكاة) والزكاة طهارة ونماء . فهى طهارة للضمير والذمة بأداء الحق المفروض . وهى طهارة للنفس والقلب من فطرة الشح وغريزة حب الذات . فالمال عزيز ، والملك حبيب ، فحين تجود النفس به للآخرين ، إنما تطهر وترتفع وتشرق . وهى طهارة للمال بأداء حقه وصيرورته بعد ذلك حلالا . ولأن فى الزكاة معنى العبادة . بلغ من لطف حسن الاسلام ألا يطلب الى أهل الذمة من أهل الكتاب أداءها ،

واستبدل بها الجزية ليشتركوا فى نفقات الدولة العامة ، دون أن تفرض عليهم عبادة خاصة من عبادات الاسلام إلا أن يختاروها .

والزكاة حق الجماعة فى عنق الفرد ، لتكفل لطوائف منها كفايتهم أحياناً وشيئاً من المتاع بعد الكفاف أحياناً ، وبذلك يحقق الاسلام جزءاً من مبدئه العام : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ذلك أن الاسلام يكره للناس الفقر والحاجة ، ويحتم أن ينال كل فرد كفايته من جهده الخاص حين يستطيع ، ومن مال الجماعة حين يعجز لسبب من الأسباب .

يكره الإسلام الفقر والحاجة للناس ، لأنه يريد أن يعفيهم من ضرورات الحياة المادية ، ليفرغوا لما هو أعظم ، ولما هو أليق بالانسانية وبالكرامة التى خص الله بها بنى آدم : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ولقد كرمهم فعلا بالعقل والعاطفة ، وبالأشواق الروحية الى ماهو أعلى من ضرورات الجسد ، بحيث ينهضوا لحماية المظلوم وإغاثة الملهوف وإجابة المستعين وإدراك المستغيث ، فإذا رآى أحدهم واقعاً فى مهلكة أو شدة ويجد من نفسه القدرة على إنقاذه فلم يملك نفسه إلا أن يقدم فى فك غل البلاء عنه وإعتاقه عن ربقة الداهية وأسر الهلاك والمذلة ، ولا يرى فى سبيل ذلك قيمة للأعمال وقدراً للأموال .

جاء فى كتاب (الدين فى طور الاجتماع) عن رجل من السياحين إنه قال : « جرت بى السياحة الى بعض الممالك الأوربية قبل الحرب العامة القاسية التى فشت فى جميع الأقطار وألبست الحياة ثوباً جديداً ، فنفدت نفقتى وانقطعت وسائل طلب النقد من مملكتى ، وقطعت الحرب طريق الرجوع المستقيم علىّ ، وتوقف رجوعى على طى طريق بعيد لئلا أقع فى خطة الحرب

ومست الحاجة الى نفقة كثيرة ، ولم يكن يعرفنى فى تلك المملكة أحد يعتمد عليه فى الاستدانة والاستقراض ، فطار لبى وحار عقلى فى سبيل الخلاص من هذه المهلكة ، فدخلت يوماً فى مطعم عام لأتغذى ، ولم يكن معى من النقد ثمن الطعام ، وعزمت على رهن بعض ثيابى عند مدير المطعم ، فدخلت حديقة المطعم متنزهاً فيها ، وقد بدت فى وجهى من الكآبة والحزن مايقص نبأ قلبى ، فإذا بفتاة دخلت ونظرت إلي نظرة تفقد ، وقرأت من وجنتى ماتراكم فى قلبي من الهم والتشويق ، ولم تكن تعرفنى ولا أعرفها ، ولما أحست بحاجتى تفقدت منى وألحت حتى بينت لها حالي ، قالت تغد وسيطلبك خادمى وذهبت فى سبيلها ، وما تم شغلي حتى جاء الخادم وذهب بى اليها ، وأعطتنى النفقة اللازمة ، فقلت لها عرفينى واحداً من البنوك المعروفة لأؤدى هذا الوجه بعد أن أعود الى وطنى ، فأبت ذلك ، وبعد ماألححت عليها قالت إذا رأيت رجلا مثلك اليوم فأد اليه ذلك فإنه واصل الى » .

ونظير هذه النكتة : « إنه لما استقام الأمر لبنى العباس ، طلبوا أمراء بنى أمية ففروا حيارى فى المفاوز والصحارى . منهم (معن بن زائدة) فتنحى عن ماله الموفور ، فبدل الثياب ، وركب الناقة وتجشم الصعاب ، فنادى منادى السفاح من جاء بمعن بن زائدة فقد سبق بالنجاح ، له بوزنه ذهباً وهو خير فائدة ومطلب ، فانتشر الطلاب فى البوادى وتفحصوا فى كل واد ، فوجده رجل من الأعراب على ناقته بلا خيل ولا ركاب ، فى واد قفر وعن المقدرة صفر ، فأخذ بزمام ناقته وأراد جلبه الى منيته . فسأله عن السبب ووجه جده فى الطلب ، فبين له الجعالة وألح عليه بالسرعة والعجالة فبذل له معن عقداً من الدر يساوى ضعف مايذكر ، والتمس المخرج وروح الفرج ، وإخفاء الخبر ومحو الأثر ، فقال له الرجل : يامعن قد ملأت

الآفاق بذكر جودك . وأنسيت حاتم بوجودك ، فأنشدك بالله هل بذلت يوماً جميع مالك على وافديك وطلابك ؟ فقال لا وحقك وكيف يمكن ذلك فقال . هل ذهبت مذهب النصفة . وبذلت يوماً نصفه فأجاب بلا ولا حتى بلغ السؤال الى العشر وذهب عن وجه معن لطف البشر ، قال فاستحييت من النفى الصريح وعدلت الى لعل حذار من الكذب بالتصريح . فقال له الرجل : فاعلم أنى لا أملك إلا وعـــد الأمير وهذا العقد المنير ، فخذه وخليت سبيلك لتعرف عديلك ، وترى صفة السخاء فى حال الشدة فضلا عن حال الرخاء . قال معن : فخجلت من ذلك وما رأيت الرجل قط فى هنا وهنالك » .

فهذه كليات العواطف والغرائز التى يمتاز بها عالم الإنسان عن عالم الحيوان فهى أعمال يندهش الإنسان لسماعها الى حد يكاد ينكر تحققها ، ويزعمها قصصاً موضوعة ، وحكايات مختلفة كلها من آثار عاطفة الأريحية والرقة ، ولا يوجد من آثارها فى عالم الحيوان أثر ، ولا يطلع منها فى سائر مواليد المادة على خبر ، فهى من خصائص الروح الإنسانى ونفسيته الكبيرة الغائرة فى المجد والعظمة ، والشرافة والأبهة ، والفضل والكمال

فإذا لم يتوفر لنوع الإنسان من ضرورات الحياة مايتيح لهم فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية ، ولهذه المجالات الفكرية ، فقد سلبوا ذلك التكريم ، وارتكسوا الى مرتبة الحيوان . لا بل إن الحيوان ليجد طعامه وشرابه غالباً ، وإن بعض الحيوان ليختال ويقفز ويمرح ، وإن بعض الطيور ليغرد فرحا بالحياة بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب .

فما هو بإنسان وما هو بكريم على الله ، ذلك الذى تشغله ضرورات الطعام والشراب عن التطلع الى مثل ماينالهالطير والحيوان ، فضلا على مايجب

للإنسان الذى كرمه الله . فإذا قضى وقته وجهده ثم لم ينل كفايته ، فتلك هى الطامة التى تهبط به دركات عما أراد به الله ، والتى تصم الجماعة التى يعيش فيها ، بأنها جماعة هابطة لاتستحق تكريم الله ، لأنها تخالف عن إرادة الله .

إن الإنسان خليفة الله فى أرضه ، قد استخلفه عليها لينمى الحياة فيها ويرقيها ، ثم ليجعلها ناظرة بهيجة ، ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها ، ثم ليشكر الله على أنعمه التى أتاه ، والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئاً ، إذا كانت حياته تنقضى فى سبيل اللقمة ولو كانت كافية ، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية ؟ .

ويكره الإنسان أن تكون فوارق الطبقات بين الأمة بحيث تعيش منها جماعة فى مستوى الترف ، وتعيش جماعة أخرى فى مستوى الشظف ، ثم أن تتجاوز الشظف الى الحرمان والجوع والعرى .

فهذه أمة غير مسلمة . والرسول يقول ، (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله) أو يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) . يكره الإسلام هذه الفوارق لما وراءها من أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع ، ولما فيها من أثره وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ، ولما فيها من اضطرار المحتاجين : إما إلى السرقة والغصب وإما الى الذل وبيع الشرف والكرامة . . . وكلها منحدرات يتجافى الاسلام بالجماعة عنها .

لهذه المعانى شرع الزكاة ، وجعلها فريضة فى المال ، وحقاً لمستحقيها لاتفضلا من مخرجيها ، وجعل لها نصابا فى المال يجعل الواجدين جميعاً يشتركون فى أدائها .

أما المستحقون لها فهم كما نص الله عليهم وصرح بهم فى القرآن الكريم

جاء فى الآية ٦٠ من سورة التوبة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى الشريعة ، ومكانها فى النظام الاسلامى ، لا تطوعا ولا تفضلا ممن فرضت عليهم . فهى فريضة محتمة . ولا منحة ولا جزافا من القاسم الموزع . فهى فريضة معلومة . إنها إحدى ضرائب الاسلام تجمعها الحكومة الشرعية الاسلامية بنظام معين لتؤدى بها خدمة إجتماعية محدودة . وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ . . كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الاسلام على التسول ولن يقوم .

إن قوام الحياة فى النظام الاسلامى هو العمل - بكل صنوفه وألوانه - وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه ، وأن تمكنه منه بالاعداد له ، وبتوفير وسائله وبضمان الجزاء الأوفى عليه وليس للقادرين على العمل من حق فى الزكاة ، فالزكاة ضريبة تكافل إجتماعى بين القادرين والعاجزين تنظمها الحكومة الشرعية وتتولاها فى الجمع والتوزيع ، متى قام المجتمع على أساس الاسلام الصحيح .

إن الزكاة فرع من فروع نظام التكافل الاجتماعى فى الاسلام ، وهذا النظام أشمل وأوسع كثيراً من الزكاة ، لأنه يتمثل فى عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها ، ونواحى الارتباطات البشرية بأكملها . والزكاة خط واحد من هذه الخطوط ، وهى تشمل مايسمى الآن : بالتأمين الاجتماعى ، وبالضمان الاجتماعى مجتمعين . والفرق بين التأمين والضمان ، أن كل فرد فى التأمين يؤدى قسطاً من دخله ، فى نظير تأمينه عند عجزه الدائم أو الموقت . أما فى الضمان فالدولة هى التي تقوم بهذا من ميزانيتها العامة ، بدون أن يشترك

أفراد بذواتهم بأداء قسط معين .

والزكاة تجمع بنسبة العشر ، ونصف العشر ، وربع العشر من أصل المال حسب أنواع الأموال ، وبذلك يشترك فى حصيلتها معظم أفراد الأمة ثم تنفق فى المصارف التى بينتها الآية الكريمة .

وأول المستحق لها هم الفقراء والمساكين والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية ، والمساكين مثلهم ، ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون . وإن كثيراً ممن يؤدون الزكاة فى عام ، قد يكونون فى العام التالى مستحقين للزكاة بنقص مافى أيديهم عن الوفاء بحاجاتهم . فهى من هذه الناحية ضمان إجتماعى .

فالزكاة نظام تأمين ، وضمان إجتماعى لطوائف معينة فى الأمة ، وليست أساساً للنظام الاقتصادى فى الدولة الاسلامية ، وليست كذلك قواماً للحياة العامة . إنما قوام الحياة العمل وارتباطاته .

« والعاملين عليها » بيان لصنف آخر ممن تعطى لهم الزكاة . وهم الجباة للزكاة ، والكتاب والحراس عليها الذين وكل إليهم أمر الزكاة ، وقد أباح الله تعالى لهؤلاء أن يأخذوا من الزكاة مقابل عملهم لا بصفة أنهم فقراء أو مساكين

« والمؤلفة قلوبهم » وهم طوائف : منهم الذين دخلوا حديثاً فى الاسلام ويراد تثبيتهم عليه ، ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم فى قومهم ليثوبوا الى الاسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزدادون . . وهناك خلاف فقهى حول سقوط سهم هؤلاء المؤلفة قلوبهم بعد غلبة الاسلام . . ولكن هانحن أولاء فى هذا الزمان نجد كثيراً من الحالات تحتاج الى إعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه إما إعانة لهم على الثبات على الاسلام إن كانوا يحاربون فى

أرزاقهم لاسلامهم ، كناس فى الهند وغيرها الآن ، أو يغزون من المبشرين والمستعمرين على الكيد للإسلام ، ومنهم فى ديارنا كثيرون . وإما تقريباً لهم من الأسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التى يرجى أن ينفع الاسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك . نرى هذه الحاجة فنرى مظهراً لكمال حكمة الله فى تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال .

« وفى الرقاب » : أى فكها من الرق ، أى أن من أغراض الزكاة التعاون على فك الرقاب من الرق ، كإعانة الأرقاء الذين اتفقوا هم وملاكهم على أن يدفعوا لهم شيئاً من المال فى نظير عتقهم ، وتسمى هذه مكاتبة شرعية .

ومنه تعلم أن الشريعة الاسلامية ماأباحت الرق إلا للضرورة ، ومع أنها أباحته فهى تعمل على تضييق دائرته بشتى الوسائل ، ولا أدل على ذلك من أنها أعدت قسماً من بيت مال المسلمين لإعانة الأرقاء الذين يريدون الخلاص من الرق باتفاقهم هم وسادتهم على أن يبذلوا لهم شيئاً من المال ، ويكون ذلك بمثابة شرائهم أنفسهم منهم ، وندبت الشريعة الى الملاك أن ييسروا على الأرقاء ، ويسهلوا عليهم مهمة العتق ، بتقليل المال الذين يطلبونه منهم ، وحط شيء منه ، حتى لايعجزوا عن الأداء .

وقد استعرض استاذنا الحجة (السيد محمد جواد التبريزى) دام ظله فلسفة الرق فى الاسلام ، فى الوقت الذى وجه اليه السؤال من قبل (مجلة النشاط الثقافى) ورجته أن يكشف النقاب عن سر قبول الاسلام إياه بقوله :

« . . . غير خاف أن الاسلام لم يبتدىء بالرق ، فإن الرق كان شائعاً فى الأمم جمعاء ، وكان حالا من أحوال هيئة الاجتماع فى أدوار الانسانية الأولى ، بمعني أنه كان حادثاً إجتماعياً له عوامل طبيعية تقتضيه ، يدوم مادامت

تلك العوامل . وقد عده علماء العمران سبباً لرقى النوع الانسانى درجة أو درجتين فى سلم العمران والمدنية ، فمن حيث أن الانسان محتاج فى جميع شؤونه الخاصة به ، المختلفة فى أنواعها ، المتباينة فى الصعوبة والسهولة الى من يشد أزره ويكون له عوناً فى أدائها ، وكانت الأعمال فى بعض الأحايين تحتم وجود المعين والمساعد ، ولا يمكن وجوده بمعنى الكلمة فى الغالب صار الأمر محتاجا الى القوة والنفوذ والسلطة حتى يكون مسموع الكلمة نافذ القول فى كل مايريده من الأعمال والمصالح ، حتى يستقيم له الحال ويصفو منه البال ، ويقوم بما يلزمه من الأعمال على أتم نظام وأحسن مثال . وقد تعالى الناس قبل الاسلام فى تسليطهم على الرق ، ولم يراعوا الغاية التى من أجلها وجد الرق ، وارتكبوا من المظـــالم ماتقشعر له الأبدان ويشتعل منه الرأس شيباً .

وقد جاء الإسلام لانافياً له بالمرة ، ولا مبقياً إياه على تلك الحالة التعسة بل غير هذه الحالة وحسنها ، وانتقل به الى مايقتضيه النظام الأصلح للكون والكائن ، ويفىء فيه الصلاح الى الرقيق والمسترق . ونظراً الى أن الشارع الإسلامى حكيم يضع الأشياء فى مواضعها لم يفاجىء الناس بمحو عادة تأصلت فيهم من القدم ، فإذا مافوجىء بمحوها دفعة واحدة كثر المجادلون والمعارضون بل جعلها فى طريق فيه مصلحة الطرفين .

أما مصلحة الرقيق : فإن الإسلام ماأباح الإسترقاق إلا من أسرى الحرب فقط ، وكانت الأمم قبل الإسلام تسترق بالحرب وبغير الحرب . ففى تقليل مصادره وحصره بمصدر واحد مصلحة الرقيق ، وأيضاً بالإسترقاق تحفظ الأسرى من الضياع ، فإن أسرى الحرب لايمكن ردهم الى العدو ، إذ يخشى منهم أن يتألبوا على الاسلام ، فيحدثون مشكلة أخرى ومعضلة ثانية

وتركهم على حالهم من غير كفيل لهم قد يؤدى الى الهلكة من الجوع والعرى ويشهد له ماذكره فريد وجدى فى دائرة معارفه : « إن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الأرض ، يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحرر الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم . وكذلك جرى فى السودان المصرى ، فقد جرب الحكام من الانكليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيه ، مكتفين به فلم يمكن فاضطروا الى الاذن لهم الى خدمة الرق السابقة ، بيد أنها لاتسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

فالاسلام كان موقفه فى تقرير الرقية الحربية بين محذورين : محذور الرد الى أهاليهم - أعداء الاسلام والمسلمين - ومحذور إهمالهم عند المسلمين بلا كفيل يكفلهم . فالأول يوجب قوة الأعداء ويحدث مشكلة الحرب مرة ثانية ، وهذا خلاف مصلحة الاسلام والمسلمين ، والثانى يؤدى الى ضياعهم وهلاكهم من الجوع والعرى ، بل يسبب البغاء والسفاح من المسبيات ، ومن المستحيل أن يرضى به الرسول الأعظم الذى بعث رحمة للعالمين . فاختار نبى الاسلام نمطاً وسطاً فى قبول الرقية ، يوافق النظام الأصلح للعالم البشرى ، ويطابق قانون بقاء الأصلح ، وبه تمت سعادة الطرفين ومصلحة الجانبين .

هذا مايرجع الى مصلحة الرقيق ، وأما مصلحة غيره وهو من يسترقه فإن إبقاء الرق يعود على المسلمين بالفائدة ، إذا ما قاموا بأداء مصلحة خاصة بأمة من الأمم التى تكفلوا رعايتها ، فإنهم يجدون بالرقيق مساعداً على تقويم أمر معاشهم ، وأيضاً إبقاؤه فيه إرهاب للعدو حيث يكثر به عدد المسلمين والمحاربين . هذه هى الحكمة فى إبقاء الرق فى الاسلام الى الآن » .

« والغارمين » : وهم الذين استدانوا لغير معصية ، سواء أكان ذلك الدين لإصلاح بين طائفتين ، أو كان لعمل من الأعمال العامة ، كأن

استدان الرجل لإنشاء مصنع من المصانع التى تعود على الناس بالخير .

ويقول المفسرون : إن من استدان لإصلاح ذات البين يعطى من الزكاة لأداء دينه ولو كان غنياً وقد يدل لذلك عد الغارمين قسما مستقلا عدا قسم الفقراء والمساكين ، والمراد أنهم يعطون لغرامتهم فى عمل شريف تشجيعاً للناس على عمل الخير ، وأنهم إذا أغرموا فى ذلك السبيل لايصح أن يتركوا بدون دفع لغرامتهم . ويدخل فى ذلك القسم التجار الذين استدانوا فى سبيل تجارتهم ثم أصبحوا فقراء فإنهم يعطون من الزكاة من ناحية أنهم غارمون فى غير معصية ، ومن جهة أنهم فقراء .

« وفى سبيل الله » أى طريقه الذى يحبه ويرضاه ، كالجهاد وطلب العلم وترقية الصناعات والمعارف وغير ذلك من كل مايرضى الله تعالى ، ويعود على الناس بالخير فى دينهم ودنياهم . لأن الله تعالى لايريد للناس إلا سعادتهم فى الدارين . كبناء المستشفيات والجمعيات الخيرية التى ترقى الناس فى أخلاقهم ودينهم وتحفظ عليهم عزهم وكرامتهم ، وكتأسيس المدارس والجامعات التى تربى الناشئة تربية إسلامية صحيحة فلا نكلهم الى مدارس الدولة تعلمهم كل شىء إلا الاسلام . ولا مدارس المبشرين تعتدى على طفولتهم وحداثتهم وهم لايملكون رد العدوان ذلك سبيل الله الذى يرضيه ويحبه .

« وابن السبيل » : أى أن المسافر يعطى من مال الزكاة ليستعين به على سفره ، وإن كان له مال فى بلده المستوطن به ، فيعطى لسفره .

ومنه تعلم كيف أن الدين يحث الناس على الأسفار بإعداده جزءاً من الزكاة للمسافرين . وقد عرف الغربيون قيمة الأسفار ، ومقدار تأثيرها عليهم فى علومهم ومعارفهم وصناعاتهم ، فعنوا بها عناية عظيمة ، وقد حث القرآن الكريم على السير فى الأرض « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب

يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » . وقد أصبح من الأوليات إرتباط العالم بعضه ببعض فى المصالح والمرافق ، حتى صار كالأسرة الواحدة ، لا سيما بعد تسهيل أمر المواصلات والمخابرات ، فالأمة التى تجمد على الإقامة فى بلدها ولا تتصل بغيرها من الشعوب لتستفيد من معارفها وعلومها ـ لا يمكن أن تعيش أو تأخذ منزلتها فى الحياة ، والفضل الأول فى الحث على الأسفار وصلة العالم بعضه ببعض إنما هو للشريعة الاسلامية التى تكافىء المسافر وتنفق عليه ما دام مسافراً ، وتجعل له نصيباً من بيت مال المسلمين .

وفى الآية ـ ١٠٣ ـ من سورة التوبة يقول تعالى أيضاً : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلوتك سكن لهم والله سميع عليم » .

إرشاد منه تعالى لحكمة ذلك الركن الذى أضاعه المسلمون ، وهى طهارة نفوسهم من الشح ، والبعد بها عن البخل ، وهو داء دفين فى الناس ، إذا استحكم فى قوم حملهم على منكرات وفضائع لا تقف عند حد . جاء فى الحديث : « إياكم والشح فإنما هلك من قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » . وقال ﷺ : « شر ما فى الرجل شح هالع ، وجبن خالع » . وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وإن أمة من الأمم لا تقوم لها قائمة إذا كانت بخيلة على مصالحها ، شحيحة على طرق الخير فيها ، وإلا فكيف تبنى فيها المعاهد وتشاد فيها دور الصناعة ، وترقى فيها وسائل العمران مع الشح ، وكيف ينتظم حال الناس ويؤدى بعضهم حقوق البعض ، إذا لم يكن لهم نفوس طيبة ، وقلوب ملؤها القناعة والرضاء .

ولعل من آثار الشح فى زماننا هذا إمتلاء دور الحكومة بقضايا

المواريث ، والنزاع على الحقوق المدنية ، لا سيما بين الأقارب . فكان من حكمة الله تعالى أن يمرّن المؤمن على بذل شيء من ماله لمصالح المسلمين ، ليجتث بذلك البذل عرق الشح من نفسه ، ويصبح رجلا صالحاً للحياة ، إذا دعى إلى بذل ماله فى سبيل الخير أجاب داعى المصلحة ، وإذا اشتبك مع بعض أقاربه فى تركة خلفها له أبوه أو أحد أقاربه خضع لقسمة الله فى المواريث ، ولم يلجىء أقاربه لمقاضاته ، وتعفف عن الدنايا التى يرتكبها بعض الناس ليصل بها إلى حرمان أخته من ميراث أبيه ، كتزوير عقود للبيع ، أو انتحال دين لبعض الناس على أبيه ، وغير ذلك مما تأباه المروءة وقد تنتهى المسألة بصرفه على القضاء أكثر مما كانت تأخذه أخته عن طريق الميراث ، بل تنتهى بفقر الطرفين المتقاضيين وحرمانهما من مال أبيهما . كل ذلك لأن فى النفوس شحاً مطاعاً ، وعدم رضاً بقسمة الله فى المواريث .

أجل ترى الواحد من هؤلاء لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا نحو يتيم أو فقير ، ولو كان من ذوى رحمه ، لا بل قد ترى والد أحدهم أو والدته أو أخاه الشقيق فى منتهى البؤس يتضور جوعاً ويتسكع فى الشوارع ، قد فعل الجوع فعله فى عقله وفى بدنه ـ وهذا المثرى كأن قلبه قد قدّ من صخر لا تأخذه فى قريبه المذكور أو قريبته ذرة من الرحمة ، وكأنه لا صلة بينه وبينه .

جاء فى كتاب (النهضة الإصلاحية) : ولقد أخبرنى من لا أشك فى خبره أن واحداً من هؤلاء المكثرين فى الغنى له والد من المكثرين فى الفقر والبؤس ، اشتد الفقر يوماً على هذا الوالد حتى ضاقت الدنيا فى وجهه ، فخطر على باله أن يزور ولده ـ ذلك المثرى الكبير ـ لعله يعطف عليه ويتذكر أبوته ويرحم شيبته ويرق لخمصته القاتلة ، فلما أخبر الولد بوجود والده فى منزله أسرع إليه ـ لا ليسعفه ـ ولكن ليأخذ بأذنه ويضغط عليها بما أوتى من قوة

ثم يجذبه بها إلى خارج البيت ، وهناك قال له : لا أراك هنا بعد اليوم ، فمن ألم الرجل بادر بقوله له لا تراني يا ولدى ، قال ذلك ليترك أذنه ويزايله ألم ضغطه عليها .

هؤلاء هم أرباب مئات الألوف عندنا اليوم وهذه أخلاقهم .

وكما أن من آثار الزكاة تطهير النفوس من الشح ، من آثارها أنها تستل من نفوس الفقراء والمعوزين حنقهم على أرباب الأموال وحسدهم للأغنياء ، فإن الإحسان من شأنه أن يملك القلوب ، ويستعبد النفوس فيصبح الغنى محبوباً لدى الفقير ،والفقير مخلصاً للغنى ، يحرس ماله ، ويدافع عنه ، لأن له نصيباً فيه، فيهمه أن ينمو ويزيد . وإن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية الممقوتة ما لا يقف عند حد ، وسبب ذلك أنهم لم يأخذوا بالاشتراكية التي فرضها الإسلام بالزكاة ، فكان عاقبة بخلهم أن سلط الله عليهم من يقضّ مضاجعهم ، ويزعجهم فى حياتهم .

وتطرف بعض الشعوب فاستولى على رؤوس الأموال ، وجعلها حقاً شائعاً للناس ، وأخذ يحارب الاستئثار بالثروة ، ونسى أن ذلك العمل من شأنه أن يميت الروح المعنوية فى العامل ، ويقضى على غريزة تنازع البقاء والتنافس فى الحياة . وقد فطنوا بعد لشرور ذلك العمل ، وأخذوا ينظمونه ليصلوا به إلى ما يزعمون من سعادة ، وهيهات أن يصلوا إلى شيء مما أرادوا ، فإن السعادة فيما شرعه الله ، وفى أن يبقى لكل عامل نتيجة ، وتصير الحياة ومرافقها حقاً مشاعاً يتنافس الناس فيها ويتبارون . « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

وجاء فى الآية - ١١ - من سورة التوبة : « فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعقلون » .

فى هذه الآية من سورة التوبة أرانا الله تعالى أن الأخوة فى الدين لا تكون إلا من قوم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، بعد توبتهم من الشرك ، فالذى يؤمن بالله ولا يؤدى ذلك الركن لا يكون أخاً للمؤمنين فى دينهم .

ولعل فى ذلك عبرة لما نعى الزكاة من المسلمين الذين يظنون أنهم ناجون من عذاب الله لمجرد صلاتهم ، وإن بخلوا بأموالهم ، ناسين أن الله تعالى يبتلى الناس بإيجاب جزء من مالهم . يؤخذ من أغنيائهم ليرد على فقرائهم ، وأن المؤمن لا يكون صادقاً فى دعوى الايمان إلا حيث أدى حق الله فى ماله ، كما يؤديه فى صلاته وصومه وحجه ، وأن اختبار الناس بالمال فوق اختبارهم بالصلاة ، فمن السهل على الرجل أن يؤدى أعمالا لا تكلفه سوى حركات يتقدم بها كل يوم ، وليس من الرجل أن يبذل نصيباً من ماله للفقراء والمساكين ومصالح المسلمين عن طيب نفس ورضا ، ولذلك نجد المصلين والصائمين أكثر من المزكين ، على أن الصلاة التى لا تزهد صاحبها فى المال ، ولا ترشده إلى حق الفقراء والمساكين ، ولا تريه أن ذلك المال هو مال الله إستخلفه فيه ، لينظر أيقوم بحقه أم يبخل به على المصالح - هى صلاة لا يقيم الله لها وزناً ، ولا يبالى بعمل صاحبها . لأنها صلاة الغافلين والساهين ، لا صلاة المؤمنين الذاكرين . « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » .

ومن سنة الله فى القرآن الكريم أن يجمع بين الدعوة إلى الصلاة ، والدعوة إلى الزكاة ، ليرينا أن الصلاة من شأنها أن تحمل على الزكاة ما دامت

قد أديت على وجهها الكامل فى صورتها ومعناها ، ولذلك قرن الزكاة بالصلاة فى سورة المؤمنين ، وأرانا أن المؤمنين هم الذين يخشعون فى صلاتهم ، وهم الذين يؤدون زكاة أموالهم حيث قال جل وعلا : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكوة فاعلون » .

هذه هى الزكاة التى يتقول عليها المتقولون فى هذا الزمان ، ويلمزونها بأنها نظام تسوّل وإحسان . . . هذه هى فريضة إجتماعية تؤدّى فى صورة عبادة إسلامية . ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح ، وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة ، تندى جو الحياة الإنسانية ، وتمسح على جراح البشرية ، وتحقق فى الوقت ذاته ما يحققه التأمين الإجتماعى والضمان الإجتماعى فى أوسع الحدود . وتبقى لها صفة العبادة التى تربط بين القلب البشرى وخالقه ، كما تربط بينه وبين الناس . « فريضة من الله » الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة « والله عليم حكيم » .

فوائد الزكاة المفروضة والإصلاح المالى للبشر
وامتياز الاسلام بذلك على جميع الأديان

ما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتزكيتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم ، فهى تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع والجشع ، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك ، فإن الذى يربى بالايمان على بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزانته وصندوقه فى سبيل ابتغاء مرضاته ومغفرة

ذنوبه ورفع درجاته ، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق .
وهذا التطهير لأنفس الأفراد وتزكيتها بالعلم والعرفان ، والتقوى التي هي مجموع ثمرات الايمان ، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين (وما يعبر عنه في عرف هذا العصر بالهيئة الاجتماعية) من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب .

ذلك بأن الأموال قوام حياة الناس ، وعمادها الذي تقوم به وتنتظم ، وقطب الرحى لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة ، وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتثمير ، والاسراف والتقتير ، والقصد والتدبير ، والجود والبخل ، والتعاون على البر ، فلا ينفك بعضهم محتاجاً الى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه ، وأشدهم استعداداً لجمع الثروة الذين يغلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولى قرباهم ، وبهذا يكون بعضهم فتنة - أي إمتحاناً - لبعض ومثاراً للتنازع والتخاصم كما قال تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟ » أي ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في الاستعداد والاخلاق والأعمال .

ولما كان الدين مرشداً للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصلح به فطرتهم ، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم - شرع الله فيه من الأحكام التعبدية والعملية ما يقيهم شرّ هذه الفتنة ، وينقذهم مما يترتب على إهمالها من المحنة ، فأوجب على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ، ما يبدل سيئات الثروة في الاسلام حسنات .

الحق أن الاسلام هو الدين الوسط ، الجامع بين مصالح الروح والجسد للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المادية الدنيوية والنصرانية الروحانية الزهدية ، وإن من مقاصده الاصلاحية في الاجتماع

البشرى هداية الناس إلى العدل والفضل فى أمر المال ، ليكتفى الناس شر طغيان الأغنياء ، وذلة الفقراء ، ونصوص القرآن والسنة فى هذا هى الغاية القصوى فى الاصلاح ، وهى هادمة لمزاعم هؤلاء المفتاتين على الاسلام بالجهل والهوى.

غلا عبّاد المال من اليهود والافرنج فى جمعه واستغلاله واستعباد الألوف وألوف الألوف من العمال الفقراء به ، بجعله دولة بينهم ، وغلا خصومهم من الاشتراكيين فى مقاومتهم ومحاولة جعل الناس فيه شرعاً ، وجعله بينهم حقاً شائعاً ، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية فى عصرنا هذا ـ وهو عصر سنة ١٣٨١ هجرية ـ أن استعبدت أكثر من مائة مليون من البشر تسخرهم فى تنفيذ مذهبها كالانعام والدواب ، وتبذل جل ما تنتزعه من ثروتهم فى بث الدعاية له فى جميع الاقطار. ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الاسراف ، والغلو من الجانبين حرباً عامة طامة ، وفتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منهم خاصة .

ولا منقذ للأمم من هذه الفتنة وعواقبها إلا بدين الإسلام ـ أعنى بالتدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها ، ولا يمكن التزامها بالعمل إلا بإذعان الدين .

وقد بدأ عقلاء الافرنج يشعرون بالحاجة إلى دين معقول يصلح بالتزامه فساد هذه المدنية المادية ، ولن يجدوا حاجتهم إلا فى دين القرآن وسنة خاتم النبيين ـ محمد عليه الصلاة والسلام ـ ، وأخشى ألا يهتدوا إليه إلا بعد البطشة الكبرى ، والطامة العظمى ، وهى حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية .

وإننى أذكر هنا أهم أصول الإصلاح الاسلامى فى المسألة المالية التى تبتدر الى فكرى وتبدهه :

١ - إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل .

٢ - تحريم الربا والقمار .

٣ - منع جعل المال دولة بين الأغنياء - أى يتداولونه بينهم من دون أداء ما عليهم من حقوق الفقراء المجعولة من المشرع الإلهى فى نظام الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء ، ولم يكن هذا التداول فى عصر من أعصار البشر كما فى عصر النظام المالي المتبع فى الحضارة الغربية الذى يحاربه العمال ، ويعادون لأجله أرباب الاموال .

٤ - الحجر على السفهاء فى أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم

٥ - جعل الزكاة المعينة ربع العشر فى النقدين ، والعشر أو نصف العشر فى الغلات الاربعة الزراعية التى عليها مدار الاقوات - وزكاة الانعام معروفة فى كتب الحديث والفقه .

٦ - فرض نفقة الزوجية والعمودين - أى الأب والام .

٧ - إيجاب كفاية المضطر .

٨ - جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب (ومنها الظهار وإفساد صيام يوم من شهر رمضان بشروطها المعروفه)

٩ - ندب صدقات التطوع والترغيب فيها .

١٠ - ذم الاسراف والتبذير ، والبخل والشح والتقتير ، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير ، - أى للأفراد وللأمة والدولة - .

١١ - إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الاسراف والخيلاء الموقعين فى الامراض والادواء البدنية ، المضيعين للثروة المالية ، المثيرين للحسد والعداوة والمفاسد الاجتماعية ، وهى من أعظم أسباب ترقى الثروة .

١٢ - مدح القصد والاعتدال ، فى النفقة على النفس والعيال .

١٣ - تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ، يجعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى ،وأعمال البر المتعدى نفعها إلى الناس أفضل من الأعمال القاصر نفعها على فاعلها ، وجعل الصدقة الجارية من المثوبات الدائمة الباقية .

أرأيت أمة من الأمم تقيم هذه الأركان ويوجد فيها فقر مدقع ، أو غرم موجع ، أو شقاء مفظع ؟ .

الأمر الثانى من الأمور التى دعا الإسلام المؤمن إلى المناجاة بها سراً فى الخلوات لإحكام روابط التعاون المشترك بين الجميع : هو الأمر بالمعروف والنهى عن الأمر ، ولذلك . لأن لكل إنسان فى نفسه كرامة يحافظ عليها ويأبى أن تمتهن فإذا ما نبه إلى خطئه وأمر بالاقلاع عنه على ملأ من الناس ربما وجد فى هذا غضاضة عليه قد تحمله على الاصرار على خطئه وتعمد المخالفة ، ومن أجل هذا جعل الله من الخير للناس أن يتناجوا بالأمر بالمعروف . وعلّم الله تعالى رسوله ﷺ : الوسائل الفعالة لنجاح دعوته ، فأمره باستعمال الحكمة وحسن الاسلوب فى الدعوة إلى الحق ، وإذا اقتضى الحال المجادلة والمخاصمة فلتكن أيضاً بوسيلة أفضل وأحسن من وسائل الخصم بل وحتى فى حال استعمال القوة يجب أن يكون مدافعاً وأن لا يتجاوز حد المقابلة بالمثل ، على أن من الخير أن يصبر الانسان على الاذى ويتجاوز عن إساءة المسيء ويحتملها عن طيب نفس وبسعة صدر ، إذ يقول تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

كما نبه الله رسوله ﷺ إلى أمر مهم في الامر بالمعروف هو أن يكون الآمر عاملا بما يأمر به ليكون لكلامه أثره الفعال فى القلوب حيث يقول : « لذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » . وصرح سبحانه وتعالى : بمقت من يعمل بخلاف ما يأمر به حيث يقول . « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفافهم بمقاريض من نار . قلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون » .

ولقد أوجب الاسلام على كل مسلم بذل النصح لمن يعرفه ولمن لا يعرفه حيث قال ﷺ : « إن الدين النصيحة ، قيل لمن يا رسول الله ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وقال : جرير بن عبد الله : « أتيت النبي ﷺ فقلت : أبايعك على الاسلام فشرط على النصح لكل مسلم » وقال ﷺ : من رآى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وروى عنه قوله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ضرب الله القلوب بعضها على بعض ثم تلى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . وقوله ﷺ « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أو شك أن يعمهم الله بعقاب » وقوله : « ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون عليه إلا أصابهم

الله منه بعقاب قبل أن يموتوا » وقوله : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » . وقد استعرضنا الموضوع - موضوع البحث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفوائده العائدة للمجتمع فى كتابنا - على والأسس التربوية - فليراجع .

الأمر الثالث من الأمور التى دعا الإسلام المؤمن الى المناجاة بها سراً فى الخلوات الاصلاح بين الناس ، وفى هذا إشارة الى ما يحتاج اليه المصلحون من بذل جهود حكيمة لتقريب وجهة النظر بين المتخاصمين واقناع كل منهما على انفراد بماله وما عليه وما تقتضيه المصلحة من توفر حسن النية والتضحية لتصفية القلوب وبناء صرح الود على أساس صحيح .

وأول ما ينبغى الاتجاه اليه اصلاح ما بين نفس الانسان وربه ، فالنفس مخلوقة جاهلة مفطورة على الاباحية المطلقة ، والله خالقها ، العليم بما يصلحها ، يريدها سامية زكية ولذلك دعا الى كبح جماحها وتنظيم شهوتها وهدايتها الى ما فيه خيرها وسعادتها ، ولهذا دعا المؤمنين الى اخضاع نفوسهم لطاعة أوامره واجتناب نواهيه حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » ولذا اعتبر الرسول الأعظم ﷺ جهاد النفس هو الجهاد الاكبر وهو أعظم درجة من الجهاد فى ميدان القتال لأنه الركن الأساسى له ولما يترتب على اصلاح الباطن من اصلاح الظاهر ، ولأن من قدر على اصلاح نفسه قد يستطيع أن يصلح غيره ، ومن عجز عن اصلاح نفسه فهو عن اصلاح غيره أعجز .

ومن أجل هذا حمل الله كل إنسان تبعة ما يصدر عنه من سيئات ، وجعل مهمة الرسل محصورة فى مجرد التبليغ حيث قال تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون » ، وجعل إصلاح ذات البين مساوياً لتقوى الله وطاعته فى الأجر والثواب ودليلا قائماً على صحة الإيمان به ، حيث قال : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

ولقد فرض الله الأخوة العامة بين المسلمين وأمرهم بالعمل لإزالة أسباب العداوة والبغضاء فيما بينهم ، وأوجب عليهم القيام بواجب الإصلاح بمختلف الوسائل ولو أدى الأمر إلى إمتشاق الحسام لرجع الباغى عن غيه وإخضاعه للعدل والانصاف وإعطائه الحق من نفسه حيث يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

نظام الحضارة عند محمد ﷺ

أتريدون أن ترجعوا بنا ألف سنة إلى الوراء . . . إلى عهد الخيام ؟ .

لقد كان الإسلام صالحاً لأولئك الحفاة الجفاة من الأعراب قبل ألف عام وكانت سذاجته و بدائيته مناسبة للبيئة البدوية التى نشأ فيها . أما اليوم فهل يصلح فى عهد المدنية والحضارة الآلية ؟ عصر الطائرات الصاروخية والقنابل الهيدروجينية ، وناطحات السحاب ، والسينما المجسمة ؟ !

إنه دين جامد لا يتفاعل مع الحضارة الحديثة ، ولا مناص من نبذه إذا أردنا أن نتحضر كبقية خلق الله !

يقول الأستاذ (محمد قطب) : « تذكرنى هذه الشبهة الغبية برجل انكليزى (مثقف) كان فى مصر منذ سنتين يعمل خبيراً تابعاً لهيئة الامم المتحدة لرفع مستوى الفلاحين المصريين ، أى لإقناعهم ان الغرب الرأسمالي يحبهم لوجه الله تعالى لا لتثبيت دعائم الاستعمار الاقتصادى فى هذه البلاد ! .

واذ كان مندوبوا هيئة الأمم المتحدة لا يعرفون لغة الشعب الذى يحبونه كل هذا الحب ، فقد انتدبت الحكومة من يقوم بالترجمة بينهم و بين الأهالي .

وكنت منتدباً للعمل مع هذا الانكليزى المثقف . . .

وقد كنت صريحاً معه منذ اللحظة الأولى . فقلت له : إننا نكرهكم ، وسنظل نكرهكم ما دامت جنودكم جاثمة فى أى بقعة من بقاع الشرق . نكرهكم

أنتم وأمريكانكم وحلفائكم أجمعين ، بسبب موقفكم من مصر ومن قضية فلسطين ومن كل بلد دنسته أقدامكم مستعمرين .

فنظر إلي الرجل ملياً ثم قال : ـ هل أنت شيوعى ؟

قلت : كلا انني مسلم . وأنا أعتقد ان الإسلام خير من حضارتكم الرأسمالية فى الغرب ، وخير من الشيوعية فى الشرق . وانه أبدع نظام عرفته البشرية حتى اليوم فى شموله لكل مناحى الحياة ، ومعالجتها بروح التوازن والإعتدال.

واستمرت بيننا المناقشة ما يقرب من ثلاث ساعات ، قال لي فى نهايتها : ربما كان ما تقول عن الاسلام حقاً . ولكننى اكره ان أحرم من ثمرات الحضارة الحديثة . وأحب أن أسافر بالطائرة ، وأستمع فى الراديو الى انغام الموسيقى ! قلت مشدوهاً : وما يمنعك من كل ذلك ؟

قال : ـ أو ليس يقتضى الاسلام أن أرجع إلى الخيام ؟ ! !

* * *

إنها شبهة غبية لا يقول بها أحد درس تاريخ هذا الدين . وإلا فأين ومتى وقف الاسلام فى طريق الحضارة ؟

لقد نزل الاسلام ـ فيما نزل ـ فى قوم من البدو بلغ من جفوتهم وغلظة قلوبهم أن يقول فيهم القرآن : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » . فكانت معجزته العظمى أن جعل من هؤلاء الغلاظ الجفاة أمة من الآدميين ، لا يكتفون بأنهم اهتدوا بهدى الله فارتفعوا من حيوانيتهم إلى آفاق الانسانية الرفيعة ، بل أصبحوا هم أنفسهم هداة البشرية يدعونهم الى هدى الله . وذلك وحده برهان على ما فى هذا الدين من قدرة عجيبة على تحضير الناس وتهذيب النفوس .

ولكن الإسلام لم يكتف بهذا العمل الجبار فى داخل النفوس وهو

العملية الحقيقية التى تستأهل الجهد وتستحق التسجيل ، لأنها الهدف الأخير من كل المدنيات والحضارات . . .

لم يكتف الاسلام بهذا التهذيب العميق للأفكار والمشاعر ، بل ضم اليه كل مظاهر المدنية التى يهتم بها الناس اليوم ويحسبونها لباب الحياة ، فتبنّى كل الحضارات التى وجدها فى البلاد المفتوحة ، فى مصر ، وفارس ، وبلاد الروم ، ما دامت لا تخالف عقيدته فى وحدانية الله ، ولا تصرف الناس عن الخير الواجب لعباد الله . ثم تبنّى كل الحركة العلمية التى كانت لدى اليونان من طب ، وفلك ، ورياضة وطبيعة ، وكيمياء ، وفلسفة ، وظل يضيف اليها صفحات جديدة تشهد بتعميق المسلمين فى البحث واشتغالهم الجدى بالعلم ، حتى كانت خلاصة ذلك فى الأندلس هى التى قامت عليها نهضة أوربا الحديثة وفتوحاتها بالعلم والاختراع .

فمتى ؟ متى وقف الاسلاف فى وجه حضارة نافعة للناس ؟

أما موقف الاسلام من الحضارة الغربية السائدة اليوم فهو موقفه من كل حضارة سابقة . يتقبل كل ما تستطيع ان تمنحه من خير ، ويرفض ما فيها من شرور فهو لا يدعو ـ ولم يدع قط الى عزلة فكرية أو مادية . ولا يعادى الحضارات الاخرى معاداة شخصية أو عنصرية أو دينية ، لإيمانه بوحدة البشرية واتصال الوشائج بين البشر من جميع الأجناس وجميع الاتجاهات .

وإذن فلا خوف من أن تقف الدعوة الاسلامية دون استخدام ثمار الحضارة الحديثة كما يفهم بعض البلهاء من المثقفين . ولم يشترط المسلمون أن تكون الأدوات والآلات مكتوباً عليها (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى يقبلوا استخدامها فى منازلهم ومصانعهم ومزارعهم ومختلف مرافق حياتهم ! وإنما يكفى أن يستخدموها هم باسم الله وفى سبيل الله . والآلة فى ذاتها لا يمكن أن يكون لها دين،

ولا جنس ، ولا وطن ، ولكن الهدف من استخدامها هو الذى يتأثر بأولئك جميعاً . فالمدفع فى ذاته إنتاج بشرى لا عنوان له ، ولكنك حين تستخدمه لا تكون مسلماً إذا استخدمته فى الإعتداء على الآخرين . فشرط استخدامه فى الاسلام أن يكون دفعاً لعدوان أو إحقاقاً لكلمة الله فى الأرض . والسينما فى ذاتها إنتاج بشرى كذلك وتستطيع أن تكون مسلماً حين تستخدمها فى عرض العواطف النظيفة والانسانية الرفيعة وصراع الأحياء فى سبيل الخير، ولكنك لا تكون مسلماً وأنت تستخدمها لعرض الأجساد العارية والشهوات العادية ، والانسانية الهابطة فى حمأة الرذيلة ، الرذيلة من كل نوع : خلقية كانت أم فكرية أم روحية . فليس عيب الافلام التافهة التى تغرق الأسواق هو مجرد استثارة الغرائز الدنيا ، ولكنه تهوين الحياة وخصوصاً فى أهداف تافهة رخيصة لا يمكن ان تكون غذاءاً لبشرية صالحة . وكذلك ان تقف الدعوة الإسلامية دون التفاعل مع الافكار التى تنتجها لبشرية فى أى مكان على الارض . فكل تجربة بشرية صالحة هى غذاء يجب أن يجربه المسلمون ، وقد كان الرسول ﷺ يقول : « طلب العلم فريضة » والعلم حين يطلق هكذا يشمل كل علم ، وقد كانت دعوة الرسول الى العلم كافة ، ومن كل سبيل .

كلا لا خوف من وقوف الإسلام فى وجه الحضارة مادامت نفعاً للبشرية .

أما إذا كانت الحضارة هى الخمور والميسر ، والدعارة الخلقية ، والاستعمار واستعباد البشر تحت مختلف العنوانات ، فحينئذ يقف الاسلام حقاً فى وجه هذه (الحضارة) المزعومة ويقيم نفسه حاجزاً بين الناس وبين التردى فى مهاوى الهلاك » .

فما أحرج العالم اليوم الى الاسلام كما كان محتاجاً اليه قبل ألف وثلاثمائة عام . فما أحوجه اليه ينقذه من الخرافة ويرفع عقله وروحه من التردى فيها

فما أحوجه اليه يعيد السلم بين الدين والعلم ليعيد الاستقرار إلى الكائن البشرى الذى تمزقه عقائد الغرب الفاسدة ، فتفصل بين عقله ووجدانه ، وتخالف بين حاجته الى العالم وحاجته الى الله ! .

ما أحوج العالم للإسلام اليوم ينقذه من هذه الضلالة التى تردّى فيها ، ويرد لروحه الأمن والسلام ، ويشعره بعطف من الله عليه ورحمته ، وان كل معرفة يصل اليها أو خير يصيبه إنما هو منحة من الله يمنحها له وهو راض عنه ـ ما دام يستخدمها فى خير المجموع ـ .

فما أحوجنا إلى الاسلام اليوم . نقف تحت رايته . فنطهر أرضنا من دنس الاستعمار ، وتستخلص من قبضته الخبيثة أرواحنا وأموالنا وأعراضنا وعقائدنا وأفكارنا ، لنصير جديرين باسم الله الذى نعبده ، وبدينه الذى ارتضاه لنا .

ما أحوج العالم الى الاسلام اليوم ، كما كان فى حاجة اليه قبل ألف وثلاثمائة عام ، لينقذه من العبودية للشهوة ، ويطلق طاقة الحيوية الى إقامتها العليا ، لتنشر الخير وتصبح جديرة بما كرمها الله ! .

ولا يقولن أحد إنها محاولة فاشلة ميئوس من نتائجها ! فمن قبل جربت الانسانية أنها تستطيع أن ترتفع . وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى والناس هم الناس وقد كان العالم قبل الاسلام مباشرة قد هبط إلى درجة من العبودية للشهوات الى حد كبير ما هبط اليه اليوم ، بغير فارق كبير سوى تغيير أدوات المتاع وكانت روما القديمة لا تقل دعارة عن باريس ولندن ومدن أمريكا ، وكانت فارس القديمة غارقة فى فوضى خلقية كالتى يصفون بها العالم الشيوعى ، ثم جاء الإسلام فبدل هذا كله إلى حياة رفيعة فاضلة زاخرة بالنشاط والحركة ، عاملة على الخير معمرة للأرض ، رافعة بالانسانية كلها فى الشرق

والغرب الى التقدم الفكرى والروحى ، ولم يستعص الشر الذى كان الناس يومئذ غارقين فيه ، على الاصلاح الذى عمل عليه الاسلام .

وظل العالم الاسلامى مصدر الحضارة والنور والخير والتقدم فى العالم كله فترة طويلة لم يشعر فى خلالها انه محتاج الى التبذل الخلقى والفوضى والإباحية ، لكى يحصل على القوة المادية والتقدم العلمى والفكرى وإنما كان أهله مثلا رفيعة فى كل ميدان ، حتى هبط عن أخلاقه واستعبدته الشهوات ، فجرت عليه سنة الله .

وليس هنالك اليوم من يستطيع القيام بالدور الحضارى المرتقب إلا الاسلام ، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا ـ نحن المسلمون ـ وذلك للاسباب التالية :

أولا ـ إننا نحمل عقيدة من أرقى العقائد التى تساهم فى بناء الحضارات ، فهى عقيدة توحيد من أصفى أنواع التوحيد وأكثره إشراقاً وسمواً وكمالا ، وهى عقيدة علم تحترم العقل وتدفعه دفعاً حثيثاً وراء المجهول ليصبح معلوماً ، وهى عقيدة خلق إنسانى معتدل كريم يتجافى عن الإفراط فى الرحمة والتفريط فى العدالة ، وعن الإفراط فى الحب والتفريط فى الواجب . وهى عقيدة تشريع يهدف إلى اليسر ، ويتوخى المصلحة : مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع ، ومصلحة المجموع غير مفرط بمصلحة الفرد ، مصلحة الأمة ضمن الإطار الإنسانى ، ومصلحة الانسانية كلها من غير محو لفضائل الشعوب وخصائص الأمم وقضاء على كرامتها .

ثانياً ـ إننا أصحاب روحانية إيجابية بناءة ، روحانية إلهية تلازم الجندى فى حربه ، والعامل فى مصنعه ، والعالم فى درسه ، والفيلسوف فى بحثه ، والقاضى فى محكمته ، والموظف فى وظيفته ، والرئيس فى رئاسته تلازم كل إنسان

فى جده وهزله ، وحركته وسكونه وليله ونهاره ، ويسره وعسره ، وصحته ومرضه ، لا تمنعه فى حال عن حال ، بل تنقله من كمال إلى كمال ، وتذكره بالله الذى خلقه والأرض التى درج عليها ، والناس الذين يعيش معهم ، والعالم الذى هو جزء منه فى وحدته الكبرى وعبوديته لله رب العالمين .

ثالثاً ـ إننا أثبتنا فى الماضى قدرتنا على إنشاء مثل الحضارة المرتقبة ، ومهما قيل عن حضارتنا من قبل الخصوم والجاحدين ، فإن أحداً لا ينكر أنها كانت أكثر من الحضارة الغربية الحديثه رحمة بالناس ، وسمواً فى الخلق ، وعدالة فى الحكم ، وإشراقاً فى الروح ، واقتراباً من المثل الأعلى للإنسان فى مختلف عصوره . ـ كما ستسمعه من شهادة الخصوم والجاحد لها ـ وما دمنا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة فى عصور التخلف العلمى والفكرى ، فإننا أقدر على أن نقيم مثل تلك الحضارة فى عصور التقدم العلمى وانكشاف المجهول من الكون شيئاً بعد شيء .

إننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلا على إنكار وجود الله ، ولن نتخذ من الصواريخ ـ عابرة القارات ـ ذريعة إلى تهديد الأمم والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الإذاعة وسيلة للتضليل ، ولا من السينما آلة للإغراء ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضارى أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها وإذلال كرامتها .

تلك هى الأسباب أو بعض الأسباب التى تجعلنا الأمة الوحيدة التى تستحق حمل لواء الحضارة لإنشاء حضارة جديدة تخفف من شقاء الانسان ، وتحقق له قسطاً أكبر من الأمن والطمأنينة والحياة الإنسانية المستقرة .

وإذا رجعنا إلى أصول عقيدتنا ، وجدنا كتابنا المنزل يشير بصراحة

إلى إنفرادنا من بين أمم العالم بجدارة القيام بالدور الحضارى الذى تتطلبه الانسانية فى عصرنا الحاضر ، لا لامتيازنا عن غيرنا عرقياً أو جنسياً أو فكرياً ـ فذلك خرافة لم يؤمن بها الاسلام يوماً ما ـ بل لما ذكرناه فى السببين الأول والثانى مما ننفرد به عن غيرنا .

فالآية الكريمة التى تقول لنا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » إنما تشير بذلك الى خصائص عقيدتنا وأخلاقنا التى أهلتنا لأن نكون خير أمة أخرجت للناس .

والآية الكريمة التى تقول عنا : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » إنما تشير بذلك إلى خصائص حضارتنا التى جعلتها خير حضارة أخرجت للناس .

والآية الكريمة التى تخاطبنا فى كل وقت : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » إنما تحملنا بذلك عبء حمل الرسالة ، رسالة قيادة الناس ودلالتهم إلى طريق الحق والخير دائماً وأبداً ، لا فى عصر دون عصر ، ولا فى جيل دون جيل .

وإذا كنا قد استجبنا لنداء القدر فحملنا اللواء مرة واحدة ، وقدنا الإنسانية إلى مراتع الأمن والهدى والنور ، ثم تركنا اللواء وتهربنا من أداء الرسالة ، فإن هذه الآية الكريمة لتستحث اليوم خطانا لنحمل اللواء مرة أخرى ونرفع المشعل من جديد ننقذ به الشعوب التى تتيه اليوم فى ظلمات الخوف والقلق والشهوة والظلم واليأس المميت ، ثم لا تجد مخلصاً من ذلك إلا بالإنتحار ، انتحار الأفراد بالأسلحة أو السموم القاتلة ، وانتحار الشعوب بالقنابل الذرية والهيدروجينية ! . .

أجل ان هذه الآية الكريمة لتحثنا اليوم على نشر مبادىء الاسلام

وإعلان حضارته وما فيها من خير واسع ونور رحيب .

الإسلام الذى يأخذ بالناس إلى حياة روحية راقية بجانب هذا الرقى المادى ، بحيث يحفظ التوازن دائما بين الحياتين ـ المادية ، والروحية ـ ولا يسمح بطغيان إحداهما على الاخرى .

الإسلام الذى هو الحسام الباتر تقطع به أوصال الشهوات ، والحاجز الحصين الذى يحجز الانسان فى دائرة الواجب والإعتدال ، والنور السماوى الذى يشرق على العقل فيسلك على ضوئه وضح الطريق ، والقوة الالهية التى تشد أزر الأنسان فيهتدى الى سبيل النصر والمجد .

ومن تأمل قوله عز شأنه : (ولكم فى القصاص حياة يا أولي الألباب) أيقن عظيم رحمة الله فى خلقه بما شرعه لهم من الأحكام والحدود العادلة الزاجرة.

ومن تدبر قوله جلت عظمته فى آية القصاص التى كانت شرعاً لمن قبلنا ثم صارت شرعاً الينا : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن . والجروح قصاص » أدرك حكمة هذه الآية وعلم أن الأسلام هو الدين الاجتماعى الحكيم بقانونه وتعاليمه . وأنه يمتاز بين سائر الأديان بأنه دين العدل والرحمة والرفق والتسامح ، فلم يقل ما قاله السيد المسيح . « وما جئت لألقى سلاماً بل سلاحاً » ، ولا ما ورد فى التوراة : « إذا أدخلك ربك فى أرض لتملكها فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تأخذك بهم رأفة » .

الاسلام بعقائده وعبادته ، ومثله وقيمه ، قد بعث الحياة فى العواطف الجامدة ، واليقظة فى القلوب الهامدة ، وحرك حواس الخير فى الانسان لتتسع نفسه للعلاقات الحسنة ، والصداقات الطيبة ، والمعاشرة بالمعروف ، وإنه إلى جانب هذا حارب الظلم ، والبغي ، حتى لا تهدر كرامة أحد ، ولا

تنتهك حرمة إنسان ولا يشعر ضعيف بهوان ، ولا يحس فقير بضياع ، ولا يؤخذ مال بغير حق .

وإنه أراد أن يقيم أطهر حياة وأنظفها على وجه الأوض :

حياة لا شرك فيها ولا وثنية . . .

بل فيها التوحيد الخالص ، والعبادة لله الذى تعنو له الوجوه .

حياة لا ظلم فيها ولا استبداد .

بل فيها حق ، وعدالة ، وحرية ، وإخاء .

حياة لا جهل فيها ولا أمية .

بل فيها علم ومعرفة وحكمة .

حياة لا رفث فيها ولا فسوق .

ولكن فيها طهارة ، ونظافة وعفاف

حياة لا حسد فيها ولا حقد .

بل فيها محبة وتعاون ، وتآزر ، وتناصر .

حياة لا سرف فيها ولا ترف .

بل فيها بذل وكرم ، وإيثار .

حياة لا خمر فيها ولا قمار .

بل فيها كدح وعمل ، وطلب لما أحل الله .

هذا هو الاسلام الذى نقدمه للناس فى عصر العلم والإكتشاف الذرى. نقدمه فى كتابنا (الجواهر الروحية) ونحن فى المعهد العلمى الاسلامى (النجف الاشرف) فى سنة ١٣٨١ هج ونأمل ممن بعد عن الاسلام أن ينصفه ولا يتجاوز الحقيقة فيما يكتب أو يقول .

وليس هذا هو رأينا الخاص ، وانما هو رأى علماء الغرب الذين درسوا

الاسلام ووقفوا على حقائقه . فليستمع القارىء إلى ما كتبه المنصفون منهم:

ومن العسير أن نذكر هنا كل ما قاله الباحثون الغربيون عن مبادىء الاسلام ، وانما نذكر ما تيسر لنا وسهل علينا .

يقول - جولد زيهر - : « إنه إذا أردنا الانصاف ينبغى أن نؤمن بأن فى منهج الإسلام قوة صالحة ، توجه الانسان نحو الخير . وإن الحياة المتفقة مع التعاليم الاسلامية ،حياة أخلاقية لا غبار عليها ذلك . . . أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله ، والوفاء بالعهود والمحبة والاخلاص ، وكف غرائز الأنانية ، إلى هذه الفضائل التى أخذها الاسلام من الديانات التى اعترف لأصحابها بالرسالة » .

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر - هـ . ج . ولز - فى كتابه (معالم تاريخ الانسانية) فى صدد بحثه عن تعاليم الاسلام : « إنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وانها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسماحة ، كما انها انسانية السمة ، ممكنة التنفيذ ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعى عما فى أية جماعة أخرى سبقتها . . . . إلى أن يقول عن الاسلام : إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة . إن الاسلام ساد لأنه كان خير نظام إجتماعى وسياسى ، إستطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ،كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا إتصال بينها وبين أى شعب إصالة . كان (الاسلام) أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية أتخذت سمة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم وكان يهب بين الانسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر » .

ويقول - ليودوروش - : « ولقد وجدت فى الاسلام حل المشكلتين

اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى قول القرآن : « إنما المؤمنون أخوة » فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ، والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال » .

ويقول - سنت جون فيلبي - فى كتابه (أيام عربية) : « لقد اجتذبنى الاسلام ، منذ أيامى الاولى فى الهند ، إذ تأثرت بما فيه من بساطة فى تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها . . . » ويقول . . . واعتقدت أن الإسلام على هذه الطريقة هو المذهب الذى يستطيع الانسان أن يتقبله قبولا حسناً ويؤمن به إيماناً صادقاً كوكيل موجه للحياة والسلوك ، وإن مقاييسه الدينية تنسجم مع الحاجات الأساسية للبشرية اكثر من أى دين آخر . ويقول : أجل لقد وجدت فى الاسلام وفى الجزيرة العربية نظاماً إجتماعياً سهلا وبسيطاً ، يتفق مع جميع مقتضيات الحياة الانسانية » .

ويقول المستشرق المعروف « ماسينيون » :

« . . . وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض كله النجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات » .

ويقول مؤلف « قصة الحضارة » (ول ديورانت) :

« وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا : إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء (يقصد بذلك العرب ، مع أن دعوة الرسول نجحت فى رفع المستوى الاخلاقى والروحى والاجتماعى للعرب وغيرهم كما يعترف المؤلف نفسه فى آخر كلامه عن الحضارة الاسلامية) وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل

ما كان يحلم به ، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين .

وقال فى موضع آخر :

« ولسنا نجد فى التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد ﷺ لإعانة الفقراء ، وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال البر » .

ويقول فى مكان آخر :

« والقرآن يبعث فى النفوس الساذجة (البريئة السليمة الفطرة) أسهل العقائد وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، واكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية ، وقد كان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الاخلاقى والثقافى . وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية وحضهم على اتباع القواعد الصحية . وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير فى أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض ولقد علم الاسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل وبعثهم إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله ، وقد عرف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحى ولا اليهودى (الصحيح العقيدة) ما يمنعه من قبوله » وقال : فى خلال بحثه عن الحضارة الاسلامية فى الأندلس :

« كان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد

ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التى كبرت فوق ما يجب والتى كان يملكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع » .

ويختم المؤلف حديثه عن الحضارة الأسلامية بقوله :

« لقد ظل الاسلام خمسة قرون (على الأقل) من عام ٧٠٠ م إلى ١٣٠٠ م يتزعم العالم كله فى القوة والنظام ، وبسطة الملك وجميل الطباع والاخلاق ، وفى ارتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الانسانى الرحيم ، والتسامح الدينى والآداب ، والبحث العلمى ، والعلوم والطب ، والفلسفة الخ » .

وقالت الدكتورة (لورافيشيا فاغليرى) وهى تتحدث عن الفتوحات الإسلامية وآثارها :

« لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان ، فإذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق فى عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل ، يخاطب القلب والعقل جميعاً وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى الى حد بعيد - فى خصائصه ومبادئه الأخلاقية - من تلك المعروفة فى ذلك العصر .

وبدأ الذهب الذى كان مخبوءاً فى صناديق السراة ينتقل الى أيدى الفقراء ، مستهلا نظاماً من التداول السليم كرة أخرى ، وفى ظل من حكومة تسيرها مثل عليا ديمقراطية أمينة وجد الرجال المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعاً من النظام الجديد ، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المناصب العامة .

ومن الممكن القول فى اطمئنان ، ان البلاد المفتوحة عرفت - على الرغم من بعض الحالات المحتومة النادرة التى تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح - عهداً من الرخاء والازدهار ، وشهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة ، وإلى هذا فقد نعمت حياة الشعوب المغلوبة وحقوقها المدنية وأحوالها بدرجة

من الحماية تقارب تلك التى نعم بها المسلمون أنفسهم » (١) .

ويقول ـ مسترجب ـ فى كتابه (حيثما يكون الإسلام) : « ولكن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسان خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى فى أفريقيا والهند ، واندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ، لتبين كلها ان الأسلام ما زالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات . فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الإلتجاء إلى الاسلام لحسم النزاع » .

ويقول ـ برنادشوا ـ وهو من أعظم مشاهير كتاب العالم ومفكريها : « إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل فى تفكير محمد . هذا النبى الذى وضع دينه دائماً موضع الاحترام والاجلال . فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، خالداً خلود الأبد ، وانى أرى كثيراً من بنى قومى دخلوا هذا الدين على بينة . وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح فى القارة ـ يعنى أوربا ـ عقب هذه الحرب . وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين، أنه دين السلام والتعاون والعدالة فى ظل شريعة متمدينة محكمة لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطأ أبداً . وقد ألفت كتاباً عن محمد ولكنه صودر لخروجه على تقاليد الانجليز » . عن مجلة الصباح .

وكتب البطريق النسطورى ـ يشوع ياف الثالث ـ رسالة وبعث بها إلى المطران ـ سمعان ـ رئيس أساقفة فارس يقول فيها بعد أن صور حزنه لتحول

(١) دفاع عن الإسلام : ٣٧ ، ٣٨

كثير من المسيحيين الفرس إلى الاسلام : « وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسى الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذن هجر شعبك من أهل مرو ـ عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب ، ولماذا حدث ذلك أيضاً فى وقت لم يرغمهم فيه العرب ـ كما يصرح أهل مرو أنفسهم ـ على ترك دينهم ، بل هم تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمناً مصوناً إذا هم إقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم » . (توماس أرنولد) ص ١٠١ ، ١٠٢ .

وكتب ـ ميك ـ فى كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول : « إن الاسلام لم يترك أثراً عميقاً فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب ، بل انه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً متميزاً لا يزال واضحاً حتى اليوم ، مؤثراً فى نظمهم السياسية والاجتماعية . . . ذلك أن الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ، فقد وسع آفاقهم ، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين ، لقد أدخل الاسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً فى عالم حر » .

وليس من شك فى أن هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره ـ ميك ـ فى كتابه ، يقف بجانب الاسلام فى دعوته انه دين مبادىء تهوى اليها النفوس من كل جانب ، لا دين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة

وقهراً كما يقول المتعصبون ضد الاسلام .

ويقول - سيرت . أرنولد - فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) : « يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسماً فى تحويل الناس الى الاسلام فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ، ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم فى أمن وطمأنينة » .

ويقول أيضاً . « ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة . واستمر فى الأجيال المتعاقبة نستطيع أن نستلخص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الاسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة . وان العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح » .

ويقول فى ص ٥٣ : « ولما بلغ الجيش الاسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى - فحل - كتب الأهالي المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : « يا معشر المسلمين أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا . أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا » .

وفى ص ٥٤ يقول . « وهكذا كانت حالة الشعور فى بلاد الشام إبان الغزوة التى وقعت بين سنتى ٦٣٣ ، ٦٣٩ م والتى طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجاً . ولما ضربت دمشق المثل فى عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧ ، وآمنت بذلك السلب والنهب ، كما ضمنت شروطاً أخرى ملائمة ، لم تتوان بسائر مدن الشام فى أن تنسج على منوالها . فأبرمت - حمص ومنبج

وبعض المدن الأخرى معاهدات قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب ، بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة . وإن خوف الروم من أن يكرههم الامبراطور الخارج على الدين على اتباع مذهبه ، قد جعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية ، وبأية حكومة مسيحية . ولم تكد المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين » .

هذه رأفة الإسلام بالمسيحيين وغيرهم ، بشهادة رجال ـ المسيح ـ فى حين أن محاكم التفتيش فى أسبانيا كانت مقصوراً بها القضاء على المسلمين قبل كل شيء . وقد استخدمت فيها أبشع ألوان التعذيب التى عرفت فى التاريخ ، من إحراق المسلمين أحياء ، ونزع أظافرهم وسمل أعينهم ، وتقطيع أوصالهم لإكراههم على ترك دينهم واتباع مذهب مسيحى معين .

فهل لقى المسيحيون فى الشرق الإسلامى شيئاً من ذلك طول مقامهم هناك ؟

والمجازر تقام اليوم للمسلمين فى كل بلد أوربى ، أو واقع تحت سيطرة الأوربيين فى يوغسلافيا ، وألبانيا ، وروسيا ، وفى الشمال الأفريقى ، والصومال ، وفى الهند والملايو ، مرة باسم تطهير الصفوف ، ومرة باسم إقرار الأمن والسلام ! ولكننا نترك كل هذا ونأخذ مثلا واحداً له دلالته الخاصة ، وهو ـ الحبشة ـ . سكانها خليط من المسلمين والمسيحيين ، وأقل الناس تقديراً يقدر المسلمين بـ ٣٥ ٪ من مجموع السكان، بينما يقدرهم آخرون بـ ٦٥ ٪ فلنأخذ أقل التقديرين !

ليس فى الحبشة مدرسة واحدة حكومية تدرس الدين الإسلامى لتلاميذها المسلمين . ولا مدرسة واحدة تعلم اللغة العربية . أما المدارس التي

يفتحها المسلمون على نفقتهم فإن الحكومة تظل تفرض عليها من الضرائب والمضايقات ما يؤدى إلى إغلاقها فى آخر الأمر وتيئيس غيرهم من القيام بمحاولة جديدة . وهكذا يقتصر الأمر هناك بالنسبة للمسلمين على الكتاتيب .

وإلى عهد قريب - إلى ما قبل الغزو الايطالي - كان المسلم الذى يستدين من مسيحى حبشى ويعجز عن الوفاء بدينه يصبح رقيقاً للحبشى يشترى ويباع ويعذب بمعرفة الدولة .

وبطبيعة الحال ليس فى وظائف الحكومة ولا وزاراتها واحد مسلم ليقوم بتمثيل ثلث السكان . فهل رأى المسيحيون فى العالم الاسلامى شيئاً من ذلك فى تاريخهم ؟ أم يرضون المعاملة بالمثل ! والشيوعيون الذين فعلوا الافاعيل الوحشية البهيمية بالمسلمين فى قفقازيا - بلد الاسلام - من هدم المعابد والمساجد والمعاهد العلمية الاسلامية ، وقتل الرجال وذبح الأطفال وهتك الأعراض حتى أجبروهم على الدخول فى جزبهم - حزب الضلال والتمرد - ورفض ماهم عليه من الاسلام ، ومنعوهم من ذكر محمد فى كل مناسبة ، ومنعوهم من السفر لأداء فريضة الحج ، ومن مواسم الزيارات لأئمتهم ، وحرموهم من حق الملك أو التصرف ، أو تجمع الثروات . فهل شاهد المسيحيون مثل ذلك من المسلمين فى بلاد الاسلام ؟ أيام حكومتهم ، وهل حرموهم من حق التصرف فى ثرواتهم؟ وهل سمعوا المسلمين يقولون - كما يقول الشيوعيون - إن الكيان الحقيقى للإنسان هو كيانه الاقتصادى ؟ .

على أننا لا نوافق الشيوعيين فى أن كيان الانسان هو كيانه الاقتصادى فحسب . ونضيف اليه كيانه المعنوى والروحى .

إن الشيوعيين ينبثون فى كل طائفة فيمنونها بأمنية خاصة . فهم ينبثون بين العمال فيقولون لهم: اتبعونا وسنملككم المصانع . وبين الفلاحين فيقولون

لهم : اتبعونا وسنملككم الأرض . وبين خريجى الجامعات والمدارس المتعطلين فيقولون لهم اتبعونا وسنمنحكم عملا يوازى مؤهلاتكم . وبين الشباب المحروم من الجنس فيقولون لهم : اتبعونا وسننشىء لكم مجتمعاً حراً يصنع فيه من يشاء ما يشاء بلا تدخل من القانون ولا اعتراض من التقاليد . ثم يخلون بجماعة المسيحيين فيقولون لهم اتبعونا وسنحطم لكم هذا الاسلام الذى يفرق بين الناس على أساس العقيدة » .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . ليس الاسلام هو الذى يفرق بين الناس على أساس العقيدة ، وهو الذى يمنحهم كل الحقوق الحيوية بلا تفريق . وإنما هو يجمع بينهم على أساس الانسانية ، ثم يترك لهم بعد ذلك كامل الحرية فى اعتناق العقيدة التى يريدونها ، برضاء الاسلام بل بحمايته وتحت رعايته .

وإنى لأعلم أن الكمل الغيارى من المسيحيين أحرص على مثلهم المسيحية الرفيعة ، وأحرص على روابطهم التاريخية مع المسلمين ، وأحرص على مصالحهم المتشابكة من أن يستمعوا لدس الدساسين أو وسوسة الشياطين .

نظام الاقتصاد عند محمد ﷺ

سلمنا لكم بأن الاسلام يشتمل على جميع الأسس الصالحة للحياة وأنه دين الأجيال كافة والمجتمعات كافة . ولكن الفقه الاسلامى فى المسائل الأقتصادية قد تعطل فى القرنين الأخيرين على الأقل ، بسبب إنكماش العالم الاسلامى . فلماذا لا نأخذ الإسلام عقيدة تهذب الضمائر وتنظف الأفكار ، ونأخذ الشيوعية نظاماً إقتصادياً بحتاً لا صلة له بأى شيء آخر فى نظام الدولة وكيان المجتمع . فنكون بذلك قد حافظنا على أخلاقنا وتقاليدنا وعاداتنا ، وأخذنا بأحدث النظم فى عالم الاقتصاد ؟

شبهة خبيثة يلعب بها الشيوعيون منذ عهد غير بعيد . فقد كانوا بدأوا نشاطهم فى الشرق بمحاربة الاسلام جهرة ، وإذاعة الشبهات حوله . فلما وجدوا ذلك قد زاد المسلمين تمسكاً بإسلامهم لجأوا إلى هذا الباب الماكر ، فقالوا : إن الشيوعية لا تتعارض مع الاسلام ، فهى فى صميمها عدالة إجتماعية ، وكفالة من الدولة لكل أفراد الشعب . فهل يكره الاسلام العدالة الاجتماعية ؟ نفس الطريقة الماكرة التى إتبعها الاستعمار الغربى من قبل بدأوا بمهاجمة الاسلام ، فتنبه المسلمون وتيقظوا ولم يكن ذلك هو المطلوب فلجأوا إلى الطريق الآخر . وقالوا للناس : ان الغرب لا يهمه سوى إدخال ـ الحضارة ـ فى الشرق . فهل الإسلام يكره الحضارة وهو أبو الحضارة ؟ تستطيعون أن تظلوا مسلمين

ـ أى تصلوا وتصوموا وتقيموا الشعائر ـ وتأخذوا فى ذات الوقت بالحضارة الغربية . وكانوا يعلمون علم اليقين أنه حين يأخذ المسلمون بهذه الحضارة فلن يظلوا مسلمين ، وستطويهم تلك الحضارة الزائفة فى أجيال قليلة فإذاهم على غير وعى منهم مستعبدون . وكذلك كان . . ونشأت أجيال لا تعرف الاسلام بل تنفر منه بلا هدى ولا بصيرة ولا كتاب مبين .

واليوم يكرر الشيوعيون نفس الخدعة . فلتظلوا أيها المسلمون فى إسلامكم ـ تصلون وتصومون وتقيمون الشعائر ـ ولن نتعرض لعقائدكم . كل همنا هو إدخال الشيوعية الاقتصادية . وهى قطعة من صميم الاسلام تبلورت على يد علماء أوربا وشعوبها ، فلتتقبلوها مطمئنين ! وإنهم ليعلمون علم اليقين أن المسلمين إن أخذوا بالشيوعية فلن يظلوا مسلمين، وستطويهم الشيوعية فى سنوات قليلة (فنحن فى عصر الصرعة) فإذاهم على غير وعى منهم منحرفون عن الاسلام منسلخون .

ولنضع بين يديك قصة قصيرة نموذجاً ، لتعلم كيف تؤثر العلوم الغربية بأبناء المسلمين وتستهويهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون :

يخطر على بالي قصة جاءت فى كتاب (غادت الأندلس) ما ملخصها .

« إن القائد (برآقا) قابل (الأذفونش) فى روما فى الفاتيكان . وجاء أيضاً معهما دوق فينيزيا . فقال له الأذفونش : (اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوربا وشاورهم فى استرجاع مملكة أسبانيا من العرب فلتكن مساعداً لنا . فقال برآقا . إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والخديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخمر ولا يفل الحديد إلا الحديد .

فقال دوق فينيزيا إن جيوش البارونات تسحقهم سحقاً فى أقل من لمح البصر . فقال البرآق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد

تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموهة ، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة . فهذه تفتح لرهبانكم طريقاً بها يبثون التعاليم بين أطفالهم فإن لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم فيفقدون تلك الحمية الدينية التى تحببهم فى الحرب . فأما حرية التعليم فإنها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلميهم ويبتعدون عن محبة وطنهم فأما حرية التجارة فهى التى تضعضع شيئاً فشيئاً تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر فهى الآن محرمة فمتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالات ، وفقدوا النخوة والشرف وضعفت منهم العقول والجسوم ونشأ بينهم الشر وساءت حالهم وارتبكت شؤونهم فيساقون كالأغنام ، ولا تنس يا حضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ والإسراف فى الشهوات وإهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب إنحطاط الممالك القوية ، وهكذا فعلوا .

ونظير هذه القصة مارواه الصلاح الصفدى فى شرح قصيدة لامية العجم « أن المأمون لما هادن حاكم (قبرص) كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عنده فى بيت لا يظهر عليه أحد فجمع الحاكم خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك . فكلهم أشار بعدم تجهيزها اليه إلا بطريركا واحداً قال جهزها اليهم ، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها » .

وصح ما توقعه البطريرك الداهية ، فإن المسلمين خلطوا هذه العلوم بما ورثوه من كتاب وسنة ، ثم فهموا دينهم على ضوء هذه العلوم الوافدة وما تضمنته من آراء كاسدة .

فهل يفهم هذا المثقفون أم إنهم قوم مخدوعون لا يفقهون ما يقولون . فإذا أردنا أن نطبق المبدأ الاقتصادى الشيوعى ، فأمرنا حينئذ دائر بين

أمرين : إما أن نظل محتفظين بكياننا السياسى مستقلا عن مركز التوجيه الشيوعى فى موسكو . وإما أن يذوب كياننا كله فى روسيا . وهذه مشكلة (تيتو) ما تزال ماثلة للأذهان : فيوغسلافيا تطبق الشيوعية فى بلادها كاملة . ومع ذلك فقد قامت بينها وبين روسيا المنازعات والخصومات ، لأنها أبت أن تصير قطعة ذائبة فى كيان روسيا . ووضعنا نحن أسوأ من وضع (تيتو) إذا طبقنا الشيوعية فى بلادنا اذ يتعين علينا أن ننضم لروسيا فى صراعها الجبار مع الغرب ، وإلا فلن نستطيع حماية إقتصادنا الشيوعى من اعتداء الرأسمالية عليه.

الأمر الثانى : الذوبان فى كيان روسيا فلا يجعلنا مسلمين ، فقد أراد الله لهذه الأمة المسلمة أن تتميز ولا تذوب فى كيان أحد ، لأنها هى كيان مستقل لا يشبه أحداً من العالمين . كيان من صنع الله وتوجيهه ورعايته . كيان إقتصادى واجتماعى وفكرى وروحى لا يمكن أن تختلط معالمه فى كيان آخر . وحرام على المسلم أن يلغى كيانه ويذوب فى كيان غير إسلامى

لا يجوز ونحن نملك مبادىء إقتصادية صحيحة متميزة بذاتها أن نلغى كياننا و نأخذ بمبادىء غيرنا ، لأن مبادئنا الاقتصادية أفضل وأضمن للخير واليك البيان

إن للاسلام فكرة إجتماعية ونظاماً إقتصادياً قائماً بذاته ، قد يلتقى مصادفة ببعض مظاهر الرأسمالية أو الشيوعية . ولكنه على وجه التأكيد شيء آخر غير الرأسمالية والشيوعية ، يجمع كل مزاياهما دون أن يقع فى أخطائهما وانحرافاتهما نظام لا يبالغ فى الفردية الى الحد البغيض الذى يقوم فى الغرب ، والذى يعتبر الفرد هو الأساس ، وهو الكائن المقدس الذى تصان حرياته ، ولا يجوز للمجتمع ان يقف فى سبيله ، فتنشأ هناك الرأسمالية القائمة على أساس حرية الفرد فى استغلال الآخرين . ولا يبالغ فى الاتجاه الجماعى الذى يقوم فى شرق أوربا ، ويعتبر المجتمع هو الأساس ، والفرد ذرة تائهة لا كيان له بمفرده ،

ولا وجود له إلا فى داخل القطيع ، فالمجتمع وحده هو صاحب الحرية وصاحب السلطان ، وليس للفرد أن يحتج عليه أو يطالبه بحقوقه ، وهناك تنشأ الشيوعية القائمة على سلطان الدولة المطلق فى تكييف حياة الأفراد .

وإنما هو نظام وسط بين هذا وذاك ، يعترف بالفرد ويعترف بالمجتمع ، ويوازن بينهما فيمنح الفرد قدراً من الحرية يحقق به كيانه ولا يطغى به على كيان الآخرين ، ويمنح المجتمع ـ أو الدولة ممثلة المجتمع ـ سلطة واسعة فى إعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية كلما خرجت عن توازنها المنشود. وكل ذلك على أساس الحب المتبادل بين الأفراد والطوائف ، لا على أساس الحقد والصراع الطبقى الذى تقيم عليه الشيوعية فلسفتها النظرية و تطبيقاتها العملية

وهذا النظام الفريد لم يجىء به الاسلام تحت ضغط الضرورات الاقتصادية ، ولا نتيجة لاحتكاك المصالح المتصارعة ، وإنما أتى به تطوعاً وإنشاء ، فى وقت لم يكن العالم كله يقيم وزناً للعامل الإقتصادى أو يعرف شيئاً حقيقياً عن العدالة الإجتماعية كما نفهمها اليوم . ولا يزال هذا النظام إلى هذه اللحظة نظاماً تقدمياً بالنسبة للرأسمالية والشيوعية ، وهما آخر ما عرف العالم الحديث فى عالم الاجتماع والاقتصاد ، وإن « المطالب الأساسية » التى نادى بها (كارل ماركس) واعتبر الدولة مسؤولة عن تحقيقها ، فأحدث بذلك ثورة عظمى فى التاريخ : (وهى الغذاء والمسكن والاشباع الجنسى) لهى بعض مما قاله الإسلام قبل ألف وثلثمائة عام ! يقول نبى الرحمة نبى الإسلام الكريم (محمد) ﷺ : « من كان لنا عاملا ولم تكن له زوجة فليتخذ زوجة ، وليس له مسكن فليتخذ مسكناً . وليس له خادم فليتخذ خادماً ، وليس له دابة فليتخذ دابة » كل ذلك من بيت المال فيلمّ بكل « المطالب الأساسية » التى نادى ماركس ويزيد عليها ، ويجعلها تكليفاً على الدولة لكل من ولى لها عملا ، وهو نص

يشمل كل موقف فى الدولة الحديثة ، كما يشمل الصناع والعمال حين تؤمم الصناعات الكبرى ، وهو اتجاه يتفق مع توجيهات الاسلام .

أجل بين الرأسمالية الطاغية والشيوعية المطلقة ينهض نظام الاسلام الاقتصادى طريقاً وسطاً فيه خير الجانبين . وليس فيه شرورهما ، فهو يبيح الملكية ويحترمها ، ولكنه يحارب الربا والاستغلال . وهو يدعو إلى التجارة ، ولكنه يعارض الاحتكار . ويبيح مجالاة التنافس والربح والكسب ولكنه لا يرضى بالسحت ولا بالمال الحرام . ولا يمانع فى التمتع بالطيبات وخيرات الرزق ، ولكنه يحارب الترف والجشع . ويدعو إلى الزكاة والتكافل الواجب ، ولكنه يحارب البطالة والكسل والاستجداء حين القدرة على العمل . وهو لا يمنع أن يكون بعض الناس أجراء عند بعض ، ولكنه يحرم بخس حقه أو مماطلته فيه ، أو إرهاقه وامتصاص دمه ثم تركه بعد ذلك حطاماً . وهو أخيراً يضمن لكل عاجز معدم مطالب حياته فى مال الاغنياء أو فى بيت المال .

وهذا النظام هو الذى نسميه باشتراكية الاسلام ، أو الإشتراكية الاسلامية . ولقد كتب كاتبون مسلمون عن هذه الاشتراكية ما يعد أساساً صالحاً لتفهم مبادئها وتفصيل قواعدها . ومن عجب أن الذين لا يفقهون الاسلام ، والذين يحقدون عليه قد يطول منهم الحديث عن الاشتراكية قديماً وحديثاً بما لها وما عليها ، ثم يحرصون على تجنب الحديث عن اشتراكية الاسلام القويمة ، مما يدل على الجهل أو على خبث الطوية .

ولسنا الآن بسبيل المقارنة بين اشتراكية الإسلام وإشتراكية سواه من المذاهب والدعوات ، ولكننا نريد أن نقول إن اشتراكية الاسلام حين تطبيقها تكون أقوى أثراً وأينع ثمراً وأعمق تأثيراً من غيرها ، لأن غيرها نظم وضعية بشرية ليس لها من القداسة فى نفوس أتباعها ما لاشتراكية أمر بها الله سبحانه

فصارت أوامر إلهية يعتقد المسلم أن تنفيذها تنفيذ لمشيئة الله ولأمر الله ويعتقد أنه إذا لم ينفذها كان محل غضب الله وعقابه . ثم إن اشتراكية الاسلام تمتاز بالرحمة والتلطف والتدرج ، بينما تمتاز الإشتراكية الوضعية بالعنف والارغام.

يقول شوقى ـ مشيراً الى اشتراكية الاسلام فى همزيته ، وهو يخاطب الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام :

الإشتراكيون أنت إمامهم　　　لو لا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة　　　وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة　　　ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة　　　لا منة ممنوعة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله　　　حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى　　　فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنساناً تخير ملة　　　ما اختار إلا دينك الفقراء

ولا بد أن تؤخذ الزكاة من جميع مواردها التى شرعت فيها ، من المال والزرع والتجارة والحيوان وغيره ، ولا تعطى إلا لمستحقيها حتى لا تكون وسيلة لانتشار البطالة والاتكال ، لأن من واجب الامة الاسلامية أن يحسن أبناؤها الجمع بين « الإكتساب والاحتساب » بأن يكون الشخص منتجاً كاسباً رابحاً من عمله وسعيه ، لا يكسل ولا يقنط ما دام قادراً ، بل يواصل العمل والدأب فيه ، ويكون مع هذا محتسباً (أى متبرعاً متطوعاً ببعض ماله) . ولو تحلى الأفراد بهاتين الصفتين « الإكتساب والاحتساب » لارتقى المسلمون درجات فوق درجات .

ويجب على المسلمين أن يحاربوا الفقر باسم الدين . ورحم الله أبا ذر حين يقول : « إذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكفر خذنى معك » . ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام : « لو كان الفقر رجلا لقتلته » . ويقول الرسول

الأعظم محمد ﷺ « الفقر سواد الوجه فى الدارين » . وأن يحاربوا الكسل والضعف والتخلف فى ميادين الحياة المادية باسم الدين ، وأن يحاربوا الشح والكنز ومنع الزكاة باسم الدين ، وأن يحاربوا الاتكال على الزكاة أو الصدقة ما دامت هناك قدرة على العمل باسم الدين ، وأن يحسنوا المواءمة بين الروح والمادة باسم الدين ، فيعلموا أبناءهم أن صاحب المادة السوى لا يعجز عن أن يكون صاحب روح قوى ، بل ان الضعف المادى قد يؤدى الى ضعف الروح فهناك كثير من الباحثين والمصلحين يقررون أن أكثر الرذائل منشؤها من خلل النظام الاقتصادى ، فالسرقة يسببها فقر أو جشع ، وجرائم الغش والاختلاس رذائل اقتصادية فى كثير من الاحيان ، بمعنى أن الفقر والحاجة هما اللذان يدفعان غالباً الى إقتراف تلك الجرائم ، فلو أزلنا الفقر والحاجة - وأزلنا معهما الترف والشح - لقضينا على كثير من أسباب هذه الجرائم التى تهدد المجتمع ، وتفت فى عضد الامة !

ولا ينكر أن للمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ، ترتعد منها فرائض أهل الفضيلة والكمال الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعى الترف والسرف وينظرون الى المال الزائد عن الحاجة الكمالية أنه بلاء فى بلاء ، أى أنه بلاء من حيث التعب فى تحصيله ، وبلاء من حيث القلق على حفظه ، وبلاء من حيث الافتكار بإنمائه ، وأما المكتفى فيعيش مطمئناً مستريحاً آمناً بعض الأمن على دينه وشرفه وأخلاقه .

وحيث أن البحث يستدعى أكثر من هذا الموجز ، ويفتقر الى إسهاب غير مخل ، فقد آثرنا أن نسطر كلمة لفضيلة الشيخ كاظم الحلفى فقد استعرض الموضوع من شتى نواحيه واعطاه صورة مركزة فى كتابه (الاسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة) .

الاقتصاد الاسلامي

يقوم الاقتصاد الاسلامى على أسس ثلاثة :

— ١ —

المصلحة الشخصية

لأن واقع الانسان أنه لا يعمل إذا لم تكن له مصلحة شخصية تدفعه نحو العمل .

وقد لاحظ الاسلام هذا الواقع فأباح للإنسان تملك ثمار كسبه و نتيجة سعيه المسمى بالملكية الفردية أو الملكية الخاصة ، وسلطه عليها يتصرف فيها كيف يشاء ، وحددها بمبدأين أساسيين لاستقامة النظام وتحقيق المصلحة العامة وهما :

آ ـ أداء الضرائب التى فرضها عليه كالخمس والزكاة ونحوهما ، فركز بذلك أسس الضمان الاجتماعى التى تسعى الدول الراقية إلى تحقيقها ، وكأنها بذلك محسنة متفضلة ، بينما جعلها القرآن حقاً صريحاً واجباً يؤدى (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

وهذه الحقوق عبادة مالية يتعدى نفعها الى المسلمين عامة وفيها إصلاح لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية .

وأداؤها مع تحريم الربا وأكل المال بالباطل وتيسير القرض للمحتاج اليه يقطع دابر الشيوعية التى شق ملايين الناس بها .

هذا مضافاً إلى أنه أطلق فكرة التضامن الانسانى على لسان رسوله الأكرم (ص) : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم اليه أنفعهم لعيالهم » .

ب - تحريمه كل شراء من طريق غير مشروع « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

فقد حرم كل عمل يضرّ به الفرد غيره أو يجلب بسببه ضرراً خلقياً أو مادياً أو صحياً على المجتمع بأسره . وسأذكر لك بعض الشواهد على ذلك .

١ - إنه حرم الخمر وباقى المسكرات تحريماً قاطعاً وكذا بيعها وشراؤها .
٢ - القمار
٣ - البغاء
٤ - مهنة الرقص وآلات اللهو .
٥ - الغش ونقص الميزان
٦ - اليانصيب
٧ - الاحتكار
٨ - بيع الغرر
٩ - الربا وأمثاله من الاشياء التى تعود على المجتمع بنوع من أنواع الضرر.

وإنك إذا نظرت فى كتب الاقتصاد الاسلامية المصطلح عليها بين الفقهاء بـ (المكاسب والتجارة) وتدبرت فيها فسترى فهرساً طويلا لطرق المعاش المحرمة ، كما إذا لاحظت الواقع فستجد أنها نفس الوسائل الخسيسة التى يستغلها الناس اليوم فى ظل النظام الرأسمالي الجشع ومنها أصبحوا من الذين يشار اليهم بـ (المليونير) .

والاسلام قد حرم كل هذه الوسائل ويلزم الانسان أن لا يكتسب المال إلا بالوسائل التى يسدى بها خدمة حقيقية نافعة لغيره من أبناء جنسه، فيحصل بذلك على أجرته بالعدل والانصاف. كما أن الأموال التى اكتسبها الانسان بالطرق المباحة وإن اطلق له حرية التصرف فيها غير أن هذه الحرية محصورة بين حدى الافراط والتفريط. وبيان ذلك انه يلزم الانسان أن لا ينفق ما اكتسبه من الأموال بالطرق المشروعة إلا فى الطرق المشروعة، ولهذا وضع حدود الانفاق بين البخل والتبذير ليعيش الانسان عيشة راضية، وأن لا يبذل أمواله فى أبواب المجون والخلاعة فإذا أصبح الانسان ضمن هذه الحدود والقيود بعد مدة من الزمن ذا ثراء واسع فلا بأس عليه فى نظر الاسلام بل إنما ذلك من إنعام الله عليه وإكرامه له. وهذا هو الطريق الذى تكمل به السعادة البشرية لما ثبت لدى علماء النفس من التفاوت بين استعدادات الأفراد الفطرية وهى ظاهرة طبيعية حتى فى الجماد «وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون».

والشيوعية التى تريد أن تساوى بين المجدّ والخامل حتى فى نتائج السعى إكراهاً وقسراً لا يتابعها الاسلام بل خالفها فى ذلك تمام المخالفة.

لأنها تريد أن تحول التفاوت الفطرى إلى المساواة غير الفطرية، وأقرب نظام للفطرة البشرية هو الذى يتيح الفرص لكل إنسان حتى يبدأ بسيره فى حلبة المعاش فى المحل الذى أعده الله له والحالة التى فطره عليها، فمن ساعده الحظ ـ مثلا ـ وأصبح يملك الطائرة فله أن يسير على طائرته ومن لم يحصل إلا على حماره فاليركب حماره، ومن كان برجليه عطل كالعرج وشبهه يسير حسب إمكانه.

ولا يضمن الإسلام لصاحب الطائرة حقه الثابت فى طيارته الى انتهاء

السير ، كما لم يمنع الأعرج من الحصول على السيارة والطيارة فى مرحلة من مراحل سيره .

وكذلك لا يحسن من قانون المجتمع بأن يلزم الجميع ـ صاحب الطائرة وصاحب الحمار والأعرج ـ بالإبتداء من محل واحد وعلى حالة واحدة حتى الانتهاء من غير إنفصال أبداً لا يجوز ذلك فى منطق العدل بتاتاً . وإنما النظام العادل هو ما يبقى فيه السير ممكناً لكل واحد فلمن بدأ سيره بالعرج أن يحصل على الطائرة فى أثناء سيره إذا بذل جهده وكفائته ـ وساعده الحظ على ذلك ـ من دون التفاوت لمن بدأ سيره بطائرته وأضاعها خلال سيره بإسرافه وغباوته حتى صار عاجزاً لا يسير إلا سير الأعرج . هذا ما أقره الاسلام لكى يترك باب التنافس مفتوحاً أمام الكدح وأمام استخدام القوى الفكرية والفنية ليتقدم بالناس أشواطاً للامام .

— ٢ —

المنافسة

لأن بواعث النفس لترقية شؤون الحياة تابعة لقانون ندرة السلع المفضلة التى يسعى كل فرد لحيازتها فإذا بطل هذا القانون بتساوى الكل فى جميع الأشياء من غير فرق بين ذكى وغبى ، ومجدّ وخامل ، ضاع معنى الحياة والتقدم.

والانسان المتحرر يربأ بنفسه عن الرجعية بعد التهذيب ، والجمود بعد التطور ويحب الظهور بالمظهر اللائق كحبه فى الحصول على السلع المفضلة . وقد قرر علماء الاقتصاد بأن ذلك ليس من آيات الوهن أو علامات السقم فى الفطرة البشرية بل هو دليل على عظمتها وكرامتها .

فإن الطبقة السفلى فى الحيوان أقل حاجات من الطبقة العليا . والهمج أقل حاجات من البربر ، والبربر أقل حاجات من الأمم المتمدنة بالنسبة إلى :

آ ـ مظهر البلاد

ب ـ نوع المحصولات التى تخرجها تربتها .

ج ـ رسمها الجغرافى وحال جوها . فإن لكل إقليم صفات خاصة تهيء فى نفوس أهله ـ جماعات وأفراد ـ استعداداً فطرياً لأمور خاصة .

وقالوا : إن تعدد الحاجات وانتشارها إنما يكون فى الغالب من ثلاثة :

آ ـ التشبه أو المحاكاة

ب ـ العادة

ج ـ الإرث

فالتشبه هو الذى يدفع الشعوب المنحطة حين تتصل بالشعوب الراقية إلى أن تستعير من طيبات أحوالها ما تستحصله لمعيشتها ، فإن كان ذلك تولدت منه العادة الذاتية وهذه العادة يؤيدها التوارث فتستأصل فى النفوس تأصلا يهيء لأصحابها إنهم أصبحوا لا يستغنون عن أشياء قد كانوا فى غنى عنها ، وقد ضربوا أمثلة لذلك بما نستخدمه اليوم من أثاث ورياش فى البيوت وسلع متنوعة للبسنا كالجورب والأحذية والمناديل ، والاصناف الكثيرة فى التغذية والكتب وأدوات الموسيقى . . مما يحصل للانسان تدريجاً .

والعوامل المؤثرة فى تكوين العادة ـ كما قررها علماء الاجتماع هى :

آ ـ الاحساس ـ أى الشعور بالحاجة إلى شيء معين كالجوع والظمأ .

ب ـ الرغبة ـ وهى التى تلى الاحساس كالرغبة فى الاكل والشرب .

ج ـ العمل ـ وهو الذى يحدث استجابة للرغبة كتناول الطعام والماء .

د ـ النتيجة ـ (الاشباع) وهى الحصول على الشيء المطلوب كالشبع والارتواء .

وقد قال علماء الاقتصاد لكى يقتحم الإنسان مصاعب العمل لا بد له من منافس يدفعه نحو الجد والتفوق ، ولا وسيلة لذلك إلا اطلاقه فى جو من المزاحمة الحرة التى أقرها الاسلام بين هدى « لا ضرر ولا ضرار » والمزاحمة تحتاج الى الاساس الثالث وهو :

— ٣ —

الحرية

ضمن حدود معترف بها ـ وهذه الحرية المحدودة شرط لأن فقدانها يكبت المنافسة ويثبط النشاط ولا يحقق المنفعة الشخصية التى تستلزم الغاء المصلحة العامة .

لأن اهمال المصلحة الشخصية يترتب عليه فناء الفرد ، وفناء الفرد يترتب عليه فناء المجموع .

فالفرد إذن هو الخلية الاولى فى بناء المجتمع ، وحريته الشخصية هى

الساعد الذى تقوم به المصلحة العامة ، لأن المصلحتين فى القدر الضرورى منهما متلازمتان ولا يمكن لنظام حيوى أن يهمل القدر الضرورى منهما . وهذه معادلة فذة تقوم على فلسفة انسانية عميقة ، لأن مصلحة الفرد التى تنافى مصلحة الجماعة لا تحسب فى صالحه . ومصلحة الجماعة التى تسحق كرامة الفرد لا تعد من خير المجموع فى شيء .

ولهذا جعل الاسلام كرامة الفرد مصلحته بمثابة كرامة المجموع ومصلحته ولم يتستر وراء ما ينعت بـ (المصلحة العامة) لهظم حقوق الفرد وكبت حريته واغتيال سعادته ، تلك الخديعة التى تذرع بها « هتلر وموسولينى وستالين وبقية الدكتاتوريين لحماية جبروتهم باسم المصلحة العامة . وقد عرفت بأنه لا تعارض بين المصلحتين بل هما شيء واحد يتجزأ عند الضرورة فيتقدم الأهم على المهم فربما كانت مناوأة المجتمع للفرد هى الشر الذى نزيله ، أو نتمنى له الزوال . كما يقال إن عمل الفرد موقوف على التجاوب بينه وبين المجتمع يقال كذلك إن عمل المجتمع موقوف على التجاوب بينه وبين الافراد .

— ٤ —

إذن فلاضير على المجتمع فى إطلاق حرية الفرد المقيدة بمراعاة المصلحة العامة ، وفى التنافس طريق للتقدم .

وإقرار حق الملكية الفردية يحقق العدالة بين الجهد والجزاء فضلا عن مسايرته للفطرة واتفاقه مع الميول الأصيلة فى النفس البشرية ، تلك

الميول التى يحسب الإسلام لها الف حساب فى إقامة نظام المجتمع ، وفى الوقت ذاته يتفق مع مصلحة الجماعة باغراء الفرد على بذل أقصى طاقة يملكها للتقدم أشواطاً للأمام . والعدالة تقضى بأن يلبى النظام أشواق الفرد ويرضى ميوله - الحدود التى لاتضر الجماعة - جزاء مابذل هذا الفرد من طاقته وجهده وعرق جبينه ، وكدح فكره وكد أعصابه .

والعدل أكبر قواعد الاسلام . والعدالة الاجتماعية لا تكون دائماً على حساب الفرد . فهى للفرد كما هى للجماعة متى ما أردنا أن نسلك طريقاً وسطاً ونحقق العدالة فى جميع صورها وأشكالها فى الحياة الاقتصادية التى التى عالجها الاسلام خير علاج كما يعرفه كل من درس قواعده الأساسية الثلاثة :

١ - طرق حيازة الثروة وحدودها .

٢ - كيفية التصرف وحدوده .

٣ - كيفية توزيع الحقوق على أهلها .

— ٥ —

والكتب الفقهية متضمنة للتفصيل شريطة أن تدرس كلها من جميع نواحيها وجوانبها لا من زاوية واحدة بعين الحقد وبدافع الانتقام بل من كل زاوية بعين التدبر والانصاف فمن أعطاها قسطاً من التفكير ودرسها دراسة الناقد البصير علم بأن هناك عنصرين يكونان التشريع الاسلامى :

أولها عنصر العبادات . وهى التى تتمثل فى العبادات بأنواعها العقلية

والروحية والبدنية ..

وثانيهما المعاملات فالناس فى حياتهم مضطرون الى التعامل ، ولا تقف بنا المعاملات عند حدود البيع والشراء وما اليها ، بل هى شاملة تمتد الى العلاقات بشتى ألوانها . والروابط فى مختلف أنواعها .

وستجزم بأن الأحكام الشرعية فى مختلف أبوابها (من عقائد وعبادات ومعاملات وعقوبات) ما شرعت إلا لتحقيق مصالح الانسانية وإقرار العدل بين أفرادها وإقامة النظام وتأسيس قواعد السلام فى العالم .

أما تحقيق مصالح الانسانية فان مصلحة أى فرد أو مجتمع يتكون من عناصر ثلاثة :

١ ـ الأمور الضرورية التى لا تقوم حياة الفرد أو المجتمع إلا بها .

٢ ـ الحاجات التى لا تتيسر الحياة وتخلو من العسر والحرج إلا بها .

٣ ـ الأمور الكمالية التى لا تكمل الحياة وتتم إلا بها .

وقد تكفل الاسلام كل واحد من هذه العناصر الثلاث بنوعين من الأحكام :

أ ـ الأحكام التى توجبه وتحققه .

ب ـ الأحكام التى تصونه وتحفظه .

ولهذا تكفل مصالح الإنسانية كلها على السواء ، لأن الناس فى عرف الاسلام كلهم من رجل واحد ونظرته هذه تضم الحياة ـ من مبدئها إلى نهايتها ـ لا تعترف بفرق اللون والوضع الاجتماعى والطبقى ، ولا يتفاضل الناس إلا بالتقوى ـ أى بعمل الخير وترك الشر مطلقاً ـ فهى الميزان الرئيسى الذى يجب أن يوزن به الناس فى نظر القرآن وأهداف الاسلام الثلاثة :

١ - تحرير العقل من رق الإستعباد حيث دعا الى الدليل والتفكير الحر .

٢ - إصلاح الفرد نفسياً وخلقياً حيث شرع نظاماً يوجه الفرد إلى مراقبة خالقه ومحاسبة نفسه .

٣ - إصلاح الحياة الاجتماعية بصورة يسود فيها الأمن والعدل بين الناس وصيانة الحريات الخاصة بالأفراد والحقوق العامة بالجماعة» .

الدين حياة الشعوب

ما وجد الانسان نفسه فى هـذا الوجود كائناً حياً ، وهيكلا محسوساً وشاعراً مدركا ، إلا ووجد الدين سائداً عليه منفوثا فى ضميره ، قائماً بوجدانه حياً بحياته ، مسوطاً بلحمه ودمه . عناية عظمى ونعمة كبرى وحكمة باهرة لا يحيط بها الوصف ولا يأتى عليها البيان .

لم تزل للأديان السيادة فى هذا الكون حتى فى أظلم عصوره وأوحش ظلماته ، حقاً كانت أم باطلة ، صحيحة وقعت أم فاسدة ، وكيف كان أو يكون فإننا نجد فى دلالة العقل وبرهنة الحقيقة . أن العناية لا تزال مصروفة الى صالح هذا الخلق ، الضعيف القوى ، العاجز القادر ، الجهول العالم ، الملك الكريم ، الوحش البهيم .

ما فتأت تلك العناية التى أبرزته من خزانة الخفاء وكتم العدم ، تعمل فى تدبيره وتسعى فى صالحه ، فترسل اليه من ملكوتها وخاصة رجالاتها والمتخرجة على روح تعاليمها ، سفرة بررة بأيديها صحف مطهرة ، من كل طبيب دوار بطبه ، خبير بحزبه ، مسيطر على قومه نطاسى بدائهم وأدوائهم ، واقف على كامن عللهم وخفيات دخائلهم وغور مهالكهم ، مكين من سبر أعماق جروحهم وطيات جوارحهم ، قد أحضر مراهمه وأحمى مواسمه ، عرف

المرض والمزاج فهيأ العـــدة والعلاج ، وجعل نفسه وقفاً على تلك الغاية ورهناً لذلك الغرض .

كل ناظر فى جوهريات الأديان نظرة مجردة ، مفتكر فى أصولها بفكرة سليمة ، يجدها على اختلافها وتشعباتها ترمى الى غاية واحدة ومقصد فذ ، يجدها وإن تباعدت متقاربة ، ويعلم أنها وإن اختلفت متفقة متصالحة على تنازعها متلائمة على تنافرها .

لا أريد أن أعيد عليك ما أفصحت عنه الصحف ، ونشرته لك الكتب ، وأنبأت به الباحثون والمنقبون والجهابذة المصلحون ، من أن غاية الشرايع والقصد الجوهوى من الأديان ، ما هو إلا بث الفضيلة وكسح الرذيلة والتحفظ على حياة هذه الروح الإلهية المودعة هى فيك كما هى مودعة فى أخيك .

أزيدك بياناً أن هذه النفحة الإلهيـــة التى أنت بها حى ، بل أنت بهـــا إنسان ليست هى وحدها وديعـة الله عندك وأمانته لديك ، بل هى سواء وروح أخيك التى هى شعبة من دوحك وشظية من لوحك وسلالة من ينبوعك وفصيلة من قطيعك . فهما جوهرتان فى يدك وأنت بهما مطالب وعنهما معاً مسئوول .

ليس الغرض من الأديان والشرايع إلا سعادة هذه الأرواح وصونها من أن تزهق ظلماً أو أن توسع هضما أو تبقى سادرة هاملة تعيسة جاهلة محرومة من كرامة العلم وشرف المعرفة ، بل لتعيش سعيدة وتحيا حياة كريمة وتنتقل الى عيش أهنى ومقام أسنى كما لا تزال تنتقل بها العناية من عالم الى خير منه ومن مكان إلى أفسح منه ، من العدم الى الوجود ، من الصلب الى الرحم ، من الرحم الى هذا الفضاء الفسيح والكون الوسيع وعساهـا تنتقل

الى ماهو أوسع منه وأهنى وأسمى وأسنى .

ما الأديان والشرايع إلا وسائل وذرايع لتهذيب البشر من الشر وطبعهم على الخير ، وأن يعيش الانسان مع أخيه الانسان بالسلم والموادعة والحسن والمجاملة ، وإن تنوعت جلدتهم واختلفت منازعهم ، فان قضت لهم البواعث والدواعي دعوة أحدهم غيره إلى ما هو عليه مما يعتقده صوابا ويراه لنفسه ولغيره صلاحاً ، فليكن دعاؤه عن خالص نصيحة وشفقة صحيحة ودافع حنان ورحمة ، قولا ليناً وبشراً بيناً ومجادلة (كما أمر الله) بالتى هى أحسن . وبالجملة أعود ثانياً فأقول ما قلته أولا :

الدين بعد معرفة صانعك وما أراد بك ومنك . هو أن ترى كل روح هى روحك ولكن فى غير جسدك فاعمل لروحك ما تحب أو دَع .

ولو أردت أن أجرى فى هذه الحلبة لأتيت من كل دين وشريعة بشاهد أو شواهد على أن هذا هو جوهرها المجرد وحقيقتها الضائعة وضالتها المنشودة وغايتها المقصودة ، والذى لا توعز إلا اليه ولا تدل إلا عليه ، لوفيت واستوفيت وانكفئت وما استكفيت ، ولكن لا أريد أن أطيل عليك بما هو جلى لديك إن لم تكن محيطاً بكله فما أحطت به منه مقنع لك ودليل على ماسواه . وإنما أريد أن أقف معك على ضفاف هذا المنهل الرائق والمورد العذب الفائق .

من أن الدين هو الراحة الكبرى والنعمة العظمى وأعظم لوازم الإنسانية وأهم ما يجب للطباع البشرية .

إن الدين سياج العمران وحصن الحياة ومعقل الأمم وإن الحياة لا تطيب لأحد إلا به ، ولو قبض السموات بيمينه والأرض بشماله ، لما أغناه ذلك عن الدين شيئاً وإن قبض على الدين فقد قبض على راحة الأبد

وسعادة النشأتين ، ولو كان فى أنياب الفقر و بين لهوات البلاء .

الدين هو النظام الوحيد للمجتمع الانسانى وهو الكافل لسعادة البشر. ولو تمسك كل فرد بالدين لارتفعت المشاجرات واعتدل الناس . فالدين يوحد صفوف الملأ ، ويقوم المعوج .

الدين يأمر بالعدل والإحسان . « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » .

الدين يأمر برد الأمانة الى أربابها « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » .

الدين يأمر الحكام أن يحكموا بالعدل ، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

الدين يأمر بالإتحاد . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

الدين ينهى عن التفرقة . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

الدين يأمر بالتعاون « تعاونوا على البر والتقوى » .

وهكذا يحسم الدين الجنايات ويكافح أقسام الاختلافات للأنظمة . فلو قطعت يد السارق « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . وقتل القاتل قصاصاً . « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » . وصلب المفسد « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا » . الى أمثال تلك الأحكام من المئات لانبثق العدل وظهرت الإلفة والمحبة والتعاون ، وكان للناس العيش الهنيء والسعادة الباهرة فى هذه النشأة مضافا الى الفوز والنجح والزلفى فى الدار الآخرة .

أضف الى ذلك أن للقوة والقانون تأثيرين عظيمين فى صيانة النظام ، ولكن فى العلن أما فى السر فلا يصان النظام ولا يحترم القانون إلا برادع

قلبي ، ولا يمثل هذا شيء كالدين .

بفيك التراب أيها القائل : « الدين أفيون الشعوب » (١) تلك قولة الرجل اليهودي - كارل ماركس - ودعاة الشيوعية في الشرق الاسلامي يرددونها وراءه يريدون تطبيقها كذلك على الاسلام . وهل ينخدع عاقل بمفترياته وأغاليطه ، فيتوهم أن الاسلام - وهو في قائمة الأديان - وعي مزور كما يدعيه بكل صلافة .

إن الاسلام أسمى من أن تناله عبقرية ماركس ومقلديه ، وإن تلفيقاتهم لهي أوهن من أن تمس الاديان الغابرة بسوء ، فضلا عن الاسلام (نظام الحياة الأبدي) .

فهل كان دين ابراهيم عليه السلام أفيونا يوم نهض بجمعه الزهيد يزلزل عرش طاغية زمانه نمرود ؟ وهل كان دين موسى عليه السلام أفيونا يوم هب بعبيد بني اسرائيل ليحررهم ، ويقوض بهم سلطان جبار عصره فرعون ؟

وهل كان دين عيسى أفيونا يوم نهض بمستوى قومه عن مهاوي الشره والحرص والتكالب والتناحر على الحطام ، الى قمة التعاون والمحبة والسلام ؟

ثم هل كان دين القرآن وشرع محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفيونا يوم استل من الجزيرة رجالا فجعلهم أبطالا بنى بهم للانسانية مجدها ، وأقام على أنقاض الجهل والوحشية ثقافتها وحضارتها ، وطار بهم حتى جعلهم يطأون أشمخ قلاع الظلم والاستعباد لأقوى أمبراطورية في العالم . ذلك كله في زمن لا يتجاوز ربع القرن ،

نحن لانطلب من أحد أن يجزم بما نقول قبل أن يتبين الحقيقة ، وإنما

(١) عن كتاب كارل ماركس تأليف هنري لوفافر ، ترجمة محمد عيناتي نشر دار صادر طبعة بيروت ١٩٥٩ ص ١٦ و ١٧ .

نريد منه أن لا يسرع الى الإنكار واتهام الناس فى عقيدتهم لمجرد عجزه عن ادراك الواقع ، وأن يقف موقفا حياديا لا يثبت ولا ينفى . وأن يحكم على ما يسمع بأنه خبر يحتمل الصدق والكذب حتى يأتيه اليقين .

إن العالم العاقل الذى يعلم أن ما خفى عنه أكثر مما اطلع عليه ، وأن ما يعرف ليس بشىء إذا قورن بعلم غيره ، وأن ما أنكره أو قصر عقله عن إدراكه ومعرفته هو أقوى وأوضح ثبوتاً من وجوده عند من هو أكبر منه عقلا وأعظم علماً وأوسع اطلاعاً وأكثر تجرداً وبعداً عن التقليد والمحاكاة .

فعلى الفاهم الخبير أن يفتش وينقب ويرجع الى الدين فى منابعه الأولى ويدرس كتبه المقدسة لتتجلى له الحقائق ويتضح له الصواب .

إن الدين هو التحفة السماوية لأهل الأرض الذين يحبون أن يحيوا عليها ، ويريدون أن يعيشوا عيشة فيها العزة والكرامة ، عيشة فيها الرضا والسعادة ، عيشة لم يساورها قلق ولم يطف بها طائف من البؤس والشقاء .

فالأمة التى تفقد الكرامة لا يكون لها وجود محترم ولا كيان مرموق ولا صولة ترهب .

الأمة التى يدب فيها القلق والريب تكثر فيها الإنقلابات وتندلع فيها الثورات وتتفجر فيها البراكين .

الأمة التى تعانى البؤس والشقاء وتتغذى بالجوع والفقر ، فهى للموت أقرب منها للحياة وللعدم أقرب منها للوجود .

جاء الدين لينقذ الانسان الذى يريد أن يحيى حياة فيها خصائص ، ويريد أن يخلد بكل ما للخلود من معنى رفيع ،

ومن الغريب أن يقال إن الدين يسير معاكساً للحياة بل يسير ويأخذ بيد الانسان فى مجاهل الحياة ومتاهاتها ، ليبلغه السعادة التى يظمأ الى ريها .

وغريبة الغرائب ما يدور على ألسنة بعض النشء من الشبيبة اليوم :

إن الدين لم يعلمنا شيئاً من الكيمياء والفيزياء ، ولم يقدّم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكي وغير ذلك . وإن المكتشفين والمخترعين ، (كنيوتن) و (هرتز) و (أديسون) و (دالامبر) ، قدموا الى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ، ووسعوا أفق العلم ، وفتحوا أذهان الناس ، وسخروا الطبيعة ، فأفادوا بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم ، فأي اكتشاف قدمه أحد الأنبياء ، وأي ماكنة إخترعها أحد الأوصياء فيصغر فى أنظارهم الأنبياء (سلام الله عليهم أجمعين) ، فيصغر الدين فيرونه فارغاً خالياً من كل مادة مفيدة ، فيعدونه زخرفاً ، أو بلاءاً مانعاً عن التقدم .

يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ، فاذا ذكر أحد الأنبياء سخروا وتبسموا تبسم ازدراء وتوهين . كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيمياوية ودساتير فيزياوية ، أو معادلات تفاضلية ، أو دستور الكسوف فى الفلك العالى ، أو معادلات الحركة فى الميكانيك الرياضى ! . .

ما قيمة المخترعات تجاه ما أحدثه الأنبياء من خوارق العادة وقواهر الطبيعة . فان المخترعات التى جاء بها المخترعون تقع بمطاوعة جواهر الطبيعة والمماشاة معها فى كل حين ، ولهذا تحتاج الى استخدام المواد الطبيعية والاستعانة بالسنن الكونية بعد الامتحان والتجربة والاختبار الطويل ، ولأجل ذلك تجيء فى مبادئها ضعيفة جداً ، ثم تتدرج مترقية بأسباب طول التجارب والاختبار الى أن تصل الى درجة الكمال . بخلاف ما جاء به الأنبياء من المعجز المدهش المحير للعقول .

« ونضرب لك مثلا بضياء الشجرة لموسى عليه السلام وضياء الكهرباء . فان فى خلق الله النور من جانب الطور ـ الذى هو جبل حجرى مظلم بطبعه ، ومن

شأنه الكثافة والظلمة ـ حتى أصبح أضوء من الكهرباء بدون تفكير ولا إمهال ولا إختبار وتجربة ، بل مع الإشارة (بكن) والإرادة السريعة . فأتت تلك الأحجار ، وتلك الشجرة بنتيجة أعظمما أنتجه الكهرباء الصناعى الذى تعاونت الأفكار والعقول والأيدى الصانعة والأكف العاملة عليه ، وتعاضدت التجارب والإختبارات عليه . وتلك النتيجة الكاملة فى سرعة لمح الطرف قد تخيلها الكليم موسى ﷺ ناراً لشدة توقدها ولمعانها وتلألأ ضياءها وسناءها ، حتى أوهمته النار المعتادة ذات الإحراق المعدة للإصطلاء والإقتباس فلما دنا منها وقاربها ظهر له أنها أنوار ربانية وأشعة إلهية أفاضها على تلك الأرجاء واخترعها من تلك الأحجار المظلمة ، وانها ليست بجذوة يصطلى فيها ، بل هى لمعة يهتدى بها ، فهى أنوار للإرشاد لا نيران للوقود « نودى أن بورك من فى النار ومن حولها » ليست بذات وهج حاد ولا شواظ حار . وآية ذلك وبرهانه نضار الشجرة المتوقدة فيها النار .

وبرهان ثانى وآية أخرى : إلقاء وشعاع من أشعة تلك الأضواء ولمعة من لمعات تلك الأنوار القيت على يده اللحمانية فلم يجد لها مس النار الطبيعية ، ولا احتراق لهبها الساطع « فأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » وحيث لم تضر تلك الأشعة والأنوار ، ولم تفعل ما تفعله الكهرباء الخانقة للنفوس ، المذهبة للأرواح التى تزهقها بأدنى مماسة ، ثبت أنها إفاضة ملكوتية وقدرة إلهية قهرت طبيعة الجرم المظلم فأضاء وأنار وأشرق على الأمكنة والبقاع مسافة بعيدة المدى بلا سلك ولا عمود ولا محرك ولا مولد لأنها صنعة « كن فيكون » .

والأشعة الكهربائية والأنوار الصناعية لايشك عاقل أنها مأخوذة من أحجار صقيلة شفافة وجواهر مشعة ذات قوة كهربائية ، وبالتلطيف والإستخدام

الشاق والكلفة العظيمة ، وبعد التفكير الطويل وإعمال العقل وإجهاد النفس والتجربة والإختبار ، وتحملها العناء فى التطبيق فى كيفية توليد القوة الكهربائية ومدى تأثير تيارها وإيصالها بواسطة أسلاك وأدوات الإشعاع (اللنبلات) وحياتها متوقفة توقفاً ذاتياً على الموجب والسالب ، أو الجاذب والدافع ، وما يسمونه الحار والبارد ، فلو اختل هذا الشرط فسد أصل العمل ، ولو اختلف ترتيبه أيضاً يفسد وسائر الشروط ، فان اتصال الاسلاك أيضاً شرط فلو لم يتصل فلا قوة ، كما ان اللنبلة عدمها يفقد معها الضياء . هذا شيء يعرفه اليوم سائر الناس .

ونور طور سيناء الخارج من شجرة خضراء لم تولده ماكينة ولا آلة ، وسرى فى أرجاء تلك البقعة بلا سلك ولا أنبوب ولا لنبلة ولا سالب فيه ولا موجب ، ولم يحرق يد موسى كما يحرق الكهرباء لامسها ، ولم يموت سلك الكهرباء من مسه . وهكذا جاءت معجزات نبينا محمد ﷺ كإظهار النور على سوط الطفيل الدوسى وكفه ، وعلى جبين آخر من أصحابه فلقب بذى النور ، وأمثال ذلك . وكل هذه المعاجز لم تستخدم الطبيعة ولم تستعن بالنواميس بل جاءت قاهرة لها .

وإذا قست الأعجوبة الاخرى : إلقاء الكلام على الشجرة فى خطاب موسى « إنى أنا الله فاخلع نعليك » ، « وما تلك بيمينك » هذا كلام يخرج من شجرة خرساء من طبيعتها عدم النطق ولو بألف علاج لا تنطق ، ولو تعاونت البشرية من أدناها الى أقصاها ومن غابرها الى حاضرها أن يجعلوا من شجرة نطقاً مفهوماً وكلاماً متميزاً بجوهره عن سائر الكلام ما استطاعوا ولا قدروا لانهم عاجزون عن قهر الطبيعة ، وأقصى ما تصل اليه قدرتهم التمشى مع الطبيعة فى التلطيف والمطاوعة لها فى التنقيح .

وقد اعترف الفلاسفة أن للكلام شروطاً لا يمكن أن تكون بدونها أجل إن الفلاسفة درسوا طبائع الأشياء فوجدوا فيها خواصاً ، وعرفوا بالعلم جواهراً أصيلة استنتجوا منها أنها إذا استخدمت وانظم بعضها الى بعض بتأليف خاص حدثت منها أشياء تبهر العقول ، ويستفاد منها إيصال الكلام البعيد ، فاستخدموها بعد تجاوب واختبار زمناً طويلا لاقوا بسببه كل عناء وتحملوا فى سبيله كل صعوبة ، ولم يتمكنوا من إحداث الكلام وانشاء الاصوات إلا مع الإستعانة بالآليات الطبيعية . وتكليم الشجرة لموسى عليه السلام وايجاد الكلام فيها لم يكن بآلة ولا وسيلة ، كما يحصل فى التلفون والراديو ، فانها تؤديه بلفظ نطق الناطق . فالتلفون تجذبه الآلة وتؤديه الى آلة أخرى بواسطة السلك . والراديو تجذبه الموجات الأثيرية بواسطة الآلتين فى محطة الاذاعة ومركز الإبلاغ ، والكل مفتقر الى السالب والموجب . وما فى الفوتوغراف من كلام محفوظ فى الاسطوانة . فبواسطة قوة جوهرية . فالقوة الجوهرية والسلكية والاثيرية والآليات ، هذه كلها صنائع مستخدمة . وقد كانت موجات الهواء تقذف بالاصوات الى أمد بعيد ، وهو المسمى بالصدى .

وليس فى تكليم موسى موجة أثيرية ، ولا سلك ، ولا ابرة مغناطيسية ولا اسطوانة ، ولا كل شيء صناعي فهي قاهرة للطبيعة لا سائرة معها »(١) .

« وقد اخترع سليمان عليه السلام قبة من زجاج يدخل فيها المتخاصمان ، فالمحق ترى صورته بيضاء لماعة والمبطل ترى صورته سوداء مظلمة . وجاء آدم بالمرآة التي يرى فيها من هو بأقصى العالم . فان آدم لما تكاثر ولده وانتشروا على الارض وبعدوا عنه ، فكان يشتاق الى رؤية أحدهم فلا يمكنه الوصول اليه فشكى ذلك الى الله فنزل عليه جبرئيل بمرآة ، فكان بعد ذلك إذا اشتاق الى

---

(١) عن كتاب بطل العلقمي .

رؤية أحدهم يأتى الى المرآت فينظر فيها فيراه على حالته التى هو فيها ولو كان فى أقصى العالم وجاء أحدهم بالأجانة التى كانت عند الإسكندر يحملها الجيش معه فى الحروب فكان الجيش يأكل منها ولا ينقص ما فيها ، على كثرة جيش الإسكندر الذى كان يغطى عين الشمس . وجاء أحدهم بقبة من البلور فإذا شك رجل بزوجته السوء فإذا كانت زانية يأتى إلى تلك القبة فيرى فيها صورة زوجته مع الزانى مرتسمه هناك إلى كثير من أمثال ذلك » (١) ويكفى فى التدليل على ذلك بساط سليمان وعروج النبى محمد ﷺ الى السماء .

ومن جهة ثانية ان هؤلاء المعترضين على الأنبياء عليهم السلام فاتهم « أن الإنسان مركب من نفس وبدن ، فكما أن للبدن أمراضاً وحاجيات كذلك للنفس أمراض وحاجيات . وان حاجيات البدن ترجع الى قوانين ثابتة مستقرة يصل اليها الإنسان بالاختبار والتجربة والمشاهدة عاجلا وآجلا ـ فإن الخاصية المودعة من قبل الله تعالى فى الأجسام ثابتة لا تتغير بل يظفر بها الانسان عن طريق الفحص والتتبع ، والتجربة والصدفة .

فالمخترع كما ذكرنا ـ لا يأتى بشىء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله فى هذا الكون بتجارب ومحاكمات ، وعقل منحه الله تعالى إياه ، ولولا العقل والمحاكمات والاستنتاج والاستقراء لما قوى على ذلك .

وبالعقل يمتاز الانسان على الحيوان ، وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة .

هل يستطيع مخترع أن يأتى بخاصية غير ما أودعه الله فى الأجسام . كلا فالاختراعات أمور مادية ثابتة لا تغير فيها يصل اليها الانسان باختباراته ولاحاجة إلى نبى يملى على الناس الدساتير الفيزياوية والكيمياوية . والدليل على

---

(١) عن كتاب نزهة الخاطر للمؤلف .

ذلك وصول الانسان بنفسه الى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه . ولا يعلم هل تقدم الانسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحياً وأخلاقياً أم تقهقر ؟ وهل إستفادت الانسانية وقطعت بذلك أشواطاً فى الكمال النفسي والسمو الاخلاقى أم لا ؟ .

فالأنبياء (سلام الله عليهم أجمعين) بعثوا لاصلاح النفس وتهذيب الروح لأن الانسان إنسان بنفسه ، انسان بروحه ، وإن أمراض الروح أعقد من أمراض البدن ، وإن معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن . وإن وصفات الأطباء تعالج الأبدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط ، وكان التشخيص صحيحاً . إلا أن الوصفات الروحية تؤثر فى كل نفس حسب قابلية تلك النفس ، فهى مشتبكة مرتبكة .

إئتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالملاريا ، فإنهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلا أو آجلا ولكن لو أعطى لنفس هؤلاء الثلاثة دساتير روحية وطبقوها لايصلون إلى نفس النتيجة ، وكل يصل الى غير ما وصل اليه الآخر لوعورة أمر النفس وصعوبته ، وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول .

الأنبياء (عليهم السلام) بعثوا ليعالجوا ما لا يصل الانسان بنفسه الى طريق معالجته ، بعثوا ليعالجوا أمراض النفس .

بعثوا ليقرروا دساتير روحية بها يتكامل الانسان ويخرج من دور الطفولة والبهيمية الوحشية ، فيكون انساناً كاملا بل أعلى من الإنسان .

بعثوا ليحرروا النفس الانسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولؤم .

بعثوا ليقرروا الآداب التى لو عمل بها الانسان كان جديراً بأن يخلد فى (جنة عرضها السموات والارض) .

بعثوا ليعلمونا الحرام والحلال وذلك ان النفس الإنسانية تتردى وتتدنس بالحرام، وتزكوا وتطهر بالحلال.

بعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع. بعثوا ليبينوا للانسان ماله وما عليه ليحاسب نفسه ويقف عند حده.

فالأنبياء يخاطبون النفس، لأن هدفهم تكامل النفس. وما جاء فى تعاليمهم (صلوات الله عليهم) مما يتعلق بالبدن من المأكل والمشرب إنما هو من باب اللطف، أو لأن لذلك أثراً حسناً فى تكامل النفس.

وقد بلغنى أن شاباً يفاضل بين سياسى فتح الأمصار وبين نبى هدى الناس سواء السبيل، فى حين أن ذلك السياسى لم يعمل إلا فى تعمير المعدة والأمعاء. والنبى يعمل فى تعمير النفوس والأرواح، وما قيمة عمران تفسد فيه الروح.

الأنبياء بعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التى بها كمال الروح والسعادة الأبدية، ولكى يكونوا قدوة صالحة.

ان بعض الأنبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم ما به يدفع الشر ويجلب الخير. فان داود عليه السلام علم الناس صنعة الدروع لتقيهم بأس العدو وان ادريس علم الناس فن العمران والابداع فى هندسة البناء. وان النبى محمد(ص) سئل عن مسائل عدة فى فنون مختلفه لا علاقة لها بالدين فأجاب عنها بوحى من الله دونما تفكير. وإن علياً عليه السلام سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل فى الفيزياء والفلك والحيوان والنبات عجز عنها الناس فحلها بصورة مرتجلة. وان الامام الصادق عليه السلام أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفى خمسمائة رسالة فى ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية.

وكان الكيمياويون من قبله ـ كخالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥ ـ يروون عن على عليه السلام موازين الصناعة.

فالنبي على ما نعتقد هو أعلم أهل زمانه ، حتى فى علوم لا تمت الى الدين بصلة ، تمييزاً له عن سائر الناس وتفضيلا له عليهم .

فمن أراد الحياة الأبدية ، حياة رفيعة متصلة بالكمال الأبدى ، حياة ليس فيها خوف ولا حزن ، حياة فوق حدود التصور والخيال ، فليعمد الى تطبيق تعاليم الدين ليرى كيف يتجلى يوماً بعد يوم ، وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائراً الى أوج الملكوت « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

(١) التكامل فى الاسلام .

حضارة عادلة عفيفة

وحضارة جائرة مستهترة

تريدون أن نحجر أفكارنا ومشاعرنا ، فنقف عند أوضاع لم تعد اليوم مقبولة ولا منطبقة مع الحياة الجديدة ، وتقاليد وضعت لأجيال غير هذه الأجيال ، واستنفدت أغراضها ، وأصبحت اليوم رجعية تعوق التقدم وقيداً يعوق الإنطلاق ؟

أما تزالون تصرون على تحريم الربا ، وهو ضرورة إقتصادية لا غنى عنها فى العالم الحديث ؟ وتصرون على جمع الزكاة وتوزيعها فى محل جبايتها ، وهى بدائية لا تتفق مع نظام الدول الحديثة ؟ فضلا عن أنها تشعر الفقراء من أهل القرية أو المدينة أن فلاناً من الأثرياء ، هو الذى يحسن اليهم ، فيظلون أذلاء له خاضعين لسلطانه ؟

وتصرون على تحريم الخمر والميسر . والإختلاط بين الجنسين ، والرقص المشترك ، واتخاذ الخليلات والخلان ، وذلك كله ضرورة اجتماعية فى العصر الحديث لا يمكن الإستغناء عنها ولا وقفها ، لأنها ـ تطور ـ لا بد أن يأخذ طريقه ؟

أف لكم . أية رجعية تنادون بها أيها المسلمون !

* * *

وهذا الذى يقولونه صحيح من جانب ، وخطأ ومغالطة من جانب آخر.

صحيح أن الاسلام يحرم الربا ، ولكن ليس صحيحاً أن الربا ضرورة اقتصادية ، وفى العالم اليوم نظريتان اقتصاديتان لا تقومان على الربا هما : النظرية الاسلامية ، والنظرية الشيوعية ، على اختلاف ما بينهما فى الأصل والإتجاه .

كل المسألة أن الشيوعية قد وجدت القوة التى تنفذ بها نظامها واقتصادياتها ، والاسلام لم يجمع قوته بعد ، ولكنه فى طريقه الى القوة . وهو صائر اليها بحكم طبائع الأشياء ، وبحكم جميع الدلالات الكامنة فى الصراع القائم اليوم فى مختلف بلاد العالم ، وهى دلالات توحى كلها ببعث اسلامى جديد .

وحين يحكم الاسلام فسوف يقيم اقتصادياته على غير الربا ، فلا تعجزه ضرورة اقتصادية كما أقامت الشيوعية نظامها على غير الربا ، فلم تعجزها هذه الضرورة الوهمية .

ليس الربا إذن ضرورة لامناص منها للعالم الحديث ، وإنما هو ضرورة فقط فى العالم الرأسمالى ، لأن الرأسمالية لا يمكن أن تقوم بدونه . ومع ذلك فكبار الاقتصاديين فى الغرب الرأسمالى من أمثال الدكتور ـ شاخت ـ يندددون بنظام الربا ، ويقولون : إن نتيجته الحتمية على الأجيال هى تركز الثروة فى أيدى فئة قليلة من الناس ، وحرمان المجموع منها رويداً رويداً ، ووقوع الملايين ـ تبعاً لذلك ـ فى العبودية لهذه الفئة الصغيرة المالكة للثروة .

ونحن نرى مصداق ذلك فى الرأسمالية الحالية بغير حاجة الى تعمق فى دراسة الاقتصاد .

وقد كان من معجزات النظام الاسلامى أنه حرم الربا - والإحتكار - وهما دعامتا الرأسمالية ، قبل ظهور الرأسمالية بما يقرب من ألف عام ، لأن الله الذى وضع هذا الدين يرى الأجيال كلها فى وقت واحد ويعلم - وهو العليم الخبير - ما يؤدى اليه الربا من كوارث فى عالم الاقتصاد ، فضلا عما يثيره بين طوائف الأمة من الإحن والأحقاد . إذ هو القوة الهدامة فى المجتمع الانسانى ، ومن أهم الأسباب التى تسبب الفساد والخلل فى الحياة المعنوية والمادية . ومن ثم لا يكاد كل من أوتى نصيباً من العقل يتردد فى الإعتراف بوجوب تحريمه ، وأنه ليس بشىء معقول ، ولا يقتضيه العدل ، ولايحتاج اليه الانسان فى اقتصادياته . إلا أن حرمته لا تقوم على هذه الأسباب السلبية فحسب ، بل السبب الحقيقى فيها أن الربا شىء ضار قطعاً ، وأن مضرته بالانسانية شديدة جديدة جداً من وجوه إيجابية عديدة ، نستعرض جملة منها حتى لا يبقى عند كل ذى عقل مجال للريب فى حرمة هذا الشىء الخبيث .

(مضار الربا من الناحية الأخلاقية والروحية)

علينا أن نتناول هذا البحث أولا من الناحية الاخلاقية والروحية ، فان الاخلاق والروح هما جوهر الانسانية وملاك أمرها فكل شىء إذا كان يضرنا فى صميم هذا الجوهر ، جدير بالرفض ولا يصلح لأن نأخذ به أبداً ولو كانت

فيه منافع كثيرة من أى ناحية أخرى . فاذا نظرنا فى الربا وجزأناه تجزئة نفسية تبين لنا لأول وهلة أن الربا لا يبدأ فيه العمل الذهنى كله — من رغبة الانسان فى جمع المال الى مختلف مراحل حياته الاقتصادية — إلا منطبعاً بتأثير الأثرة والبخل وضيق الصدر ، وتحجر القلب والعبودية للمال والتكالب على المادة وما اليها من الصفات الرذيلة الاخرى ، ثم لا ينفك يجرى هذا العمل تحت تأثير مثل هذه الصفات ويؤصلها فى الانسان على قدر ما يتقدم ويقطع من مراحل النجاح فى تجارته الربوية . ولكن — بالعكس من ذلك — إذا نظرت فى الشؤون المالية القائمة على الزكاة والصدقات ، وجدت العمل الذهنى كله — منذ أن ينوى الانسان أداء الزكاة والصدقة الى أن يؤديهما فعلا لا يحصل إلا منطبعاً بصفات الكرم والسخاء والإيثار والمواساة والمناصحة وسعة القلب ورحابة الصدر وعلو الهمة وما اليها من الصفات الشريفة الاخرى. ثم لا تزال تنشأ وتتأصل هذه الصفات فى الانسان ما سلك هذا الطريق فى حياته وهل فى الدنيا رجل لا يشهد له قلبه أن الأولى من هاتين المجموعتين شر مجموعة للصفات الخلقية ، وأن الأخرى خيرها .

(مضار الربا من الناحية المدنية والإجتماعية)

وعلينا أن ننظر الآن فى هذه المسألة من الناحية المدنية والاجتماعية .

لا يكاد يختلف إثنان فى أن المجتمع الذى يتعامل أفراده فيما بينهم بالأثرة ، ولا يساعد فيه أحد غيره ، إلا أن يرجو منه فائدة — راجعة

على نفسه ، ويكون فيه عز أحد ما وضيقه وفقره فرصة يغتنمها غيره للتمول والإستثمار ، وتكون مصلحة الطبقات الغنية الموسرة فيه مناقضة لمصلحة الطبقات المعدمة . لا يمكن أن يقوم ويظل قائماً مثل هذا المجتمع على قواعد محكمة أبداً ، ولابد أن تبقى أجزاؤه مائلة الى التفكك والتشتت فى كل حين من الأحيان .

ثم إذا عاونت على هذه الوضعية الأسباب الأخرى أيضاً ، لا تلبث هذه الأجزاء تتحارب وتتشابك فيما بينها . ولكن بالعكس من ذلك ، إن المجتمع الذى يقوم بناؤه على التعاون والتناصح والتكافل ، ويتعامل أعضاؤه فيما بينهم بالكرم والسخاء . ولا يكاد يحس فيه أحد ، أن أحداً من إخوانه فى حاجة الى مساعدته ، إلا سارع الى الأخذ بيده ، وعامل فيه الأغنياء إخوانهم الفقراء بالإعانة متطوعين ، أو بالتعاون العادل على الأقل ، لابد أن تنشأ وتنمو صعداً عواطف التحاب والتناصح والتناصر فى قلوب أفراد مثل هذا المجتمع ، وتبقى أجزاؤه متكافلة متساندة فيما بينها . ولا تتطرق اليه عوامل التنازع والتصادم الداخلى أبداً ، وأن يكون أسرع كذلك الى الرقى والكمال والإزدهار من المجتمع الأول .

وقس على ذلك ما تتصل به مختلف أمم الأرض وشعوبها من العلائق الدولية فيما بينها ، فانه من المستحيل إذا عاملت أمة أمة مجاورة لها بالعطف والكرم وسعة القلب والمواساة كلما نزلت بها نازلة من الدهر ، أن تلقى منها الجواب على برها بها بشيء غير الشكر والحب والإخلاص .

ولكن إذا عاملت هذه الأمة جاراتها بالأثرة والقسوة وضيق القلب ، واستغلت مصائبها وشدائدها ، فقد تنال بذلك منفعة مادية كبيرة بصورة المال ولكن لا يمكن بحال أن يبقى لها فى قلب جاراتها شيء من عواطف الحب

والصداقة والإخلاص .

وهل أتاك حديث إنكلترا ؟ إذ طلبت من أميركا بعد الحرب العـالمية الأخيرة أن تعقد معها اتفاقية دَين كبير يعرف باتفاقية « برتين وود » وبيان ذلك : أن إنكلترا كانت تريد من أميركا - وقد كانت حليفتها فى الحرب - أن تمن عليها بالقرض بدون شيء من الربا ، ولـكن أميركا ما رضيت بذلك وأبت أن تقرضها إلا بالربا ، واضطرت إنكلترا - لمشاكلها العديدة - أن ترضى كرهاً بأداء الربا .

وأما الأثر الذى تركه ذلك فى الشعب الإنكليزى فلك أن تعرف مداه من الـكتابات والخطب التى نفثتها أقلام الساسة والصحفيين الـكبار من الإنكليز فى ذلك الزمن . فان مما قاله اللورد (كينز) الراحل وهو يلقى خطبته فى دار الشيوخ بعد رجوعه من أميركا ، بعد عقد هذه الاتفاقية باعتباره ممثلا للشعب الانكليزى فيها : « لا أستطيع أن أنسى أبد الدهر ذلك الحزن الشديد والألم المرير الذى قد لحق بى من معاملة أميركا إيانا فى هذه الاتفاقية ، فانهـا أبت أن تقرضنا شيئاً إلا بالربا » .

وكان مما قاله المستر (تشرشل) وهو ممن لا يخفى حبهم لأميركا وميلهم اليها : « إنى لأتوجس خلال هذا السلوك العجيب المبنى على الأثرة وحب المـال الذى عاملتنا به أميركا ، ضروباً من الأخطار . والحق أن هـــذه الاتفاقية قد تركت أثراً سيئاً جداً فيما بيننا وبين أميركا من العلاقة » .

وقال الدكتور (دالتى) وزير المـالية فى ذلك الزمن ، وهو يعرض هذه الاتفاقية على البرلمان لنيل مصادقته عليها : « إن هذا العبء الثقيل الذى نخرج به من الحرب وهو على ظهورنا ، جائزة عجيبة جداً نلناها على ما عانينا فى هذه الحرب من الشدائد والمشاق والتضحيات لأجل الغاية المشتركة ، وندع

للمؤرخين فى المستقبل أن يروا رأيهم فى هذه الجائزة الفذة فى نوعها ، التمسنا من أميركا أن تقرضنا قرضاً حسناً . ولكنها قالت لنا جواباً على هذا : ما هذه بسياسة عملية » .

فهذا هو الأثر الفطرى للربا وما يعقبه من رد الفعل النفسى الذى لا بد أن يظهر على كل حال ، سواء أتعاملت به الأمم أو الأفراد فيما بينهم . ما كان أهل انكلترا ليعترفوا ـ ولا هم يعترفون اليوم ـ بأن المراباة شىء مستقبح فى المعاملات الشخصية ، وإذا أردت أن تستقرض من رجل منهم بدون الربا ، ضحك منك ورماك بالسفه قائلا : « ليس هذا من طرق التجارة العملية » . ولكن لما لقيت بلاده من أمة صديقة لها معاملة (طريق التجارة العملى) صاح ورفع صوته بالعويل وشهد أمام الدنيا أن الربا شىء يشق القلوب ، ويسيء الى ما بين الناس من الروابط والعلائق .

لذلك ترى القرآن قد نهى عن كثير من المنكرات ، وشدد الوعيد فى بعضها ، ولكن الكلمات التى جاء بها لإعلان حرمة الربا أشد وآكد من الكلمات التى أوردها للنهى عن سائر المنكرات والمعاصى . ومن ثم أيضاً قد أكد النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهى عن مزاولة الربا ، وسعى سعياً متصلا فى القضاء عليه فى الدولة الاسلامية المثالية .

قال صلى الله عليه وآله : « الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه » . ولعن صلى الله عليه وآله « الربا وآكله وبايعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه » . ويعتبر أمير المؤمنين على عليه السلام « آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه فى الوزر سواء » . وينص صادق أهل البيت عليه السلام « على أن الربا أشد عقوبة من الزنا فى المحارم » .

وليست هذه الأحكام تطالب بالقضاء على نوع خاص من الربا

ـ أى ربا المرابين ـ وتدع باب سائر أنواعه مفتوحاً على مصراعيه ، بل الذى ترمى اليه هذه الاحكام فى حقيقة الأمر أن تستأصل شأفة أخلاق الرأسمالية ، وعقلية الرأسمالية ، ونظام الرأسمالية ، استئصالا كلياً ، وتقيم مكانها نظاماً يكون فيه الكرم مكان البخل ، والمواساة والتكافل مكان الأثرة وحب الذات ، والزكاة مكان الربا ، حتى لا يفضى الأمر الى تولد حالات يحس الناس لمقاومتها حاجتهم الى إقامة منظمات التعاون الاجتماعى ، وشركات التأمين والأموال الاحتياطية ـ أخيراً ـ الى اللجوء الى نظام الشيوعية غير الفطرى .

فليس إذن إلا من حماقتنا ـ أنفسنا ـ وضعفنا وسوء طالعنا أن قد انتثر عقد الاسلام ، وتبدد نظامه للأخلاق والاجتماع والاقتصاد ، واستولت علينا الرأسمالية بويلاتها ، ولم تعد فينا مؤسسة أو منظمة تعنى بجمع أموال الزكاة وإنفاقها فى طرقها الصحيحة .

* * *

أما الزكاة فهى حق للفقراء يؤديه المكلف الغنى بتكليف من الله واضع التشريع .

ولكن الشبهة هنا هى محلية الزكاة ـ أى توزيعها فى مكان جبايتها ـ .

ويضحك الانسان من بلاهة (المثقفين) حين يرون النظام الواحد يأتى من الغرب (المتحضر) فيفتحون أفواههم عجباً وإعجاباً بآخر (تطورات) الحضارة . والنظام ذاته يأتى من طريق الاسلام فيكون رمز التأخر والانحطاط والجمود !

آخر تطورات النظام الإدارى فى أميركا هو اللا مركزية الكاملة . فالقرية وحدة اقتصادية وسياسية واجتماعية مستقلة فى حدود ترابطها بالمدينة وبالولاية ، ثم بالحكومة المركزية للولايات المتحدة . وهى هذه الوحدة

المستقلة تجبي الضرائب التي يفرضها المجلس القروي بنسب معينة ، ثم تنفق في ذات القرية . في شؤون تعليمها وصحتها ووسائل مواصلاتها وخدماتها الإجتماعية .. فاذا فضلت منها فضلة أرسلتها (للحكومة) المدينة أو الولاية . أما إذا احتاجت فهي تستمد من هناك . وهو نظام جميل في ذاته لأنه يوزع العمل ولا يثقل به كاهل الحكومة المركزية ، التي لا يمكن أن تعرف حاجات الوحدات الصغيرة أو تقوم بها ، كما يعرفها ويقوم بها أهلها المحليون . والمثقفون هنا يهللون لهذا النظام ويكبرون ...

والإسلام المتأخر قد اهتدى الى هذا النظام قبل ألف وما يقرب من أربعمائة عام . فجعل جباية الضرائب محلية ، وجعل صرفها محلياً كذلك ، فاذا فضلت منها فضلة أرسلت الى بيت المال العام ، وإذا قصرت أخذ لها من بيت المال .

هذا هو المبدأ الذي قرره الاسلام لحسن توزيع العمل وإقامة اللا مركزية في نظام الحكم .

وهو الذي يندد به المثقفون ، لأنه تأخر وانحطاط !

وإذا كان في رغبة القارىء أن يقف على فلسفة مشروعية الزكاة وأهميتها الإجتماعية فليرجع الى مبحث الزكاة من هذه الحلقة .

فاذا طبقنا الإسلام في المجتمع الحاضر ، فلن نصنع أكثر من إقامة وحدات صغيرة تقوم بشؤون نفسها في حدود ارتباطها بمراكزها الإقليمية ، وبالدولة . وبالعالم الإسلامي ، وبالعالم الواسع كله في نهاية المطاف . ونكون بذلك تقدميين سابقين في التطور لكل أمم الأرض التي تعجب المثقفين .

* * *

وأما الخمر والميسر والإختلاط بين الجنسين فحقيقة يحرمها الاسلام ،

ويصر على تحريمها مهما ندد به التقدميون والتقدميات !

والجدل فى أمرها قد يطول . ولكننا نأخذ المسألة من أقرب طريق .

ويكفى من أمر الخمر أن تقوم فى فرنسا الداعرة التى لا تفيق .. إمرأة - نائبة فى البرلمان - تطالب بتحريم الخمر !! يكفى ذلك للرد على المخمورين والمخمورات فى عصر المدنية الحديثة !

ولست أجد فى نفسى فى الواقع احتراماً للخمر . ولكنى أعلم أنها انعكاس مجتمع مريض أو فرد مريض .

فالمجتمع الذى تشتد فيه فوارق الطبقات فتعيش طبقة فى الترف الفاجر الذى يبلد الحس فيحتاج الى منشطات صناعية ، وطبقة فى الحرمان الكافر الذى يحتاج الى مغيبات يهرب بها الانسان من الواقع السىء الذى يعيش فيه . والمجتمع الذى يحجر مشاعره الصراع على لقمة العيش أو يضفى عليه الكآبة طنين الآلات المزعج المكرر الوتيرة ، والجلسة الطويلة المملة على المكاتب وراء الجدران .

هذا المجتمع يلجأ للخمر وغيرها من المخدرات ليخلق لنفسه فى الأحلام عالماً آخر خالياً من الشقاء . ولكن هذا كله لا يبرر وجودها .

إن وجودها دليل على المرض . وحين حرّم الاسلام الخمر لم يسقط من حسابه (المبررات) التى تدفع اليها ، بل عمل على إزالة هذه المبررات أولا ، ثم قرر تحريمها بعد ذلك .

فلتتعلم المدنية الحديثة من الاسلام كيف يعالج أمراض النفوس بالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى والفكرى والروحى والجسدى . . . قبل أن تفتح فمها بانتقاد الاسلام .

والميسر لا يرضى عنه أحد إلا الفارغون والفارغات من التافهين ، فانه

يبطل فى أيسر زمان مسعاة الانسان التى صرفها فى اقتناء المال والثروة والوجاهة فى أزمنة طويلة فيذهب به المال ، وربما تبعه العرض والنفس والجاه ، فان تقمّر وغلب وأحرز المال أداه ذلك الى إبطال السير المعتدل فى الحياة ، والتوسع فى الملاهى والفجور ، والكسل والتبطؤ عن الاشتغال بالمكسب واقتناء مواد الحياة من طرقها المشروعة . وإن كان هو المغلوب أداه فقدان المال وخيبة السعى الى العداوة والبغضاء لقميره الغالب ، والحسرة والحنق .

وهذه المفاسد وإن كانت لا تظهر للأذهان الساذجة البسيطة ذاك الظهور فى النادر القليل والمرة والمرتين ، لكن النادر يدعو الى الغالب ، والقليل يهدى الى الكثير ، والمرة تجر الى المرات ، ولا تلبث إن لم تمنع من رأس أن تشيع فى الملأ ، وتسرى الى المجتمع فتعود بلوى همجية لا حكومة فيها إلا للعواطف الطاغية والأهواء المردية . ولا نحتاج الى إطالة الحديث .

* * *

أما الذى يثور بشأنه الجدل فهو مسألة الاختلاط .

يقولون : الى متى سنظل متأخرين ؟ الى متى سنقف فى سبيل المدنية والتقدم ؟!

« فلتحيي » إذن مدنية فرنسا ! هناك يقف العاشقان فى الطريق العام متعانقين متشابكين ، مستغرقين فى قبلة عميقة لذيذة ، فلا يكدر صفوهما الانطاع من دعاة الفضيلة ، ويقف عسكر البوليس يحميهما من حركة المرور أن تزعجهما قبل الانتهاء من هذه المدنية الفنية الجميلة التى يهتف بها المتجددون ، والويل كل الويل لمن ينظر اليهما نظرة استنكار ، فانه يبوء وحده بالازدراء والاحتقار !

« فلتحيي » كذلك مدنية أميركا ! القوم هناك صرحاء مع أنفسهم لا يداورون ولا ينافقون . عرفوا أن الجنس ضرورة (بيولوجية) فاعترفوا بالضرورة

ويسروا سبلها ، ومنحوها رعاية المجتمع واهتمامه . فلكل فتى صديقة ، ولكل فتاة صديق ، يخرجان معاً ويدخلان معاً ، ويتنزهان معاً نزهات خلوية يقضيان فيها الضرورة ، ويتخلصان من ثقلها على الجسم والنفس والأعصاب فينطلقان فى الغداة نشيطين مقبلين على عملهما بالبشر والانشراح فينتجان، وينجحان وتتقدم الأمة كلها الى الأمام .

وفرنسا هى التى خرجت راكعة ذليلة عند أول ضربة وجهها اليها الألمان لا لنقص معداتها واستعدادها الحربى فقط . ولكن لأنها أمة لا كرامة لها تذود عنها . أمة عرفت فى الشهوات الهابطة ، واستغرقها المتاع الجنسى ، فخافت على عمائر باريس الفاخرة ، ومراقصها الفاجرة أن تحطمها القنابل ، ويدمرها القتال .

فهل هذا هو الذى يدعونا اليه المثقفون ؟ أم أنهم قوم مخدوعون ، يقولون ما لا يفقهون ؟ !

وأميركا التى تحايل المغفلين فى الشرق . أجرى إحصاء فى إحدى المدن هناك فظهر أن ٣٨ ./. من فتيات المدارس الثانوية حبالى ! وتقل النسبة بين طالبات الجامعة لأنهن أكثر تجربة وأخبر باستخدام موانع الحمل ! .

فهل هذا ما يدعو اليه المثقفون ؟ أم أنهم قوم مخدوعون ، يقولون ما لا يفقهون ؟

يقول الاستاذ (الحومانى) فى كتابه (دين وتمدين) ج ٢ :

« أذكر ، وأنا فى أمريكا ، شكالى بعض أبنائنا المهاجرين من تصرف زوجته الامريكية وأنها تتركه أحياناً مع أولاده منها وتستجيب لدعوة صديق عدة أيام فى نزهة خارج البلدة التى يقطنها ولما عاتبتها محاولا أن أقص عليها حقوق الزوج أبت أن تفهم أبداً كيف يسوغ له مرافقة صديقه والنزهة

معه ، ثم لا يسوغ لها هى أن ترافق صديقها وتتنزه معه ، أليست هى إنساناً مثله ؟ .

ولقد عذرتها أن لا تفهم ، لأن طراز الحياة فى قومها هو هذا التحرر فللمرأة أن تستجيب لأى شاب يطلبها للرقص فى مسارح اللهو ولو وضع بطنه على بطنها وضغط بصدره صدرها وكلاهما يفوح منه العطر ، ثم لا يرون فى ذلك حرجاً لأن الرقص عندهم من الفنون الجميلة وكيف يكون الجميل قبيحاً ؟؟ ويحق للمرأة أن تستقبل صديقها فى بيت زوجها وتنصرف اليه فتخلو به فى قاعة الإستقبال ، بينما يقوم زوجها بعملها فى المطبخ أو فى غرفة الأطفال ، ثم لا ترى ولا يرى أحد معها فى ذلك شيئاً من الخرق لنظام المجتمع ، فليس عليها حق لزوجها إلا أن تضاجعه فقط وأن لا تضاجع غيره ، ومن لهذا الزوج المسكين بإثبات ذلك وهى فى نزهتها مع صديقها حيث لا يعلم إلا الله مكان تلك النزهة ؟؟

ومن أخلاق هذا العصر السباحة المختلطة ، فلقد شهدت ذلك ورأيت المرأة بين الرجال مجردة من كل ما يستر جسدها ما عدا عضواً واحداً لو كان جميلا لما سترته .

ويقول أيضاً: إن أحد المهاجرين العرب فى أمريكا نقل لى : « أنه كان إذ هاجر اليها مغرماً بالنساء حتى مرّ ببعض الشوارع فرأى إمرأة من شباكها المفتوح تستسلم لكلبها على السرير دون أن تحسب للجماهير التى تمر بهذا الشباك المفتوح ، ودون أن ينكر عليها من المارة أحد هذا الإجرام الخلقى زعماً منهم أن الحرية للفرد مقدسة فى نظر المدنية الى هذا الحد » .

فهل هذا ما يدعو اليه المثقفون اليوم ؟ أم أنهم قوم مخدوعون ، يقولون ما لا يفقهون ؟

إن التخلص من ثقلة الجنس على الأعصاب هدف صحيح ، والاسلام يوليه عنايته ، لأنه يعلم - قبل أن يكتشف الأمريكان ذلك - أن اشتغال المحرومين بمسائل الجنس يعطلهم عن قدر من الإنتاج ، ويحبسهم فى ميدان الضرووة فلا يرتفعون إلا ريثما يعودون فيهبطون .

ولكن الهدف الصحيح ينبغى أن تتخذ له الوسائل الصحيحة . وتلويث المجتمع كله وإطلاق فتيانه وفتياته كالبهائم ينزو بعضهم على بعض ليس هو الطريق الصحيح . ولا يرضاه الاسلام لأنه يدعو الى العز والكرامة .

يريد الاسلام أن يطهر جو المجتمع و بيئته من كل مغريات الفحشاء والمنكر

يريد أن يرفع المرأة الى مستوى رفيع لا مثيل له فى حضارة من حضارات العالم .

وهؤلاء الذين ينتقدون الاسلام ، ينتقدونه لا عن فهم وإيمان ، وإنما هو مجرد شهوة فى التهجم عليه !

هذه نظرة خاطفة عجلاء ، فلنتبسط فى موضوع المرأة قليلا ، ونسمح لكل ذى حس وشعور حى أن يخوض معنا .

إن بين مقاصد الاسلام ، ومقاصد الحضارة الغربية - كما ذكرنا غير مرة - لبوناً بعيداً وفرقاً شاسعاً جداً ، ومخطىء بين الخطأ من يريد أن يفسر أحكام الاسلام بوجهة نظر الغرب ، ذلك بأن ما عند الغرب من المقياس لأقدار الأشياء وقيمها ، يختلف عنه مقياس الاسلام كل الاختلاف . فالذى يكبره الغرب ويعده غاية الحياة الانسانية ، هو فى عين الاسلام من التوافه والهنات . وإن ما يهتم به الاسلام ويعظم شأنه هو عند الغرب من سقط المتاع . لذلك كل من قال بصحة المقياس الغربى فلابد أن يرى جميع مافى الاسلام واجب الترميم والإصلاح . وإذا مضى يفسر أحكام الاسلام

ويشرحها . جاء بها محرفة عن معانيها ، ثم لم يوفق فى تطبيقها على الحياة العملية حتى فى صورتها المحرفة ، لما يعترض سبيله الى ذلك من أحكام القرآن ونصوص السنة البينة . فحرى بمثل هذا الرجل ، قبل أن ينظر فى جزئيات المناهج العملية ، أن يتأمل المقاصد التى قد اتخذت للوصول اليها تلك المناهج ، وينظر هل هى صالحة للقبول أم لا . وإن هو لم يكن يوافق تلك المقاصد نفسها فأى غناء يغنيه البحث فى المناهج التى تختار لتحقيق تلك المقاصد ؟ ولماذا يكلف نفسه مسخ تلك المناهج وتحريفها ؟ أليس من الأجدر به والأصلح له أن يهجر الدين الذى يخطىء مقاصده ؟ وأما إذا كان يتفق مع تلك المقاصد ، فلا يبقى البحث بعد ذلك إلا فيما يتخذ لتحقيقها من المناهج ، هل هى صحيحة أم لا ؟ وهذا البحث يمكن طيه بكل سهولة ، ولكن هذه الطريقة لا يتبعها إلا ذوو المروءة والكرم ، وهم قليلون ! وأما المنافقون الذين هم بطبيعتهم أخبث ما خلق الله فى هذا الكون ، فلا يجدر بهم إلا أن يدعوا إيمانهم بشىء ويؤمنوا فى الحقيقة بشىء آخر .

ولكن ـ وا أسفاه ـ .

إذا كان هناك من هو جدير بأن يأخذ بيد الإنسانية الحائرة بين طرفى الإفراط والتفريط ، ويهديها سواء السبيل ، فهو المسلم وحده الذى عنده مفاتيح جميع معضلات الحياة الإجتماعية .

ولكن من سوء نصيب الانسانية أن الذى كان بيده المصباح المنير فى هذا الظلام الحالك ، أصيب هو نفسه بالغشاوة فجعل يخبط فى سيره خبط عشواء . وبدل أن يهدى غيره من خلق الله ما زال ـ ولايزال ـ يمشى وراء كل معتسف ، ويتبع كل ناعق .

إن جملة الأحكام الخاصة بالمرأة فى الشريعة الإسلامية ، ـ والتى

يقولون عنها إنها أخرت المرأة عن سير الرقى فى الحضارة والمدنية ـ هى فى الحقيقة مشتملة على أهم أجزاء قانون الإجتماع الاسلامى ، فاذا وضعت هذه الأحكام موضعها الصحيح فى نظام ذلك القانون بكامله ، ثم تأملها أحد فيه أثارة من البصيرة الفطرية السليمة . لم يلبث أن يعترف بأنها الصورة الوحيدة الممكنة التى تضمن القصد والإعتدال فى الحياة الإجتماعية ، وأن هذه المجموعة من الأحكام إن عرضت على العالم منفذة فى الحياة العملية بروحها الحقيقية الصحيحة ، لهرولت الدنيا المنكوبة الى هذا المنبع للسلام ، تلتمس فيه الدواء لأدوائها الإجتماعية ، بدل أن تنفر منه أو تطغى عليه . ولكن من لك بهذا الأمر ؟ فإن الذى كان حرياً به لا يزال هو نفسه صريع المرض منذ زمان .

هل تستطيع معى أن تلقى نظرة على تاريخ الإجتماع الانسانى ـ وكله شاهد ـ بأن وجود المرأة فى هذه الدنيا كان عنوان الذلة والخزى والإثم . فكان من العار والهجنة للأب أن تولد له بنت . وكانت قرابات الختن تعد من القرابات الساقطة الرذلة حتى عند الهنود لا تزال كلمتا (الحمو) و (الختن) تستعملان الى هذا اليوم بمعانى الشتم والسب ، تبعاً لذلك التصور الجاهلى . وراج عند بعض طوائف العرب وأد البنات تفادياً من هذا العار .

وقد ظل العلماء وزعماء الديانات ـ دع الجهلاء ـ يبحثون ويناقشون على طول القرون ، فى أن المرأة هل هى إنسان أو غير إنسان ؟ وهل قد حباها الله روحاً أم لا ؟ وكانت الديانة الهندوكية قد سدت أبواب التعليم على المرأة . والديانة البوذية لم يكن فيها سبيل للنجاة لمن اتصل بإمرأة . وأما النصرانية واليهودية ، فكانت المرأة هى مصدر الإثم ومرجعه فيهما . وكذلك اليونان لم يكن لذات الخدر عندهم علم ولا حضارة ولا ثقافة ولا حقوق مدنية وكانت المرأة التى تتمتع بكل ذلك فى المجتمع هى المومسة ليس غير . وعلى

مثله كانت الحال فى الروم وفارس والصين ومصر وما عداها من مراكز الحضارة الإنسانية . فكانت العبودية والمحكومية والمقت العام الذى كان قد لازم المرأة على طول القرون ، قد محا من نفسها الشعور بالكرامة وعز النفس . فكانت هى بنفسها قد نسيت أن لها فى هذه الدنيا حقاً تستحقه أو مكانة إجتماعية لها أن تتمتع بها ، بل كان الرجل يعد من حقه أن يظلم المرأة ، وهى تعد من واجبها أن تصبر على ظلمه . وكان قد ركز فى نفسها من شعور العبودية ما يجعلها تفتخر بأن تدعو نفسها أمة لزوجها ، وتؤمن بأن الزوج معبوداً لها وإلهاً .

فالذى جاء وأحدث فى هذه الأوضاع إنقلاباً عظيماً ، لا من الجهة القانونية والعملية فحسب ، بل من الجهة الفكرية أيضاً ، هو الدين الإسلامى الحنيف ، فهو الذى أصلح من عقلية الصنفين - الرجل والمرأة - كليهما . ثم هو الذى بعث فى الذهن الانسانى تصور عز المرأة وكرامتها وحقوقها . فكل ما تسمع به اليوم من كلمات : حقوق المرأة وتعليم الأناث ونهضة النساء هو دوى لصدى الاسلام الانقلابى الذى صدع به النبى محمد ﷺ والذى بدّل من مجرى الفكر الانسانى للأبد .

فهذا النبى هو الذى علم الدنيا أن المرأة انسان كالرجل . « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وأنه لا فرق بين المرأة والرجل عند الله تعالى « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » ، وأن درجات الإرتقاء الروحى التى يستطيع أن ينالها الرجل بالإيمان والعمل الصالح هى ميسورة للمرأة أيضاً . وإذا كان الرجل يستطيع أن يرتقى الى مقام (ميثم التمار) فلا شىء يمنع المرأة أيضاً من أن تبلغ فى الكمال الروحى مبلغ (أم سلمه) ، « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر

أو أنثى ، بعضكم من بعض » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » .

ثم أن محمداً ﷺ هو الذى نبـه الرجل ، وفى الوقت نفسه أشعر المرأة بأن للمرأة على الرجل مثل ما للرجل على المرأة . « ولهنّ مثل الذى عليهن » .

وهو الذى أنهض المرأة من قرار الذلة والعار ، ورفعها الى مقام العز وهو الذى آذن الوالد بأن وجود الإبنة فى بيتك ليس بعار أو مخزاة لك ، بل أنت إذا ربيتها وعرفت لها حقها ، استحققت الجنة . فقـال ﷺ : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا وضم أصابعه » ، « ومن ابتلى من البنات بشىء فأحسن اليهن ، كنّ له ستراً من النار » .

وكذلك هو الذى علم الزوج أن الزوجة الصالحة أكبر نعم الله عليك فى هذه الدنيا . « خير متاع الدنيا المرأة الصالحة » ، « حبب إلىّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، « ليس من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة » .

ثم هو الذى وصى الإبن بأن أحق خلق الله بإكرامه وتعظيمه وحسن معاملته بعد الله والرسول هو أمه . « سأل رجل : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » ، « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات » .

وأيضاً هذا النبى ﷺ هو الذى بيّن للإنسان ان شدة العواطف ورقة الإحساس والنزوع الى التطرف ، كل ذلك من فطرة المرأة التى قد فطرهـا الله عليها . وليس ذلك بعار للأنوثة بل هو ميزتها وجمالها . وكل ما يمكن

أن تصيبه منها من نفع، فلست بمصيبه إلا بأن تدعها على فطرتها تلك. وإذا حاولت أن تجعلها صلبة مستقيمة كالرجل كسرتها. «المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها».

وكذلك فإن محمداً ﷺ هو المصلح الأول - وفى الحقيقة المصلح الآخر - الذى بدل من عقلية الرجل، بل من عقلية المرأة نفسها، بالنسبة للمرأة. وبعث فيهم مكان عقليتهم الجاهلية عقلية معتدلة صحيحة لا تصدر عن العواطف بل تقوم على العلم والعقل المحض. ثم انه ﷺ لم يكتف بالاصلاح الداخلى بل مهد الأسباب للمحافظة على حقوق المرأة، ومنع عدوان الرجال عليهن بقوة القانون. وأحدث فيهن من الوعى ما يعرفن به حقوقهن الشرعية ويستعن بالقانون على الحفاظ عليها.

وفى ذات النبى ﷺ كانت النساء قد وجدن لأنفسهن نصيراً مشفقاً، وملجأ، كن يشكين اليه أدنى اعتداء الرجال عليهن بلاحرج. وكان أزواجهن يحذرون أن يبدر منهم اليهن ما يشكينه الى النبى، وقد روى عن ابن عمر قال: «كنا نتقى الكلام والانبساط الى نسائنا على عهد النبى ﷺ هيبة أن ينزل فينا شىء. فلما توفى النبى ﷺ تكلمنا وانبسطنا». وقد ورد أن النبى ﷺ كان قد أمر أن لاتضربوا إماء الله. فجاء عمر الى النبى وقال: يا رسول الله قد ذئرت النساء على أزواجهن. فرخص النبى فى ضربهن. وكان الرجال طالما كظموا الغيظ فى أنفسهم، فضربت ذلك اليوم سبعون امرأة فى بيوتهن. فلما كان الغد ازدحمت النساء على باب النبى، فدعا الناس فخطب: «لقد طاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة، كل امرأة تشتكى زوجها، فلا تجدون أولئك خياركم».

هذا الاصلاح الخلقى والقانونى هو الذى نالت المرأة بفضله فى المجتمع

الاسلامى مكانة سامية يخلو من نظيرها كل مجتمع آخر فى هذا العالم .

فالمرأة المسلمه ميسورلها أن تسمو فى النواحى المادية والعقلية والروحية الىأعلى مدارج العز والرقى ، التى يستطيع أن يبلغها الرجل فى الدين والدنيا . وليس كونها إمرأة ليحول بينها وبين تبوئها أى مرتبة من مراتب الشرف . وإن الدنيا تتخلف وراء الاسلام فى هذا الأمر ، حتى فىهذا القرن العشرين. ولم يرتق الفكر الانسانى بعد الى ما ارتقى اليه الاسلام ، فكل ما قد أعطاه الغرب للمرأة لم يعطه إياها من حيث هى امرأة ، بل أعطاها كل ذلك بعد أن جردها من الطبع الأنثوى ، وصيرها رجلا أو شبه رجل . أما المرأة بذاتها ، فلا تزال فى عينه خلقاً مهيناً فى الحقيقة ، شأنها فى عصور الجاهلية الأولى . فليس لربة البيت وزوجة الرجل وأم الأولاد ، ـ وبكلمة أخرى ـ ليس للمرأة الباقية على طبيعتها وحقيقتها من عز أو شرف عنده حتى فى هذا الزمان . وإنما الشرف والكرامة كلها لذلك ـ الرجل ـ المؤنث الذى يكون فى بنية جسده إمرأة ، وفى وضعية عقله وفكره رجلا ، ويعمل للتمدن والإجتماع عمل الرجال . فبديهى أنه ليس ذلك منهم تكريماً للأنوثة ، بل هو تكريم للرجولة .

ومنالبرهان الواضحعلى شعور المرأة النفسى فى الغرب بنقصها وتخلفها أنها تلبس لباس الرجال بكل فخر على حين لا يخطر ببال أحد من الرجال أن يخرج من بيته فى لباس المرأة .

ومن السبة والعار عند ملايين من النساء أن تكون إحداهن زوجاً ، بينما لا يخجل رجل من كونه زوجاً ، وإن النساء يهتززن بممارسة أعمال الرجال ولا يهتز أحد من الرجال بأعمال نسوية خالصة كتدبير المنزل وتربية الأطفال .

لذلك من الحق الذى لا يمكن أن يرد ، أو يكابر فيه ، أن الغرب لم يكرم المرأة من حيث هى امرأة . وليس غير الاسلام هو الذى قد أكرمها وعظم شأنها ، واضعاً إياها موضعها الفطرى ، ورفع بذلك مقام الأنوثة بالمعنى الصحيح .

فالتمدن الاسلامى يضع كلا الصنفين موضعه الطبيعى - الرجل موضع الرجل ، والمرأة مكان المرأة - ويستخدمه للأعمال التى قد أعدته الفطرة لها . ثم يهيىء له فرص العز والرقى والنجاح على حد سواء واضعاً إياه فى مكانه . وذلك أن الذكورة والأنوثة عند الاسلام من الأجزاء اللازمة للإنسانية ، وسواء أهميتها لتعمير التمدن . وكلما يؤديان من الخدمات فى دائرته ، هو مفيد للتمدن على السواء ، وجدير بالتقدير نفسه . ولا فضيلة للذكورة ، ولا ذل فى الأنوثة . وكما أن عز الرجل ورقيه ونجاحه هو فى أن يبقى على رجوليته ويقوم بواجبات الرجال ، كذلك عز المرأة ورقيها ونجاحها ، فى أن تظل إمرأة وتؤدى واجبات النساء .

ومن شأن التمدن الصالح أن يضع المرأة فى دائرة عملها الطبيعى ثم يعطيها كل الحقوق ، ويكرمها ويعظم شأنها ويشحذ مواهبها الكامنة بالتربية والتعليم ، ويفتح أمامها سبل الرقى والنجاح فى دائرة عملها تلك .

هذه بعض الخواطر والإنطباعات مقتبسة من الشريعة الاسلامية السمحاء سائرة على ضوئها ، رسمناها فى (الجواهر الروحية) فى فترة من الحياة ، لعل الله ينفع بها ويهدى .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

التصويب

ص	س	خ	ص
١٠	١٦	ليسخترجوا	ليستخرجوا
١٦	٥	المجدية	المجدبة
٣٧	٢	فهما	فهمها
٤٠	٦	الى	إلا
٤٩	٤	عظة	عظمة
٨٣	٤	عل	عسل
٩٦	١١	براحتها	برائحتها
١١٤	٥	البشر	الشر
١٢٠	٢	كرهه	كرهه
١٦٠	٩	بأيمكن	بأن يمكن
١٩٨	٧	عليهموا	عليهم
٢٣١	١٢	تفقوا	تفوقوا
٢٣٢	٩	الحد	الحدود
٢٣٧	١٧	وحرب	وحزب
٢٤٣	١٣	قطعها	أقطعها
٢٥٤	٧	خندق	خندف
٢٥٩	١١	للقائل	للقاتل
٣١١	٢٠	وتوطت	وتوطدت
٤٠٠	٤	اشتبك	اشترك
٤٠١	٨	عن الأمر	عن المنكر
٤١٧	٢٠	يمعنه	يمنعه
٤٢٦	١١	الصرعة	السرعة
٤٦٤	٢١	وهى	وفي

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع		الصفحة